

المشروع القومي للترجمة

عندما جاء السَّرْدَيْنُ قصص الجنوب الإفريقي

ترجمة : سامية دياب

إلى روجى أبى وأمى ..
الغائبين الأكثر حضوراً فى حياتى الآن ..

للصديقة "ماتيلدا مالى" . .
أحبينا هذا الكتاب معا ،
وراجعته بصبر
فوجب لها منى كل الشكر .

المحتويات

11	 مقدمة
23	 ١ - أصل الموت
25	 ٢ - اليمامة وابن أوى
35	 ٣ - ملك المياه
53	 ٤ - البنت المزعجة
57	 ٥ - قصبة الصغير
63	 ٦ - مذكرات "هينى"
93	 ٧ - "چوكاتونج" والجاموس البرى
95	 ٨ - خارج الزمن
125	 ٩ - وردة المرأة
131	 ١٠ - المعلم
143	 ١١ - "أوتا سام و بابا نويل"
155	 ١٢ - الدخيل
179	 ١٣ - طفل السحاب
185	 ١٤ - عندما جاء السردين
203	 ١٥ - موت "ماسابا"
209	 ١٦ - المستوحش
219	 ١٧ - عودة "سيبوليلو" للبيت
241	 ١٨ - مرة فى القرن

253	 ١٩ - خارج النافورة
279	 ٢٠ - "إيكاترينا"
297	 ٢١ - "التيس"
315	 ٢٢ - حساء للمريضة
321	 ٢٣ - جفاف
327	 ٢٤ - ولد
333	 ٢٥ - المقعد
345	 ٢٦ - السيدة "بلام"
401	 ٢٧ - العشاق
425	 ٢٨ - المنفى
453	 ٢٩ - ابن عمى يأتى إلى "جو- برج"
467	 ٣٠ - أختان
477	 ٣١ - علاقة غريبة
499	 ٣٢ - الطريق إلى "مايجواي"
507	 ٣٣ - الوقع البطيء لقدميه
513	 ٣٤ - سطوع الشمس بشارع "تريينوند"
525	 ٣٥ - دكان الجزار
541	 ٣٦ - موعد مع النصر
557	 ٣٧ - لبن
565	 ٣٨ - غزاة الفضاء

مقدمة

هذه المجموعة هي المحاولة الأولى على نطاق واسع للمقارنة المنظمة بين آداب الجنوب الإفريقي المتنوعة ، وذلك حتى يمكن ترتيبها ضمن الخبرات العامة ، توضح صفحة المحتويات أنه لا يوجد تقسيم يضع أدب منطقة الجنوب الإفريقي المكتوب باللغة الإنجليزية في جانب ، والأدب المكتوب باللغة الإفريقية في جانب آخر ، وترك أدب الأهالي السود في قرئته النائية الخاصة ، ولأنى لم أتبع هنا التقسيمات التقليدية انطلقت من فرضية أن هذه الآداب أجزاء متكاملة داخل منظومة أكثر اتساعاً يمكنها أن تشمل التقاليد السائدة للأدب ذاته - وبهذه الطريقة سوف يتضح ما فى آداب شبه القارة من امتداد وتداخل .

ولعلها المرة الأولى أيضاً التى يوضع فيها أدب منطقة جغرافية واسعة أكثر مما يفعله محررو المجموعات الأدبية الذين يتجهون إلى نوع واحد أو آخر من آداب الجنوب الإفريقي ، فى السابق كانت بؤرة الاختيار إما ضيقة جداً مثل " أدب الزولو " ، أو واسعة جداً مثل " الأدب الجديد باللغة الإنجليزية فى إفريقيا " ، أو أدب متمركز حول الموضوع ، مثل " أدب التمييز العنصرى " أو يجرى تصنيفه بطريقة مدرسية مثل " أدب الاحتجاج الأسود " ، كل هذه التصنيفات التى جمع فيها المؤرخون مناطق من الأدب كثيرة لم تصمد أمام النقد ، ولم تكن كافية بحد ذاتها

أو متفردة ، إذن فنحن هنا إزاء محاولة جديدة لإزاحة الحدود إلى أقصى مدى حتى نصل إلى الواقع القائم ، هذا يعنى بلغة الجغرافية الحديثة ، أن هذا التقسيم يشمل كلاً من : جمهورية جنوب إفريقيا و "ليسوتو" ، "بوتسوانا" ، "سوازيلاند" ، "وناميبيا" ، "وزيمبابوى" ، و "مالوى" - وفى رأى أن هذه البلدان يمكن وصفها بأنها منطقة أدبية واحدة ، والتى - من خلال التبادل التجارى لزمن طويل عبر التاريخ ، ومن خلال تطبيقاتها فى النشر والتعليم - امتلكت خصائص مشتركة تجاوزت الاختلافات والتقسيمات التقليدية ، فلنسم هذه المنطقة إذن " الجنوب الإفريقى " ، وأعنى بذلك حقلاً أدبياً ، وليس مجموعة من الدول القومية الحالية .

أزاحت الحدود أيضاً إلى الوراء فسيما يتعلق بالزمن ، ومن الموضوعات التى تستحق النقد ؛ ما يثار عن عمر الأدب فى الجنوب الإفريقى ؛ لأنه كما يذهب مؤرخو الأدب ، ينظر إلى أوروبا عادة على أنها الأقدم والمخضرمة فى الإبداع الأدبى ، وينظر إلى إفريقيا على أنها المراهقة غير الناضجة ، ولكن الأمر ليس كذلك حتى فى النظرة المحلية الإفريقية ، فإذا كان "الأنثروبولوجيون" يقولون لنا : إن إفريقيا هى مهد الجنس البشرى ، وفى منطقة "الترانسفال" نشأت أول لغة تكلم بها الإنسان ، فإن معيار الزمن الذى يتمسك به "توماس برينجل" و "أندرو جيد بن" - بوصفهما أبوين مؤسسين للأدب فى سنوات العشرينيات من القرن التاسع عشر - يتعامل مع الثوانى الأخيرة فى يوم يمتد طويلاً فى عمق الزمن البشرى ، وعلى الرغم من أن القصة الأولى فى هذه المجموعة لم تدون على ورق إلا فى ستينيات القرن التاسع عشر ، إلا أنها ترجع حقيقة إلى ما قبل الميلاد على أقل تقدير ، هذا

النص الذى يصف مقدم الفناء بين البشر هو بداية مناسبة لهذا الأدب، إذ إنه يحمل الإجلال ذاته الذى يكون لأى نص غربى مقدس ، على الأقل هذا ما اكتشفه كتابنا .

هذا الجنوب الإفريقى الهائل من حيث الزمان والمكان يتصادف أنه الآن تحت هيمنة جمهورية جنوب إفريقيا ، لكن ليس تحت سيطرتها المطلقة - كان ذات يوم يُسمى رأس الرجاء الصالح ، ويوماً ما بالتأكيد سوف يُسمى "آزانيا" - ومن الصعب الآن التغاضى عن حقيقة أن جنوب إفريقيا هى التى تجمع فى آن واحد بين كونها العملاق الصناعى فى المنطقة ، والمنتك الأكبر لحقوق الإنسان* ، هذه الحالة الازدواجية التى لا انفصال بين ركنيها ، هى التى يدور حولها الأدب أولاً وأخيراً ، ولا يتجنب أية من قضاياها ، وبناء على ذلك ، فإن الكثير من النقد الموجه إلى أدب الجنوب الإفريقى هو نقد يقط إلى هذين العاملين المتناقضين ، فالذى حدث أن النقد بيع بيعاً لا رجعة فيه لصالح رجال الأعمال فى مجال النشر والتوزيع ، أو تحول إلى نقد حزبى مباشر يضع النصوص فى حرب مستميتة حتى التحرير ، وليست هذه الأوضاع فى صالح الأدب أحياناً ، إن مزيداً من البحث والتعمق قد يجيب على أسئلة مثل : لماذا يجىء عمل معين على هذا النحو ، فى لحظة تاريخية معينة ؟ وكيف أن تتابع اللحظات يدخل فى نسق أدبى يشمل الماضى ، والحاضر، والمستقبل ؟

روعى هذا الخط فى تلك المجموعة ، مستنداً إلى شكل واحد فقط ، هو القصة النثرية *the story in prose* ، ولنسماها قصة "خيالية قصيرة" *short fiction* ؛ لأن الكثير من النصوص المقدمة هنا تختلف

* يشير الكاتب إلى فترة الحكم العنصرى فى جنوب إفريقيا .

جوهرياً عما اعتدنا تسميته أو وصفه بـ "القصة القصيرة" **short story** ، لعبت القصة الخيالية القصيرة - كنوع أدبي - دوراً أساسياً ولزمن طويل فى كل فروع الأدب فى الجنوب الإفريقى ، وهى تبدو مفيدة من نواحٍ كثيرة : فعلى مستوى الأدب الأصلى - أدب ما قبل الاتصال - خاصة أدب " خويسان " فيما قبل عام ١٨٠٠ ، عملت كأداة نقل للأساطير وحكايات الحيوان الخرافية ، إلى قلب أدب السود المكتوب بلغاته الأصلية ، وفى القرن التاسع عشر خاصة ، وعلى مستوى الأدب الكولونىالى الموجود فى نفس الفترة ، كانت أداة نقل للحكايات الخرافية والفولكلور الذى كتب باللغات الأوربية ، وأيضاً كانت أداة نقل للحكايات التى تحكى للسمر بجوار مواقد النار ، ولكى لا نستطرد حول هذه النقطة ، فإن الكثير من هذه الأنواع الشفاهية قد تم استيعابها فى شكل القصة القصيرة الحديثة المكتوبة فى القرن العشرين ، إن مصطلحات " الأسطورة " ، و " حكايات الحيوان الخرافية " ، و "الحكايات الخرافية" ، و " الفولكلور " ، و " الحكاية الشعبية " ، و " القصة القصيرة " ، ليست مصطلحات قطعية مانعة للتبادل فيما بينها ، وإذا كان لهذه المجموعة من فرضية فهو أن هذه الأنواع كلها تعد قصة خيالية قصيرة ، تعتمد على بعضها البعض وتتعايش جميعاً فى الجنوب الإفريقى ، وكل هذا متاح دائماً للكاتب لينهل منه كيفما شاء ، إذا كان النموذج المتطور للآداب الأخرى يفترض أن أحد أشكال القصة الخيالية القصيرة يتفوق على ما يليه . . وما يليه هذا ، ينمو فى اتجاه التركيب والتعقد الذى تحتويه عملية التطور ، فإن الأدب الجنوب إفريقى ليس به

هذا الفصل ، وليس به عمليات هيمنة تقليد ما ، مثل التي حدثت في القصة القصيرة في الأدب الإنجليزي أو الأمريكي اللذين أنتجا نماذج محددة تمثل اتجاهات أدبية ، هنا تمارس جميع أنواع القصة الخيالية القصيرة في نفس الوقت : من "جوهانسبرج" ، حيث يُمتدح نشر مجموعة من القصص القصيرة التقليدية باللغة الإنجليزية في مآدب الغداء ، وإن اتجهت شمالاً إلى "بريتوريا" - حيث يحدث نفس الشيء - لكن باللغة الأفريكانية ، أو إذا اتجهت إلى "مافكينج" حيث حكايات السمر حول مواقد النار ، أو إلى "أوكانانجو" حيث أساطير "الخويسان" ، وفي زيمبابوي حيث نجد لنقل : الحكايات الخرافية ، أو إلى "ترانسكي" حيث نجد لنقل : الفولكلور أن الأمر هنا لا يتعلق بأداب منفصلة متناثرة ومختلفة ، وإنما يتعلق بوحدة أدبية متكاملة وفعالة .

هناك الكثير من الأفكار ووجهات النظر التقليدية فيما يتعلق بأشكال القص القصير ، فمن الذي يستطيع القول بأن أحد هذه الأنواع أكثر صلاحية من النوع الآخر؟ ! يصر الكثير من الأدباء نوى الاتجاه القومى على وأد المجموعات الصغيرة بوضع كل منها داخل دولة أو أمة منفصلة أو متخيلة زاعمين أن لكل منها تفردا الأدبى بل إنهم يفصلون بين هذه المجموعات بحواجز اللغة وقيودها الراسخة ، ومن ثم فهناك أدب الـ "فيندا" ، وأدب "زيرونجا" ، وأدب "سوتو الشمالية" و "سوتو" الجنوبية ، وأدب "الشونا" ، والأدب الأفريكاني والإنجليزى والاثنتان فى سلة واحدة ، قد يكون هذا صحيحاً إثنوجرافياً ، لكن فى مجال الأدب ، فإن هذا يعنى سياسة فرق "تسد" ، كوسيلة لإضفاء

نوع من السمو على الأعمال المكتوبة باللغات الأوربية الأصل ، ونحن لا ينبغي علينا أن نؤكد على الترتيب الهرمي ، وإنما نؤكد على التداخل بين هذه الآداب .

ونتيجة التقارب والتماس بين مصادر اللغة ، فإن الجنوب الإفريقي قد قدم مستوى راقياً من الكتاب متعددى الثقافة ، وهى مسألة جدلية غير مسبوقة ، لكنها بديهية ؛ إذ نجح الأدب نفسه فى تحدى عمليات الفصل وإقامة الحدود ، ولم تكن النتيجة امتصاصاً وسيطرة ، وإنما استجابة وتحولاً ، فحتى الآن لم تنقرض أية ممارسة أدبية وإنما خضعت كل الآداب للتكيف ، تلك كانت بسمة ودينامية الأدب "عملية اندماج وامتزاج وتجدد تثمر معان جديدة" .

وإذا كان هناك تغيراً عاماً جرى خلال المائة والخمسين عاماً الماضية ، فهو الانتقال من الشفاهية Oracy إلى الكتابية Literacy ظهرت لغة الـ " زاهوسا " مطبوعة لأول مرة فى ١٨٢٣ ، وظهرت أول الأشعار باللغة الأفريكانية فى ستينيات القرن التاسع عشر ، فى مالوى نشر أول كتاب أدبى فى وقت متأخر جداً سنة ١٩٦٩ ، ثمة سمة هامة أخرى تميز أدب الجنوب إفريقي حتى اليوم ، وهى أن نسبة كبيرة من القصص تروى ولا تكتب ، وأن نسبة كبيرة من القصص القصيرة قد سجلها الأدباء المتعلمون ، بالطبع ، وهى تحمل سمات قصص مرحلة ما قبل الأدب المكتوب ، لا أفترض أن كل الكتاب المتعلمين من "الببيض" غالباً ، وأن الشخصيات والرواة غالباً من "السود" فى الأدب السابق على الكتابة ، ذلك لأن الشاهد فى العمل ليس فى صالح الاستقطاب السطحى البسيط ، لقد كانت معركة القراءة والكتابة تجرى على عدة

جبهات ، وظلت شبه القارة ، بعد خمسة قرون من الاحتلال على نفس الوضع ، وفى بعض المراكز التجارية بقى معظم السكان أميين ، كانت هذه حقيقة معترف بها لدى أساتذة مثل " سول ت. بلاتيه " فى قصة "جوكاتونج" ، وكذلك عند " هيرمان تشارلز بوزمان " فى قصة "الدخيل" إن فعالية النشاط الأدبى فى شكله الغربى التقليدى مازال قاصراً على النخبة ، وهو يرتبط بعدد قليل من القراء نسبياً ، وعلى ذلك فإن الانتقال من الشفاهى إلى المكتوب مازال موضوعنا الأساسى .

لكن كُتّاب هذا الأدب هم أنفسهم - فى اعتقادى - لم يظلوا قلة أو فى عداد النخبة ؛ "فبلاتيه" - على سبيل المثال - الذى كتب فى لغة "تسوانا" ، وبالإنجليزية ، والإفريكانية ، كان يرى أن ضمن مهامه الرسمية أن يكون وسيطاً ، فيقدم الأعمال الأدبية من تراث " البيض" ليعلم السود رموز أدب البيض ، وفى نفس الوقت يقدم أعمالاً من تراث السود ليعلم البيض رموز أدب السود ، ونجد أن "يوجين ن. مارييس" الذى كان ضليعاً فى اللغتين الإنجليزية والإفريكانية ، عندما صاغ حكايات "أوتا هندريك" الراوى الشامانى فى ١٩١٣ ، فقد أدرجها بذلك ضمن الأدب الإفريكاني ، وهكذا كان يقدم نصوص أطفال تجعل قراءه الجدد يرون أعمالاً مطبوعة وفى نفس الوقت يتعرفون على التاريخ الشفاهى ، واليوم نرى كاتباً مثل "إزكيا مفاليل" ، بقصصه الخرافية الساخرة المكتوبة بالإنجليزية ، نراه يقوم بنفس المهمة ، فهو يقدم لقراءه تقنيات العمل المكتوب ، وفى نفس الوقت يقترب من منابع الماضى السحيق ، وحتى قصة "نادين جورديمر" هنا تستخدم إحدى التقنيات الشفاهية ، وهى فى هذه الحالة تستخدم شكل الإشاعات .

فى هذه العملية كلها - وهى الحدث الرئيسى والمستمر فى شبه القارة - نجد أن الكاتب قد لعب دوراً حيويًا وبالغ الأهمية فى عملية تحول الخبرة الشفاهية إلى خبرة كتابية ، حيث يلتقى عالم الطباعة والكتب والتغليف بلغة البيئة ، تلك هى السمة الرئيسية لأعمال مختلفة مثل قصة " أ. س. جوردان " فى " ملك المياه " ، وعند " بولين سميث " فى " المعلم " ، وعند " د. ب. زنتولى " فى " مرة فى القرن " ، ولدى " بيسيه هيد " فى " العشاق " ، و" إلزا جوبيرت " فى " لبن " كل هذه القصص تميز الكاتب كناسخ وصائغ ومسجل للكلمة المنطوقة .

والترجمة أيضاً إحدى أهم السمات المميزة للأدب الجنوب إفريقى ، وفى بلاد تتزاحم فيها اللغات مثلما يتزاحم الناس فى الأسواق - وربما لا يحدث ذلك فى المجال الأكاديمى - فإن الكاتب يخسر الكثير إذا لم يكن قادراً على الانتقال من لغة إلى أخرى بشكل تلقائى وسريع . ويمكننى أن أقرر أنه لا يوجد بين الكتاب أصحاب القصص فى هذه المجموعة كاتب واحد محصور فى مصادر لغة واحدة ، وفى هذا الوضع القائم نجد أن محاولة النقاء اللغوى مسألة غير واردة ، فبعض الكتاب يكتبون بأكثر من لغة ، ومعظمهم على دراية بالكتابة بأكثر من لغة ، لذلك من الطبيعى أن يزدهر الأدب بالترجمة والإعداد ، وفى اللحظة التى تسافر فيها الفكرة الأدبية عبر اللغة ، فإنها تدب فيها حياة جديدة ، وتكتسب صدقاً جديداً ، ويعاد صياغتها فى نسيج جديد إن التعقيد الذى يحدث به ذلك التقاطع أو الالتقاء اللغوى يتم على درجة عالية من التعقيد والتركيب بحيث لا يمكن رصد تفاصيله هنا ، ويكفى القول بأن العملية البسيطة للمصادر والتأثيرات التى تجعل الأدب ينمو ويزدهر فى

ثقافة أحادية اللغة - هذه العملية يجب أن يضاف إليها عنصر الترجمة الذى ثبت أنه عنصر فعال وخلاق فى إثراء الأدب ، وينبغى أيضاً ألا ننظر إلى عملية الترجمة هذه على أنها مجرد النقل من لغة غير معروفة على نطاق واسع إلى لغة أكثر انتشاراً ؛ فقد أثرت الترجمة على بعض الكتاب بطريقة عكسية ، بمعنى أنهم اهتموا وأفادوا بالنقل من لغة منتشرة إلى لغة أقل انتشاراً .

مع ذلك تظهر هذه المجموعة القصصية باللغة الإنجليزية ، وأغلب المواد كُتبت فى الأصل بالإنجليزية ، وبعض هذه القصص لكتاب لم يكونوا يفضلون الإنجليزية مثل " ر.ر.ر. دولومو " ، ولا أعنى بذلك القول بأن أدب الجنوب الإفريقى هو فى الحقيقة أدب إنجليزى نقل إلى منطقة مدار الجدى الإفريقية حيث تأثر ببعض الخبرات الجديدة ، نعم قد تتوافق بعض الصيغ الجديدة لتدخل فى نموذج أدب المدينة "المتروبوليتانية" الذى كان موجوداً فى المستعمرات الإنجليزية القديمة ، لكن اختيار هذه المجموعة لتصدر باللغة الإنجليزية ليس مقصوداً به الإيهام بأن هذا أدب إنجليزى .

إن اللغة الإنجليزية - فى الحقيقة - قد أدت خدمة بوصفها لغة أولى أو لغة ثانية لغالبية كتاب المنطقة التى عينتها هذه المجموعة منذ عام ١٨٠٠ على الأقل ، إلا أنه لم يثبت أن اللغة الإنجليزية كانت هى الوسيط اللغوى الوحيد الذى يقع عليه الاختيار ؛ إذ إن جمهور القراء المقصودين لم يكونوا يتكلمون الإنجليزية ، لقد أثبتت اللغة الإنجليزية جدواها فيما يخص مجال الأعمال ، أما فى مجال الأدب فالأمر يشوبه الشك ؛ فاللغة الإنجليزية لغة مستوردة حديثاً ، حيث لم تؤثر - بعد - فى الخبرة

العميقة للناس ، كما أنها لغة عالمية عامة جداً ، بحيث لا تستطيع الإمساك بدقائق الأقوال والمشاعر ، إلا أن قوة وفائدة اللغة الإنجليزية هى الوصول إلى خارج حدود الإقليم ، وخارج "جيتو" العقلية المحلية ، فماتزال هذه القوة متفوقة وفعالة ، ومعظم أعمال الكتاب التى انتقلت إلى خارج حدود الجنوب الإفريقى انتقلت عن طريق اللغة الإنجليزية فى أشكال أدبية مقبولة لدى الذين يقرأون بالإنجليزية فى العواصم الكبيرة ، ولعلنا نجد أمثلة واضحة لدى كاتبة مثل " أوليف شراينر" التى قدمت بالإنجليزية أول رواية كولونىالية ذات أهمية منذ أكثر من قرن ، "ووليم بلومر" ، "ودوريس ليسنج" ، "وألن باتون" ، "وايزاكيا مفاليل" ، "ونادين جورديمر" ، و "بيسى هيد" ، و"إلزا جوبيرت" ، وآخرين ، ولكن ما هو مقبول ونو معنى فى لندن ونيويورك فى زمن ما لا يكون بالضرورة مفيداً ومقبولاً وذا معنى هنا . إن الكتاب هنا قد خدعوا أنفسهم زمناً طويلاً بأن النجاح فى الخارج ، ومن خلال اللغة الإنجليزية فقط هو أعلى وسام وأكبر دليل على نجاحهم ككتاب ؛ ولكن الصحيح أيضاً أن البيئة التى نشأوا فيها والتى تستقبل إنتاجهم الأدبى هى الأكثر حسماً فى تأثيرها عليهم ، وعلى هذا فإننى أرى - فيما يخص هذه المجموعة - أن المجال الحيوى لهؤلاء الكتاب يكمن هنا - فى شبه القارة المفعمة بالخيال ، هذا الخيال يتخذ من الوحدة والتنوع فى شبه القارة معياراً ونموذجاً ، والذى يطير فرحاً وبهجة إزاء حركات التوفيق الجريئة وما ينتج عن الشئ ونقيضه من جديد ، فهذا فى مجمله أكثر أهمية من أية موهبة فردية أو عمل أدبى فذ ينتج عن هذا الوضع .

لقد اخترت مجموعة القصص هذه دون اعتبار كبير لمسألة الشهرة أو المكانة ، وتجنبنا عن وعى الحكايات المفضلة لدى محرري المختارات القصصية السابقين ، وأعني القصص المكررة فى كتب كثيرة كما لو أنها وحدها التى تم اكتشافها ، وربما يجد القارئ أن معظم القصص الواردة هنا غير معروفة حتى لدى دارسى الأدب المتعمقين ؛ وأنا واثق بأن هذا الوضع لن يبقى على هذا الحال بعد ذلك .

أما عن كون هذه المجموعة مكتوبة بالإنجليزية ، أو مترجمة إلى الإنجليزية ، فإن هذا من باب المصادفة فقط ، إن التاريخ الحقيقى لأدب الجنوب الإفريقى يقع بين صفحات هذه القصص ، وسوف يظهر ذلك فى الوقفات والقفرات التى ستجرى فى ذهن القارئ وهو ينتقل من موقف لآخر ، مثلما صاغ الكتاب قصصهم جملة إلى جانب أخرى ، أرجو أن يظهر شكل "الموزيك" الذى هم أنفسهم على اختلاف ألوانهم يشكلون أجزاءه بوضوح . إنها قطعة موزيك فريدة فى نوعها ، شاملة للمشهد الأدبى عند رؤيته ككل .

ستيفن جراى - چوهانسبرج .

أصل الموت

ترجمها إلى الإنجليزية عن لغة الناما و.ه. بليك

يحكى أنه ذات يوم أرسل القمر^(١) السلحفاة^(٢) للبشر قائلاً: " اذهبى للبشر وأخبريهم : " مثلما أموت وبموتى أحيأ ، أنتم أيضاً سوف تموتون ، وبموتكم تحيون " ، انطلقت السلحفاة بالرسالة ، وبينما هى فى طريقها أدركها الأرنب البرى الذى سألها : " أية رسالة تحملين ؟ " أجابته السلحفاة : " أرسلنى القمر للبشر لأخبرهم : بأنه مثلما يموت وبموته يحيا ، هم أيضاً سوف يموتون ، وبموتهم يحيون " قال الأرنب البرى : " دعينى أذهب بالرسالة ، فأنت لست بعداء بارعة " .

جربى الأرنب بسرعة وهو يحمل تلك الكلمات ، وعندما وصل للناس ، قال : " لقد أرسلنى القمر لأخبركم بهذه الرسالة " : " مثلما أموت ، وبموتى أفنى ، فإنكم سوف تموتون أيضاً ، ويكون فى ذلك فناؤكم التام " .

عاد الأرنب البرى بعد ذلك إلى القمر ، وأخبره بما قاله للبشر ؛ وبخه القمر بغضب ، قائلاً : " كيف تجرؤ على إخبار الناس بشيء لم أقله ؟ ! " بعد هذه الكلمات رفع القمر قطعة من الخشب وضربه على أنفه منذ ذلك اليوم ، صار أنف الأرنب البرى مشقوقاً .

(١) القمر فى النص الإنجليزى مؤنث .

(٢) فى نصوص قبائل "الهوتنتوت" - وهم جيران قبائل "البوشمان" أصحاب هذا النص - يرسل القمر الحرباء ، وسترد فى سياق قصة المنفى .

اليمامة وابنه آوى (٣)

جمعها ونقلها عن لغة الزاهوسا فرانك براونلى

بين كل الطيور لا يوجد ما يشبه اليمامة ، كل تصرفاتها ناعمة ،
ولا تؤمن بوجود الشر أبداً ، أما ابن آوى فهو كائن ممتلئ بالحيل والمكر .

فى يوم من ذات الأيام حطت اليمامة على فرع شجرة ، حيث كانت
تسهر على أفراخها الثلاثة الصغار الذين كانوا يستكنون معاً فى عشهم
المصنوع من أعواد القش ، عندما مر ابن آوى تحت الشجرة ، كانت اليمامة
تغنى لأفراخها بهدوء ودعة ، سمع تغريد اليمامة ، فجلس تحت الشجرة ،
ونظراًعلى ، رأى اليمامة وقال : " يوم طيب يا ابنة أختى الصغيرة " .

ردت اليمامة : " يوم طيب يا خالى "

سأل ابن آوى : " يا يمامة ، ماذا تفعلين عندك بأعلى الشجرة ، وما
قصداك بالغناء ؟ "

قالت اليمامة : " أنا أغنى لأفراخى ليناموا مطمئنين هادئين فى عشنا
القش " .

قال ابن آوى : " غناؤك ، يا يمامة ، جميل جداً . كم فرحاً لديك ؟ "

(٣) انظر للمقارنة : اليمامة وابن آوى فى كلىة ودمنة .

قالت اليمامة : " إنهم ثلاثة " .

طاف ابن آوى بسرعة حول المكان ليرى إذا ما كان هناك أحد يراقبه أم لا ، ثم عاد لمكانه تحت الشجرة وقال : " يا يمامة ، أنت لديك عائلة كبيرة . . . وأنا جائع ، ألقى لى بواحد من أفراخك كى آكله " .

قالت اليمامة : " لا يخطر ببالى أن أفعل هذا " ؛ ذلك لأن كل أفراخها لهم ذات المحبة فى نفسها .

قال ابن آوى متخائبًا : " هل يطاوعك قلبك أن ترقدى بأعلى الشجرة ، وأنت الكائن الذى يقال إن كل تصرفاته غاية فى النبل ، تجلسين هناك بصحبة ثلاثة أفراخ سُمّان ، بينما كائن بأسفل يتضور جوعاً ؟ انظرى فقط لضلوعى كيف تبرز من الجوع ! " وراح يشفط بطنه حتى تبرز ضلوعه بحدة .

قالت اليمامة : " يا بن آوى ، أنا آسفة جداً ، لكن أفراخى أعزاء على نفسى ، ولن ألقى بأى منها " .

راح ابن آوى يذرف الدمع ، ثم رقد وقال : " يا يمامة ، هل ستبقين جالسة هناك مع ثلاثة أفراخ سُمّان ، بينما هناك من يموت أمام عينيك ؟ ! " رقد ابن آوى ، وراح يعوى ويتحب .

قالت اليمامة : " يا بن آوى ، اذهب لمأواك واحصل على طعامك من حيث اعتدت الحصول عليه " .

عند ذلك تحرك ابن آوى بسرعة ناهضًا فى غيظ ، قال : " أنت يا هذا الشئ الضئيل هناك هل تهينيتنى بينما أنا أحدثك عن جوعى الشديد ؟ !

لقد عاملتك بصبر شديد ، إلا أن صبرى قد نفذ ، الآن . إذا لم تلقى لى
بواحد من أفراخك سوف أتسلق الشجرة إليك وأكل ؛ ليس فقط أفراخك
ولكن أيضاً سأأكلك أنت وعشك القش " .

ارتعدت اليمامة من هذا التهديد ، وخافت إلى حد أنها نسيت أن
ابن آوى لا يقدر على تسلق الشجر ؛ ولكى تنقذ فرخيها الآخرين وعُشها
ونفسها ، ألقت إليه بواحدٍ من أفراخها .

أكل ابن آوى ذلك الفرخ ، وبعد أن أتم أكله طاف بالمكان ليرى إن
كان هناك ثمة من يراقبه أم لا ، ثم عاد لمكانه تحت الشجرة ، وراح يعوى
ويتنحب مرة أخرى ، سألت دموعه من عينيه ، رقد على الأرض وتصنع
الموت ، ثم نظر لأعلى حيث تقيم اليمامة ، وقال : " أوه ، يا يمامة ، أنا
أحتضر من الجوع ، ساعدينى ، كم فرخاً لديك ؟ "

ردت اليمامة : " عندى اثنان فقط ، اثنان ، اثنان " .

قال ابن آوى : " يمامة طيبة ، ألقى لى بواحدٍ آخر فقط حتى
لا أموت " .

ردت اليمامة : " لا ، لا ، لا ، لم يبق لى سوى اثنين فقط ، اثنين ،
اثنين " .

قال ابن آوى : " هل نسيت تساهلى معك ؟ قلت : إذا لم تلقى لى
بواحدٍ آخر ، فسوف أتسلق الشجرة ، وأأكلك أنت وأفراخك وحتى عُشك
القش ؛ ألقى لى بواحدٍ آخر حتى لا أموت من الجوع " .

قالت اليمامة : " أنا عندى اثنان فقط ، اثنان ، اثنان " .

طاف ابن آوى بسرعة حول المكان ليرى إن كان هناك ثمة من يراقبه
أم لا ، عاد وقال : " يا يمامة ، استعدى لنهايتك ، سوف أتسلق الشجرة
لأكل كل أفراخك وأكلك أنت وحتى عُشك القش " .

كانت اليمامة خائفةً جداً حتى أنها ألقت بثانى أفراخها ، أكله ابن
آوى بسرعة وجلس ساكناً لبرهة ؛ ثم جوّل بسرعة حول المكان ليرى إذا
ما كان هناك أحد يراقبه أم لا ، ورجع لمكانه تحت الشجرة ثم قال :
" يا يمامة ، ساعديني ، أنا أحتضر ؛ ألقى لى فقط بواحد آخر من
أفراخك ، وإلا رقدت تحت شجرتك حتى أموت ، كم فرخاً لديك ؟ " .
ردت اليمامة : " واحد فقط ، واحد فقط ، واحد فقط ، إذا كان
يجب أن تموت ، فمت إذن " .

قال ابن آوى : " يا يمامة ، الآن ، لقد أهتيتنى بشدة ، لقد احتملت
الكثير منك . إذا لم تلقى لى بذاك الفرخ ، سوف أكلك وعُشك القش " .
اندفع ابن آوى أثناء حديثه إلى جذع الشجرة وتصنع التسلق .

ارتعدت اليمامة ، ونسيت أن ابن آوى لا يقدر على تسلق الشجر ،
وألقت بآخر أفراخها ، أكله ابن آوى فوراً ، وبعد أن طاف بسرعة حول
المكان ليرى إن كان هناك من يراقبه أم لا ، ذهب فى طريقه .

نظرت اليمامة أثناء جلوسها على فرع الشجرة لبيتها الخاوى وراحت
تنوح بحزن : " ووو، ووو، ووو " . وبينما كانت تنوح لنفسها فى
هديل حزين ، كان يمشى بالقرب من مكانها مزهواً " الندوى " ، وهو
" الكركى الأزرق " عندما سمع هديل اليمامة الحزين على الشجرة ، نظر
لأعلى وقال : " أختى الصغيرة ، ما هذا الهديل الحزين؟ ما سبب حزنك ؟ "

فى بادئ الأمر كل ما استطاعت اليمامة قوله : " ووو، ووو . . . ،
و . . . " ثم قالت : " كان ابن آوى هنا ، ووو . . . وطلب منى أن ألقى
إليه بأفراخى ، ووو . . . ، ثم هددنى بأنه سىأكلنا جميعاً ، فألقيت إليه
بفرخ ، ووو . . . ، هدد مرة ثانية ، فألقيت إليه بالفرخ الثانى ،
ووو . . . ، ووو . . . ، وهدد المرة الثالثة ، فألقيت إليه بالفرخ الثالث والأخير،
ووو، ووو، ووو " .

وقف الكركى ساكناً لوقت طويل وهو ينظر لأعلى حيث تقيم اليمامة ،
ظل يمشى ببطء فى هذا الطريق وذاك ، ثم وقف ساكناً تحت الفرع الذى
كانت تقعد عليه اليمامة ، أدار رأسه ناحية طريق جانبى ، حتى إنه كان
ينظر لأعلى بعين ، وينظر بالعين الثانية لأسفل ؛ رفع جناحيه ووضعهما
بحرص على ظهره مثلما يفعل الكراكى عندما يستحوذ عليهم التفكير
العميق ؛ ثم قال : " أنا حزين لفقدك أفراخك ، لكنك آمنة فى مكانك
فوق الشجرة ، من الذى قال لك إن ابن آوى يمكنه تسلق الشجر ؟ ! "

أجابته اليمامة : " ووو ، ووو ، ووو ، هو ابن آوى الذى قال إنه
سوف يتسلق شجرتنا ، وأنا من خوفى نسيت أنه لا يعرف كيف يتسلق
الشجر ، ووو، ووو، ووو، بسبب بلاهتى ضاع أولادى " .

قال الكركى : " أختى الصغيرة ، ليس فقط بلاهتك هى التى
أفقدتك أفراخك ؛ بل إن بساطتك هى التى سببت لك هذا الحزن ، سوف
أنظر فى كيفية التصرف مع ابن آوى هذا " ، بهذا القول ، انصرف الكركى
بخطوات واسعة وقد عدل من وضع جناحيه بالطريقة التى يكون عليها
الكراكى عندما يعتزمون أمراً ، كانت خطواته بطيئة ، وهو مستغرق فى

التفكير ، أجفلته خشخشة مفاجئة بين الحشائش والأعشاب القصيرة بين أشجار الغابة . بسط جناحيه استعداداً للطيران ، عندئذ لاحظ وجود ابن آوى ، وأنه هو السبب فى هذا الترويع الذى أصابه . وبالتالي عدل من وضع جناحيه اللذين كانا مبسوطين ليبدو لابن آوى أنه كان يستعد للطيران، بدا على ابن آوى أنه كان يعدو من مسافة بعيدة ؛ لأن لسانه كان متدلياً من فمه ويقطر اللعاب من طرفه الأحمر .

وقف الكركى صامتاً وأدار رأسه جانباً حتى إن إحدى عينيه نظرت لأعلى ، والثانية وقعت على ابن آوى الذى انحنى بتدلل بين الشجيرات والحشائش ، قال ابن آوى لاهثاً : " يوم .. طيب .. ب ، يا جدى ، هذه مقابلة غير متوقعة " ، وفى ذات الوقت سحب لسانه الذى يقطر منه اللعاب إلى داخل فمه ، لكنه مده للخارج مرة أخرى ليعطى نفسه فرصة للتنفس براحة .

حذق فيه الكركى عن كذب - من جانب واحد من رأسه - وقال :
" ما هذه الرحلة العاجلة التى جعلتك تصل إلى هذه الحالة من الإعياء ؟ "

سحب ابن آوى لسانه - الذى كان متدلياً إلى جانب فمه - للداخل ، ثم بلع لعابه واضطر لإخراج لسانه مرة أخرى ، رد من بين لهائه :
" عندى زوجة وعائلة من ثلاثة جراء فى بيتى عند الصخور ، ها ، ها ، ها ، طلب "جرو" من جرائى طعاماً طرياً - ها ، ها ، ها : وأنا ألهث بالفعل من الآن ، لكن عفوك يا جدى ، أرى الجو ينذر بعاصفة من المطر ، ويجب أن أعود لبيتى " .

قال "الكركى" : " إذا ما كان يجب أن تعود إلى بيتك ، فيستحسن أن تفعل ذلك فوراً ، أنتم يا أهل المشى على الأرض تتحركون ببطء ، أما بالنسبة لنا نحن الذين نطير ، فإن المسافة الطويلة ليست ذات بالٍ " .

قال ابن آوى قاصداً إرضاء وتلق الكركى : " كووو ، أنتم يا أصحاب الأجنحة العريضة ؛ كنت دائماً أحسدكم يا جماعة الطيور ، فأنتم لا تبالون بالمسافات الطويلة " .

قال "الكركى" : " قابلنى غداً فى هذا المكان وفى مثل هذا الوقت ، ومثلما علمت أبنائى الطيران ، كذلك سوف أعلمك " .

وافق ابن آوى ، شاكراً الكركى لوعده له بتعليمه الطيران ، على أن يكون فى هذه البقعة فى اليوم التالى ، وانسحب ماشياً ، ثم اختفى بين الشجيرات .

فى اليوم التالى تقابل ابن آوى والكركى فى المكان المتفق عليه ، مشى الكركى ذهاباً وإياباً بخطوات واسعة بطيئة ؛ بينما جلس ابن آوى على حافة أجمة كثيفة ، قال "الكركى" : " يا بن آوى إن كنت ترغب فى تعلم الطيران ، إذن ، لابد من أن تقوم بكل ما أخبرك به " ، وافق ابن آوى على ذلك ، قال الكركى : " هل ترى شجرة السنط تلك التى يسيل منها الصمغ ؟ اذهب إليها وافرك جسمك كله بالصمغ " .

ذهب ابن آوى إلى الشجرة وفرك جسمه بالصمغ ، ثم عاد للكركى ، وقال : " إن تعلم الطيران أمر غير مريح ، كل شعرة التصق ببعضه بطريقة مزعجة ، " لم يتفوه الكركى بشيء ، لكنه راح يقطع الريش من جسمه ويلصقه على الصمغ الذى يغطى جسم ابن آوى ، حتى امتلأ جسمه بالريش ، ثم أخذ الكركى ريشة طويلة من ذيله ورشقها فى ذيل ابن آوى .

كان ابن آوى مسروراً جداً بمظهره حتى إنه دار على قدميه الخلفيتين ورفرف بقدميه الأماميتين ، قائلاً : " كووو ! اليوم أنا طائر ، لن تكون المسافات الطويلة ذات بال بالنسبة لى ، " حاول الطيران لكنه وجد نفسه غير قادر على الطيران ، لذلك مضى إلى الكركى قائلاً : " ما هذه الحيلة ؟ لقد جعلت منى طائراً ، لكننى غير قادر على الطيران بعد " .

قال الكركى : " أنت متعجل جداً ، ما زال علىّ أن أعلمك الطيران بنفس الطريقة التى أعلم بها أبنائى ، يجب أن تعتلى ظهري وسوف أصعد بك عاليًا فى الهواء ، وعندما أقول لك طر ، لا بد من أن تنزل عن ظهري وتطير ، هكذا أعلم أبنائى الطيران " .

لم يقل ابن آوى شيئاً ، جلس ونظر إلى السماء ، ثم نظر للكركى متشككاً فى الأمر .

قال الكركى : " إذا نظرت إلىّ بهذه الطريقة المهينة فلن أعلمك الطيران " .

قال ابن آوى : " سامحنى يا ريس ، لم أقصد أية إهانة ، كنت فقط أحاول قياس المسافة ! " .

فى آخر الأمر ، اعتلى ابن آوى ظهر الكركى ، وعندما استقر على ظهره بثبات ، بسط الكركى جناحيه وارتفع عاليًا ، وعاليًا ، واستمر فى الارتفاع . فى النهاية قال : " الآن ، يا بن آوى ، استعد للطيران " .

نظر ابن آوى لأسفل ، كان على ارتفاع كبير جداً حتى أن النساء اللاتي يعزقن الأرض فى الحقول بدَوْنَ مثل النمل الصغير ، وظهرت أكوأهن مثل نقاط بُنية صغيرة ،

قال الكركى : " يا بن آوى ، عندما أقول " طيران " لابد من أن تقفز من فوق ظهري وتطير . يا بن آوى ، الآن . . . " " طيران " . وفى اللحظة ذاتها سحب الكركى نفسه من تحت ابن آوى . حرك ابن آوى رجله بطريقة ظن أنها الطيران ، لكن الريش فقط هو الذى انتشر ، انتشر الريش وراح ينتشر ، وهو يهوى حتى أصبح وراءه ذيل طويل من الريش ، نظر لأسفل ، ورأى النساء على الأرض يعزقن الحقول ، صاح : " هاى ، يا نساء ، أبعدن معازقكن حتى لا أسقط عليها " ، سمعت النساء صوتاً آتياً من السماء ، خفن ، وألقين جميعاً معازقهن وجرين مبتعدات عن المكان ، سقط ابن آوى فوق المعازق مرتطماً ارتطامة شديدة ، وهكذا مات .

نقلها عن لغة الزهوسا أ . س . جوردان

حسبما تحكى بعض الحكايات حدث أن " تفولاكو " صائد الحيوانات الشهير وابن الزعيم الكبير ، كان عائداً لموطنه مع رفاقه الشباب بعد رحلة صيد استغرقت عدة أيام . فى ليلة ضبابية ضلوا طريقهم فى الغابات ، وعندما أشرق فجر اليوم التالى ، وجدوا أنفسهم يسيرون فى أرض منبسطة مكشوفة ، أرض قاحلة لم يروا مثيلاً لها من قبل . قرب منتصف النهار صارت الشمس شديدة الحرارة كان مع الشباب متاع كثير : جلود وجماجم الطرائد الكبيرة ، وهياكل الطرائد الصغيرة ، بالإضافة لملابسهم ومعدات الصيد ، كانوا يشعرون بالجوع والعطش ، ولم يكن هناك أية بقعة يمكن أن يعسكروا فيها ، فلا توجد أشجار ، أو حطب لإشعال النار ، ولا ماء أيضاً لذلك مشوا متعبين فى ضجر ، وصارت أمتعتهم أثقل فأثقل ، وتلوت أحشاؤهم من الجوع ، وجفت شفاههم ، واحترقت حلوقهم بنار العطش .

أخيراً ، عندما بدأت الشمس تنحدر نحو الغرب ، فجأة ظهر أمامهم وادٍ خصب يرقد بين جبليين ، تحت أقدام الجبليين وقفت غابة صغيرة من

(٤) ترجمها إلى الإنجليزية عن لغة الزاهوسا : أ . س جوردان .

أشجار باسقة أحاطت بنبع جميل من الماء البارد المثلج ، بصيحات الفرح ،
أنزل الصيادون الشباب متاعهم على العشب الأخضر فى الظل وهرعوا نحو
النبع ، ثم راحوا يتناوبون الوقوف والشرب فى مجموعات ، كان
"تفولاكو" ، فى المجموعة الأخيرة ، على رأس مجموعة من أتباعه
المباشرين ، عندما ركع وانحنى ليشرب ، جف النبع فجأة ، وكذلك
الجدول الذى كان يجرى خارجاً منه الماء ، تراجع الشباب مجفلين .
تبادلوا النظرات فيما بينهم ، لكنهم لم يتفوهوا بشيء . وقف "تفولاكو"
محدقاً فى النبع ، ثم طلب من أتباعه أن يتقدموا ، ويركعوا وينحنوا مرة
أخرى ، أطاعوا أمره ، فامتأل النبع بالماء وبدأ فى الجريان كما فى السابق .
تقدم "تفولاكو" للأمام وركع بجوارهم ، ولكن بمجرد أن ركع ليشرب ،
اختفى الماء ثانية ، وعندما تراجع ظهر الماء ، فشرب رفاقه حتى ارتووا .
مضى "تفولاكو" راجعاً لمكانه فى الظل صامتاً ، ومن مكانه أشار للجميع
بالاقتراب .

قال : " يا رفاق ، لقد شاهدتم جميعاً ما حدث توأ ، أؤكد لكم
أننى لا أعرف ما المقصود بذلك ! ، وأنتم تعرفوننى جيداً ، أنا لم أمارس
السحر مطلقاً ، ولا أتذكر أننى قد فعلت أى إثم قبل أو أثناء أو بعد رحلة
الصيد هذه ، وبالتالى ليس لدى ما أعترف لكم به ، يا رفاق ، يبدو كأن
لهذا الأمر مغزاه الخاص ، مغزى لا يمكن لمن هو فى مثل أعمارنا أن يدركه
ومع ذلك ، أوصيكم بأن تشرعوا فى الإعداد لوليمة اليوم : جمع الحطب ،
إشعال النيران ، سلخ رؤوس الحيوانات والشواء - كما لو أن شيئاً لم
يحدث ، سوف نحتفل ونمتع أنفسنا ، لكن قبل أن نترك هذا النبع ، لابد

من أن أشرب ، فنحن لا نعرف أين ومتى سوف نجد الماء مرة أخرى في هذه الأرض الغريبة " .

شرع الشباب في أداء واجباتهم المحددة لهم ، البعض يسلخ الطرائد البرية ، والبعض يجمع الحطب ، والبعض يشعل النار ، والبعض الآخر يُقطع رؤوس الحيوانات المسلوخة لقطع صغيرة ويشويها ، وهكذا محا الانشغال في إعداد الطعام إحساس الجوع في الوقت الراهن من عيون الصحبة ، وأوقف جريان لعبهم ، حاول " تفولاكو " أن يأكل بعضاً من قطع اللحم المشوية ، لكن ذلك زاد من عطشه ، وهكذا وقف على مسافة مراقباً النبع ، امتلأ النبع مرة أخرى ، جرت المياه في الوادي مثلما كانت عندما اقتربوا من هذا المكان الغريب لأول مرة .

عندما صارت الوجبة الرئيسية جاهزة ، لحق برفاقه كما وعدهم ، لكنه وجد من المستحيل عليه أن يأكل بسبب اشتعال حلقه من العطش ، فجلس هناك فقط مشاركاً في الشرثرة ، وحاول المشاركة في نكات الشباب التي صاحبت الطعام .

بالطبع ، جعل أكل اللحم الشباب عطشى مرة أخرى ، ولذلك تناوبوا الشرب من النبع ثانية ، تقدم " تفولاكو " مع مجموعته ، لكن مرة أخرى ، غاض النبع وجف بمجرد أن انحنى ليشرب .

لم يعد من شك الآن ، أنه هو ، وهو وحده فقط ، الذي يجب ألا يشرب ، هو وحده من يجب أن يموت من العطش والجوع ، هو ابن الزعيم الكبير ، لكن أية قوى تلك التي تسيطر على هذا النبع ؟ تحرك مبتعداً عن النبع وراح يفكر ملياً ، لقد سمع حكايات عن " ملك المياه "

الذى يمكنه أن يُجرى الأنهار أو يجففها ، وتوصل إلى أن ملك المياه ،
مهما كانت هيئته أو كينونته ، لا بد من أنه يسكن هذا النبع ، وأن هذا
الملك لا بد من أنه تعرف عليه بوصفه ابن الزعيم الكبير ، لذلك فإن هذا
الملك لا بد من أنه قد اعتزم أن يجعل ابن الزعيم الكبير يدفع ثمنًا باهظًا من
أجل ماء هذا النبع أو يموت عطشًا ، لكن ما الثمن الذى يُنتظر أن يدفع
له ؟ عندئذ انعطف فجأة ، ومضى مسرعًا إلى حافة النبع ، و . . فى
يأس مطبق ، نادى بصوت عالٍ : " ملك المياه ! إننى أموت من
العطش ، اسمح لى بأن أشرب ، وسوف أهب لك الأخت الأجل من بين
أخواتى لتكون زوجة لك " .

فى الحال امتلأ النبع ، وانحنى " تفولاكو " وأطفأ ظمأه ، بينما كان
جميع رفاقه ينظرون فى صمت ، بعد ذلك أخذ نصيبه من اللحم .

بعد هذا ، شعر كل الرفاق بالارتياح ، وتعربى الشباب واغتسلوا فى
الجدول البارد لاستعادة نشاطهم قبل الرحلة الطويلة التى تنتظرهم ، وأخذ
" تفولاكو " نصيبه من كل هذا وراح يستمتع متناسياً ما حدث منذ قليل .

عند غروب الشمس ، ملأوا قريهم بالماء من النبع ، رفعوا أمتعتهم
واستأنفوا السير لموطنهم . فى عصر اليوم الرابع كانوا ضمن حدود مقاطعة
زعيمهم الكبير ، وللإعلان عن اقترابهم غنوا أغنية صيدهم المفضلة :

يى ها هي ! يى ها هي !

إعصار شديد ، هو الجاموس البرى !

اجروا لبيوتكم ، يا من تخافونه . .

يطاردونه من بعيد ، يطاردونه من قريب !

أما نحن ، فنقتل أقواها ،

يى ها هى ! يى ها هى !

إعصار شديد، هو الجاموس البرى !

هكذا دخل " تفولاكو " ورفاقه بوابات " القرية الملكية " بين مدائح شعراء القبيلة وتهليل النساء ،

انتهاز " تفولاكو " أول فرصة ، بعد أن هدأت مظاهر الترحيب بعودة الصيادين ، ليخبر قومه بما حدث عند النبع ، لا أحد ، ولا حتى أكبر أعضاء مجلس المستشارين سناً كان لديه فكرة عن كيف تبدو هيئة " ملك المياه " ! اعتقد أغلبهم أنه منذ أن سكن فى (ـ) الماء ، صار يشبه ثعلب ماء عملاقاً أو حيواناً زاحفاً عملاقاً ، بينما عبر البعض عن أملهم فى أن يكون " روحاً شبيهاً بالإنسان ، لكن الجميع بما فيهم الأميرة الجميلة ، شعروا بأن العرض الذى قدمه " تفولاكو " كان الحل الوحيد المطروح أمامه فى مثل هذه الظروف ، لذلك توقعوا قدوم " ملك المياه " .

ذات أصيل ، بعد اختفاء عدة أقمار ، اقترب من " القرية الملكية " إعصار مخيف ، عند رؤيته ، هرع الناس إلى داخل أكواخهم وأحكموا إغلاق الأبواب ، عندما أصبح قريباً جداً ، قلص الإعصار نفسه وتوجه مباشرة إلى كوخ الفتيات ، حيث كانت الأميرة الجميلة والبنات الأخريات بداخله ، وبدلاً من أن يجتاح الإعصار الكوخ ويدفعه أمامه ، مثلما تفعل الأعاصير عادةً ، إلا أن هذا الإعصار طوى نفسه واختفى عند الباب .

عندما عاد الهدوء ، اكتشفت الفتيات أنهن موجودات فى صحبة ثعبان هائل الطول ، كان حجمه أكبر من فخذ رجل ضخم ، لم يرين من

قبل ثعباناً بمثل هذا الحجم ، فى ذلك الحين ، خمن الجميع ، أنه لابد من أن يكون الـ " نكانيمبا " ، ملك المياه ، قد جاء يطالب بعروسه ، خرجت الفتيات واحدة بعد الأخرى ، إلى أن صارت الأميرة وحدها مع العريس . اعتزمت الأميرة أن تتبع الفتيات الأخريات ، لكن بمجرد أن نهضت لتمضى ، مد جسده بسرعة ، والتف حول جسدها ، وأراح رأسه على نهديتها وحملق فى عينيها باشتهاء .

اندفعت الأميرة خارجة من الكوخ بحملها الثقيل المحيط بجسدها ، ودون أن تتوقف للتحدث مع أى امرئ فى القرية الملكية ، بدأت رحلة طويلة ، إلى أرض عشيرة أمها ، بأعلى قمم الجبال ، وفى أثناء ذهابها ، غنت بصوت رفيع حزين :

أنا ابنة شعب التفولاكو ، أيعقل أن . .

أنا ابنة شعب التفولاكو ، أيعقل أن . .

أضاجع ذلك المدعو ثعبان ، ثعبان ؟

وفى رده غنى " ملك المياه " بصوت عميق :

طويل ورشيق ، ذلك أنا ، رشيق جداً ،

طويل ورشيق ، ذلك أنا رشيق جداً ،

ألا يمكننى مضاجعة تلك التى تدعى امرأة ، مجرد امرأة ؟

وهكذا سافرا عبر غابة ووادٍ ضيق ، طوال يوم وليلة ، كل منهما يغنى مفتخراً بنفسه ، عند الغسق وصلاً إلى موطن عشيرة أم الأميرة .

لكن الأميرة قررت الانتظار بعض الوقت فى الظلال ، عندما تأكدت
من عدم وجسود أحد بكوخ الفتيات ، دخلت إلى هناك خفية وأغلقت
الباب . بعدئذ ، ولأول مرة وجهت كلامها مباشرة إلى حملها الثقيل :

ملك المياه القوى !

المالك الوحيد لعصب الحياة !

بمشيئتك تجرى الأنهار أو تجففها !

منقذ حياة الصيادين من العطش !

أنت يا من تولد فى أجنحة العواصف القوية !

أنت يا ذا الطيات الكثيرة طويل ورشيق !

فى هذه الأثناء ، كان " ملك المياه " يستمع إليها رافعاً رأسه عن
الموضع الذى كان بتوسده وهكذا استمرت الأميرة قائلة :

أنا تعب و قبيحة يغطنى تراب الطريق أتوسل إليك ، فك نفسك
واسترح هنا ، بينما أذهب لإعلان أخبار زيارتك العظيمة لعشيرة أمى ، ثم
سأستغرق بعض الوقت أيضاً فى الاغتسال وارتداء ملابس تليق بمضيئة
أعظم الملوك ، " نكانيمبا " القوى ، " ملك المياه . "

دون أن ينطق ، ودون أن يجرح نفسه انزلق " ملك المياه " عن
جسدها ، وزحف إلى نهاية الكوخ حيث لف نفسه فى كومة ضخمة
وصلت إلى خشب السقف .

مضت الأميرة مباشرة إلى " الكوخ الكبير " ، وهناك حكّت - وهي تبكى - كل القصة لخالها وزوجته ، راحا يطمئنانها وأكدّا لها أنهما سوف يخلصانها من الـ " نكائما " فى نفس الليلة ، وذلك فقط إذا ما كانت شجاعة وذكية ، جففت دموعها فى الحال وأكدت لهما أنها ستكون شجاعة وحازمة ، طلب خالها من زوجته أن تأمر فوراً بغلى كميات كبيرة من الماء كي تستحم الأميرة ، وفى أثناء إنجار هذه الترتيبات ، أخرج بعض الدهان وخلطه مع بعض المساحيق التى لم ترَ الأميرة مثلها من قبل ، بعد ذلك أعطى الخليط لزوجته وأمرها بدهن جسم الأميرة كله فور أن تنتهى من حمامها ، اختفت الأميرة وزوجة خالها ، تاركتين رب العائلة جالساً هنالك وحده متجهماً وقد عقد العزم على شيء .

عندما رجعت المرأتان ، بدت الأميرة منتعشة وفاتنة فى عُرْيها ، فقد تجردت من معظم حليها ، كل ما كانت تلبسه ، طوق نحاسى على رأسها ، وعقد تتدلى حلقاته برقة بين نهديها ، وزوجى أساور بأعلى ذراعيها ، وخلخالين .

عندما دخلت المرأتان ، نهض الخال واقفاً وسأل : " هل أخبرتك زوجة خالك بكل ما ستقومين به هناك ؟ "

ردت الأميرة مبتسمة ابتسامة متألقة : " كل شيء يا خال . "

" هل أنت متأكدة من أنك لن ترتكبى أى خطأ ، وستقومين بأداء ذلك بسرعة على النحو المتفق عليه ؟ "

" يا خال ، إننى هادئة الآن ، يمكنك أن تثق ببنى سوف أفعل كل شيء فى اللحظة المناسبة . "

عندئذ ، أحضر رب العائلة ثوب " الكاروس " الجميل المصنوع من جلود النمر ، فرده ، وغطى به ابنة أخته " ، اذهبي الآن يا ابنة أختي ، أنا على يقين من أنك سوف تكونين زوجة مناسبة تماماً لهذا - الثعبان " ، مضت الأميرة بهمة راجعة إلى كوخ الفتيات ، فور دخولها ، ألقت عنها ثوب " الكاروس " وبدأت فى مغازلة الملك : " ملك المياه ! أنا أقف هنا ، أنا بنت شعب التفولاكو ، مستعدة لمعانة ' نكانيمبا ' الطويل الرشيق " .

بينما كانت تردد هذه الكلمات راحت تفرد ذراعيها الجميلتين بإغراء داعية ملك المياه إليها .

قَبِلَ ملك المياه هذه الدعوة بلهفة ، لكن عندما حاول أن يضمها بلفاته ، انزلق وسقط محدثاً صوت ارتطام مكتوم بالأرض ، فردت الأميرة ذراعيها مرة أخرى ، مبتسمة ومعاتبه له ، ودعته لمحاولة جديدة ، حاول مرة أخرى ، لكنه سقط ثانية على الأرض محدثاً نفس الصوت . مرة ثالثة فردت الأميرة ذراعيها مشجعة ، لكن ملك المياه وجد جسمها زلقاً ومراوفاً حتى أنه بكل طياته ولفاته وحراشيفه لم يستطع الإمساك بها ، هذه المرة انزلق وارتطم بالأرض فاقداً كل قواه ، كان يحرك جسمه بالكاد ، وكل ما استطاع عمله فى الرد على دعوة الأميرة هو أن يتمتع بعينه برؤية جسدها الجميل ، قالت الأميرة وهى تنزل ذراعيها : " إنه خطئى ، أيها الرشيق ، بسبب تلهفى أن أبدو جميلة فى نظر " ملك المياه " وضعت كثيراً جداً من الدهان على جسدى ، سأعود إلى " الكوخ الكبير " وأزيل هذا الدهان فوراً ، وسوف أرجع كى أطالب بهذا العناق الذى أتوق إليه بشدة " .

بهذه الكلمات التقطت ثوب " الكاروس " ، تجاوزت العتبة ، وأحكمت إغلاق الباب من الخارج ، كان الخال وزوجته مستعدين بالمشاعل الموقدة ، وبمجرد خروج الأميرة وإحكامها إغلاق الباب ، سلماها المشاعل دون أية كلمة ، اختطفتهما ودارت حول الكوخ ، وأضرمت النار فى عدة مواضع بحطب السقف ، وفى النهاية دفعت الشعلة الموقدة من خلال السقف فوق الباب تماماً ، أمسكت النار فوراً بالقش ، وأضاء اللهب المنزل وما حوله .

لم يصدر عن " ملك المياه " أى صوت للمقاومة فى الكوخ المشتعل ، لقد فقد كل قواه ، ليس له من قوة ترفع جسمه عن الأرض ، لا قوة له لاستجماع أجنحة العواصف الشديدة كي تحمله بعيداً عن اللهب المحرق ، احترق " ملك المياه " حتى الموت .

تم كل شئ بسرعة كبيرة حتى أنه عندما حضر الجيران لم يجدوا شيئاً سوى طقطقة الخشب .

تساءل الجيران واحداً بعد الآخر : " ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟ " " إنه فقط أمرٌ من تلك الأمور التى تحدث بسبب وجودنا فى هذا العالم " .

تساءلوا : " هل الجميع سالم بمنزلكم ؟ "

" يا جيرانى ، الجميع سالمون ، اذهبوا وناموا فى سلام ، عندما يغيب قمر اليوم ، سوف أدعوكم جميعاً هنا لوليمة على شرف ابنة أختى الجميلة ، آنذاك ، سوف أخبركم بكل ما كان عن الشر الذى دمرناه توأ " .

فى الصباص ، نهض رب العائلة مبكرًا ، وذهب لمعاينة مكان النار بحرص شديد ، وجد جسم وعظم الـ " نكانيمبا " قد تحولت إلى رماد ، إلا أن الجمجمة كانت لا تزال سليمة ، رفعها بحرص وراح يتفحصها ، ثم جمع بعض الخشب ، وكدسه فوق الرماد وأضرم فيه النار ، بعد ذلك أخرج مخ الـ " نكانيمبا " من كل فتحة صغيرة بالجمجمة ، وأسقط كل ذلك فى النار ، كل مادة أزيلت ، وضعت فى النار وأحرقت تمامًا ، أخذ الجمجمة للداخل وغسلها غسيلاً جيداً بالماء المغلى ، ثم دكها جيداً بالدهان والمسحوق اللذين استعملتهما الأميرة فى الليلة السابقة .

أثناء ذلك كانت الأميرة تغط فى نوم عميق ، ولم تستيقظ من نومها إلا عصرًا . أمرت زوجة خالها بعدم دخول أى امرئ إلى الكوخ ، ما عدا هى ، لمدة يوم وليلة طالما الأميرة نائمة ، وهكذا بعد أن أبعدت جمجمة " نكانيمبا " ، خرج رب العائلة لأعماله اليومية ، وظل بعيداً عن كوخ ابنة أخته .

لكن فى صباح اليوم التالى ، فور علمه باستيقاظ الأميرة ، ذهب لرؤيتها آخذاً معه الجمجمة ، ارتجفت الأميرة عند رؤيتها ، قال الخال : " يا ابنة أختى ، المسيها ، المسيها ، وسوف يزول كل خوفك منها " .

لمست الأميرة الجمجمة ، لكن الخال لاحظ أنها ما زالت ترتجف ، أبعد عنها الجمجمة وراح يتحدث معها قليلاً .

فى وقت آخر من اليوم ، ناقش رب الأسرة وربة البيت حال الأميرة ، اتفقا على إدخال بنات الخال إليها ليجلسن معها ويثرثرن كما يشأن على شرط أن تبقى فى السرير حتى تتلاشى كل مظاهر الخوف ، وبالتالي كان

الخال يحضر كل صباح الجمجمة إليها ويجعلها تلمسها بيدها ، وعندما صار مقتنعاً بأنها لم تعد ترتعد منها ، قال لزوجته إن الأميرة الآن فى حالة تسمح بالنهوض من الفراش وممارسة الحياة العادية مع بقية العائلة .

ذات يوم ، جلس رب العائلة وربة المنزل يتحدثان مع الأميرة فى الكوخ الكبير عندما نهضت الأميرة ، ومشيت عبر الردهة وأنزلت جمجمة الـ " نكانيمبا " من مكانها على الحائط ، راحت تقلبها بين يديها مرة بعد أخرى ، فى حين كانت مستمرة فى الحديث كما لو أنها لا تفكر فى الجمجمة البتة . تبادل الكبيران النظرات ، وأوما برأسيهما لبعضهما البعض ، وابتسما .

قال رب العائلة بمجرد أن انفرد بزوجته : " الآن يمكننى القول إنها مستعدة للعودة لوالديها . لم تعد تخشى هذه الجمجمة ، لقد أصبحت الجمجمة مثل أى وعاء فى المنزل ، لذلك علينا أن نباشر الترتيبات اللازمة لسفرها " .

يومان .. ثلاثة . . ، وأقيمت مأدبة على شرف الأميرة حضرها كل الجيران ، وأخبرهم رب العائلة بحكاية وعد " تفولاكو " لـ " ملك المياه " ، وبكل ما حدث بعد ذلك ، مدح الجيران الأميرة لشجاعته ، وشكروا جيرانهم نيابة عن والديها وأخيها ، عين الخال بعد ذلك خمسة رؤوس من الماشية وهبها لابنة أخته لتصبحها معها إلى البيت ، ثم نهض أصدقائه وجيرانه واحداً بعد الآخر للتعبير عن صداقتهم بإلقاء كلمات قصيرة ، شكروه فيها على هداياه لابنة أخته ، وأضافوا عليها هداياهم ، من العجول الصغيرة ، " التى ستصبحها الأميرة معها " ، إلى أن اجتمع عشرون رأساً من الماشية ، وبعد كل هدية من العجول الصغيرة ، كانت

الأميرة تقبل اليد اليمنى لمقدمها ، ثم جاء دور الخال ليشكر جيرانه لأنهم رفعوا شأنه وأكبروه حين أثروا الهدية التي سوف تحملها ابنة أخته معها لموطنها .

انسحبت أمهات القرية لمكان قصي بالبيت ، وبينما كان الرجال يقدمون هداياهم من رؤوس الماشية كانت النساء يصنعن هدية مشتركة من السلال المجدولة والقذور والسلاطين وحليات من كل الأنواع ، عندما تم تجميع تلك الهدايا ، طلب رب العائلة من سيرافقون الأميرة الحضور ليأراهم . بعض الأمهات الأكبر سناً ألقين بعض الكلمات ، وقدمن "هداياهن المتواضعة " للأميرة باسم كل الأمهات ، وتمنين لها رحلة عودة سعيدة للوطن ، شكر رب العائلة وربة البيت الأمهات ،

قرب نهاية الاحتفال أرسل شباب القرية من يتحدثون نيابة عنهم إلى آبائهم ، كي يلفتوا نظرهم إلى احتياج الأميرة لمرافقين ،

قال رجل مُسن مبتسماً: " نحن نعرف ذلك جيداً ، ولكن لا يمكن أن تذهبوا جميعاً . ودعوني أذكركم أنتم يا من ستذهبون ، لن يكون عليكم فقط أن تقودوا القطيع ، لكن أيضاً سيكون عليكم حمل كل تلك القذور والأشياء الأخرى التي عبأتها وحزمتها الأمهات للأميرة "

رد رئيس المتحدثين الشباب : " يا أبى ، نُدرك ذلك ، نحن مستعدون لحمل كل الأشياء ، لقد اتفقنا أيضاً أنه من المناسب أن يرافق الأميرة من هم فى مثل سن أخيها ، " تفولاكو "

تمتم بعض كبار السن : " لقد فعلتم خيراً "

بعد عدة أيام ، وبينما الأميرة تحزم أغراضها الخاصة بمساعدة زوجة خالها ، أحضر رب العائلة ثوب الـ " كاروس " الجميل الذى كانت ترتديه الأميرة ليلة مقتل " نكانيمبا " ، تقبلته الأميرة بامتنان كبير ، وعانقت خالها على هذه الهدية الرائعة ، ثم أحضر جمجمة الـ " نكانيمبا " وسلمها لها نهائياً .

سألت الأميرة بدهشة كبيرة : " ماذا سأفعل بهذا الشيء يا خالى ؟

رد خالها : " إنها تخصك ، أنت من حملت " ملك المياه " طوال الطريق من قرية موطنك لتقضى عليه هنا " .

تلقت الأميرة الجمجمة بكلتا يديها ، شكرت خالها ، ثم نظرت إلى الجمجمة برهة وابتسمت ،

بينما تحزم أمتعتها قالت : " أعرف ما سأفعل بها " .

سألها خالها : " ألن تخبرينا بهذا السر العظيم ؟ " .

أجابت الأميرة : " فى الحقيقة ، لا يوجد سر أخفيه عنكما يوماً ما ، عندما يصبح أخى " تفولاكو " زعيماً لقومنا ، سوف أعطيه هذه الجمجمة ليستعملها كوعاء للغسيل " .

علق الخال : " تفكيرك سليم ، يا ابنة أختى " .

" لماذا تقول ذلك يا خال ؟ " .

" لأن هذا بالضبط ما تمنيت أن تفعله بهذه الجمجمة " .

كانت الرحلة سارة بالنسبة للأميرة وأبناء خالها الشباب الآخرين من سن أخيها ، لم يسرعوا فى رحلتهم ، حيث كان عليهم أن يسمحوا للماشية بالرعى فى أثناء سفرهم ، وهم أنفسهم كلما وصلوا لمكان جميل بشكل خاص ، كانوا يقيمون معسكرهم ويرتاحون ، غنوا فى أثناء سفرهم ، ومن بين تلك الأغنيات ، علمتهم الأميرة الأغنيات التى غنتها هى و " ملك المياه " كل منهما للآخر فى نفس تلك الغابات والأودية الصغيرة . غنت أغنيتهما بالصوت الرفيع العالى ، ورد الشباب عليها بأغنية " ملك المياه " بشكل جماعى .

فى عصر اليوم الثالث من رحلتهم ، عندما اقتربوا من " القرية الملكية " شرعوا فى الغناء ، الذى تعرف عليه فوراً كل القرويين الذين كانوا قد سمعوه يوم الإعصار ، عُرف صوت الأميرة ، لكن تلك الأصوات الغليظة العميقة العديدة بدت لغزاً .

لم ير أحد " تفولاكو " وهو يجرى مندفعاً إلى كوخه مختطفاً رماحه والدرع ، لكنه كان موجوداً هناك ، واقفاً بمفرده قرب البوابة حاجباً الشمس عن عينيه بكفه ، لكى يكون أول من يتعرف على المغنين الذين ظهروا فى الأفق .

عندما صار المغنون وقطيع الماشية على مرمى البصر ، جال بخاطره أن أخته قد جاءت مكرهة فى رفقة " نكانيмба " ، وأنهما جاءا مع جماعة من الأتباع يسوقون مهر العروس المعتاد من الماشية .

صاح ، مشتعلاً بالغضب : " ماذا ! هل يعنى هذا أن أختى ما زالت مكبلة بحمل هذا الثعبان الكريه كل هذا الوقت ، سوف أذهب لأحررها ! " ثم تخطى البوابة المغلقة بوثبة واحدة .

صاح كبار الحكماء : " انتظر يا أخا الجميلة ، إنك ذاهب للخطر ، انتظر إلى أن يأتوا هنا " .

" لن أسمح لتلك الأفاعى بأن تدخل من هذه البوابة ، أنا لا أريد أيأ من ماشيتهم فى حظائر آبائى ، إن لم يأت أحد معى ، سوف أحررهم وحدى ، دعهم يحضرون كل الـ " نكانيما " الموجودة فى العالم ، سوف أموت محارباً من أجل أختى " ، وجرى لمقابلة المغنيين

قبل أن يصل إليهم ، كان قد لحق به الصيادون الذين فى مثل عمره ، أما نساء " القرية الملكية " ، فقد رفعن عقيرتهن بصيحات الإنذار ونشرنها عبر القرية ، وانتقلت من قرية لأخرى ، حتى أنه فى وقت لا يذكر ، كان كل الشباب قد سحبوا رماحهم ودروعهم وتبعوا الاتجاه الذى جاءت منه صيحات النساء

توقف الغناء فجأة ، وانفجر ضحك مرافقى الأميرة صاح واحد منهم : " اكبحوا رماحكم! العدو الذى تبحثون عنه ليس هنا ، ذلك الذى كان عدواً أصبح الآن رماًداً عند عشيرة أم " تفولاكو " ، ها هى ذى أخت " تفولاكو " جميلة مثل الشمس المشرقة "

خطت الأميرة للأمام لتقابل أخاها الذى كان قد وثب فعلاً لمقابلتها ، تعانقا بحنان وشجن .

قال " تفولاكو - فى تأثر بالغ - سامحيني يا ابنة أبى " .

لكن الأميرة لم تعط فرصة لأخيها ليزدرف ولو دسعة في حضور
الشباب الآخرين ، ضحككت ، وجذبت نفسها من بين أحضانها ووقفت
بعيداً عنه .

تساءلت : " على أى شيء أسامحك ؟! أسامحك على أنك منحتني
جدارة أن أكون أخت " تفولاكو " ، صائد الجاموس البرى " .

قبل أن يتمكن " تفولاكو " من الرد شرعت فى غناء أغنية صيده
المفضلة ، مستبدلة كلماتها لتناسب الحدث ، فى هذه الأثناء ! اختلطت
مجموعتا الشباب معاً فى ود ، حالما شرعوا فى الغناء ، سحبت الأميرة
جمجمة الـ " نكانيمبا " ، ورفعتها عالياً ، وقادت المسيرة إلى القرية ،
وعبرت بوابات " البيت الملكى " وهى تغنى :

" يى ها هى ! يى ها هى !

إعصار شديد ، هو النكانيمبا !

اجروا لبيوتكم ، يا من تخافونه . .

يطاردونه من بعيد ، يطاردونه من قريب !

أما نحن ، فأحرقنا الأعاصير . .

وحملنا جماجمها عالياً .

يى ها هى ! يى ها هى !

إعصار شديد ، هو النكانيمبا !

البنت المزعجة

البنت المزعجة التي جزاها الكلب بما تستحقه من عقاب أو وصفة لتنويم أى أحد .
نقلها إلى الإنجليزية ^(٥) عن الراوى دامارا ^(٦) هـ . ي . بليك

قال دامارا :

كان فيه بنت صغيرة ، وكان عندها عنجى (نوع من الفاكهة) . قالت
لأمها : " أمى لم لا تقولين لى ، يا بكريتى ، أعطينى العنجى ؟ يا هل
ترى سأرفض أن أعطيها لك ؟ "

قالت أمها : " يا بكريتى ، أعطينى العنجى ! "

أعطت البنت الفاكهة لأمها ، ومضت بعيداً . أكلت أمها العنجى .
عندما عادت البنت ، قالت : " يا أمى ، أعطينى عنجتى ! " ردت
عليها أمها : " لقد أكلت العنجى ! "

قالت البنت : " أمى كيف تأكلين عنجتى التي قطفتها من شجرتنا ؟ "
أعطتها أمها إبرة بدلاً من العنجى حتى تسترضيها .

(٥) نقلها إلى الانجليزية عن لغة هيرورو فى نامبيا : وليم بليك
(٦) لغة الراوى دامار ، هي لغة قبائل الهوتنوت التي تسكن نامبيا حالياً ، والهوتنوت
من أهم القبائل التي تسكن الجنوب الغربى من إفريقيا ، وهذه التسمية ترجع للمستعمرين
البيض الهولنديين الأوائل ، أما اسم هذه القبائل الأصلي فهو " خوى - خوى " ، أى سادة
الرجال .

مشت البنت الصغيرة بعيداً ، قابلت أباها الذى كان يحيك السيور الجلدية بشوكة ، فقالت له : " أبى ، كيف يكون ذلك ؟ تخطط السيور الجلدية بالشوكة ؟ لم لا تقول لى يا بكريتى ، أعطينى إبرتك ؟ يا هل ترى سأرفض أن أعطيها لك ؟ " فقال والدها : " يا بكريتى ، أعطينى إبرتك ، " أعطته الإبرة ومضت بعيداً لبعض الوقت . راح والدها يخطط بالإبرة ، لكن الإبرة انكسرت ؛ وعندما عادت البنت وقالت : " أبى أعطنى إبرتى ، " رد : " الإبرة انكسرت " ؛ لكنها راحت تتشكى متذمرة قائلة : " أبى ، كيف تكسر إبرتى ، التى حصلت عليها من أمى التى أكلت عنجتى ، التى كنت قد قطفتها من شجرتنا ؟ ! "

لكى يسكتها ، أعطاها والدها بلطة .

مشت البنت لمكان أبعد ، قابلت الصبية الذين كانوا يخدمون القطيع ، كانوا مشغولين باستخراج العسل ، ولكى يحصلوا عليه ، اضطروا لقطع الشجرة بالحجارة .

خاطبتهم قائلة : يا أولادنا ، كيف تستخدمون الحجارة لكى تحصلوا على العسل ؟ لماذا لا تقولون ، يا بكريتنا أعطنا البلطة ! ترى هل سأرفض أن أعطيها لكم ؟ أم ماذا سأفعل ؟ " . قالوا : " يا بكريتنا ، أعطنا البلطة ! " فأعطتهم إياها ، وابتعدت لبعض الوقت . انكسرت البلطة . عندما عادت سألتهم : " أين بلطتى ؟ من فضلكم أعطونى إياها ! " ردوا : " انكسرت البلطة " ، عندئذ قالت : " كيف تكسرون بلطتى التى أعطاها لى أبى ، الذى كسر إبرتى ، التى كنت قد حصلت عليها من أمى التى أكلت عنجتى التى قطفتها من شجرتنا ؟ "

أعطوها بعض العسل لكي يسهلها ،

ثم رحلت بعيداً مرة أخرى ، فقابلت سيدة عجوز قصيرة ، تأكل الحشرات ، فقالت لها : " يا سيدتى ، كيف تأكلين الحشرات ؟ لماذا لا تقولين لى : " يا بكريتى أعطينى عسلاً ! ترى هل سأرفض أن أعطيك أم لا ؟ " عندئذ قالت السيدة العجوز القصيرة : " يا بكريتى ، أعطينى عسلاً ! " أعطتها البنت العسل ومضت بعيداً ، لكنها عادت ترواً وقالت : " أيتها السيدة العجوز القصيرة ، أعطينى عسلى ! " كانت السيدة العجوز تدبر لأكل العسل كله فى غياب البنت ، لذلك ردت : " أوه ، لقد أكلت العسل كله ! " عندئذ راحت البنت تتذمر قائلة : " كيف تأكلين عسلى ، الذى تلقيته من الصبية الذين يعملون فى خدمة قطعنا ، الأولاد الذين كسروا بلطتى ، التى حصلت عليها من أبى ، الذى كسر إبرتى ، التى كانت هدية من أمى ، التى كانت قد أكلت عنجتى ، التى كنت قد قطفتها من شجرتنا ؟ "

أعطتها السيدة العجوز طعامًا ، ورحلت البنت بعيدًا .

هذه المرة ذهبت إلى طيور الحجل الذين كانوا ينبشون في الأرض،
وقالت : " يا طيور الحجل لِمَ تنبشون في الأرض؟ لِمَ لا تقولون يا
بكريتنا ، اعطنا طعامًا ! أتظنون أنني لن أعطيكم أم سأعطيكم ؟ "

قالوا : " يا بكريتنا ... ، " وعليه أعطتهم الطعام ، ومضت بعيداً .
عندما عادت وطلبت إعادة طعامها قالوا : " لقد أكلنا الطعام ! " سألتهم :
" أتأكلون طعامى الذى تلقيته من السيدة العجوز القصيرة التى أكلت
عسلى الذى كنت قد حصلت عليه من الصبية الذين يعملون فى خدمة

ماشيتنا الذين كسروا بلطتى التى حصلت عليها من أبى الذى كان قد كسر
إبرتى التى كانت هدية من أمى التى أكلت عنجتى التى كنت قد قطفتها من
شجرتنا ؟!! "

حلقت طيور الحجل عاليًا ، وانتزع كل طائر ريشة من جسمه ،
وألقوها للبنت الصغيرة ، ثم واصلت البنت الصغيرة المشى حتى قابلت
الأولاد الذين كانوا يجزون صوف الغنم حتى الجلد ، سألتهم : " كيف
تجزون الصوف حتى الجلد لماذا لا تقولون يا بكريتنا ، اعطنا الريش ؟ "
قالوا : " يا بكريتنا ، أعطنا الريش " أعطتهم الريش ومضت أنكسر
الريش كله وعندما رجعت إليهم قالت : " أعطونى ريشى " ، قالوا : "
لكن الريش انكسر كله " ، راحت تتذمر : " هل كسرتم ريشى الذى
تلقيته من طيور الحجل التى أكلت طعامى ، الذى حصلت عليه من السيدة
العجوز القصيرة . . . " ، فأعطوها بعض اللبن ، ثم مضت فى طريقها
حيث قابلت كلبها الوسيم يعضعض العظام ، قالت : " يا كلبنا ، كيف
تعضعض العظام ؟ " رد الكلب : " أعطينى اللبن ! " أعطته اللبن فشربه
كله . ثم قالت للكلب : " أعد لى اللبن ! " قال : " شربه كله ! "
كررت نفس الكلمات التى كانت تقولها من قبل ، لم يستمع إليها الكلب
وفر هاربًا ، وعندما تبعته جرى وصعد فوق الشجرة . تسلقت الشجرة
وراءه ، فقفز الكلب نازلاً من الجانب الآخر . حاولت أن تفعل مثله ،
لكنها لم تستطع ، عندئذ قالت : " يا كلبنا ، من فضلك ساعدنى على
النزول " ، رد الكلب : " لا ، لن أساعدك ، لماذا تبعتنى ؟ " وهرب ،
تاركًا إياها على الشجرة ،

قال دامارا : " لحد كده كفاية "

قصة الصغير الشاطر في الدوامة^(٧)

جمعها يوجين . ن . مارييس^(٨)

كان أول ساعى فى "جَامدوكيس" ، هو البوشمان^(٩) الأصفر الصغير ، الذى كان اسمه " قصة الشاطر فى الدوامة " .
أطلق عليه هذا الاسم جده العجوز " هايتسى آيب " عندما كان الولد مايزال يُحمل فى الجلود ، كان " قصة الشاطر فى الدوامة " يستطيع أن يجرى بسرعة كبيرة إلى حد أن التراب كان يدوم حول عقبه على هيئة زوبعة صغيرة ، وعندما كان ينطلق بأقصى سرعة ، كان يصبح مجرد خط باهت على الدرب .

ذات يوم ، هدد "جَامدوكيس" خطر عظيم ، عقد العجوز " هايتسى آيب " فى تلك الليلة مجلس الحرب ، لأن الخطر كان كبيرا ، فقد استدعى حتى " أرنب الصخر ذا العين الواحدة " ليحتل مكانا فى المجلس ، على الرغم من أن " أرنب الصخر " كان عجوزا إلى درجة أن فكه كان قد بلى ، وتلاشت عيونه ، وانغلقت تقريبا .

(٧) أشار د. محمد عمران ، إلى أن اسم هذه الشخصية يعنى "عقلة الأصبع/الصُّبَاع" الموجود فى تراثنا الشعبى ، وهى تسمية ولفتة مفيدة ، إلا أننى أثرت التسمية المحلية الطويلة ، للاحتفاظ بالطابع الإفريقى المستخدم لديهم .

(٨) ترجمتها عن اللغة الأفريكانية : شالكوك .

(٩) من قبائل البوشمان الإفريقية ومن صفاتهم الجسدية الطبيعية الشعر اللوى الملفل ، وقصر القامة ، والأطراف النحيلة مع أرجل صغيرة ، ويميل لون البشرة إلى الاصفرار. عن د. محمد عوض محمد ، كتاب الشعوب والسلالات الإفريقية .

جلسوا طوال الليل حول النار الموقدة فى حوض النهر الجاف ، وفى آخر الأمر ، قال " أرنب الصخر ذو العين الواحدة " القرار الحكيم ، ثم استدعوا " قصبة الشاطر " عند الشفق لحمل الرسالة إلى " روى جوجوم " .

عندما وصل إلى مكان المجلس ، سمع الفتيات فى الأكواخ القش يصرخن مستنجدات : " هوت تاجورا ، هوت تاجورا " ، والرجال خائفون لدرجة أن أظفار أقدامهم كانت تطقطع ، والعرق البارد يتصبب مثل البرد من رؤوسهم حتى أصابع أقدامهم ، وكانوا يلهثون حتى أن نفس الواحد منهم يمكن أن يطفى النار .

عندما مال النهار للغروب ، اندفع " قصبة " خارجا من " جامدوكيس " ، كان يحمل فى يده اليسرى أدواته ، ويدق بيده اليمنى على جبهته - حتى لا ينسى الرسالة - فكل ضربة من قبضته على جبهته ، كانت تعنى كلمة من كلماتها .

كانت وصية جده : " حاذر من " نجالى " . فقد تهاجمك فى مكن بحيلها الكثيرة ، وسحرها القوى ، إذا وضعت قدما فى موضع خطأ ، فسوف يُسحب جسدك ويُشد مثل قوس الرمكى الكبير " .

عندما ارتفعت الشمس فى السماء ، كان يمكنهم رؤية الزوبعة الصغيرة التى تلتف حول قدميه عند أبعد تل ، لكن " قصبة الشاطر " هو نفسه ، لم يكن سوى خط باهت على الدرب .

بعد ذلك ، قال " أرنب الصخر ذو العين الواحدة " صاحب القرار الحكيم : " آرى ، هناك ومضات فى ذيل الذئب ! " .

عندما لم يعد فى إمكان " قصبة " أن يرى ظله ، نظر أمامه على طول الدرب ، رأى هناك فتاة رفيعة من البوشمان ، قطعت الفتاة الطريق

بقليل من الخطوات وهى تعدو عدوا بطيئا ، هتف " قصبة " متعجبا :
" آرى ، أختاه ، هل تستطيعين الجرى ؟ "

قالت : " أخى ، ماذا ستضع فوق كُثيب النمل كرهان ؟ "

قال قصبة : " هذه الأدوات ، لا يوجد أفضل منها " ، ثم وضعها
على كُثيب الرمل الذى صنعه النمل ، قال : " وماذا عندك يا أختاه ؟ "

سحبت عقد الخرز الأزرق من حول رقبتها ووضعتة جانبا ، ثم راحا
يتسابقان فى المرج ، ظلا يعدوان رأسا برأس حتى وصلا إلى كُثيب النمل
الثالث ، لكن من عند هذا الموضع راحت الفتاة ترقص حوله فى دوائر
ثم رسمت نصف قمر كبير ، وارتدت عائدة فى اتجاه " جامدوكيس " ،
أراد " قصبة " أن ينادى عليها قائلا : " أختاه ، من هذا الطريق ! من
هذا الطريق ! " ، لكن صوته خانه بسبب أنفاسه المتلاحقة من الجرى ،
أما هى فراحت تتراقص بسرعة كبيرة حتى إنها طيرت كلماته مع الريح ،
سقط قلب " قصبة " بين ضلوعه ، وفكر : " سوف أعدو عائدا ذلك
الطريق بأقصى سرعة ، وأنقذ أدواتى " ، لكنه عندما انطلق عائدا ، رأى
فتاة صغيرة سمراء تتراقص عن بُعد عند قمة الجبل مثل سحابة مندفة أمام
الريح ، وبينما كان مايزال على مسافة بعيدة اكتسحت الأدوات ورفعتها
واستعادت عقدها الخرز ، سمع ضحكاتها ، ونادت عليه : " يا بُنى " ،
سوف أكون دائما متفوقة عليك ، وسوف أبلغ " نجالى " تحياتك " ،
عندما ابتعدت متراقصة ، عرف أنه كان يعانى طوال الوقت من ريح
الصحراء الكبيرة المدممة .

قال : " هوت تاجورا ! " قوس الرمكى الكبير ! ذلك لأن الشمس كانت تنحدر تدريجياً نحو المغرب وما زالت " رؤى جوجوم " بعيدة .

عاد يعدو مرة أخرى ، لكنه لم يعد الآن يردد كلمات الرسالة ، لأن الحزن ملأ قلبه لفقده أدواته .

اندفع يعدو بسرعة البرق على السدرب الطويل حتى تجاوز ممر " ميدلبرج " ، ثم لاحظ أحد البوشمان جالسا إلى جوار الصخرة المتقلقلة على يسار الطريق ، وبينما هو يعدو سمع صيحة " الرفيق الشاحب " : " ما الأسباب المؤسفة التى دعت أخى يجر قدميه اليوم ؟ "

توقف " قصبة الشاطر " إلى جواره تماما ، وسأله : " هل يستطيع أخى أن يجرى أسرع منى ؟ "

قال " البوشمان الشاحب " : " نساء " جاكالزدارى " قلن لى هذا "

اشتعل قلب " قصبة " من الغيرة ، لأنه لم يقابل قط امرءاً أسرع منه ، سأل " قصبة الشاطر " : " هل السباق سيكون على الطريق الجبلى ؟ قال " البوشمان الشاحب " : " هايتسى ، القروود فحسب هى التى تتسلق الجبال ، لا يا صديقى ، دع السباق يجرى حتى حافة الصخرة " ، وأشار بيده لأسفل الوادى ، ثم وضعاً علامتهما ، عندما انطلقا اختفى " البوشمان الشاحب " عن البصر ، أغلق " قصبة " عينيه ، وانطلق بكل ما لديه من قوة . وعندما شعر بالأرض مستوية تحت قدميه ، رفع بصره مرة أخرى ، فرأى " البوشمان الشاحب " كأنه سحابة صغيرة من التراب ، بعيداً عند آخر الدرب ، ظلل بيده فوق عينيه ، فعرف أنه كان " أوريبي " ، ظبى " نجالى " الصغير ، وضع " قصبة الشاطر " يده على فمه وهدأ قلبه ، ثم استدار عائدا وثبا إلى الجبال .

حل الظلام قبل أن يصل " قصبة الشاطر " إلى ضفتي " موميكر " المنحدرتين ، حيث توقف هناك للمرة الأولى ، عندما هاجمه البرق صرخ " هياتسى ، إن نجالي تشعل الضوء لتعرف مكانى ! " واختبأ ، كان يمكنه أن يسمع هدير المياه العميقة من على بُعد ، حيث كان النهر يهدر فى توحش ، وإلى أمامه عند المنحدر كان يمكنه أن يرى خيط نور الفجر يشبه ذيل سمكة ، يدوم فى الدوامه .

قال " قصبة الشاطر " لنفسه : " إما أن أعبر النهر ، أو سأتحول إلى قوس الرمكى " ، وخطى نازلاً داخل الماء .

على الضفة النهر الأخرى ، كانت تقف - " كبرى " عجوز "نجالي" ، وهى مخلوقة من نواة شجرة المر - تضحك ، وقد سمع " قصبة " ضحكاتها المستهزئة ، ومن ثم قال : " هياتسى ، مرحبا أختاه ! سوف نتكلم وجها لوجه . أنا السيد هنا " ، عقب ذلك فوراً ، وقع له أمر مؤسف ، لقد نسى الرسالة التى كانت قد وصلت إلى " جامد وكيس " وحملوه إياها ، والتى تقول : إن " نجالي " قد حصلت أخيراً على العصا السحرية التى جعلت منها " سيدة على التماسيح " والمسيطرة الوحيدة عليها . وعندما دخل " قصبة الشاطر " المياه العميقة ، أحس بالتماسيح تدور من حوله ، فغنى تعويذته المضادة للتماسيح :

سوف آخذ نصيبى من هنا . . وأنت تأخذ نصيبك من هناك . .

أوه ، وأنت آيتها المخلوقات الصفراء . . خذى نصيبك . .

كانت التعويذة بلا جدوى ، وعلى الجانب الآخر ، عند الضفة الأخرى ، رأى الدوامه عند قدميه ، وبدا له العبور مستحيلاً ، لاحظ جذع شجرة من الخشب الحلو الشائك على مقربة منه ، وكان أحد أطرافه غاطساً فى المياه الضحلة ، تسلق ببطء جذع الشجرة الحلو الشائك ، وحقق إلى المكان

الذى كانت " كيرى " تابعة " نجالى " راقدة عنده ، ثم ابتسم بابتهاج وهو يدارى ضحكته ، أحس بزند الخشب الحلو وقد بدأ يتحرك من تحته ، انشب أظفاره فيه ، ونادى على جده الأكبر ثلاث مرات باسمه الأعظم ، لكن بلا جدوى ، ثم سمع صوت " كيرى " المرأة متحدية : " بُنى ، من السيد الآن ؟ "

لكنه كان قد نسى الرد .

عرف بعد ذلك أن جذع الشجرة الحلو الشائك ما هو إلا تمساح " نجالى " ؛ وفى اللحظة التالية وجد نفسه على الضفة الرملية التى كان قد بدأ من عندها ، لكنه لم يعبأ بهذا .

انطلق يعدو مرة أخرى فى الليل ، وهو يضرب على جبهته ، وراح يستدعى رسالة العجوز " هياتسى آيب " ، وأمامه مباشرة ، رأى النار الكبيرة ، فتوقف وسط الجمع عند طلوع الفجر بالضبط ، وبدأ يلقي الرسالة ، لكنه قبل أن يصل لمنتصف الرسالة ، انتزعوه من نومه ، عندئذ أدرك أنه فى " جامدوكيس " ، وأن الشخص الذى أمسك بقدمه اليسرى كان جده بشحمه ولحمه .

وكان " هياتسى آيب " يقول له " أرنب الصخر العجوز ذى العين الواحدة " : " يبدو أنه لا بد لنا من سحبه أكثر من قوس الرمكى الكبير " .

بعد ذلك أطفأوا اللهب الصغير لحكاية . . قصة الصغير الشاطر فى الدوامة .

تأليف : « أنتوني ديليوس »

حملة على قبائل الفتكاني

بقيادة " هانييل هامبتون "

مهداة إلى أبي وعمتي " مارجريت "

وأختي " إلزا-جين " وابن العم " فريدي "

الاثنين (فترة ما من يونيو) ، معسكر عند جرف قبيلة "الكافير" (١٠)

نحن هنا مع عشرة من رجال الحملة ، بالإضافة إلى آل " بوكرا " الأربعة الذين يقومون بحمايتنا ، وعلى مسافة تمتد إلى جوارى السيد "بت جوفن " ، يشبه صورة ذلك الفارس الراقد في مدفته ، و أنفه جهة السماء ، غير عابئ بما حوله ، أما أنا ، فأستخدم سرجي كمكتب ، ووتد الخيمة القديم كشمعدان ، يساعدني ضوء النجوم الشاحب ، فالليلة غير

(١٠) فير" أحد أفراد الشعوب الناطقة بلغة "البانتو" في الجنوب الإفريقي وشعوب "البانتو" تشغل الجزء الجنوبي والشرقي والغربي من الجنوب الإفريقي ، بما يعادل ثلث مساحة القارة ، ومن هذه الشعوب . . مجموعات "تسنجا" و"الفندا" ومجموعة "سوتو" وقبيلة "نجاتو" وقبيلة "تسوانا" ومجموعة قبائل "شونا" . إلخ د. محمد عوض محمد المرجع السابق

مقمرة ، والأحراش حولنا كثيفة حالكة السواد مثل القار ، وأتھياً لتدوين
مغامرات يومنا ، حسناً ، ليس هناك الكثير لقوله عن هذا اليوم ، فيما عدا
أنا قضيناه ممتطين الجياد متوغلين فى أعماق الأحراش ، نتبع نصائح
آل "بوكر" . وهم يقولون ، لأنهم ينطلقون فى الكلام جميعاً فى وقت
واحد: " أحياناً نسوق الجياد لمواجهة جيش "الزولو"^(١١) القادم من الشمال
الذى يقودهم الجنرال " شاكا"^(١٢) ، عند هذه النقطة جهرت برأى
وقلت: " إن الجنرالات الأكفاء لا يغامرون بالوقوف فى مقدمة قواتهم ،
ولكنهم يقون بالمؤخرة لتوجيه المعركة ، " كان من رأى أحد " البوكر" :
أننى إما جاهل قليل الخبرة أو أحمق ، إذا كنت أعتقد أن الكافير والزولو
لديهم نفس الفكرة عن القتال التى للفرنسيين والإنجليز ، هو - لا تسألنى
من هو ، لأن كل آل " بوكر" يبدون متشابهين مثل البطيخ - على أية حال
- لقد التمس العفو ليخبرنى بأن زعماء "الزولو" لديهم رجال من السحرة

(١١) "الزولو": من أهم القبائل الإفريقية التى سكنت الإقليم الواقع شرقى جبال
"داركنز برج" فى الجنوب الإفريقى ، وهم شعبة من شعوب "البانتو الجنوبيين". المرجع
السابق.

(١٢) الزعيم المحارب "شاكا" زعيم قبائل "الزولو" ، استطاع أن يغزو البلاد المجاورة
ويوسع الوطن ، ويجعل من "الزولو" أمة قوية مرهوبة الجانب ، وذلك فى أوائل القرن التاسع
عشر.. وقد دامت سيطرة "الزولو" على منطقة جنوب إفريقيا إلى نحو منتصف القرن التاسع
عشر حين بدأ "البوير" ينازعونهم السلطة فى أراضيهم ومازال "الزولو" يعيشون فى
أراضيهم وإن كانت دولتهم قد تفككت على إثر الاحتلال الأجنبى د . محمد عوض ، مرجع
سابق ، ربما تسمى أكثر من زعيم للزولو بأسم "شاكا"، وفى هذا العمل يتضح جانباً من
حروب المستعمرين ، المستوطنين البيض (البوير والإنجليز) ضد السكان الأصليين ، بعد
اتفاق السلام بينهما إثر انتهاء حرب البوير ١٨٩٩ - ١٩٠٢ . المترجم

هم الذين يعدون المحاربين ليجعلوهم غير مرئيين تحت وابل الرصاص ،
ومن ثم يمكنكم أن تعرفوا أنني لا أبغى مجرد الحديث الأملعى ، تصبحون
على خير .

ويسللى فيل

وصلنا الآن فى غاية الأناقة ، بعد عبورنا أربعة أنهار : " فيش " و " بيكا " ، و " كيزكاما " و " شالومنا " ، استقبلتنا " مارثا " و " چاك " بحفاوة ، كانت العجوز " مارثا " قد امتلأ جسمها قليلاً ، لكن " جاك " ظل نحيفاً مثلما كان دائماً ، إلا أن لحيته صارت أطول وأخشن . على أية حال ، مازالت " مارثا " مدبرة عظيمة ، فأنا و " بت " لم نأكل جيداً منذ أن تركنا " رِدج " من يومين ، فقد كانا مضيفين كريمين معنا ، بل وحتى مع آل " بوكر " ، فلا بد من أن تكون مسيحياً غير عادى حتى تكون مضيفاً كريماً مع آل " بوكر " ومن تعليقات " بت " على تصرفاتهم : " أنه ربما قد يطلق الرصاص على آل " بوكر " قبل أن يطلقه على " الزولو " بزم طويل " ، قالت عنا " مارثا " : " هاى ، لقد أصبحتما شابين . " ورد عليها " بت " : " أجل أختاه ، ماذا كنت تتوقعين " كل ما فى الأمر ، أنها كانت سعيدة جداً لوجودنا عندها ، كذلك الصغيران " روبرت " و " مارى " ، اللذان كبرا الآن ، أما الصغيرة " چينى " فعمرها عامان تقريباً ، وهى تحب " بت " من كل قلبها . وكان " لمارثا " " وچاك " منزل من الحجارة ملك لهما ، وهناك منزل أكبر لآل " شو " ، كان يوجد أيضاً مبنى مدرسة من نوع ردىء أقمنا فيه ، وبالطبع ، كنيسة ، وخلف كل ذلك يقيم " الكافير " المسيحيون فى

أكوأخهم ، كان آل "شو" مسافرين ، وكان ذلك سبب انزعاج "چاك" ،
فقد أقامت السيدة "شو" مع مجموعة من المبشرين الآخرين في
"بتورث" ، لكن الأب "شو" سافر إلى الشمال ليرى البعض من سلالة
أحفاد البيض الذين تعرضوا للخطر .

امتطى "الميجور دنداس" جواده ، وألقى علينا محاضرة عن
الانضباط ، قال : " أننى أعتمد عليكم أيها الرفاق الإنجليز الشباب لتكونوا
القدوة فى الانضباط أمام البويرين^(١٣) هؤلاء الهولنديون جنود وسيمون ،
لكن يعورهم الانضباط " ثم وزع علينا ملء جيب من الخرز و الأزرار
لشراء الطعام فى الطريق - على الأرجح - لشراء الماشية قال الميجور :
" إذا حصلنا على المزيد من هذا الخرز والأزرار ، قد يمكننا شراء قطع
لكل منا فى طريق العودة ، ومع ذلك نحن لا نتقدم من أجلها " وقال
"الميجور" أيضاً : " إن الماشية تلعب دوراً شيطانياً فى العمليات العسكرية ! "

الأربعاء (أعتقد أننا فى يوليو الآن)

واصل "البوير" السير ومعهم " درايز " ، وهكذا أصبحنا ثلاث
مجموعات ، نتفوق عدداً بالفعل على آل "بوكر" ، جاء الزعيم الكبير لهذه
المنطقة للتعرف علينا ، كان يدعى "باتو" ، وهو فتى أنيق - بحق - ليس
طويلاً مثل بعض "الكافير" الذين رأيتهم من قبل ، بل كان فى طول وبنية
العجوز "كوبا" ، وقد كان يرتدى كل أنواع ريش الطيور حول رأسه ،
وكاروس^(١٤) ممتازاً من جلد النمر ، ويمتطى جواداً غير مهجن ، فى

(١٣) البوير : هم المستعمرون الهولنديون .

(١٤) الكاروس : ثوب بسيطة يشبه العباءة .

صحبتة أخوه " كونجوى " ، الذى يقولون إنه حكم هؤلاء الناس - الذين يدعون قبائل " أما جونو كويى " - بعد أن قتل البوير الزعيم العجوز ، وذلك حين لم يكن " باتو " قد بلغ السن التى تسمح له بأن يصبح الزعيم .

كان الزعيم " باتو " غاية فى التهذيب ، إلا أننى استطعت أن أراه يحدق فى جمعنا الصغير من الإنجليز والبوير قائلًا لنفسه : " بحق أسلافى المقدسين ، إذا كان هؤلاء كل من جاء لمحاربة الزوله والفتكانى ، فمن الأفضل أن أبدأ التفكير فى كيفية الدفاع عن نفسى " ، مع ذلك وقف محتفظاً بابتسامة شجاعة .

الخميس ، مهمة بترورث

اجتزنا ثلاثة أنهار أخرى : " بفلو " و " چوينابى " و " كاي " ثم واصلنا السير حتى وصلنا إلى إرسالية أخرى من إرساليات الأب " شو " الماسودستينى^(١٥) ، نحن الآن على أرض الزعيم " هتسا " الزعيم الأكبر لكل " الكافير " ، كانت توجد بعض التلال الضخمة حولنا ، كلها مبرقشة بمنازل " الكافير " . يتعقد المئات والمئات منها فى مجموعات فردية وزوجية . لم نر كثيراً من الماشية حول التلال ، وقال درايز : " محتمل أنهم أخفوها بسبب الإشاعات التى تدور حول وجود " الزولو " و " الفتكانى " بالمنطقة .

السيدة " شو " والزوجات الأخريات كن غاية فى الطيبة معنا ، إلا أنهن كن قلقات على أحوال الأب " شو " بشأن ما قد يحدث قرب " ريفد " فى مثل تلك الظروف العصيبة ، إلا أن " الميجور " طمأنهن ، فقد كان لا يرى أى داع للقلق ، وأنه لا يوجد ثمة خطر ، ذلك لأننا سوف ننطلق بعيداً

(١٥) الماسودستينى : أحد أتباع الطائفة " الماسودستينية " وهى جماعة من طائفة البروتستنت .

عن تلك المنطقة فى اتجاه الشمال الغربى ، حتى منابع نهر " باشى " وبلاد زعيم قبائل " البوندو " المدعو " فاكو " ، أما الصعب بالنسبة لنا الليلة ، فهو النوم على الأرض الباردة مرة أخرى .

الجمعة ، موقع الزعيم "هنتسا"

" بت " فى الحراسة ، وأنا التالى إلا أننى كنت مرعوبا من إغلاق عيني حتى لا أرى المناظر التى شاهدها اليوم .

لقد بدأ اليوم بديعاً ، كنا نسير ممتطين الجياد فى الصباح الباكر ، وكشفت البلاد عن روعتها ، كلما توغلنا فى المنطقة تظهر التلال الخضراء ، وتمتد عليها الأكواخ مثل فصوص بُنية على أرضية خضراء ، وعن بُعد ظهرت جبال " أماتولا " - التى يقال إنها أماكن مقدسة لقبائل الكافير- ممتلئة بالأودية الصغيرة المنحدرة والغابات ، لكن المنظر الذى شد انتباهي أكثر من غيره ، ذلك الخط الطويل من السحب فى الأفق الذى لا يزيد سمكه عن سُمْك ريشة طائر ، عندما ارتفعت حرارة النهار - ذلك لأن برد الصباح هنا مهلك - عرفت أن هذا الخط ثلجٌ يرقد لأميال وأميال بطول الجبال على مدى الأفق ، قال درايز : " إنها سلسلة جبال داركتزبرج " إنها "سلسلة ترتفع آلاف الأميال ، ومن طرفها الآخر يخرج ذيل نهر النيل " ويقول : " إن "الكافير" يعتقدون أن هذه الجبال مليئة بـ " العفاريت " ، وهم يسمونها جبال " كواثلامبا " أى " أرض العفاريت " ، ولا يذهبون إلى هناك أبداً خوفاً من أن تتلبسهم تلك الأرواح .

لكن فيما بعد ، فى ذلك الصباح ، شاهدنا مناظر مختلفة تمامًا .
تلك المناظر مازالت حتى الآن وأنا أكتب عنها تُصيّنى بالغثيان ، كانت
رؤوس وأذرع وأوصال مطروحة بالمكان ، البعض منها مازال يغطيه اللحم ،
والبعض الآخر نصف متآكل ، وضربت رؤوس الصبية حتى صارت عجينة
دموية يغطيها الذباب الأزرق المرعب ، وجثة مفتوحة ممزقة ، ونسران
يسحبان قطعة طويلة من أحشائها بينهما كأنهما زرزوران يتصارعان فوق
دودة ، وقد تزايدت الرائحة الكريهة بتأثير حرارة الشمس .

لقد سمعنا عن أشياء أكثر رعبًا مما شاهدناه ، فقد انطلق العم "هينى
راديمير" - مُرشدنا البويرى - مع مجموعة من فرقته ، ووجد عددًا من
القرى على نفس الحال بل أكثر ، وقد وجدوا أحد المهاجمين ترك ليموت
بين الجثث ، هذا الرجل قال : " إنه يأسف لأن الكثيرين قتلوا ، وأنه جاء
من وراء الجبال ، حيث بات الناس هناك مثل أكلى لحوم البشر ، ولأن
عمليات القتل كثيرة فى صفوف رجال القبائل ، لذلك لم يُزرع سوى
القليل من المحاصيل ، فجاءوا من أجل الحصول على الطعام " ، بعد
ذلك مات ، ويعتقد "البوير" أن هناك مجموعات كثيرة من المهاجمين ،

امتطينا الخيل وانطلقنا بصعوبة إلى مكان الزعيم العايم "هتسا" هنا
الآلاف من الأكواخ ، والآلاف من البشر ، جميعهم يجيئون ليحدثوا بنا ،
ويسرقوا أى شىء تطوله أيديهم - فقد نهبوا لحظة وصولنا ، كيس الخبز الذى
أعطتنا إياه السيدة "شو" ، أرسل الزعيم يستدعى مستشاريه ، وعليه ،
فإن على الميجور الانتظار للتشاور معهم غدًا ، أحس بأن عينيئى تؤلمانى
الآن ، وكذلك كل جسمى ، إلا أننى لم يكن بى رغبة لإشلاقهما فى هذه
اللحظة . . يدخل "بت" من الحراسة ، إننا قلقون بسبب اللصوص
الموجودين بين حلفائنا ، أكثر من قلقنا من الفتكائى أو أى ما كان .

السبت

اليوم جلسنا جميعا فى أرض فضاء واسعة أمام موضع الزعيم العظيم "هنتسا" ، وتدارسنا ما سنقوم به فيما بعد ، على الأقل ، جلس أغلبنا خلف الميجور ورئيس البوير ، قام "كارولز" - أحد مساعدى الميجور من قبائل "الهوتنتوت" (١٦) - بالترجمة ، حقًا كان المنظر أمامنا يوقع الرهبة فى النفس ، الرجل العظيم بنفسه - الزعيم هنتسا - فى الكاروس الفخم ، والريش الجميل على رأسه ، رجل قوى البنية ، بشرته السوداء تلمع من دهنها بالزيوت والدهن ، وخلف الزعيم كل مستشاريه ، ومن ورائهم ظهر حوالى نصف شعب الكافير ، يبدو أن البعض تغيب ، فقد كنا نرى عن بُعد النساء يعملن فى الحقول والحدائق بالمعازق ، وبعض الصبية منكين على رعاية الماشية - لكنى أعتقد أنه لم يتغيب رجل ناضج عن هذا الاجتماع ، حسناً ، كان "الميجور" يسأل الزعيم توًا ، لماذا لم يستعد للدفاع عن نفسه ؟ فأشار الزعيم إلى المكان الذى كان بالفعل مكتظًا بالمقاتلين الذين تجمعوا لمحاربة قبائل "الفتكانى" ، ثم ظهر جيران الكافير ، وهم قبائل "تامبوك" ، الذين هرسهم الغزاة وكانوا قد فقدوا القرى والناس ، والآلاف من رؤوس الماشية. قال "الميجور" : إنه مر ببلدة الزعيم "باتو" ، لكنه لم يسمع من هذا الزعيم أى أمر باستدعاء القوات ،

(١٦) "الهوتنتوت" : من القبائل الإفريقية الهامة ، يقترن اسمهم بجيرانهم من قبائل "البوشمان" ، كانوا يعيشون فى الأطراف الجنوبية الغربية من مصب نهر "كونينى" إلى شبه جزيرة "الكيب" جنوباً ، وشرقى نهر "كاي" ويقسمون حسب اللهجات إلى أربع مجموعات هى : "الناما" ، و"الكوراننا" ، "الجوناكوا" ، وسكان منطقة رأس الرجاء الصالح (الكيب) ، وقد هلكت هذه المجموعات ما عدا المجموعة التى تعيش فى إقليم غرب إفريقيا شمال نهر "أورانج" ، وهم مجموعة "الناما" التى انحسرت فى مساحة ضيقة تقترب من الصحراء ، بسبب الاستعمار الاستيطانى الأوروبى ، ولا يتجاوز عددهم الآن الـ ٢٥ ألف نسمة .
د. محمد عوض ، مرجع سابق .

أو أى طلب للمساعدة . قال مستشار الزعيم متسائلاً بازدياء : " لماذا يلجأ ابن من دم سلالة تشيفو ، إلى مجرد مخلوق لـ "تشيفو" ؟ " ، فور انتهاء هذه المناقشة الغريبة ، إثر تدخل الزعيم بنفسه ، تقرر ضرورة أن نذهب بسرعة إلى "فوثنانى" زعيم "التامبوك" ، بعد جمع القوات ، فإن قوم "هنتسا" سوف يلحقون به وبنا ، ويتقدمون لمحاربة الفتكانى ، الذين يقول الجميع إنهم جماعة من الزولو ، إما فارين ، أو طليعة لهم ، وفى كل الأحوال ، كان من المتوقع أننا ستتحمل العبء الأكبر من القتال ، أخيراً ، بدأنا الرحلة مع خمسين من مقاتلى "هنتسا" ، الجو اليوم قارس البرد ، مما جعلنى أرحف قرب النار التى أخشى أن تحرق دفتر يومياتى وأنا أكتب .

الأحد

اليوم فى الصباح الباكر قبل أن نصل إلى مكان الزعيم "فوثنانى" بمسافة طويلة ، قابلنا قوماً متجهين إلى الجنوب وهم يحملون قدورهم ، وحُصر النوم ، ويسوقون ماشيتهم ، عندما وصلنا إلى الزعيم ، ساد شعور بالاضطراب ، واحتشدوا جميعاً فى المكان ، وكانت مجموعات المقاتلين المسلحة بحزم الرماح والتروس التى من جلد البقر تبدو بلا هدف ولا نظام وكثيرة الصياح ، لكن فى الوسط وقف الزعيم مهيباً ، وبدأ كأنه قد فاز بمعركة كبيرة ثوياً ، على رأسه عُرف من ريش الكركى الأزرق ، ويلف حول جسمه عباءة فضية من جلد ابن آوى ، فور أن رأنا ، راح يشكو شكوى مطولة عن أعداد الماشية التى أستولى عليها "الزوله" (١٧) .

(١٧) الزوله : هم قبائل الزولو المعروفة ، وهذه تسمية محلية .

تمت الموافقة أخيراً على إرسال رسائل مرة أخرى إلي "هنتسا" تفيده بتقدمنا معاً . كان اليوم الأحد ، ويرى البوير أنه من الأفضل أن نخيم ونقوم بالحراسة ونراعى يوم الراحة المسيحي ، على الأقل نتعشى عشاءً لائقاً ، لذلك طلب "الميجور" ثوراً من الزعيم لرجاله ، لكن الزعيم تظاهر بالحزن وقال : إن الزوله استولوا على كل ماشيته الجيدة .

تلون وجه "الميجور" بالأزرق والأحمر من كثرة صياحه ومطالبته : "لن أقبل بقرّاً عجوزاً هزياً ، ليس به سوى قروح ، وعظام ، وغضاريف ، بعد كثير من الجدل ، حصلنا أخيراً على ثور معقول مقابل بعض الخرز بعد العشاء ، أستغرق "بت" في التفكير ، وعرضنا عليه أنا و "درايز" أن ندفع له بنساً مقابل معرفتنا لما يفكر فيه .

قال "بت" معبراً عن دهشته : "كنت أفكر لو أن الأمر يحتاج كل هذا الجدل من أجل شريحة لحم ، فكم من السنين يستغرق أمر الحصول على القطيع الصغير الذي منانا به "الميجور" ؟ !"

الاثنين

نزل المطر الليلة الماضية ، وراحت الأشجار تقطر علينا ، وقد اعولت الريح بشدة هذا الصباح ، ومن غير المرجح وصول رسالة من هنتسا قبل المغرب . وصل بويرى وقال لدرايز إنهم شاهدوا أفراس النهر ، وإن لحوم هذه الأفراس لذيذة جداً ، ثم تساءل إن كنا نود الذهاب لاصطياد بعضها كي نتزود باللحم ، ذهبنا معهما إلى نهر "باشى" ، وفى مكان عريض ملئ بالطين كان رؤوس أربعة من أفراس النهر تطفو مطمئنة على سطح الماء، وفتحات أنوفها وآذانها تخفق، أطلقنا عليها زخاتٍ من الرصاص عدة مرات ، بيد أننا لم نصب سوى واحد فقط .

هبط "الميجور" علينا وهو يزأر كالأسد ، صاح بعزم طاقته : " من أى داهية تعتقدون أنكم سوف تحصلون على بارود جديد لتطلقوه ؟ بحق الله ، أرجو عندما يهجم عليكم آلاف "الزوله" إلا تجدوا أكياسكم فارغة " .

الثلاثاء

وصلت الآن رسالة من "هنتسا" ، جاء فيها أنهم سوف يلقوننا خلف نهر "باشى" ، ليسيروا قدماً إلى "الزوله" ، إننى فى غاية الانفعال لكونى سأشارك غداً أو بعد غدٍ فى معركة لأول مرة ، وانتابنى كذلك بعض الخوف .

الأربعاء

حل الفجر فور عبورنا نهر "باشى" ، واصلنا المسير لنصل فى موعدنا ، حولنا كان "التمبوك" يمشون فى عدو وئيد ، بينما يهتف السحرة ويطلقون أغانيهم ، هؤلاء السحرة الأطباء كانوا رجالاً غريبى المنظر ، يرتدون الجلود ويعلقون العظام وكل أنواع الجذور الجافة ، وكانوا طوال الطريق يحافظون على ذلك الشهيق ، واشتعلت صيحات الغضب ، والرقص والدوران ، وأحيانا كان يرد عليهم المحاربون ، فقط عند منتصف النهار تقابلنا وقوات "هنتسا" .

نحاول الآن النوم مرة أخرى ، وسط ضجيج شديد من الغناء والرقص المستمر حولنا ، وتقليد المعارك فى ضوء النار، مع قرع الطبول والدق على الأرض بالكعوب ، حتى بدا وكأن كل شىء يهتز من جراء هذا الدق . قلت للميجور : " ألن ينام هؤلاء الناس أبداً ؟ سوف يكونون

فى غاية التعب من الرقص والغناء عندما يحاربون فى الغد " ، لكن
"الميجور" قال : " إن أعراف الكافير مختلفة عن أعرافنا ، ويحتاجون
لكثير من إثارة الحماس قبل دخول المعركة ، إذا ناموا الآن فقد يفقدون
شجاعتهم ، وفى الغد تجدهم ينسلون جميعاً عائدين لموطنهم .

الجمعة

صباح انتصارنا العظيم !

لابد من أن أبدأ من بداية الأحداث ، لم يكن هناك أى ضوء عندما
عادت فرقة الاستطلاع بأخبار تقول إن الزوله قرييون جداً ، حل سكون
رهيب بين قواتنا ، نحن و"الكافير" ، و"التامبوك" ، واعتقد أنه قد خطر
ببالنا جميعاً ، إن "الزولو" الذين هزموا كل القبائل الموجودة على مسافة
مئات الأميال من حولنا ، لابد من أن حربنا معهم ستكون مسألة مختلفة
عن أى شىء قد واجهه أى منا من قبل .

كان الصباح مغلفاً بالضباب - إلى حد ما - وعندما رأينا "الزولو"
لأول مرة ، ظننا أنهم صف من الشجيرات الواقفة فى منتصف الطريق
أعلى التل - لكننا تنبهنا بسرعة إلى أنها منظمة أكثر من اللازم ، صاح
رجل : " إنهم هم ! ها هم أولاء هناك ! "

توقف كل شىء ، حتى ظننت أن قلبى توقف أيضاً - فقد وقف
حوالى ألف من محاربى "الزوله" جميعاً فى مجموعات من ثلاثة صفوف
أو أربعة ، يقطعون علينا الطريق لأعلى التل ، وقفوا هناك صامتين ،
ينظرون إلينا فقط ، لم يتحرك أحد من "التامبوك" أو "الكافير" أدنى حركة ،

انتابنى إحساس غريب ، إحساس أن السماء من فوقنا صامتة ، ظل الزولو ساكنين مثل تماثيل سوداء ، لم أعد أشعر بالرغبة فى الابتعاد والجري ، مثلما كنت أخشى أن أفعل ، وسرني وجود "بت" و "درايزر" ، وحتى الأخوة "بوكر" بالقرب منى ، وكنت متشوقاً لأعرف ما سوف أقوم به ، وما سنقوم به جميعاً ، على هذا الحال ، جلست مثل الجميع على جوادى منتصب القامة محدقاً . عندما كنا على هذا الوضع ، عادت بى ذاكرتى للوراء ، وتذكرت فجأة وبوضوح تام ، صورتى وأنا جالس على أكتاف والدى فى حقول " سانت بيتر " قبل أن نغادر إنجلترا .

تقدم أحد محاربى " الزوله " فى كثير من الزينة المبهرجة على رأسه وحول كاحليه ، وراح يلوح مهدداً برمحه ، ثم أطلق صيحة مدوية فى اتجاهنا ترددت متموجة فى الوادى لمسافة كبيرة من حولنا ، تقدم أحد السحرة الأطباء من جانبنا فى الحال ، ورفع حزمة من الرماح بيد واحدة فى اتجاه السماء ، وباليد الأخرى رفع عصاه السحرية ، وراح يصيح بنهر من الشتائم واللعنات ، فى اللحظة التالية ، صدرت قعقة عن كل يد ، ودمدمت الشفاه ، ورأيت كل محارب حولى يضرب على ترسه بحرسته ، لم يخط أى أحد ياردة خارج الخط ، و " جلس الميجور " على جواده برصانة ، وجميعنا جلسنا على جيادنا مثله ، واستمرت الصلصلة والقعقة من حولنا ، وهبطت قعقة " الزوله " فى اتجاهنا ، ثم جاء رسول من الزعماء إلى الميجور يسأل : " ألا يمكن إطلاق بعض الطلقات على الزوله ؟ " لكن الميجور أرسل رده بحدة واضحة : " لماذا لا يقوم " التمبوك " ، والكافير ببعض الهجوم ؟ " وقفت القوتان لوقت طويل تصلصل وتقعقع بالأسلحة تجاه بعضها البعض ، فى النهاية قال الميجور بضيق : " حسناً إذن ، حسناً جداً " ثم صاح علينا : " فلتتقدم المفرزة

مائة خطوة " ساد على جانبنا صمت رهيب شمل الزولو ، ولم يكن هنالك سوى أصوات صلصلة وخبب خيولنا وهى تتقدم .

صاح "الميجور" : " قف ! حدد هدفاً ، أقصى ضرب نار ! " وانطلق وابل عشوائى من الرصاص - كأنه لا يوجد شيء محدد يتوجه إليه ، وسقط رجل من بين الزولو ، وقد انثنى نصفين وهو يصرخ .

صاح الميجور : " أحسنتم يارجالى الشجعان ، عبثوا أسلحتكم كى تعطوهم ضربة أخرى ! " لكن فجأة راح "الزوله" يصعدون التل ، وصدر زئير هادر من الكافير ، و"التمبوك" الذين تسابقوا فى صعود التل وراءهم ، وامتلاً الجو بالرماح .

انطلقنا على الجياد وراءهم لأعلى التل مثل المجانين ، وصاح الميجور: " حافظوا على الخط ، وابقوا عيونكم عليّ . " فور أن بلغنا القمة ، شاهدنا الكافير ، والتامبوك وقد اشتبكوا فى قتال فعلى ، فقد كان هناك قوة أكبر من رجال "الزوله" فوق التل ، وجرى رجالنا بينهم فى فوضى .

صاح "الميجور" : " اتبعونى ، طوقوا من الجانبين ، وأطلقوا النار على خطوطهم مباشرة ، مضينا خلف الميجور لتنفيذ تلك التعليمات . كل شيء الآن يتطاير مثل يوم شديد الرياح يصطفق فيه كل شيء ، وتختلط الأصوات والأشياء ، صاح الميجور: " اثبتوا ، أطلقوا النار عند سماع الأمر ، اضرب ، أعد التعبئة ، اضرب ، أعد التعبئة ، اضرب ، " رأينا الرعب والهلع يجتاح صفوف "الزولو" ، وراح رجالهم يتساقطون على الجانبين والخلف أو يصرخون من الجراح ، وكفوا عن التقدم نحونا ، وتحولوا إلى جهتهم متراجعين ، وعمت الفوضى صفوفهم ، وانهمرت

عليهم رماح الكافير والتامبوك أيضا من الأمام ، وكان "الميجور" يصيح طوال الوقت : " الآن ، أضربوا بالدور ، نصف يعبى ، والنصف الآخر يضرب . اضرب ! اضرب ! اضرب ! " بعد ذلك الضرب المكثف ، راح الزولو يتدفقون منسحبين فى اتجاه الغابات من خلال وادٍ ضيق ، ساحبين معهم الموتى والجرحى وهم يتراجعون .

صاح الميجور : " أوقف التعبئة ، أوقف التعبئة ، دع الكافير يقومون بدورهم . " أما نحن فكنا نجوس بميدان المعركة الرئيسى نبحث عن بعض القتلى الذين تركهم الزوله خلفهم - بينما جرى الكافير والتامبوك وراءهم وهم يطعنونهم بالحرايب ، كان منظر الموت يدعو للأسف . ومن الغريب أننى لم أشعر بأن رجال الزوله الموتى أعدائى ، بل شعرت بغصة من أجلهم .

قال بوبرى باحتقار : " أهؤلاء المهزولون المتضورون جوعاً ، هم الزوله ؟ ! كنت أظنهم عمالقة " .

قال الميجور : " لا أحد يبدو أفضل وهو ميت " .

سرعان ما كان لدينا انشغال آخر للاهتمام به ، فقد وجد التامبوك ، والكافير ماشيتهم فى الغابات ، وقد راحوا يتصيدون الماشية فى كل مكان ، ونسوا محاربى " الزوله " ، وقد جاء إلينا بعض النساء والأطفال مسرعين ، وقالوا لنا أن التامبوك والكافير يقتلونهم فى الغابات ، فسلمناهم للزعيم ليعتنى بأمرهم ، ومع ذلك ملأتنا الشكوك ، وتساءلنا عما قد يحل بهم ، واسترحنا عندما شاهدناهم أحياء بعد ذلك اليوم .

اليوم التالى

سأف عن الكتابة عن انتصارنا ، فقد تشنجت يداى من كثرة الكتابة ،
وتعبت فسر جى كان المكتب ، لكن يجب أن أخبركم عن الاحتفال الكبير
الذى أقمناه بمناسبة انتصارنا ، اصطفنا عند غروب الشمس عائدين إلى
الساحة الكبيرة عند الزعيم التامبوكى ، قانعين بانسحاب الزولو الكامل ،
فقد شبعوا من بنادقنا ، لم يتوقف الكافير أو التامبوك لشكرنا ، أو حتى
استئذاننا فى الانصراف ، بل تركونا وانهمكوا فى دفع أكبر عدد من الماشية
يمكن لهم سوقها ، أقسم إنه إذا أعاد الزولو الهجوم مرة أخرى فى هذا
الوقت ، فإنهم كانوا سيواصلون السير بالماشية حية ، ويتركونا نصارع
الزولو وحدنا قدر طاقتنا ، فى النهاية ، بتنا فى كرال^(١٨) الزعيم العظيم
" فوثانى " - ولم تكن هناك لجنة للترحيب بنا ، لم يكن هناك أكثر من اللبن
الحامض أو بيرة الكافير .

فى صباح اليوم التالى ، سأل بعض البوير الميجور عن الماشية التى
سيقدمها لعمل الوليمة ، مضى الميجور وهو يدق الأرض بقدميه ، وعاد
وهو يسب ويلعن بكلام رهيب ، قال : " إنه يتمنى أن يعود الزوله ،
ويستعبدوا كل الشعب التامبوكى ، بما فيهم الزعيم فوثانى " ، فى آخر
المطاف أرسل إلينا الزعيم " فوثانى " بقرتين عجوزين نحيفتين ، برز عظام
صدريهما - كان قد أمسك بهما رجل عجوز وصبى ، أوه ، كان يجب أن
ترى وجه الميجور متشامخاً مثل القمر فى عليائه ، ومع ذلك كنا مضطرين

(١٨) الكرال : القرية فى جنوب إفريقيا ، والكرال أيضا تعنى وحدة اجتماعية
متكاملة ، وتعنى " زريبة " للحيوانات الأليفة ، وهى هنا القرية التى تمثل وحدة اجتماعية
خاصة فى جنوب إفريقيا .

لعمل شىء من تلك البهائم ، ذبحنا البقرتين لإعداد الوليمة ، ثم مرت علينا إحدى زوجات " فوثانى " ببعض البيرة ، قالت إنها لا تفهم لم نقيم وليمة منفصلة ، وهناك استعدادات جارية لعمل وليمة كبيرة الليلة القادمة للاحتفال بالنصر الكبير الذى أحرزه " التامبوك " " والكافير " على " الزوله " . لكن الميجور رد : " سيدتى ، أخبرى زوجك أننى أتمنى لكم الاستمتاع بوليمتكم وحدكم ، لأنه عندما يأتى " الزوله " فى المرة القادمة ، سوف تضربونهم وحدكم " ، قال هذا بغضب شديد حتى أن البوير كادوا يتدحرجون من الضحك ، وكان من الصعب علينا المحافظة على تعبيرات وجوهنا أمام السيدة " فوثانى " ، الزوجة الثالثة أو الرابعة بين زوجاته ، وانصرفت المرأة وقد بدا عليها الارتباك ، حسناً ، كان هذا أول احتفالأتى بنصر .

الاثنين

حسناً ، كتبت كثيراً عن المعركة حتى خشيت أن ينتهى المداد ، نحن الآن فى طريق عودتنا ، نغطى مساحة كبيرة من الطريق ذاته مرة أخرى . خلال هذه الفترة وقع حادث بين الجنرال وقائدى الفيلق المعاوين جدير بالذكر ، عندما وصلنا لمكان إقامة المعسكر الليلة ، تبين للميجور اختفاء كيسين من أكياس الأضرار النحاسية والخرز ، بعد استجوابهما ، اقتنع الميجور أن " هندريك " هو السارق ، فعلقه إلى شجرة طوال الليل ، ثم قال : " سنعقد محاكمة عسكرية له صباح الغد " ، وعليه ذهبنا للنوم ، فقد كنا جميعاً غاية فى التعب .

الثلاثاء

عقدنا المحكمة هذا الصباح ، وكان "هندريك" فى وضع يائس تماماً ، عندما رُبط إلى الشجرة ، أمر الميجور قائد الفيلق الآخر "كارولز" ، بجلده خمسين جلدة بسوط الشامبوك ، جرى الدم على ظهر هندريك ، وراح يصرخ وينتحب ، فشعرت بالأسف له ، وحسب أوامر الميجور ، أمسكنا به ، وطرحناه فى بركة أفراس النهر كى يبرد جسمه ، ألقينا فى إثره بكل ملبسه ، أخيراً ، وقف الزميل وفر إلى الضفة الأخرى ، ثم توقف هناك وراح يصيح منادياً على الميجور: " أين راتبى ؟ "

" لقد حصلت على راتبك ، وإذا أمسكت بك فى أى وقت مرة أخرى ، فسوف تنال الكثير مما نلته ! " راح "هندريك" يهدر بأقذع الشتائم واللعنات يصبها على الميجور وأمه وجميع أقاربه ، وفى النهاية رحل وهو يترنح ويتعثر داخل المرج ، وظللنا نسمع تأوهات وصياحه لوقت طويل .

سألت "كارولز" : " ماذا سيحدث له الآن ؟ " ،

" سيذهب لينبش ويستخرج ما سرقه ، ويشتري بقرأ سميناً ، وربما يتزوج من كافيرية أيضاً " .

واصلنا السير مرة أخرى ، وقرب منتصف النهار ، أدركنا رسولاً قادمًا من "جراهامز تاون" ، قال : " إن الكولونيل "سُمرست" يعلن أنه قد خرج لصدهجوم الزولو ومعه قوات كبيرة، وأنه يعسكر حالياً فى "كاي" .

الخميس

حسناً، ها هي ذى مفاجأة ، ودعنا الميجور والآخرين ، وبقينا هذه الليلة مع الكولونيل "سُمرست" وقواته ، أسفت لرحيل الآخرين ، فقد أحببناهم ، بما فيهم الأخوة "بوكر" ، ألقى الميجور على كلينا ، "بت" و أنا ، كلمة قبل أن يرحل . قال : " يا أولاد، إنكما من الرجال الممتازين ، ثابتان مثل الصخور، سوف تقومان بأعمال شجاعة إذا عشتما طويلاً، "

لكن لابد من أن أحكى لماذا بقينا نحن الاثنين هنا ، فى تلك المنطقة الجميلة فوق منحدر "كاى" ، نراقب قطعاً من الأفيال وهم يرشون الماء على أجسامهم ، بدلاً من العودة للوطن ، سوف ينقل لكم "درايز" رسائلنا فى طريق عودته، وصلنا هذا المعسكر عند منتصف نهار الأمس ، انتظرنا على مقربة من خيمة القائد ، بينما مضى الميجور لرؤية الكولونيل داخلها، وسمعنا الكثير من الجدل، كان الكولونيل يقول : " يا رجل ، هذا شيطانه، لا يمكنك التأكد " ثم خرج الميجور بعد قليل وهو يقول : إن علىّ أنا و "بت" أن نمضى لرؤية الكولونيل .

دخلنا على الكولونيل، كان جالساً عند طاولة المعسكر، وهى منشور عليها خريطة ، كنا نسمع جميعنا منذ فترة طويلة أن الكولونيل رجل متغطرس، لكننا أعجبنا به ، وتبين لنا أنه ودود جداً ، رغم حاجبيه الكثيفين وشاربه الكث ، تحدث إلينا برهة قائلاً : " إن للميجور رأياً عظيماً فينا ، وإننا شباب يُحب " - ثم واصل : " أتظنان أننى أتملقكما لغرض ما ؟ حسناً ، أجل ، هو كذلك! " وضحك كأنه أطلق أعظم نكتة فى العالم ، ثم قال : " إن الميجور يظن أنه لا حاجة لنا لتنفيذ ما طُلب

منا، فهو يعتقد أن الزولو قد تراجعوا ، قد يكون هذا صحيحاً ، ربما انسحب الزولو ، لكن لن يهربوا لسقوط بضع عشرات من القتلى ، فكما أعرف عنهم ، هذا ليس من طبيعتهم "

طلب منا الكولونيل أن نركب في الحال إلى " بویری " يعرفه ، يعيش في بلدة الكافير ، ولديه معلومات مؤكدة عن حال قوات الزولو، ويعرف هل يتقدمون أم ينسحبون، هذا البویری يدعى السيد " روجبيرج " ، سأل " بت " : " كولونيل ، هل هو مبشر ؟ "

أطلق الكولونيل شجرة طويلة وهو يصيح : " هارا ، هو ماذا ! في الحقيقة هو متشرد بائس ، يعيش في بلدة الزعيم " هنتسا " ، لكنه يعرف كل شيء يجرى من عند الحدود حتى ساحة الزعيم شاكا . "

أول شيء علينا فعله في الغد هو أن نسافر ، وسوف يركب الكولونيل عائداً إلى " جرهامز تاون " لقضاء بعض الشئون، وعلينا أن نقدم له تقريرنا هناك ، طلبت من مساعد الكولونيل اصطحاب دفتر يومياتي معه ، وإذا فُقدنا أو حدث أى شيء ، عليه تسليمه لوالدي ،

الخميس

عدنا إلى " جرهامز تاون " بسلام ، إلا أننا كنا نحمل أنباء سيئة ، فقد قال السيد " روجبيرج " : إن قوات ضخمة من الزوله مازالت تتدفق، لذلك خرج الكولونيل واصطحبنا معه عند أول ضوء لليوم التالي ، وقد استعدت دفتر يومياتي ، وسوف أخبركم عن هذا البویری . . " روجبيرج " ، عندما وصلنا " بترورث " ، وجدنا السيد " شو " وعائلته

قد رجعوا بالفعل إلى " ويسللى فيل " ، أعطتنا السيدة " شروزبيري " الكافيري المسيحي " جونثان بلكو " ليكون دليلاً يرشدنا إلى مكان " روجبيرج " ، حين اقتربنا من منزل " روجبيرج " ، رفض دليلنا الاقتراب من المنزل ، وبقي فى مكان بالقرية وأرسل معنا صبيًا ، الذى اختفى فور أن دنونا من المكان ، أو على الأصح كان يدور بنا حول المكان حتى كاد يُطلق علينا الرصاص ، وثب علينا " روجبيرج " واثنان من الكافير ، وهم يسددون بنادقهم إلى رؤوسنا حتى قبل أن نعرف أين نحن ، كاد دليلنا الصغير يموت من الرعب ،

أنصت " روجبيرج " إلينا بكثير من الشك حتى بعد أن شرحت له مهمتنا . كان رجلاً ضخماً ، له أكتاف ثور ، يرتدى ثياباً من الجلد الرث . لقد كان طول " بت " ستة أقدام وثلاث بوصات ، إلا أنه بدا هزياً أمام حجم " روجبيرج " ، هذا بالإضافة إلى كتلة من الشعر الأصفر المتشابك ، ووجه ممتلئ محترق من الشمس بلون القرميد ، وقطعتى زجاج على أنفه كنظارة ، وبذلك تخلصون إلى صورة تخيف أى إنسان ،

جلسنا معه خارج كوخ كبير يشبه كوخ الزعيم الموجود فى الساحة الكبيرة ، وإن كان مختلفاً عن الأكواخ الأخرى بخطوطه المستقيمة ، عند غروب الشمس رأينا نهراً صغيراً ، والبحر وشاطئه المتعرج بطول الساحل ، رأينا كل هذا يتلاشى فى الليل ، بينما كان " روجبيرج " يقدم لنا البيرة ، التى أحضرتها امرأة كافيرية ضخمة رائعة الشكل - كانت فى ضخامة " روجبيرج " تقريباً - إلا أنه لم يقدمها لنا ، لقد أخبرنا أسوأ الأخبار عن قبائل الزوله وزعيمهم الذى يدعى " شاكا " ، وأكد لنا أن جيش " الزوله " الضخم ، نزل من التلال لمطاردة مجموعة أخرى ، لقد أمر الزعيم " شاكا

" أن تمحى هذه المجموعة من على وجه الأرض ، وربما يكون قد لقن أيضاً " فاكو " زعيم البوندو درساً قاسياً ، ويرى أنه من الحكمة تحذير الكولونيل " سومرست " ، ومن الأفضل أن يتقدم مع بعض القوات إلى الحدود الشمالية لبلاد الزعيم " هنتسا " ، كتذكرة للزولة بعدم التقدم إلى أبعد من ذلك ، عندما فرغ من كلامه ، ودعنا ، فخرنا أفواهنا دهشة من هذه المعاملة ، إلا أن " بت " قال له بتلقائية : " ألا يمكننا المبيت الليلة ، فخيولنا متعبة من السفر طوال اليوم " .

حملق فينا ، ونخر ثم اصطحبنا إلى كوخ ، عند نهاية الطريق ، وتركنا نحك جياذنا ، ونطعمها بعض العلف الذى أحضره أحد رجاله . أما نحن ، فكنا نستعد للنوم ببطون خاوية ، إلا إن " روجبيرج " برز من الظلام يدعونا لتناول العشاء معه - بيرة الكافير ، ثريد الحنطة اليابسة ، مع لحم ومرق ، راح يشرب مثل كافيرى صميم ، فكان يتلمظ بشفتيه فوق البيرة ، وبعد كل شفقة كبيرة يههمهم همهمات استمتاع ، وأمام ركية النار ، راح يمدح تفوق كل ما هو كافيرى وهو يرفع قرعة ممتلئة : " هذه البيرة عظيمة ، لا يقارن بها أى خمر من خمركم الإنجليزى الواهى ! لماذا ؟ لأنها طعام ، وأيضاً لا تأكل المعدة مثل " براندى الكيب الأحمر ذاك " ، أكلنا بشهية وحاولنا قدر طاقتنا ألا نكثر فى الشراب ، بغرض أن نحافظ على صداقتنا به ، لكن " بت " قضى على كل شىء تقريباً عندما سأل : " منذ متى وأنت تعيش بهذه الطريقة ؟ "

وكطلقة الرصاص صاح " روجبيرج " : " مثل ماذا ؟ ! ورأينا عينيه الزرقاوين اللتين احمرتتا من تأثير البيرة ، تشعان غضباً نحونا عبر ركية النار .

قلت مستدركاً : " حسناً ، إنها تبدو حياة حرة " .

انفجر في الكلام بانفعال : " أجل ، هذه حياة حرة ، وأنا حر ، أعيش كما قصد الرب أن يعيش الإنسان ! والآخرون لا يقومون بذلك لأنهم مجموعة من الجبناء ، في قلوبهم يحسدوننا - أنا و "كونراد بايز" ، الذى تزوج "أم جيكا" - ويحسدون كل الرجال الآخرين الفارين من الكتاب المقدس والسرير المزدوج " .

بقينا صامتين محافظين على هدوئنا وهو يحدق فينا منتظراً أن نقول شيئاً ، وفى النهاية صرح برأيه فينا نحن الذين لم تنم لحاهم وشواربهم تحت أنوفهم ولم يروا شيئاً فى حياتهم بعد وصاح : " هاى ، تعتقدون أن الإنجليز مختلفون ؟ كل ما علينا أن نمشى خمسين ميلاً أو نحو ذلك فقط إلى الشمال ، لنرى سلالة الضابط الإنجليزى ، وبناته الذين تحطمت سفيتهم عند الشاطئ فى القرن الماضى ، وقال باستمتاع : " أجل ذلك الضابط الإنجليزى الممتاز ، الذى سمع أنه تزوج بطابور من نساء الكافير فى قنعة تامة ، ولم يقم بأدنى محاولة للعودة إلى إنجلترا ، واليوم كما يقول "روجبيرج" : فإن سلالتهم ، باستثناء اللون ، هم كافير أكثر من جيرانهم الأصليين ، ونسوا من زمن بعيد أنهم كانوا مسيحيين " ، كنا مضطرين أن نصدق على كلامه بأن كثيراً من الإنجليز ، وحتى كثير من البوير قد فعلوا ذلك ، عندما توقفوا عن الخوف من الكتاب المقدس ، والمبشرين ، والأمهات ، والجندات . . . إلخ

قلنا : " إن الأمر كله بالتأكيد مثير للاهتمام ، لكن لدينا يوم سفر شاق ، ولذلك نحن مضطرون للنوم ، ونشكر ، عند ذلك وثب مختطفاً

بندقيته، وصوبها إلينا من فوق النار، وراح يزأر بصوت عال : " هذا ما تريدان ، أليس كذلك ؟ حسناً ، ضعا إصبعاً على إحدى نسائي ، وسوف أنسفكما نفساً ، وأرسلكما إلى الجحيم ، فأنا أرى مثلما يرى قط ويمكنني إطلاق الرصاص فى الظلام ! "

عند ذلك استفز " بت " وقال : " سيد روجبيرج ، أنا أيضاً قادر على ذلك ! "

لم يكن هناك من طريقة لمعرفة قدرة كل منهما ، إلا بأن أضع جمرة صغيرة على بعد ثلاث ياردات ، وقد أخطأها " روجبيرج " بعد أن أطلق ثلاث طلقات ، بينما أصابها " بت " من أول طلقة، وظلت متقدة بعض الوقت إلى أن تلاشت. قال " روجبيرج " بكثير من الاحترام : " أرى أنك تحكم التصويب ، ومع ذلك لا تحاول أن تلمس أية من زوجاتى ! "

وهكذا مضينا لننام ، ورحلنا قبل الفجر ، لم يكن هناك أحد بالخارج لتوديعنا. قلت لـ "بت" ونحن نسير : " إن العجور " روجبيرج " أعجب ببراعتك فى التصويب ، وكنت أخشى أن يهديك إحدى زوجاته ! "

قال "بت" : " أنا نفسى ظننت ذلك ، حتى فكرت فى أن أخطئ الهدف " . ثم عدونا كالريح بأخبارنا عن الزولو.

الاثنين ٢٤ أغسطس

كنا حوالى ألفاً أو أكثر ، وهذا كان مختلفاً عن المجموعة الصغيرة تحت قيادة الميجور "دانداس" ، تلك الحملة كان لها طعم الحياة العسكرية الحقة ، أقمنا معسكرنا على منحدر طويل قرب نهر "باشى" ، جاء السيد

"روجبيرج" إلى المعسكر، حيانا - بت و أنا- كأصدقاء قدامى، ثم ذهب إلى حديث طويل مع الكولونيل. وصلت رسائل الزعيمين "فوثناني"، و "هنتسا" تحمل أخبار اقتراب قوات كبيرة من الزوله.

انتبهنا على جدل بين ضابط الفرقة خمسة وخمسين، وبين الكابتن "إيتشسون"، قائد كتيبة الفرسان الرماة حملة البنادق، فقد استخف ضابط الفرقة ببعض الملاحظات عن قيمة قبائل "التوتى"، وبأهميتهم كجنود، ورد عليه الكابتن "إيتشسون": "إنه يفضل أن يجد فى ظهره محاربى التوتى، فى مثل هذا النوع من الحرب، أفضل من أن يجد أى جندى من سلاح الفرسان ذاك، وذلك لأن "التوتى" يعرفون الكافير، ويفكرون بطريقتهم، وهم أسرع من كلاب الصيد عبر الأدغال"، ومن رأيه أن فرقة "الخمس والخمسين": "ما هى إلا كلب بولدوج يرتدى فائلة حمراء، ثقيل وثعبان".

الثلاثاء

الحدث الكبير، المشاورات بين الزعماء "هنتسا" و "فوثناني" و "فاكو" زعيم البوندو الشماليين، متى كنا، بت وأنا، لا نجرى لتوصيل رسائل الكولونيل لأعلى وأسفل المعسكر، فإننا كنا نجلس نستمع لما يقال. كان وعداً بأن يزحف ١٢٠٠٠ من "الكافير"، و "التمبوك" تجاه نهر "باشى" غداً، حضر هذا الاجتماع أيضاً، الزعيم "فاكو"، وهو رجل ضخيم، مرح جداً على الرغم مما حدث لقومه، قوى الملاحظة جداً، حتى أنه كان يراقب كل شىء من طرف وهو يضحك، ما أعنيه، أنه فقد الكثير من قومه، وقطيعه فى معركة مع طليعة الزولو، أو "جوام"،

أو "الفتكانى" - أياً كانوا، فالبعض يقول هذا والبعض يقول ذاك - ومع هذا -
ها هو ذا بوجهه الضخم ولحيته الصغيرة يهتز مرحاً كأنه ثمل .

اتفق الجميع على أن هناك قوة كبيرة عند "أومتاتا" سوف تلحق بها
قوات أكبر، فى ذلك المساء ، امتلأ السهل بالكافير هنا وهناك وهم
يرقصون حول نيرانهم ، وقد كان الزولو وحدهم من يفتخرون بأنهم
يمتلكون الرماح الضخمة ، والقلة منهم معها بنادق ، يعرفون بالكاد من
أية ناحية تخرج الرصاصة .

الجمعة

اشتركنا ، أنا و"بت" فى معركة " أمبولومبين" ، وكان هذا اشتباكنا
الكبير الثانى ، ويسعدنى أن أخبركم بأننا فزنا بهذه المعركة - ولم يكن
ذلك بفضل حلفائنا التمبوك ، والكافير والبوندو ، أول ما رأينا الزولو
شاهدنا مجموعة صغيرة وقد قاموا بالهجوم الأول من الأرض التى أمام
الغابات مباشرة ، ركب الكابتن "إيتشسون" مع مجموعة صغيرة ، وراح
يقول للزولو بأن يتراجعوا إلى بلدتهم - لكنهم هزؤوا به وسخروا منه
وراحوا يهاجمونه بطعنات الحراب ، عند ذلك ، رجع "إيتشسون" مسرعاً
مع رجال "الهوتتوت" ، ثم توقف وأطلق النار، ثم ركض عائداً ، ثم
توقف مرة أخرى ليطلق النار إلى أن وصل لخطوط الأسلحة النارية ،
وأطلق النار من جميع الأسلحة ، فى الحال تقدم الخط الأحمر للكتيبة
الخامسة والخمسين ، وأطلق وإبلاً على خط هجوم الزولو ، كاد الهجوم
الخاطف الذى قام به محاربو الزولو يتلاشى ، إلا أنه اندفع من الغابات
خط هجوم آخر، اصطدم بالكتيبة الخامسة والخمسين ، وصدر عن جميع

الأسلحة ضربات عنيفة، على إثرها سُمع صخب وهتافات وصرخات من ناحية رجال الزوله ، وتقدم خط هجوم آخر من بين الأشجار ، فجأة ، كأن أحداً قرع ناقوساً ضخماً بحجم السماء ، سرى صفير حاد من فوقنا ، فقال "بت" : " إنها المدفعية " . وفى الحال تحول كل شىء إلى صخب هائل من الأصوات فووم - فووم - فووم ! اصطدام ، وفرقة مدوية ! بانج ، بانج ، بانج ! صدرت صرخات وصيحات استهجان عن محاربى الزولو !

فور أن انقشع الدخان وأصبحت الساحة واضحة، ظهر رجال الزولو مضطربين، فأمطرهم رجال البوندو والكافير برماحهم، وهجموا عليهم كتلة واحدة وهم يتصايحون بأعلى أصواتهم ، قال "بت" : " أى جُبناء ! " قال أحد رجال "الهوتتوت" ضاحكاً : إذا كنا نفعل ذلك لهم، فلماذا يجب أن يجروا ويقتلوا ؟ أعتقد أنهم على حق، لكن ذلك لا يثير الإعجاب .

سرعان ما وقع عراك بين الأشجار، وانطلقت صيحات ذعر وألم مرعبة وعويل، وتردد أن مذبحه دموية تجرى بين النساء والأطفال ، أرسلنا الكولونيل إلى هناك بسرعة. كان منظرًا بائساً ، كل عائلات الزولو ، الآباء والأمهات والأطفال والرضع ، جميعهم قد ضربوا بالهراوات حتى الموت، كان يجب أن تسمعوا وتروا وجه الكولونيل عندما أخبرناه - لقد صار وجهه أرجوانياً من الغضب ، وصاح : " اسحب تلك المدفعية اللعينة إلى هنا ! " وفى اللحظة التالية سددها إلى كتلة الكافير من رجال "هنتسا" الذين هرعوا إلى الغابة، فمرت القذيفتان الأوليان من فوق

رؤوسهم ، وعندما لم يتوقفوا ضرب اثنتين سقطتا وسطهم ، حينئذ فقط توقفوا وهم يسددون رماحهم وقبضاتهم ويتصايحون .

جاء أحد الزعماء مندفعاً وهو يتساءل : " ما هذا الذى نفعله ؟ " ، فقال الكولونيل : " بحق الله سوف أسقيكم جميعاً من نفس الدواء الذى شرب منه الزوله إذا لم يتوقف هذا القتل ! " قال الزعيم : " لقد فعلوا بنا مثل هذا ! " عندئذ قال الكولونيل : " أيا كانت عادات الكافير ، فإن عادات الإنجليز هى الإبقاء على حياة العدو بعد المعركة ، وعدم إيذاء النساء والأطفال ، وحيث إن القوات الإنجليزية هى التى أحرزت النصر فى هذه المعركة ، فإن عاداتهم هى التى سوف تحترم ، " قال الزعماء : " ليس من عاداتهم إيذاء الأطفال والنساء ، لكن هؤلاء الزوله قتلوا سكان قرى كاملة ، وحسبما تقول بعض الإشاعات : إنهم أكلوهم أيضاً ، وأنه لا يمكن كبح جماح الناس فى الأخذ بثأرها " ، قال الكولونيل : " إما أن تكبحوه أتم ، أو سوف أكبحه أنا ، وسأفعل ذلك بدوى المدافع حتى لو نسفت نصف رجالكم بكل فخر ، كى أعلمهم بعض الإنسانية " ، وبذلك توقفت المذبحة ، على الأقل فى الأماكن التى سمع بها الكولونيل .

سرت اليوم إشاعة بأن هؤلاء الناس لم يكونوا من قبائل الزولو على الإطلاق ، لكنهم من قبائل "الفتكانى" و "الجوامى" ، الذين هربوا من الزوله ، أخبر الكابتن "إيتشسون" الكولونيل ، بأن رجال المدفعية يعتقدون أن "فاكو" و "هنتسا" قد خدعاه بمحاربة هؤلاء القوم ، ذلك لأن الزوله الحقيقيين لا يصطحبون زوجاتهم وأطفالهم معهم ، فالزولو يشكلون الفوج من الرجال فقط ، وللحقيقة أن العدد القليل من النساء والأطفال وبعض الرجال الذين أحضرناهم معنا ، كانوا نحافاً ويشى مظهرهم بأنهم

يتضورون من الجوع ، لم يستمع الكولونيل لأى من تلك الإشاعات ، فقد أحرزنا نصراً سهلاً ، وحافظنا على سلامة الحدود.

السبت

جاء السيد "روچبيرج" مرة أخرى ، وأخبر الكولونيل عما سمع من إشاعات غريبة ، مفادها أن القوة الرئيسية للزوله قد ارتدت عائدة ، أو أنها هزمت من قبيلة أخرى على الطريق ، وقد جاء الزعماء الثلاثة "فوثنانى" و "فاكو" و "هنتسا" مرة أخرى لمقابلة الكولونيل ، ووعدوه بالصفح عن أسرى الزولو أو الجوامى أو أيًا من كانوا حسب العادة الإنجليزية ، لقد زال الخطر الأساسى ، وتستعد قواتنا الرئيسية للعودة . وكان الزعيم "فاكو" هو الأكثر سعادة ، فقد شع وجهه الضخم بالسعادة واهتزت لحيته الصغيرة وهو يتحدث مع الكولونيل - وكان يعده " بأنه سيعامل أسراه مثل أطفاله " ، جلس إلى جواره الزعيم "هنتسا" الذى كان أكثر وقاراً وجدية - الذى أثق فيه ، مازال بعض النساء والأطفال موجودين ، وهن من قُتل أزواجهن أو اختفوا ، وكان الجميع سيرسلون إلى المستعمرة ، مع أنه لا أحد كان يعلم ماذا سيعملون هناك ؟

الثلاثاء "ويسلى فيل"

وصلنا مع مفرزة الجيش التى اصطحبت النساء والأطفال للمستعمرة ، وقد شكرنا الكولونيل لما قدمناه من مساعدة وقال : إنه يمكننا الرحيل ، كنا نشعر بالأسف للوداع ، ومع ذلك كنا سعداء بالعودة للبيت ، وكان الكولونيل دمئًا معنا دائماً ، فعندما كنا نستعد للرحيل قال : " أخبرا والديكما بأنه يحق لهما الفخر بكما ، أيها الزميلان الشابان ، يوماً ما قد

تكونا ضابطين ، وسوف أزيكما لأية مهمة فى أى وقت تطلبونها منى " ،
فيما بعد نطق "بيتر" بما كان يدور بنفسى فى هذه اللحظة : " إن ثمانية
أسابيع من نوع هذه الحياة كافية تماماً ، ولا أحب أن أعيشها للأبد ، حتى
لو كنت كولونيلاً " .

قابلنا السيد والسيدة " شو " مرة أخرى ، وقضينا المساء مع "مارتا"
و "جاك" أيضاً، اللذين كانا مفتونين بمآثرنا العسكرية . قال لى السيد
"شو" - الذى كان بمكان ما فى الخارج : "أتمنى أن يزورنا والدك يوماً ما"
ذلك لأنه عندما جئت إلى هنا أول مرة ، كان لا يأمل خيراً ، قال لى هذا
بهدوء شديد ، لكننى متأكد من أنه سيرحب بزيارة والدى ، كذلك
"جاك" و "مارتا" ، وأيضاً ابن و بنت أخى " بت " الصغيران .

الخميس

العودة للبيت ، ونهاية المذكرات .

جوكاتونج والجاموس البرى

ترجمها عن لغة تسوانا : سول ت .

جوكاتونج چيلاشى ، زعيم قبيلة " بكوينا " فى ماليالو ، يعد الباكونى الذى ارتحل كثيراً ، سواء سيراً على الأقدام ، أو ممتطياً جواداً ، أو فى القطارات ، أو متنقلاً بالقوارب فى النهر والبحر .

اصطاد الفيلة والأسود ، وشاهد الكثير ، وبعض حكاياته عن تجاربه تبدو غير معقولة وغريبة ، والحكاية التالية واحدة منها ، يقول :

" كنا مجموعة من البكونيين عائدين من المنجم فى روديسيا ، قاصدين السفر إلى "جويلو" للحاق بقطار العودة إلى بتسوانا ، كان فى الغابة التى نعبرها ما يشبه آثار حوافر قطع من الماشية ، مختلطة مع آثار أقدام كلاب ، وتساءلنا ما نوع القطيع الذى يمكن أن يعيش بعيداً عن بيوت البشر ، وبينما نحن فى دهشتنا ، ظهر بعض من " المتابليين " ، وهم من مقتضى الأثر . أخبرونا بأنها ليست آثار ثيران وكلاب ، إنما هى آثار جاموس وحمر وحشية ، ثم واصلنا سيرنا حتى محطة البريد ، حيث كان من المعتاد تغيير جياد عربات البريد هناك .

كان مسئولو المحطة رجلين أبيضين ، حملاً بندقيتيهما ، وامتطيا جواديهما ، وسارا فى الطريق معنا ، عندما توغلنا فى الغابة ، قابلنا قطعاً ضخماً

من صغار الجاموس البرى ، تقدم الرجلان الأبيضان ، واستعدا لإطلاق النار ، قال المتابلى : " الآن سوف يضع الأبيضان أقدامهما فى عش الزناير ، وراح يبحث عن بعض الأشجار القوية ، ثم تسلق إحداها ، وقال لنا : " من لا يتسلق الشجرة الآن لن يرى أمه مرة أخرى " ، بينما فتح الرجلان الأبيضان المتقدمان النار على القطيع ، فصرخ عجل من بينها .

حين كنا جالسين بين أفرع الأشجار ، رأينا سحابة من التراب ، ظلت تكبر حتى بدا أنها سوف تبلغ سحب السماء ؛ ثم قال المتابلى : "إنهم قادمون " ، اقتربت سحابة التراب ، وبزغ من الغابة فى الحال ، قطع من الجاموس البرى يعدو مسرعاً ناحية العجول ، امتطى الأبيضان جواديهما وفرا هارين .

عندما اقترب الجاموس من العجول ، تنحى ثور عن الآخرين ، وظل يعدو مطاردا الرجلين الأبيضين ، برغم سرعة الجوادين ، إلا أننا اندهشنا لرؤية الثور يتفوق عليهما ، بل اندفع فيما بينهما ، وتخطاهما ، ثم استدار أخيراً عائداً ، لينضم للقطيع ثانية ، لقد حدث كل ذلك بسرعة حتى أننا ظننا أن الثور لم يفعل شيئاً ؛ وفى الحقيقة كان قد فعل ، لقد تسبب فى خراب كبير .

عندما استدار الثور عائداً ، كان قد أسقط جواداً براكبه ، وحين نزلنا من على الأشجار ، وجدنا الثور قد مزق جانب الجواد بقرنيه فى أثناء عدوه ، وسحق ريلة ساق الرجل ، لكن لحسن حظه لم تنكسر أية عظمة ، إلا أن الجواد نفق ، حملنا الرجل الجريح ، ووضعناه على ظهر الجواد الآخر ، ونقلناه إلى محطته ، ثم واصلنا رحلتنا .

تأليف: «ج. بيرسى فيتز باتريك»

" إن مهارة الحكى لا تضاهى براعة اكتمال الحدث " ،

صدر هذا التعليق ذات ليلة فجأة عن شخص ما نسيته فى كوخ أحد رواد الغابات منذ سنوات وسنوات - وكنا قد فرغنا من صيد الحيات ، وموسم الصيد كله ، وبضربات حظ موفقة نجونا من المخاطر- فانصرفنا لحديث عن الصُّدف ، روى لنا أحد الموجودين تجربة مر بها ، فقد انضم إلينا رجل معروف فى مجال نشاطنا ، وكان من الواضح استحالة تقابلهما معاً من قبل ، حيث قارنا التواريخ والأماكن التى تواجدا فيها لعشر سنوات مضت . بل وكلاهما كان متحيراً من الافتراض الغامض بأنهما شاهدا بعضهما البعض من قبل ، وفى حالة صديقنا، بسبب شىء ما مؤكد كان تعليقه على الآخر : " لا أستطيع أن أفسر لك إحساسى بأننى شاهدتك من قبل فى مكان ما مخيف ، أو قد أكون رأيتك فى حلم " .

تلاشى هذا الانطباع الأول بسرعة ، ونسيه كلاهما تماماً ، وفيما بعد تقاسما كوخاً قرب "رايمر كريك" ، ثم عندما راجت فكرة المنازل عاشا لسنوات عديدة معاً ، إلا أن ذلك الانطباع الأول كان يرقد كامناً فى نفسيهما ، وإن لم يمت .

ذات يوم فى أثناء تبادل الحكايات ، تحدث الرجل الآخر " عن أخطر تجربة مرت به للنجاة بحياته " ، وكان ذلك بسبب خطأ بسيط ، حكى أن " الكمسارى " كان قد جمع التذاكر من الركاب النازلين من القطار عند نهاية جسر المشاة ، فبدلاً من أن يجمعها من الركاب فور نزولهم من القطار وقبل أن يعبروا الجسر ، أخذها منهم عند نهايته ، وكانت النتيجة أن حشد المشاة كان كبيراً جداً على الجسر الصغير ، فانزلق الجسر من فوق دعاماته ، وحمل معه حوالى مائتى شخص إلى النهر ، وكان الذى يحكى واحد منهم . عندئذ تحركت الفكرة الكامنة وظهرت للحياة ، فقد رفع صديقنا يديه مثلما فعل منذ خمسة عشر عاماً ، عندما انهار الجسر الصغير فى مدينة " باث " ، وشهق قائلاً : " يا إلهى ! كنت أنت ذلك الرجل الآخر الذى تعلق بسياج الجسر ! ذاك هو المكان الذى تقابلنا فيه " .

وهذا ما دعى الشخص الذى كان ناسياً : بعد أن انحدرنا إلى الصمت - للقول : " إن مهارة الحكى لا تضاهى براعة اكتمال الحدث " .
لقد استدعيت هذا التعليق كذريعة لقول الحقيقة التامة كما حدثت بالفعل .

عندما يقضى الإنسان بضع سنوات من حياته - سنوات الشباب - فى الـ " فيلد " ^(١٩) ، أو السكك الحديدية ، أو خيمة ، أو دغل ، فهناك قاعدة ثابتة ، بأن شيئاً ما لا نستطيع تحديده ينبت داخله ويموت بموته فقط ، هذا الشيء - غريزة ، أو شعور ، أو رغبة ملحة - سمّه ما شئت ، تستيقظ فيه دورياً ، وتصبح جنوناً مطبقاً ، يطلقون على هذه الحالة " حمى السفر " ،

(١٩) جزء من هضبة الترانسفال ، تتنوع فيها الحياة النباتية من الأعشاب القصيرة إلى غابات السافانا - المترجم - .

حينئذ ، مثلما اعتاد صديقي العجوز القول : " لا بد من أن ترحل ، أو ستفجرا ! " هناك الكثير من الحكايات عن حمى السفر ، لكن هذه ليست واحدة منها ، وإذا سألتهم هؤلاء الذين عرفوا هذا النوع من البشر ، أو من الأفضل ، أن تمسك بأي من الأيدي العجوز والرأس العنيد ، والملاحظات المألوفة ، والأفكار غير الرومانتيكية لهؤلاء الأشخاص الذين عاشوا في الفيلد - وإذا منحتهم وقتاً ، سوف تجدهم لا شعورياً ، وبلا استثناء - لديهم ما يحكونه حول نار المخيم ، أعتقد تماماً أن أكبر متعة في حياة الفيلد كامنة في التحلق حول نار المخيم ، حيث تبادل الحكايات حول النار ، وتشويقها ، وخصوبتها ، والصمت العميق ، إن أقل الناس حديثاً في العالم سوف يجد نفسه تحت إغراء فض حكاية وسط دائرة الضوء حول نار المخيم .

كل شيء هادئ تماماً ، مؤنس ، والموضوعات في المرج ليست كثيرة ، حتى إن أي رجل عنده شيء ممتع سوف يسيطر على المستمعين ، لا أحد يمل ، ولا أحد يقاطع ، ربما كانت حالة شبه الكسل هي الحالة المفضلة للقيام بدور المستمع ، وهي الطريقة الوحيدة الأفضل من الملل ومقاطعة الحديث .

فتنة الحياة التي تفوق الوصف ، من تذوقها لا يملها ولا ينساها أبداً ، ولا يتوقف إحساس الشوق في أن يعود إليها فور أن يتركها .
كان ذلك في عام ٩١ ، العام الذي تلا ارتياد الرواد طريق الأدغال مع مرشدهم " سيلوس " ، واحتلوا " ماشونالاند " (٢٠) ، كنا نتبع آثارهم ،

(٢٠) ماشونالاند : هذا الاسم الذي أطلقه الأوروبيون في منتصف القرن التاسع عشر تقريباً على أرض قبائل "شونا" وهم من الشعوب المتحدثة بلغة البانتو ، يعملون بالفلاحة ورعى الماشية ، وقد قسم البريطانيون ماشونالاند الواقعة في الشمال الشرقي من جنوب إفريقيا إلى مقاطعتين ، ماشونالاند وكانت تدعى روديسيا منذ ١٩٢٣ ، ومتابلي لاند (التي يسكنها شعوب ندبيلي) . وقد استقلت ماشونالاند بشطريها وأصبحت تدعى الآن زيمبابوي .
دائرة المعارف البريطانية Britanicom .

وعشنا مرة أخرى ليااليهم وأيامهم المشوبة بالقلق ، عندما كانوا حفنة من الرجال فى أدغال كثيفة ، تحت رحمة الآلاف من قبائل " الماتبليه " ، لا يعرفون متى سينقضون عليهم ليذبحوهم .

عبرنا " اللندى " ، وفى مكان ما بعده ، حيث قضى الرواد أسوأ ليااليهم ، استرخينا فى سلام وأمن ، ورحنا نثرثر حول ما أشيع عن المعابد القديمة ، ومقابر الرواد الجدد ، كنا ستة ، رقدنا حول النار فى صمت مشجع على الكسل ، مكتفين من الحديث ، نحيا ببساطة ونشرب نخب بهاء ليلة إفريقية يجل جمالها عن الوصف .

كسر الصمت الطويل شخصٌ ما خبط غليونيه وطلب تبغًا ، كان هو العجوز " بربرتونيان " الذى اضطر لفك كيس التبغ ، نظر حوله بسمت من يحتاج لأحدٍ يتحدث إليه ، وإذ لم يبد أىٌ منا إشارة ، سأل من فوره : " يا شباب ، هل أنتم نائمون ؟ "

أجابته أصوات واضحة يقظة ، بكل درجات التأكيد : " لا ! " قال وهو يعيد حشو غليونيه ببطء : " تعرفون أن كل شىء يعتمد على وجهة النظر ، فقد كنت أفكر توًا فى مثل هذا النوع من الأمور ، أقصد أن ليلة مثل هذه ، وكل ما حولنا من جمال ، على الرغم من أنها تبدو غاية فى الكمال من وجهة نظرنا ، إلا أنها قد تكون بالنسبة لأسد أو نمر بلاءً تامًا " .

قال مساح الأراضي : " أيها العجوز ، إن عطفك لا حدود له ، ألق لي بنار ، وعزّ نفسك بأن أصدقائك من الحيوانات المفترسة قد قامت بالواجب عندما كان الآخرون في غاية البؤس ، فلتكن نظرتك لصالح الإنسان أكثر " .

اقترح آخر : " إذا أردت التعبير عن تعاطفك الإنساني ، ألق لي بوسادة ، فقد صنعت من الدلو وسادة ، والنتيجة أنى حصلت على انبعاثة في رأسى ، الوسادة المكتنزة يا والدى العجوز ، لو أعطيتنى الوسادة المكتنزة سوف أوافق على أن الأسود تواجه وقتاً عصياً عندما يصادفها جو جميل وصافٍ مثل هذا " .

أشعل "بربرتونيان" غليونيه ، وألقى بالوسادة إلى المتحدث ، راح ينخر ويهمهم بين نفحات الدخان ، ثم قال : "كنت أفكر فعلاً في ذلك من وجهة نظر إنسانية ، من وجهة نظر ذلك الشقى المسكين الذى تاه هنا منذ شهرين ، هو الآن غير قادر على التفكير في ليالٍ مثل هذه ، هل تظن أنه كان يتأمل جمالها ؟ ! " .

قال واحد منا : "أوه ، لقد سمعت شيئاً عنه ، تاه لأربعين يوماً في البرية ، أليس هو من تقصد ؟ لقد أثرت الصدمة في نفسه بشدة " .

"أجل ! ، والحادث كان محض مصادفة ، فقد تاه أربعين يوماً وليلة فقط ، " رحل ومعه بندقية وخمس خراطيش ليصطاد دويكر" ^(٢١) ، قرب ضفة نهر "نينا" ، و بشكل ما ضل طريقه قرب غروب الشمس ، عندئذ

(٢١) نوع من الظباء الإفريقية .

فقد صوابه ، كل ما كان معه ، خمس خراطيش ، وسبعة أعواد كبريت ، بلا طعام أو غطاء ، ولا بوصلة ، وبلا خبيرة أو شطارة! " ثم واصل حديثه : " تلك بداية مبشرة بالنجاح لنزهة الأربعين يومًا أليس كذلك ؟ حسنًا ، أطلق كل خراطيشه فى الظلام محاولاً إبلاغ معسكره عن مكانه بالإشارة ، بعد ذلك رمى بندقيته ، فى الواقع ! كان يرتعد من الخوف ، فكسر عودى كبريت قبل أن يدرك أن كل ما معه سبعة أعواد فقط ، ولأنه لم يكن لديه ما يطهوه ، فلن يحدث فرقاً إذا كان معه كبريت أم لا " .

"ماذا ، فى فصل الشتاء ، والأسود تدور حوله ؟ "

" أجل ، حسنًا ، يعتاد الإنسان على أى شىء ، كان الجو باردًا ، والدنيا حوله غارقة فى المياه ، أحياناً ، فى أول الأمر أخافته الأسود كثيراً ، وجعلته يلجأ إلى الشجرة عدة ليال ؛ لكنه يقول إن ذلك لا يعد شيئاً ذا بال ، حينما تفقد الحس بكيئونتك - لكن رغم ذلك - يبقى الإحساس بالموت حياً نشطاً .

"ما هذا ؟ هل مازال حياً ؟ "

"أوه ، هو نفسه لم يكن يعرف كيف ظل على قيد الحياة ، إلا أننا استطعنا أن نعرف كيف عاش عندما رأينا الظروف التى وجدناه فيها ، كنا نصطاد على مسافة خمسة أميال تقريباً فى اتجاه منبع النهر ، وعند لسان رملى شاهدنا آثار أقدام حديثة ، كانت أقداماً عارية ، فظننا أنها لزنجى . وتعجبنا لأنه لا يوجد " كرال " بالقرب من ذلك المكان ، ولم نر أية آثار لقطيع أو مدق ، كنت أقف عند رأس ضفة النهر متوقعاً فى كل لحظة ظهور ظبى صغير أو وعل يندفع من الدغل ، وأصدقكم القول - لا أعرف

متى كانت بداية هذا التحول - فعندما وقعت عيناى على وجه أبيض ينظر إلى من حفرة دب النمل ، لم يكن هناك نظرة أكثر بؤساً و غرابة ووحشية ومطاردة من تلك النظرة التى جعلتنى أوجه بندقيتى إليه عندما اتجه ناحيتى - حين وصل الآخرون ، راح يتقدم ببطء وهو يزحف ، متصلياً ، عارياً تماماً ، ومحترقاً من الشمس ، وكان جلده كله مخربشاً ، إنساناً مذهولاً ، ظل يحدق إلينا بنظرة ممسوس ، ثم زحف نحونا ، وضحك ! عدنا به إلى مخيمنا ، لم يكن قادراً على إخبارنا بشيء ، لا يكاد يفهم أى سؤال من أسئلتنا ، كان يلهث ، يدها مجروحتان ومشوهتان ، فقد بليت أظفاره من الحفر فى أثناء بحثه عن الجذور ، ذهبنا إلى وكره ، كان حفرة دب نمل كبيرة ، تحت شجرة عتيقة بين الصخور - بقعة مختارة بعناية أعتقد أنه هو الذى حفرها - وإلى جانبها حفرة صغيرة مثل عش الحمام المجوف ، داخل الحفرة ، كانت بقايا البندق ، وجذور ممصوفة ، وبذور فاكهة ومثل هذه الأشياء ، لم أفهم كيف يمكن أن يكون إنسان مجنوناً تقريباً - مثلماً كان هو حين ذاك - وأن يكون لديه وعى يدفعه لجمع جذور الفاكهة البرية ليحافظ على الروح والجسم معا - ؟! فقد كان لديه بالفعل حس غريزى أكثر منها إدراكاً أو معرفة .

قال المليونير الذى لديه من الملايين فى حسابه أكثر مما يتوقع بالنسبة لرحال فى ماشونالاند : "حقاً إنه موضوع موحى ، رجل يحتضر من الجوع على مدى طلقة رصاص من أصدقائه ومن الزاد ، عاجز بالرغم من الثروات التى منحتها له الحضارة ، وأنقذ من الموت المحقق بفضل الغريزة المباركة التى لا نعرف أنها بداخلنا منذ القردة العليا شبيهة الإنسان ! همم ! أنت على حق يا "بربرتونيان" ! إنه لم يكن قادراً على تأمل جمال الليل ،

هذا إذا كان قد فكر على الإطلاق ، لابد من أن لديه تفسيراً ممتازاً لتردى وانحدار الإنسان حين كان ينبش الأرض بحثاً عن الجذور بأصابع دامية خالية من الأظفار ، أو وهو يتسلق من أجل البندق بدون ذيل يعتمد عليه ليثبتته فوق الأشجار! " .

كان بيننا رجل بحرية متقاعد ، نظيف الهيئة ، برونزى البشرة ، له نظرة داهية ، وكان مصرّاً على الاستماع للحديث فحسب ، ونادراً ما أبدى ملاحظة على ما يقوله المتحلقون حول النار ، جلس مربع الساقين ، ويعين مغلقة - أظن أنها عادة خاصة بمن ينظرون فى التلسكوب - راح يراقب "بربرتونيان" وهو مفتون بحديثه ، أخيراً تكلم بتأن ، وفيما يبدو كان يتكلم تحت إلحاح دافع لا يقاوم ، قال : " أجل ، إنك لا تدرك أبداً كيف يتلقون الصدمات ، ذات يوم انتشلنا رجلاً كان زميلاه ممددين إلى جواره ميتين لأيام وأيام ، كان آخر شيء يذكره قبل أن يهذى ، هو حصوله على بعض من حمض الكربوليك من وعاء ظبى صغير ، كان زميلاه قد ماتا قبل هذه الواقعة بيومين ، ولم تكن لديه القوة لرفعهما من فوق المركب ليلقى بهما إلى البحر ، كنت أظن أنه يريد أن يشرب الكربوليك ، على أية حال ، كان يسكب الحمض ويفقد صوابه من رائحته المحيطة به ، تعافى أثناء وجوده معنا - حيث كنا عائدتين من رحلة استطلاعية مضجرة فى عرض البحر - ومع ذلك فقد وعيه وعاود الهذيان ، وعانى من الحالات الأخرى التى وجدناه عليها مرتين خلال الفترة التى استغرقتها رحلتنا ، بعد بحث ظروف الحادث ، اكتشف طبيبنا أن سبب هذه الحالة ، كان رائحة الكربوليك تلك التى كانت تذهب بعقله - ذات يوم - بعد سنوات من هذا الحادث الذى مات بسببه تقريباً - أصابته حمى ، وكانوا يطهرون

حجرته ، ولحسن حظه أنه أصبح خطراً وعنيفاً ، فاضطروا لنقله إلى مكان آخر ، وبعد بضعة أيام أصبح على ما يرام . "

" لكن هل تعتقد أن الإنسان قادر على أن يعيش خارج المعقول فترة طويلة من عمره بمثل تلك الطريقة التي عاش بها الفتى أربعين يوماً ؟ لنفترض أنه يمكنه ، تخيل أن ينسى الإنسان الاستعمال الحضارى للسان والأطراف والعقل ، شئ مهول ! أليس كذلك ؟ ومع هذا ، هناك أناس يختارون أن يعيشوا الحياة البدائية والهمجية ، رجال كانت حياتهم أصلاً مريحة ! "

قال "بربرتونيان" : " كل ذلك حسن جداً ، إنك تتحدث الآن عن ناس يقيمون بين الهمج ، وفي البرارى بإرادتهم واختيارهم ، وباحتياجات معينة وضعت للحالات الطارئة . . إلخ ، وليسوا رجالاً تائهين "

حتى فى هذا الوضع ، فإن تلك الظروف تفسد الإنسان بشكل فظيع . "

قال "بربرتونيان" متأملاً: "حسناً ، إنى أعرف الكثير عن ذلك ، إن هذا يعتمد على الرجل ذاته ، وأذكركم بأننى أعتقد أن نهايتهم تكون دائماً إخفاقاً مأساوياً ، مشكلة ، ودمار ، وقل ما شئت من تلك الصفات السلبية ، فنحن لا يمكن أن نرتد إلى البربرية بإرادتنا ، فقد اخترنا الحضارة بحسناتها وسيئاتها ، والإنسان الذى يهجرها يدفع ضريبة باهظة فى الطريق الذى يسلكه ، على الأرجح ، سيصل إلى حيث لم يتوقع قط "

ابتسم الصحفى ،

قال ونظرة خبث تطل من عينيه : " أعرف هذه الحكاية ، لقد حكيت لنا عنها فى مخيم " تشرشل " الليلة الماضية ، رجل صاحب نفوذ ومنزلة رفيعة ، صار همجياً وتزوج امرأتين ، واخذ بالك ، امرأتين ! وهن من نساء الكافير ، وأصبح زعيماً لقبائل " سوازى " ، ونتج عن ذلك مأساة . . . "

رد "بربرتونيان" : " اللعنة على تلك الحكاية ! هذه حالة واحدة من بين عشرين حالة من هذا النوع . "

التقط بربرتونيان السخرية التى فى حديث الصحفى ، وكـره أن يتاجر به ، فتوقف عن الحديث . "

قال المليونير : " فى عام ٨٦ ، كنت على الحدود بين الترنسفال وسوازى^(٢٢) اذكر أنك أخبرتنا بحكايات مماثلة آنذاك ، إه ؟ كانت "سوازى لاند" حارة جداً ، حتى ظننت أنها المنطقة الأشد حرارة فى جنوب إفريقيا كله ، إه ؟ "

" أنت على حق ، فهى فعلاً حدث ، " ثم قال "بربرتونيان" بحذر : " إنك تتحدث عن رجال متهورين ، يلعبون لعبة الأبيض و الزنجى ، حسناً بمقدورى أن أخبركم عن هذا ، فإن صديقين من أصدقائى لعبا هذه اللعبة ، أراهن بحياتى إنهما من أفضل الرجال ، وليس هناك رجل متحضر أفضل منهما ، ولا يمكن لكل طرق الكافير أن تغير من سلوكهما المتحضر "

(٢٢) سوازى ، سوازيلاند ، أرض شعوب السوازى ، يعيشون فى منطقة جنوب شرق أفريقيا ، أو شرق الترنسفال ، وشعوب السوازى من الشعوب الزراعية ، كما يقومون بالرعى تنتمى لغاتهم إلى مجموعة لغات "البانتو" - "كونغو" ، "النيجر" - "كونغو" ، بالإضافة إلى لغة قبائل "الزولو" ، "زاهوسا" ، كما توجد مجموعة أثنية تدعى "ناجونى" فى جنوب سوازى لاند ، دائرة المعارف البريطانية .

سأل المليونير : "هل تقصد أنك عرفت رجالاً من البيض استقروا بين القوم المحليين، ويعيشون بينهم كأفراد منهم، ومع ذلك يحتفظون بالسلوكيات، والعادات، والقدرات الطبيعية، والطرق المميزة العقلية والجسدية، بل وطموحات الرجل الأبيض؟"

"حسناً، لا أستطيع قول ذلك، لأن طموحاتهم إن استطعت قياسها، أصبحت طموحات كافيرية، بمعنى أنهم يطمحون لامتلاك قطعان الماشية، والصيد بمهارة، لكنني - لا أعرف إن كان صحيحاً قول هذا أم لا - إنه في كل الحالات، كان هؤلاء "يشعرون بحنين جارف" للعودة لحياة البيض ثانية إن أجلاً أو عاجلاً، ربما كان طموحهم بأن يكونوا من الكافير نوعاً من التطلع المؤقت، أو أن رغبتهم في العودة لطرائق البيض نوع من الهوس العابر، من يدري؟! من خبرتي بهم، يمكن أن أقول: إن العودة إلى بنى جنسهم، تعنى حكماً عليهم بالإخفاق والدمار، لا أدري لماذا؟! إلا أنني لاحظت ذلك، وهو يبدو لي كنوع من القضاء والقدر، إذا كنت تعتقد في مثل هذه الأمور"

بعد أن سحب عدة أنفاس من غليونه للمرة الثانية، قال: "أتدري، يوجد حس من العدالة في ذلك، فالخضارة التي احتُقرت وهُزئ بها، هي أداة الانتقام لنفسها! إذا أمكن للإنسان أن يلبس الخضارة المجردة مشاعره الخاصة، فيأله من انتقام!! عندما ترى الخضارة المرتدين، مرضى وحزاني، مخزيين، تراهم وهم يعودون إلى طرائق شبابهم وأعرافهم، خاضعين لجزء مما كانوا يحتقرونه ويرفضونه"

اتخذ "بربرتونيان" ثمة الحكيم المتفلسف وهو يستعيد الذكريات خلال تلك الليلة الصافية، فإن أبدى أحد ملاحظة عن ما هو الجمال عامة،

يجلس منتصب القامة ، ويهز رأسه العجوز بضع مرات فى صمت ، ثم وبحكم العادة ، يتفحص غليونه ويخبطه فى كعب حذائه ويتدفق حديث الذكريات الذى يوضح فلسفته .

كان يسبق حديثه عادة بفترة تشويق تأملية طويلة ، ثم يقول : " حسناً ، أتعرفون ، كنت أعتقد دائماً أن ثمة شيئاً غريباً فى هذه الأشياء ، " وقد ينظر بعينين نصف مغمضتين ناحية تجويف غليونه الفارغ ، ويبحث عن التبغ ، وقد ينخر نخرتين ، بعد ذلك يشعل غليونه ومن خلال نفثات الدخان يقول . . اذكر أنه فى ٧٨ ، خلال رحلة حج ، أو ، فى عام ٨٦ كان لى رفيق طريق .

أما هذه الليلة فكان يجلس على طريقة الترزى ، مُرتكزاً بمرفقيه على رُكبتيه المطويتين ، ويداه متشابكتان فوق تجويف غليونه ، قال وهو يتسم ابتسامة المتأمل : " من أغرب المقابلات التى مرت بى فى حياتى ، كانت فى بلاد السوازى عام ٨٥ ، هل أخبرتكم عن "ماهاش" والمهماز الفضى ؟ " ثم ضحك ضحكة خافتة راحت تقرر فى التجويف الضخم لغليونه ،

" كنا اثنين يجوبان بلاد السوازى على جوادين ، متجهين إلى المخيم عند نهر "مابوتا" ، كنا قد تعاركنا مع البرتغاليين حول بعض الماشية التى سرقها منا الزوج ، أصيب بعض الزوج أثناء الشجار ، ومن ثم كان لابد من أن نترج عن المكان لبعض الوقت ، ونأخذ قسطاً من الراحة فى "ليومبو" ، إلا أن ذلك لم يحدث ، فعندما وصلنا إلى "كوماتى" ، قيل لنا : إن هناك رجلاً أبيض فى "ليومبو" ، وكان الكافير يسمونه "سيوجوان" ، يطلق الزوج هذا الاسم على من يلبس "مونكل" أو نظارات ، كنا نخب بالجياذ كى ننجز الثلاثين ميلاً التى علينا أن نقطعها فى اليوم ، وكنا نعيش على العيش المقدد الذى يسوى فوق صفيحة صغيرة ،

وعلى الطير البرى السويذى إذا صادفنا ، كل وجبتين مرة ، وعلى "الأمازى" - أى اللبن الرايب - ، اعتدنا النوم فى المرج كل ليلة بدثار واحد لكل منا، والسرج "نعمله" وسادة ، ونضع أوتاد الجياد إلى جوار رؤوسنا، كانت تلك الليالى رائعة ! على الرغم من أننا كنا دائما متعبين ، وكثيراً ما كنا جائعين ، إلا أن الرقاد فى سلام وهدوء بالأدغال ، والنظر للسماء المرصعة بالنجوم التى تشبه ذرات الماس ، لا تأبه بشيء فى العالم ، ياه . . . ياه - هذه هى الحياة ! لشهور لم نكن ندرى شيئاً عن العلم الخارجى، ولم نكن مهتمين بالعالم ، لدرجة أنه لم يعد له وجود بالنسبة لنا ، كان لدينا كتاب واحد ، هو كتاب "أنجولدسبى" للحكايات الخرافية، وكنت تسمع الضحك العالى هنا وهناك على "غراب ريمز" ، و"مرح الساحرات" ، والحكايات الأخرى، حتى ليتمكن عمل دراسة عن وجه كل منا .

ما علينا ، سأحدثكم عن "ماهاش" ، كان "ماهاش" إندونياً كبيراً ، لديه من خمسة إلى سبعة آلاف محارب ، وكان تابعاً للزعيم "أوماندينى" ، إلا أنه كان يدفع إتاوة رمزية فقط ، وفى حقيقة الأمر يبدو مستقلاً ، كان من أذكى الزنوج الذين رأيتهم فى حياتى ، ضئيل الجسم، نحيف ، بسيط المظهر ، له يدان شديدتا الرقة ، وملامح وجهه حادة، وعيون سوداء لامعة نفاذة ، يترك لدى الواحد انطباعاً بأن نظرات عينيه تخترق كل شيء وتصل لما وراءه ، ورغم ندرة حديثه إلا أنه يبدو رجلاً هادئاً قوى الإرادة .

كان يجب أن نمر بمكانه حتى نصل إلى "سيبوجوان" ، وبالطبع كان لابد من أن نمكث بقية اليوم لتقديم احتراماتنا وتحياتنا ، وكان كراهه على قمة الهضبة الأكثر ارتفاعاً قرب جرف "ماننجا" ، هذا الجرف يقع عند

طرف الغابة ، وملتقى مدقات الماشية ، كان الطريق شديد الانحدار والصخرية ، مع هذا لك أن تتخيل أننا لم نكن منزعجين فى هذه اللحظة من ذلك ، بل إن ما كان يحيرنا نوع الهدية التى علينا تقديمها للزعيم عندما يتفضل بالحديث إلينا ، لا نجرؤ على مجرد التفكير فى اقتسام البنادق والذخيرة معه ، وكنا نخشى أن تكون هى الشئ الوحيد الذى يريد الاستيلاء عليه ، أخيراً خطر لنا أن نهديه أحد مهاميز صديقى الفضية ، لم يحبذ "هيرون" ذلك كثيراً ، قال من المحتمل أن تسبب مشكلة ، لكنى صممت على ذلك ، رغم عدم ميله للفكرة ، وذلك حتى أفسد عليه زوجى المهاميز التى يختال بهما ، كان الزعيم قد اشترى جوادا قبل وصولنا بيومين فقط ، وكان قد أرسل فى طلبه من "ليدن برج" ، وهو الأول من نوعه الذى شوهد فى البلدة ، ومن الغريب أننا عرفنا أن اسم الزعيم "ماهاش" يعنى الجواد ، ما علينا ، لنكمل الحكاية ، وعدنا الزعيم بأنه سيقابلنا فى اليوم التالى ، وبعد انتظارنا ساعات طويلة كالمعتاد ، تمت المقابلة ، وقدمنا المهماز الفضى ، لابد من أن اذكر أنه راح يتفحصه بارتياب شديد ! وعندما أريناه كيفية استعماله ، ابتسم ابتسامة خفيفة متراخية ، متشككة ، وأبدى بعض الملاحظات بصوت خفيض لأحد مستشاريه ، بدأت أتفق مع "هيرون" حول عدم الحكمة فى إهداء شخص هدية غير مفهومة له بالمرّة ، وكنت سأشعر بالراحة إذا أتيح لى تغييرها، لكن ذلك الماهاش الذى كان ذا عقل عملى - أرسل رجلاً ليأتى بجيادنا ، ومنحنا فرصة امتطاء الجواد باللجام ، قدمنا عرضاً لاستعمال المهماز وهذا أسعده وكذلك نحن شعرنا بالرضى ، للحظة ! لكن الأمور تعقدت ولم يكن هناك فرصة للتراجع ، عندما أعلن أنه سوف يمتطى جواده، ويرغب أن يربط له "هيرون" المهماز حول قدميه الخافيتين، وكان علينا أن نعتمد على حسن

الحظ وحضور ذهن "هيرون" ، ذلك أن عرقوبه النحيل لن يملأ المهماز ، فأحكم "هيرون" تثبيت ناخسة المهماز بحجر لتضيقه ، وغير معظم مواضع الربط ، ومع ذلك ، لم ينفع كل هذا ، فالزعيم لم يمتط جواداً من قبل ، لذلك رفعه محاربان متينا البنية على ظهر الجواد ، وفور أن وضع فوق ظهر الحصان ، أمسك بعرف الجواد بكلتا يديه ، وقبض كعبيه بقوة تحت بطنه وقد تدلت أذناه على عنقه ، تراجع المحاربان اللذان يسنداه ، تأرجح "ماهاش" ومال إلى جانب واحد ، وأظن أنه أحدث جدبة متشنجة بالكعب المسلح ، تعالت في الجو صرخات حادة طويلة ، وتدافع ، وسلسلة متصلة من الصياح الأسود ، وطار من خلفه ملاءة حمراء ، راح الزعيم يتقافز بالجواد في منحدر صخري ، ثم طرح بقوة لمسافة عشرة أقدام تقريبا ، وارتطم رأسه بصخرة ، أقول لكم ، لدقيقتين كنا كمن أطبق الجحيم عليهم ، ألقينا بنادقنا - التي نحملها دوماً - وجرينا إلى مكان الزعيم ، اعتقد أننا لو كنا احتفظنا بنادقنا في تلك اللحظة ، فإنهم كانوا سيغرزون حرابهم في أجسامنا ، فقد كان هناك عدد لا حصر له من الشياطين السود يحيطون بكل واحد منا ، ويدفعون الحراب في وجوهنا ، وهم يتصايحون : " بولا ليلي أنكوس ، أومتاجاتي ! أومتاجاتي ، أى لقد قتلوا الزعيم ! سحرا سحرا ! . . . في اللحظة التالية ، رأينا "ماهاش" واقفاً مستنداً على عدد كبير من محاربيه ، وهو يمسك رأسه بيده ، وازن نفسه ، ثم ألقى علينا نظرة مبهمة ، ومشى إلى مكانه الخاص .

بقينا هناك أربعة أيام ، فى الحقيقة كنا سجناء ، على الرغم من عدم تسميتها بذلك ، لم يقل أحد شيئاً عن رحيلنا ، إلا أن بنادقنا وجيادنا اختفت ، ومنحونا كوخاً فى وسط الكرال ، لم نكن نعرف هل مات "ماهاش" ، أم يحتضر ، أم ليس ثمة خطر عليه ؟! ، لم نعرف حتى إن كنا سنقتل أم سيطلق سراحنا ، أم سيقبضوننا إلى الأبد ، فى صباح اليوم الخامس وجدنا جيادنا مربوطة مع قطعان القرية أمام كوخنا ، وأخبرنا رجل من "الإندونا" ذو شعر رمادى ، بأن "سيوجوان" الذى نبحت عنه ، يقيم بمكان ليس بعيداً عن هنا ، هناك فوق الهضبة ، تلقينا الإشارة أسرجنا خيولنا فى الحال ، بينما كنا سنبدأ السير ، أحضر العم "فان" جدياً صغيراً ، مذبحاً ونظيفاً ، وأعطاه لنا ، هدية من الزعيم ، ومضى الإندونى العجوز إلى "هيرون" ، ثم نظر إليه نظرة غريبة ، بوجهه المتغضن الماكر، وقال: "يقول الزعيم : ' همبجلى ' ، أى رحلة موفقة ، وأرسل لكما هذا ."

كان المهماز الفضى : ألقى "بربرتونيان" نظرة أخرى على غليونه ، وضحك ضحكة خافتة عندما تذكر التجهم الهزلى على وجه الزنجى العجوز ، ثم واصل حديثه : " لكننى كنت سأخبركم عن الرجل الأبيض الذى يسكن فوق هضبة "بومبا" ، حسناً ، لم نكن بعيداً عن دروب قرية "ماهاش" ، وقد أدركنا كم كانت فرصتنا ضئيلة إذا كنا حاولنا الهرب ؛ فقد كنا نتلمس طريقنا فى الغابة متبعين الدرب الذى كان لا يسمح سوى

بمرور شخص واحد فقط ماشيا على قدميه ، فكل مائة ياردة أو نحو ذلك كان علينا التمرجل لإزاحة الأفرع المتدلية ، أو جذوع الأشجار التي تعترض الطريق ، أو شبكات الحبال التي تستخدمها القروء ، واعتادت الجياد التعامل مع هذا المكان الوعر ، حتى أصبحت تمشي مثل القطط ، وفي مواضع كثيرة كانت تغطس تحت الأشجار الكثيفة التي تدلت على شكل شفرات مقوسة حادة خلال الممر الصغير المظلم ، كان هذا هو طريق الخروج الخلفى الوحيد من منطقة ماهاش ، وبالطبع كانت الخواف شديدة الانحدار لسلسلة جبال " ليومبو " من أمامها .

واصلنا السير أربع ساعات على هذا المنوال ، نرى ضوء الشمس بالكاد من خلال أوراق النباتات الكثيفة ؛ وعندما خرجنا أخيراً إلى أرض مسطحة مستوية خضراء ، بهرنا ضوء الشمس الساطع والخضار ، هناك قابلنا بعض النسوة والصبية الذين أجابوا على أسئلتنا الكثيرة عن الطريق نفس الإجابة السالفة التي كنا نسمعها منذ أربعة أيام : " سيوجوان ؟ أوه ، بعدنا طوالى . "

أقسمنا قسم رجل واحد : أن نصل إلى هذا الهولندى الطائر هذه المرة بلا مزيد من خيبات الأمل ، بحثنا حولنا عن مكان للتوقف ، واتجهنا إلى رابية محاطة بالأشجار .

كان "هيرون" فى المقدمة ، عندما وصلنا إلى الأشجار ، كبح جواده وتوقف ، وبابتسامة عريضة نادى على: " أقول لك ، انظر هنا ! هذه بداية غريبة ! " كان صديقنا "سيبوجوان" واقفاً يده فى خاصرته ، وساقاه منفرجتان ، يرسم زاوية حادة مع هيكل بيت .

كان يلف "منشفة" حول عورته ، ويضع عويمة ربطت بإحكام قرب العين ، ولا شىء آخر!

شاهدنا "بروفيله" لفترة ، وقد رأنا حين استدار جهة طريقنا ، كان وجهه من أفضل الوجوه التى ابتسمت لنا فى ذلك الوقت ، مشى "سيبوجوان" بهمة للملاقاتنا وقال : "مرحباً يا سادة ، نادراً ما أرى وجهاً أبيض هنا ، وبالمناسبة لا تؤاخذونى على ملابسى ، هلا عذرتونى ؟ إنها ملابس أهل البلد ، وكما تعلمون عندما تكون فى روما فافعل مثلما يفعل الرومان ، هيا ترحلوا عن جيادكم ، وتناولوا وجبة خفيفة " ، ثم نادى : "كومولا ! يوفان ! هاى ، أنتم يا أولاد ! أين هم بحق الشيطان ؟ تعالوا هنا ونخذوا الجياد أطعموها ، الآن هيا بنا إلى حجرة الاستقبال ، أؤكد لكم أن كلمتى المقتبسة هذه لا تنذر بسوء . . . " «

راح يستحثنا فى السير من هنا إلى هناك بكثير من المرح ، واستمر فى إطلاق وابل من الأسئلة ، والإجابات ، والتعليقات ، والتفسيرات فى أثناء انشغاله بتوفير سبل الراحة لنا .

قادنا إلى كوخ مستدير ، لم يكن على شكل الأكواخ الإفريقية المألوفة ، بل كان مبنيًا من الأخشاب والأغصان المجدولة ، ومكسواً بالحص ، هذا الكوخ كان منيراً ونظيفاً مثل "بروش" جديد ، فصلت ستائر النوافذ

ومفارش المائدة من قماش " الشيت " و " الموسلين " و " الكابلان " الزاهية الألوان ، بينما صنعت المائدة من صناديق زجاجات " الجن " ، وكانت أرجلها مثبتة فى الأرض ، بينما صنعت المقاعد من جذوع الأشجار ، وكانت غير مثبتة بالأرض ، وبلا ظهر ؛ لكن ما أذهلنى واعتبرته شيئاً غير عادى بالمرّة ، منظر الصحف الإنجليزية والمجلات المصورة وهى موضوعة فى نظام وترتيب دقيق على المائدة ، مثلما يراها الواحد منا مرتبة ومنظمة فى مكتبة قبل تداولها ، كان هناك أيضاً رف معلق وضع عليه خمسة كتب ، لم أستطع منع نفسى من الابتسام : الكتاب المقدس وشكسبير ، وجدول مواعيد البحرية ، وقاموس ، ودليل " ريف " .

يقولون إنك تعرف الرجل من أصدقائه ، والأكثر أن تعرف ذلك من كتبه ، إلا أننى لم أخرج من هذه الكمية بالكثير ، باستثناء كتاب واحد ، فنظرت إلى تصرفاته البسيطة ، وسلوكه الرفاقى ، والرضا ، واللحية المدببة ، وتوصلت إلى أن جدول البحرية ، مؤشر يعرفنا به - إلى حد ما - مع ذلك ، حافظ على سير الأمور بطريقة مرضية مرحة ، بحيث لا يكون لدى الإنسان أى وقت لكى يلحظ الكثير .

حدث الكثير من الأشياء الصغيرة الخلابّة الممتعة ، بالنظر إلى غرابة المكان المحيط بنا ، ولظروف حياة الرجل ، أكثر منها بسبب الأحداث نفسها ، مثلاً ، عندما صرحنا بأننا لم نتناول الإفطار ، وجدنا أنفسنا مستمتعين بأكل البيض المسلوق مع التوست ، وابتسمت ابتسامة عريضة عندما انتظرنا الخادم " السويزى " فى زى مناسب وهو يحمل المنشفة فوق كتفه ، بالتأكيد لابد من أن يكون رجلاً غريب الأطوار بعض الشيء ليعيش مثل هذه الحياة ، وفى مثل هذا المكان وحده ، ويأخذ على عاتقه تعليم زنجى كيفية التخديم على الضيوف بالطريقة التقليدية .

فكرت فى مدى تفاهة تعليم ولد زنجى مهنة النادل فى مثل هذه الظروف ، وتوصلت إلى أن صديقنا لا يعمل تاجرًا بسبب حاجته للمال ، بعد الإفطار قدم لنا السجائر الفاخرة ، وكان ذلك دليلاً آخر على التناقض البادى فى حياة هذا الرجل . "

كنا قد اتفقنا على التخييم عند نهر " تيمبى " ، وقد اعتزمنا على مواصلة السير مرة أخرى فى ذلك اليوم ، المخيم المرضى ، لذلك بقينا هذه الليلة ، وصرنا أصدقاء ، " لكن مضيفنا ألح علينا للبقاء ، ونحن نوع ، لم نكن متلهفين على أن نحول ظهورنا عن ذلك .

كنت على صواب حقًا ، فقد كان يعمل بالبحرية لسنوات طويلة ، وقد تركها ليلعب لعبة الاستكشاف . قال إنه استقرهنا حيث وجد السلام المطلق والسعادة الاستثنائية بعيداً عن المشاكل الدنيوية المعتادة ، وكان ساعى محلى يحضر له رسائله والصحف مرة فى الأسبوع ، وفى الحقيقة ، كما قال : " إنه قريب من العالم بالقدر الذى يريد ، وبعيد عنه بالقدر الذى يريد . " ، كان لديه حلقة ذهبية ملفتة للنظر ، مربوطة فى سلسلة الساعة ، وقد شاهدها متدلية من عند طرف يده ونحن جالسون فى قاعة الطعام . كنت أنظر إلى هذه الحلقة متحيراً ، بدت غير شبيهة بأى شىء رأيته من قبل ، وقد لاحظت حيرتى ، وبعد أن تركنا فى تخمينات غير ذات جدوى ، أخبرنا ضاحكاً بأنه قد وجدها بإحدى القرى التى نهبها على الساحل الغربى ، لم أدر أى دور كان له فى هذه الحروب الصغيرة الكريهة ، لكننى أراهن على أنه لم يكن وضيعاً ، فى تلك الليلة استمعنا لساعات إلى حديثه السلس الشيق ، ومع أنه لم يكذب شيئاً عن نفسه أو عمله - إلا أنه من الواضح أنه شخص رائع يجيد التصرف فى الأوقات الحرجة

أحب ركوب المخاطر. فمن حين لآخر كان يلقي لنا بإشارة عن الصعوبات، وعمليات الهروب، والمخاطر التي مرت به، ولكنه لم يكن يفعل هذا إلا حين يكون ذلك ضرورياً لتفسير ما يحكيه لنا، أكثر ما أثار دهشتنا هو وصفه للجنرال "چوردون" بأنه "جوردون الصينى" - الذى تبين أنه كان على صلة حميمة به لفترة طويلة. التفاصيل الدقيقة التى وصفها لنا شكلت صورة حية رائعة عن هذا الجندى القديس، الرجل الذى استطاع قيادة الهجوم العاصف شبه اليأس، بكتاب مقدس فى يد وعصا الجنرال فى اليد الأخرى، شكلت صورة كاملة لرجل بحبه اللامتناهى ورقته، وقراره الحاسم وعدالته العمياء، وصفاته التى تكاد تصل فى درجتها إلى صفات الآلهة، شعرت وكأننى أرى هذا الرجل وهو يسعى لمساعدة وتغذية رجاله بمؤنته القليلة، وهو يصلى بهم، الرجل الأكثر تواضعاً، مثال الرحمة، لكننى رأيت أيضاً يواجه فوجاً من البرابرة شبه المتمردين ضمن جيشه، وقرار مخيف، وبلا رحمة كالقضاء والقدر، يعمد إلى القادة واحداً بعد الآخر - وهم فى جملتهم اثنا عشر رجلاً - ليرديهم قتلى بالرصاص أمام زملائهم، ثم يستدير بهدوء ودون أن يحرك ساكناً، كى يكرر أمره، الذى فى هذه المرة، يصبح مطاعاً! تصورت هذا الرجل ذا العبقرية العملية المدهشة، قادراً على إعادة غزو الصين وإعادة تنظيمه، ثم يحتفظ بهذه الحلية التى حصل عليها معتقداً أنها جاءت من شجرة الحياة التى قطفت منها حواء الفاكهة المحرمة، بالتأكيد هذا الرجل يعد لغزاً من ألغاز التاريخ.

سأل المليونير ، حين توقف العجوز "بربرتونيان" : " هل تقصد أن تقول إن ذلك حقيقى؟ "

"على قدر علمى ، هو حقيقى بالتأكيد ، فقد حكاه صديقنا "سيوجوان" على أنه حقيقة ، ولم يكن يسخر ، لأنه كان يكن أعمق التبجيل والاحترام لجوردون ، فضلاً عن ذلك ، فقد أكد لنا أن جوردون ظل جريح المشاعر من صديق له تناول هذا الأمر بسخرية على أنه نكتة ، ولم ينس جوردون ذلك قط ، فكان دائماً يتحفظ فى حضرة هذا الرجل بعد ذلك . "

أتمنى لو أننى كنت أتذكر واحداً فى المائة من النكات التى أطلقت على الناس المشهورين والتى حكاها لنا مضيفنا ، ووصفه للأماكن ، والشعوب ، ورواياته عن الرحلات والمغامرات ، كان يبدو كأنه يعرف كل إنسان وكل الأماكن ، استمر حديثنا حتى الثالثة صباحاً قرب الفجر ، قبل أن نفكر فى أن نأوى للفراش ، بعد الإفطار امتطينا جياذنا ، وتبادلنا تحيات الوداع ، ومشى صديقنا معنا بعضاً من الطريق ، ليرشدنا إلى الممر الصحيح ، كان يحمل حزمة من أزهار الدغل البيضاء - فكرة غريبة على ما أظن - بالنسبة لرجل يرتدى منشفة وعوينات ، أشرت لجمال أزهار الجبل التى يمسك بها .

قال : نعم ، إنها جميلة ، أليست كذلك ؟ آه يا "تارى" المسكين ، العجوز ! لقد كان تابعياً ، وهو الرجل الأبيض الوحيد الآخر الذى عاش هنا لسنوات كثيرة ، ومات هنا منذ صيفين ، بعد إصابته بالحمى عند "التيسمبى" ، رفيقى العجوز المسكين ! لقد دفنته عند المتحدرات العالية

القائمة هناك ، حيث كان معتاداً على جمع تلك الزهور والجلوس هنا كل يوم من أيام حياته ، مشرقاً على اتجاه "ديلاجوا" ، متسائلاً : هل سوف يأتى علينا يوم نترك فيه هذا المكان ، ونشاهد أيرلندا مرة أخرى ، وأنا أحضر له الزهور كل فترة ، هيا نصعد لنرى أين يرقد صديقى العزيز . "

تركنا الجياد وارتقين الممر الوعر ، رأينا السياج الحجري المتواضع والشاهد الأملس محفوراً عليه :

أيها الأيرلندى ، "تارى" ، ارقد فى سلام

هل أنت مستعد ؟

سيدى ، نعم ، نعم ،

ارتجف مساح الأراضي من الفكرة ، " ثم انحنى صديقنا فوق الحائط الحجري الواطى ، واستبدل بإكليل الزهور الذابل الآخر الجديد اليناع "

تركناه واقفاً فى ثقة عند حافة الجبل ، وسلكنا طريق النزول حيث درب الماشية الوعر الذى يزداد صعوبة كلما التف ، أتذكر تلك الوقفة التى كان يقفها ، قدم على صخرة ، وذراعيه متشابكين ، إلى أن شارفنا على المنحنى الذى سيخرجنا من المشهد ، عندئذ لوح لنا مودعاً ، "

" مرت بنا أوقات عصيبة فى تلك الرحلة إلى "تيمبى" ، فقد قابلنا كل المتوحشين القتلة فى تلك الأحراش ، فى نزاع وخلاف مستمر فيما بينهم ، يسرقون ، ويطلقون الرصاص بكل طاقتهم ، رغم ذلك خرجنا سالمين بعد شهور من الترحال والطواف ، وعندما وصلنا إلى "ليذن برج" مرة أخرى كنا قد نسينا كل شئ عن "سيبوجوان" ، بمرور الزمن ،

وبسبب مشاكل هؤلاء الكافير ، لقد كان دائما هناك شيء ما يحدث في ذلك المكان الجهنمي الخارج عن القانون في "سوازيلاند" ، وتلك الأحداث جعلتنا لا نشعر بمرور الزمن "

" عاد صديقى الحميم إلى مزرعته ، أما أنا فلم يكن لى بيت ، فعدت إلى الطريق ، لكن بالقطار ، ووصلت إلى منطقتى بأسعار زهيدة جداً ، وحين وصلت هناك كانت انتعاشة "شيبا" الاقتصادية فى ذروتها ، فقد تدفقت الشركات الاقتصادية يوماً ، والأسهم فى قمة ارتفاعها ، وتدفق المال بحرية. كان الجميع مبهجين بشمس الحاضر المشرقة ، ولم يلق أحد بالآللغد ، وكان المضاربون يكسبون المال أكواماً ، والسماسرة يكسبون بالآلاف .

" تعرفون كيف يكون الحال فى مكان مثل هذا ، بعد أن نصل إلى هناك بيضع ساعات ، أو يوم أو يومين ، نبدأ فى سماع اسم واحد يتردد أكثر من غيره ؛ رجل واحد يبدو الأكثر شعبية وأهمية ، ولا غنى عنه ، نعم ، كان الأمر ذاته هنا ، وُجد دائما هذا الاسم فى كل مكان - فى السوق والمناجم ، والرياضة والترفيه - فى أى دائرة مباركة يمكنكم تخيلها ، وتتصورون مبلغ دهشتى عندما وجدت صديقى البحار ، الكافيرى الأبيض العارى "سيبوجوان" هو رجل الساعة. فى أول الأمر لم أصدق ، وبعد فترة ، بدا أن الأمر هو الأكثر طبيعية فى العالم ؛ لأنه إذا كنت قد قابلت رجلاً مثلاً للقوة العقلية والأخلاقية والجسدية ، صاحب مزاج طيب ، رشيقيًا وصريحًا - ولد ملكًا بين الرجال - فهو هذا الرجل . "

" قابلته فى اليوم التالى ، فبدا ممتلئاً بالحياة والجاذبية الشخصية أكثر من ذى قبل ، بعد ذلك لم أره لثلاثة أو أربعة أيام أنتم تعرفون كيف يضيع الوقت فى الأسواق المزدهرة ، ثم أخبرنى صديق ما أن "سيبورجوان" مريض ، كان يعانى من الدوستاريا والحمى أثناء وجوده فى "فونيكس" ، ذهبت فى الحال لرؤيته ، لم أصدق عينى ، نحل وهزل وأحاطت الهالات السوداء بعينيه الغائرتين ، وكان ضعيفاً لحد أنه لم يكن قادراً على رفع ذراعه عندما انزلت عن السرير ، تحدث إلى بكلمة أو كلمتين وهو يهمس ويلهث ، ثم استند إلى الوسائد وعينيه تعبران عن ألم فظيع ، حتى أنه عندما أغلق جفنيه ، شعرت أن الحجرة قد خلت فجأة من هذا الشعور بالألم . "

" وقفت عند طرف سريريه لا أعرف كيف أتصرف أو ماذا أقول ، لم تكن لى أية حيلة أمام هذا الألم ، فأحسست بعدم جدوى وجودى بالحجرة ، ومع ذلك لم أعرف كيف أخرج منها ، لم تدم هذه الحال سوى بضع دقائق ... أو ربما نصف ساعة ، لا أعرف ، لكنه بعد نوبة إغماء طويلة فتح عينيه فجأة ونظر نظرة طويلة ثابتة إلى عينى ، وجلس دون أى مجهود ، ثم رفع بصره لأعلى كما لو كان ينظر من فوق رأسى إلى شىء ما على الحائط معلق ورائى ، ثم رفع كلا ذراعيه ، وفردهما كأنه يتلقى بينهما شيئاً ، وراح يئن : " أوه ، يا إلهى زوجتى المسكينة " بعدها مات . "

عندما توقف "بربرتونيان" عن الحديث ، كانت خمسة وجوه مشرّبة ناحيته ، سقط وهج النار على تلك الوجوه فأضاءها ، والمليونير القريب منى همس لنفسه : " يا إلهى " ، هذا شىء شنيع "

سأل الصحفي : " حسنا ، هلا أخبرتنا من هو ؟ "

نظر "بربرتونيان" إليه طويلاً ، ثم قال "بترو" : " لم نعرف أى شىء آخر عنه قط ، منذ ذلك اليوم إلى الآن لم يسمع عنه شىء يلقى الضوء على هويته أو على ما قاله . "

بعيداً جداً فى سكون ليل إفريقي ، سمعنا نخر وتأوه سد نافذ الصبر ، وعن قرب كان صوت صرصار الليل ، وفى التوسقط جذع شجرة واستقر على الأرض بعد قليل من الجلبة ، وارتفع لسان لهب جديد، حرك "بربرتونيان" قشة داخل غليونه لتسليكه ، وقال بطريقة وعظية : " أجل ، ها هى ذى الحضارة تحقق انتقامها مرات كثيرة بتلك الطريقة ، تماماً مثل المرأة . "

لم ينطق أحد بكلمة ، فى هذه اللحظة ، صدر غطيظ مسموع من تحت عربات القطار حيث كان ينام السائقون .

رقد الكلب إلى جوارى ينشج وقد "مط" قدميه ، كأنه كان يصطاد فى أرض الأحلام ، شعرت بالكآبة من هذه الحكاية التى حكاها "بربرتونيان" ، عادة لا يسود صمت طويل بعد حكي حكاية، بالعكس ، فكثيراً ما يستهلون أخرى ، لأن كل حكاية تستدعى ذكر حكاية أخرى ، ولا تحتاج لكثير من الجهد كى تحت رجلاً آخر على الحكى .

شرع ماسح الأراضى فى الحديث هذه المرة ، فقد شعرت برغبته فى الحكى ، جلس منتصب القامة ومد وجهه النظيف الحليق ، ثم أغلق عينه اليمنى ونظر إلى "بربرتونيان" .

بدأ حديثه بتأن : " هل تعرف أنك تحدثت عن رجال ماتوا بسبب شيء ما وقع - مشاجرات أو أخطاء أو جرائم أو أى ما كان - أعرف أنها كلها حكايات مختلفة ، ومع ذلك أعترف بأنها تشدنى دائما على الرغم من معرفتى بأنها هراء ، بسبب أن حكاية مرت بى - حكاية أحد زملائى فى البحرية ، وكان أفضل الرفاق الذين مشوا على الأرض قاطبة ، كان حقيقة إنساناً رائعاً ، أسطورياً ، يجيد عمل كل شيء .

كان رجلاً مثالياً ، إلى أن تعرفه عن قرب ، فتكتشف أنه لعنُ بسمة فى منتهى البؤس ، فهو أبداً ، ويشكل قطعى جازم - لا يغفر أدنى جرح أو إساءة ، أو إهانة ، أو موضوع شجار ، لم يكن متعجرفاً أو سىء الطبع قط - بل كان مشرقاً لا مثيل له ؛ الأكثر صبراً ، بل حتى هادئ الطبع ، لكنه حقاً مرعب بما لديه من عناد غير قابل للتغير ، فى رفضه المغفرة أو التسامح مع من يخطئ فى حقه ، وقد حدثت واقعة تحت بصرى ، فقد تشاجر مع واحد من أصدقائه - ولا بد من أن أذكر أن العيب لم يكن منه - لا شيء فى العالم ، أو أى عالم آخر ، بالنسبة لذلك الأمر ، كان يمكن أن يجعله يصفح أو يجدد معرفته بهذا الشخص ، كرمه ، وإيثاره ، كانا بلا حدود ، إخلاصه وشجاعته كانا يفوقان الوصف ، إلا أن أى إنسان عرف عيبه هذا كان يأسف له أشد الأسف ، ويروع من هذا الطبع الصارم ، الموت الذى يحيط به ، منظره بين أصدقائه ، توقعه لموته ، كل ذلك لا يغير من عناده اللعين ، وقد حصل على وسام الملكة "فيكتوريا" ، لأعماله البطولية المرموقة - والتى هى فى الحقيقة جنونية - ولشجاعته فى إنقاذ ضابط زميل ، الرجل الذى أنقذه ، وحارب لإنقاذه ، وكاد يموت من جراء عملية الإنقاذ هذه ، كان هو نفس الرجل الذى رفض أن يتحدث إليه سنوات طويلة ، الله وحده يعلم سبب الخلاف ، كان هذا لقاءهما الأول

منذ أن ترك السفينة، وعندما أنقذ صديقه السابق ، حمله وتركه بسلام فى ركن الجراج الميدانى ، أمسك الرجل الذى يصارع الموت بردائه ، وقال : "ياوالدى العجوز، ليباركك الرب" فما كان منه إلا أن حرر كفه من قبضة الآخر برقة، و بلا أية كلمة أو نظرة، عاد للقتال ، كان ذلك بالنسبة لنا أمراً لا يصدق، رفضه التعامل معه بأية حال ، كان قد محاه تماماً من حياته "

كانت هذه السمة هى لعته ، كان ثرياً ، وله علاقات قيمة، ذات وزن . وقد تزوج إحدى أجمل النساء اللاتى قابلتهن فى حياتى ، لسنوات لم يكن أحد منا يعرف أنه متزوج ، أما زوجته ، فهى امرأة فاضلة ، أنا مقتنع بذلك ، كانت امرأة صغيرة وجذابة ، امرأة كاملة حقاً، أسرة بالطبيعة ، لكنها ربما كانت حمقاء حين أظهرت سعادتها من أنها تحوز حب وإعجاب الآخرين، أنتم تعرفون الغياب الطويل للبحار، ربما كان من الحكمة لو كانت قاطعت المجتمع تماماً، وفى الحقيقة، كانت امرأة طيبة، وكانت تحبه حب عبادة. لا أحد منا يعرف ما حدث بينهما، فقد تركها والطفلة، وقد وهبهما كل ما يملك فى الدنيا، وسلمهما أملاكه ودخله تقريباً، وحقه فى الميراث حين يوافيه الموت ، وهجر الدنيا ، ببساطة محاهما من عقله ومن حياته ، "

كان هذا منذ عدة سنوات ، على ما أظن عشرة أعوام ، وأكره أن أفكر فى هذا الموضوع ، وأنا أتمنى لو كنت واثقاً من المستقبل مثلما أنا واثق بأنه لن يسلم بوجودهما مرة أخرى . "

ارتجف ماسح الأراضى من الفكرة .

" لقد كان الرجل الذى يستطيع فعل أى شىء لا يقدر الرجال الآخرون على فعله ، كان الأفضل فى كل شىء ، محبوباً من زملائه ، معبوداً من رجاله ، يحوز إعجاب ومحبة كل من يقابله إلى أن يكتشفوا هذه الصفة . لا بد من أن الآخرين قد شعروا بما شعرت به ، فعندما اكتشفت تلك الصفة به ، لم ادرِ هل كنت أشد خوفاً منه ، أم أشد حزناً عليه ، لا أعرف فلم ألتصق به قط أكثر مما يجب - ربما كان شعور شفقة - لمعرفتى أنه بتلك الصفة كان عدواً لنفسه وأنه فى حاجة للمساعدة ، لم أسمع قط عنه أو منه منذ ترك الخدمة ، على الرغم من أننى كنت أعتقد أنى أكثر أصدقائه حميمية ، كان اسمه . . . " أوليفر ريموند ريفرز " ، اسم موسيقى ، أليس كذلك ؟ "

أسقط " بربرتونيان " غليونه :

يا إلهى !! " سيبوجوان " ! .

تأليف : أوليف شرينر

لدى صندوق قديم بنى ، منقوش غطاؤه مكسور ومربوط بدوابة ،
أحتفظ فيه بوريقات صغيرة ، بداخل هذه الوريقات خُصل شعر ، وصور
صغيرة كانت معلقة ذات يوم فوق سرير أخى عندما كنا صغاراً ، وأشياء
أخرى صغيرة تافهة ، لى فى هذا الصندوق وردة ، لدى كل النساء
الأخريات أيضاً مثل هذه الصناديق التى يحتفظن بداخلها بمثل هذه الأشياء ،
لكن ليس لدى أية واحدة منهن وردتى .

عندما تجتاحنى التعاسة ، ويصيب قلبى الإعياء ، ويهتز إيمانى بالمرأة ،
ويكون حاضرها عذاباً بالنسبة لى ، ومستقبلها مصدر قنوط ، فإن عطر
تلك الوردة الميتة ، الذابلة منذ اثنى عشر عاماً ، يأتينى ، فأعرف أنه سوف
يكون هناك ربيع ، بثقة مثل ثقة الطيور حين تعرف بقدومه عندما ترى من
فوق الجليد ورقتين خضراوين صغيرتين ، تلمعان ، فالربيع لا يخذلنا أبداً .

فى الصندوق ذاته أزهار أخرى : حزمة من زهور الأكاسيا البيضاء ،
جمعتها يد رجل قوية ، عندما كنا نسير بشارع وسط قرية ذات عصر شديد
الحرارة ، حيث أمطرت الدنيا ، وسقطت حبات المطر علينا من أوراق شجر
الأكاسيا ، كانت الزهور مندادة ، فتركت آثاراً من العفن على الورقة التى
لففتها بها ، بعد عدة سنوات ألقىت بهذه الزهور ، ولم يبق منها الآن شىء

بالصندوق ، سوى آثار باهتة لرائحة أكاسيا جافة ، تلك الرائحة التي استدعت لذاكرتي تلك الأمسية الصيفية الحارة ، لكن الوردة ، لا زالت باقية بالصندوق .

مضى الآن على ذلك سنوات كثيرة ، حين كنت فتاة فى الخامسة عشرة ، وزرت مدينة صغيرة بأعلى البلاد ، كانت بلدة صغيرة فى تلك الأيام ، على بعد يومى سفر من أقرب قرية ؛ وسكانها أغلبهم من الرجال ، القليل منهم كان متزوجاً وله زوجة وأطفال ، لكن معظمهم كانوا عزاباً . عندما وصلت ذلك المكان كانت به شابة واحدة فقط ، كانت فى حوالى السابعة عشرة ، جميلة ، وممتلئة ، فى الواقع مدملكة ، ذات عينين زرقاوين حالمتين ، وشعر كثيف متموج ، وشفتين ممتلئتين - إلى حد ما - إلى أن تبسم ، فتبزغ الغمازات بوجتيتها وتلتمع أسنانها البيضاء ، ربما كان لدى صاحب الفندق ابنة ، ولدى مزارع بالضواحي ابتتان ، لكننا لم نرهن قط ، أما هى فكانت ملكة تحكم وحدها ، كل الرجال كانوا يعبدونها ، كانت المرأة الوحيدة أمامهم ليفكروا فيها ، تحدثوا عنها طوال الوقت ، فى السوق ، وفى الفندق ، وانتظروها عند النواصى ، وكرهوا الرجل الذى تحييه أو تمشى معه بالشارع ، أحضروا لها الزهور حتى عتبة البيت ، وقدموا لها جيادهم ، وتوسلوا إليها أن تتزوج منهم عندما جرأوا .

كان ثمة شىء نبيل وبطولى فى غرام هؤلاء الرجال ، المعزولين عن العالم ، لأفضل امرأة عرفوها ، ومن ناحية أخرى ، كان هناك جزء طبيعى ، وهو أن يتدفق عند أقدام امرأة واحدة العبادة التى تكفى لعشرين امرأة ؛ وجزء آخر وضع فى حقدهم على بعضهم البعض ، فإذا فرض ورفعت إصبعها الصغير ، أعتقد أنها كانت تستطيع أن تتزوج أى واحد من بين العشرين الموجودين آنذاك .

ثم جئت أنا ، لا أظن أنني كنت أجمل ، بل لا أعتقد أنني كنت جميلة مثلها ، ولم أكن بالتأكيد وسيمة . لكنى كنت مفعمة بالحياة ، وكنت جديدة عليهم ، وكانت هى أكبر سناً - كلهم هجروها ولاحقونى ، أحبوني حب عبادة ، تحولت الزهور إلى بابى ؛ وكنت أنا من قدموا إليها العشرين فرساً ، فى حين أنني لم أكن قادرة على امتطاء غير فرس واحد فقط ، وأصبحت أنا التى ينتظرونها عند نواصى الشوارع ، وكل ما كنت أقوله أو أفعله أصبح شغلهم الشاغل ، لقد أحببت ذلك - إلى حد ما - ، فقد عشت حياتى كلها وحيدة ، ولم يقل لى أحد قط أنني جميلة ، وإننى امرأة .

صدقتهم ، ولم أكن أعرف أنها كانت ببساطة موضة ، تلك الموضة التى كان أحد الرجال يقرر بدأها ، فيتبعه الآخرون بلا تعقل . أعجبت بطلبهم الزواج منى ، وأعجبت بنفسى وأنا أقول : " لا " لقد استخففت بهم ، فقلب الأم لم يكن قد نما بداخلى بعد ، لم أكن أعرف أن كل الرجال أطفالى ، مثلما تعرف المرأة الناضجة عندما ينضج قلبها ، كنت صغيرة جداً على أن أكون رقيقة ، لقد أحببت سطوتى ، كنت أشبه بطفلة معها سوط ، طوخته فى كل اتجاه ، غير عابئة بما يصيب ، لم أستطع أن أطوى السوط وأنحيه جانباً ، الرجال ، تلك الكائنات الغريبة ، أحببني ، ولم أستطع أن أفسر سبب ذلك .

أمرٌ واحد فحسب كان ينال من سعادتى ؛ ولم أستطع احتماله ، وهو هجرهم لها من أجلى ، لقد أحببت عينيها الحالمتين الزرقاوين ، وأحببت مشيتها المتمهلة ، وطريقة كلامها ، وحين رأيتها جالسة بين الرجال ، بدت لى أنها أقيم من أن تكون بينهم ؛ كنت سأمدها كل المدح الذى كانوا

يمدحونه لها جميعاً ، إذا هي ابتسمت لى مثلما تبتسم لهم ، بكل ما يشيعه وجهها من بهاء ، بغمازاتها وتألق أسنانها ، لكننى أدركت أن ذلك لن يحدث أبداً ، شعرت بإحساس مؤكد أنها تكرهنى ، بل وأنها تمنى موتى ، وتمنى لو لم أجيئ قط إلى القرية ، لم تعرف ، أنه عندما ذهبنا للتريض بالجiard ، جاء الرجل الذى كان يتريض إلى جوارها ليرافقنى ، لكننى أبعدته عنى ، وذات مرة تصور رجل أنه قد يكسب ودى بالسخرية أمامى من مشيتها البطيئة وطريقة كلامها ، فاستدريت إليه بوحشية حتى إنه لم يجرؤ على أن يجيئ إلى جوارى مرة أخرى ، عرفت أنها علمت أن الرجال بالفندق قد تراهنوا على من الأجمل ، هى أم أنا ، وأنهم سألوا كل رجل دخل المكان عن ذلك ، وأن الرجل الذى راهن على أننى الأجمل قد كسب الرهان . لقد كرهتهم من أجل ذلك ، لكننى لم أكن لأدعها تعرف أننى مهتمة بخصوص ما تشعر به تجاهى .

لم نتبادل الحديث معاً قط .

وإذا تقابلنا فى شوارع القرية ، كان يحيى أحدنا الآخر ونواصل السير؛ وعندما نتصافح ، كنا نقوم بذلك فى صمت ، ولا تنظر إحدانا إلى الأخرى ، لكننى اعتقدت دائماً أنها تشعر بوجودى فى الحجرة تماماً مثلما أشعر بها .

أخيراً ، حان موعد رحيلى . كنت سأرحل فى اليوم التالى ، أقام أحد معارفى حفلاً لتوديعى دعا إليه كل القرية .

كان منتصف الشتاء ، لم يكن ثمة شىء فى الحدائق سوى بعض زهور الداليا والكريزانثيم ، وأعتقد أنه لم تكن هناك وردة واحدة فى محيط مائتى ميل تشتري لا بالحُب ولا بالمال ، فقط فى حديقة صديق لى ، فى

ركن مُشمس بين الفرن والصور الحجري ، كانت هناك شجرة ورد ثما بها
برعم واحد ، وردة بيضاء ، كانت موعودة للفتاة صاحبة أجمل شعر
سوف تتقلدها فى الحفل .

حل المساء ، عندما وصلت ودخلت حجرة الانتظار ، خلعت عباءتى ،
وجدت الفتاة سبقتنى إلى هناك بالفعل ، كانت تلبس " أبيض فى أبيض " ،
وذراعاها ناصعا البياض وأكتافها عارية ، وشعرها الفاتح يتألق فى ضوء
الشمعة ، والوردة البيضاء مثبتة على صدرها ، بدت مثل ملكة متوجة ،
قلت : " مساء الخير " ، وذهبت بسرعة إلى المرأة لترتيب وشاحى الأسود
القديم ، فوق فستانى الأسود القديم .

عندئذ شعرت بيد تلمس شعرى .

قالت : " قفى ساكنة . "

نظرت فى المرأة ، تناولت الوردة البيضاء من صدرها ، وثبتتها فى
شعرى .

يا له من شعر أسود جميل ، يبرز جمال الوردة ، ثم خطت خطوة
للوراء ، ونظرت إلى وقالت : " إنها أكثر جمالاً هنا ! "
استدرتُ .

قلت : " أنت أكثر جمالاً منى "

قالت بطريقتها المميزة فى نطق لغة المستوطنين : " آه ، إننى فى غاية
السعادة . "

وقفنا ننظر إحدانا للأخرى

ثم دخلوا ، ورافقونا للرقص ، طوال الأمسية لم تقترب من بعضنا البعض ، مرة واحدة فقط ، عندما مرت بجوارى ، ابتسمت لى .

غادرتُ المدينة فى صباح اليوم التالى .

منذ ذلك الحفل ، لم أرها ثانية قط .

سمعت بعد ذلك بسنوات أنها تزوجت وهاجرت إلى أمريكا ؛ ربما كان ذلك صحيحاً أو لا - لكن الوردة ، الوردة بقيت فى الصندوق ! وعندما تضعف ثقتى بالمرأة ، نتيجة لنقص الحب والشهامة ، وعندما لا تستطيع المرأة أن تلعب دوراً فى تحقيق مستقبل أفضل ، عندئذ ، تعود إلى رائحة ذلك الشيء الصغير الذابل - فالربيع لا يمكن أن يخذلنا أبداً .

تأليف : بولين سميث

كنت أذهب كثيراً إلى مزرعة جدى وجدتي بـ "نويتجادخت" ، التي تقع فى وادى "غامكا" ، ذلك لأن صدرى كان ضعيفاً ، وكانت جدتى تعتقد أنها الوحيدة القادرة على شفائه ، فى "نويتجادخت" ، حيث كان يعيش جدى وجدتى لأكثر من أربعين عاماً ، كان هناك دائماً شباب وشابات يلتفون حولها ، وأطفال متعلقون بذبول "جونلاتها" ، أو يقذف بهم جدى عالياً ثم يلتقطهم مرة أخرى ، لم يكن هناك أحد من الأبناء أو الأحفاد لم يحب الجد والجدة "ويلبورت" ، لذلك عندما ماتت العممة "بيتية" ، كان من رأينا جميعاً أن أطفالها الأيتام الصغيرة "نيلتية" و"هانس" و"كوز" و"مارتينوس" و"بيات" ، لابد من أن يعيشوا فى "نويتجادخت" ، كانت جدتى فى ذلك الحين قد بلغت الستين من عمرها تقريباً ، وكانت امرأة بدينة ، لكنها تتحرك بسهولة وخفة ، مثلما تتحرك كل النساء الرشوقات . ذات يوم رأيت سفينة مبحرة فى ميناء "زاندت باى" ، وكانت جدتى تمشى فى كامل "جونلاتها" الفضفاضة مع أطفال العممة "بيتية" ، الذين كانوا يتأرجحون حولها مثل القوارب الصغيرة ، فوجدت فى منظرها هذا شبهاً كبيراً بتلك السفينة ، إن هذه المرأة الضخمة ،

الحكيمة ، الوديعة ، التى يملأ قلبها حب لكل العالم ، كانت ترى فى كل أمر يحدث مشيئة الرب ، بعد ثلاثة أشهر من إقامة أطفال العمه "بوتيه" فى المزرعة ، حضر شخص غريب ذات ليلة يسأل عن مأوى من العاصفة التى بالخارج ، الله وحده يعلم من أين جاء ، وأدركت جدتى أن "الرب" أرسله لنا .

قدم ذلك الغريب نفسه ، عندما أدخلته جدتى إلى حجرة المعيشة ، باسم "يان بوتيه" ، الذى كان رجلاً ضئيل الحجم ، أسمر ، ذا لحية مدبية بدت وكأنها لا تنتمى إليه ، كان خداه هزيلين وشاحيين ، كذلك كانت يده ، نادراً ما كان يرفع عينيه لينظر لأحد ، إلا إذا تكلم ، وعندما يفعل ذلك ، كنت أحس كأننى أرى أمامى "ابن الأرملة نانين" ، يقوم من بين الأموات ، خارجاً من الكتاب المقدس الخاص بجدتى ، أجل ، كأن "يان بوتيه" بعث وجاء إلينا من بين الأموات فى تلك الليلة ، ففكرت فى إعداد الطعام فى الحال ، أعددت قهوة بسرعة ، ووضعتها أمامه .

عرف جدائ كل ما يريدان معرفته عن "يان بوتيه" فى أثناء أكله ثم شربه القهوة ، كان هولنديا ، وقد جاء مؤخراً إلى جنوب إفريقيا ، ولم يكن له قريب أو صديق فى المستعمرة . كان فى طريقه إلى شمال البلاد سيراً على الأقدام ، فى طريقه لمناجم الذهب .

جلست جدتى فى صمت لفترة بعد حديث "يان بوتيه" عن مناجم الذهب ، ثم بعد قليل قالت : " سيدى ، أنا تلك العجوز لم أر فى حياتى رجلاً سعيداً ذهب للتنقيب عن الذهب ، أو رجلاً أصبح سعيداً عندما

وجده ، أكيد أن الخطيئة والحزن هما ما يقودان الرجل للبحث عنه ،
والخطيئة والحزن هما ما يجنيه منه ، " شوف " ، ابق معنا بالزرعة ، وقم
بتعليم أحفادي ، أيتام ابنتي " إليزابيث " ، ربما بذلك تجد السلام . "

رد عليها " يان بوتيه " : " إذا كانت سيدتى على حق بأن الخطيئة
والحزن قد ساقانى إلى بلدها من أجل الذهب ، فهل أنا أهل لثقتها كى
أقوم بتعليم أحفادها ؟ ! "

قالت جدتى بصوتها الخفيض الواضح الذى امتلأ بالحب والشفقة :

" أتوجد خطيئة لا يمكن أن تغتفر ؟ أو حزن لا يمكن أن نتقاسمه ؟ ! "

رد " يان بوتيه " : " أما حزنى فلا أستطيع أن يشا طرنى فيه أحد ،
وخطيئتى لا أغفرها لنفسى أبداً "

مرة أخرى قالت جدتى : " سيدى ! لا يعلم ما فى نفس الرجل إلا
الله والرجل وحدهما ، افعل ما تراه فى صالحك ، لكن بالتأكيد إذا كنت ستبقى
معنا ، فإننى سوف أعهد بأحفادي إليك ، واعلم أن الله أرسلك إلينا . "

لوقت طويل ، طويل جداً ، أو هكذا خيل إلى ، جلس " يان بوتيه "
أمامنا ولم ينطق بكلمة ، أثناء فترة الصمت هذه كتمت أنفاسى ، بل
شعرت بأن العالم يسمع صوت تلك الأنفاس ، كان أطفال العمدة " بيتيه "
فى الفراش منذ فترة طويلة ، وكنت : أنا وجدى وجدتى نجلس معه ،
انتظرنا طويلاً ، وطال انتظارنا ، فى النهاية ، عندما تكلم " يان بوتيه "
وقال : " سابقى " ، شعرت كأنه قد سمع دعائى ، فقد كنت أضرع
للرب أن يساعده على اتخاذ هذا القرار .

هكذا ، بقى "يان بوتيه" معنا بالمزرعة ، وقام بتعليم أبناء العمّة "بيتيه" ، كانت الحجرة التى يقوم بالتدريس فيها هى الحظيرة التى يوضع فيها "الكارته" - حيث كان جدى قد بنى واحدة جديدة منذ فترة طويلة - وضعتُ - أنا وجدتى فيها مائدة ومقاعد بدون ظهر له ، ولتلاميذه ، لم يكن لهذه الحجرة نافذة ، فكان "يان بوتيه" يجلس هو وتلاميذه قرب الباب "الموارب" ليروا الضوء ، من خلال الباب الموارب كنت ترى فى الخارج بستان البرتقال ، الذى تم فيه تعميد كل أبناء جدتى ، وأحفادها أيضاً ، وفى خلفية أشجار البرتقال ترتفع قمم جبال "شوارزتكوفا" السوداء تماما فى الصيف ، البيضاء تماما فى الشتاء حين يكسوها الجليد ، يتخلل الجبال طريق رئيسى بمحاذاة نهر "غامكا" ، عبر هذا الطريق يسافر الرجال لشمال البلاد ، عندما يرحلون للتنقيب عن الذهب ، وينحدر نهر "غامكا" وسط هذا الممر الجبلى ؛ ليروى مزارع الوادى ، فى انحدار النهر إلى "نويتجادخت" ، يعبره الرجال من عند منحدر "رويكرانز" .

داخل "حظيرة العربّة" ، كان جدى يخزن براميل "البراندى" ، "وتبغه" ، "والقرع" ، "وكيزان الذرة" التى تخصه ، "ومحاريثه ومساحيه" ، وسياطه ومهاميز الجياد ، وكل الأشياء التى تعتبر من مستلزمات المزرعة فى ذلك الحين ، وكانت تتدلى من عوارض السقف الخشبية ، جلود وسيور ضخمة ، كان يستعملها عادة لخياله ، فكانت دائما رائحة المعلم "يان بوتيه" ، خليطاً من رائحة التبغ والبراندى والجلود ، وعندما كانت تبتل الأرض الطينية المجاورة للباب من الندى ، كانت تفوح منه رائحة العجول وروث البهائم .

عندما جاء "يان بوتيه" عندنا، لم يكن بالمرعة أية كتب سوى الأنجيل، والكتب الدراسية القديمة التي اعتقد الأعمام والعمات أنها لم تعد صالحة لاصطحابها معهم بعد زواجهم، فكان الكتاب المقدس هو كتاب القراءة بالنسبة لأطفال العمّة "بيتيه"، واستعمل أحد جلود جدى كسبورة، كان يكتب عليها بالطينة الزرقاء الجافة المجلوبة من النهر، وراح يعلم الصغار الحروف، والكبار منهم الأرقام، كما علمهم الجغرافيا، لكنها كانت نوعاً فريداً من الجغرافيا، لم يُدرس بمنطقة "بلاتكوبس" قط، أجل، بالتأكيد لم يكن العالم ليكون أكثر دهشة وغباء عما رسمه لنا "يان بوتيه" - فقد كنت أذهب أنا أيضاً لفصله في حصة الجغرافيا بحظيرة جدى، عندما كان يتحدث عن المدن والعجائب التي شاهدها، دائماً كنت أفكر كم كان حزنه مريراً، كم كانت خطيئته كبيرة، تلك الخطيئة التي ساقته إلى تلك المدن، ثم إلينا.

قد يحدث أحياناً أن يسألنى: "إنجيلا، ماذا سنجهاز للدرس قراءتنا؟" عندئذ قد اختار الإصحاح الرابع عشر من سفر أخبار الأيام، أو الإصحاح الثامن من الملوك.

ذات يوم سألنى: "إنجيلا، ما الذى يجعلك تختارين 'الصلاة فى المعبد؟' وأنا التى لا تعرف إلى أى حد اقتربت شفقتى عليه من الحب، أجبتة: "سيدى، لأن الملك سليمان صاح مبهتلاً: "اسمع وأنت فى موضع سكناك فى السماء، وإذا سمعت فأغفر"، إننى أدعو للغريب القادم من بلاد بعيدة.

منذ هذا اليوم أصبح "يان بوتيه" ، الذى كان طيبا مع الجميع ، طيبا ولطيفا معى أيضا ، مرات كثيرة وجدت عينيه تستقران على ، وأحيانا كان يأتى ويجلس إلى جوارى هادئا بينما أحبك الملابس ، فكان قلبى يخفق بضربات عنيفة من الفرح والألم معا ، باستثناء تلاميذه ، فإنه لم يتحدث مع أى إنسان فى المزرعة ما لم يبدأه الآخر بالكلام ، لكنه الآن يحدثنى ، وعندما كنت أخرج مع الصغيرة "نيلتيه" وأخيها للبحث عن كل الأشياء الرائعة بالنسبة لطفل ، كان "يان بوتيه" يجرى معنا ، وفى مثل هذا الوقت كنت أنا التى تُعلم "يان بوتيه" أية ثمار التوت تؤكل و أيتها تقتله ، وأية الأعشاب يُترك وأيتها تشفى الإنسان من المرض ، وأية الجذور والأبصال يطفى ظمأه ، علمته الكثير من هذه الأشياء البسيطة فى المرج ، ولزمن طويل ، طويل جدا ، حمدت الله على أننى فعلت ذلك ، أجل ، كان كل حبي ذاك لـ "يان بوتيه" ، فقط لكى أرشده فى البرية .

حل عيد ميلاد الصغيرة "نيلتيه" ، وكان قد مضى على "يان بوتيه" معنا فى ذلك الحين أكثر من ستة أشهر ، جعلت جدتى من هذا اليوم إجازة لكل من الأطفال ، و "يان بوتيه" وأنا ، وكان علينا أن نصعد معهم فى "الكارثة" التى يجرها بغلان ، إلى الوادى الصغير الذى يرقد وراء منحدر "رويكرايز" ، كان يوما صافيا هادئا مثلما يحدث كثيرا بوادى "غامكا" فى شهر يونيو ، كنا نسوق العربة بـ "نيلتيه" وأخوتها ، ورحنا نغنى معا بأصوات مرحة جميلة ، كأنها فى سمعى أصوات ملائكة الرب ، كنت لضعف صدرى لا أستطيع الغناء ، ومع ذلك ، فى هذا اليوم ، لأن "يان بوتيه" كان يجلس إلى جوارى فى هدوء ، كنت أشعر بقلبي وكأنه

ممتلئ كلية بالغناء حتى خلت أنه يسمعه ، أجل إننى عجزت جداً الآن ، لكننى لم أشعر قط بمثل هذا الفرح الذى اجتاح روحى وجسدى حينذاك .

قدنا "الكارثة" من المزرعة إلى أن وصلنا لمنحدر "رويكرايز" ، وقد استغرق منا الطريق خمس عشرة دقيقة ، فى ذلك الشتاء ، سقط قليل من المطر والثلج فوق الجبال ، وفى حوض النهر تكون جدول صغير ، كانت ضفتا النهر فى هذا المكان شديدتى التحدر ، وعلى الضفة المقابلة ، كانت توجد الصخور الحمراء الضخمة التى أعطت المنحدر اسمه ، أما هنا فقد عمل النحل البرى عسله ، وبنى الإوز البرى أعشاشه ، كم كان جميلاً الهواء الرقيق الصافى ، ومنظر الصخور الحمراء مقابل السماء الزرقاء ، وإلى أى حد كانت أجنحة الإوز البيضاء جميلة مقابل تلك الصخور .

عندما عبرنا الجدول الصغير ، أوقف "يان بوتيه" الكارثة ، ونزلت "نليتيه" وأخوتها إلى حوض النهر وهم يتصايحون ويصفقون بأيديهم ، ليدفعوا الإوز للطيران بعيداً عن الصخور التى فوقهم ، كنت وحدى معه بالعربة فراح يستحث البغلين بالسياط ، لكنهما لم يتحركا ، وقف "يان بوتيه" فى الكارثة وزاد من سوطه لهما ، تراجع البغلان للخلف فى اتجاه النهر ، قفز من العربة ، وبطرف عصا سوطه ضرب البغلين فوق أعينهم ، وتحول وجهه ، الذى كان غالياً جداً عندى ، تحول فجأة وأصبح غريباً ومرعباً ، ناديته : "يان بوتيه" ! ، إلا أن ضعف صدرى غلبنى ولم يخرج صوتى ، وقفت داخل الكارثة كى أنزل منها ، وبينما كنت أهم بالنهوض ، أمسك بالسكين فى يده ، وأنشبهها فى عيون البغلين ليعميهما ، صدر عن البغلين صرخة رعب حادة ، أعلى من

ضحك الأطفال وصيحات الإوز البرى ، وسقطتُ من فوق العربة إلى الرمال الناعمة لحوض النهر ، عندما نهضت من سقطتى ، كان البغلان قد غاصا فى الجدول ، والعربة تسقط وراءهما وهى ترتطم بالصخور وتتسظى ، "يان بوتيه" يتبعهما ، هكذا فجأة وبسرعة تملكه جنونه وتغلب عليه ، حتى أن الأطفال لم يدروا بما جرى وظلوا فى لهوهم يضحكون ويصفقون بأيديهم ، وظل الإوز يحلق من فوقنا بين الصخور الحمراء .

الرب وحده يعلم كيف جمعت الأطفال ، وأرسلت الأولاد الكبار للمزرعة بسرعة ، وعدت أنا مع "نليتيه" وبقية الصغار ، امتطى جدى الفرس ، وسار لمقابلتنا ، أخبرته بما قدرت عليه ، وما قدرت عليه كان قليلاً ، ثم واصل هو السير نازلاً فى اتجاه النهر ، عندما وصلنا المزرعة ، جرى الأطفال للبيت إلى حيث جدتى ، أما أنا فمشيت إلى حظيرة العربة ، فتحت الباب وأغلقتة ورائى ، تسلفت فى الظلام إلى كرسى "يان بوتيه" ، حيث مكثت طويلاً ، طويلاً ، ورأسى بين ذراعى على مكتبه ، أحسست كأن العالم ليس فيه سوى الحزن الذى كسر قلبى ، والظلمة التى تنبعث منها رائحة التبغ والبراندى والجلود ، بقيت وقتاً طويلاً ، إلى أن دخلت على جدتى وقالت : "إنجيلا صغيرتى ، نور قلبى ، كترى ! " .

وجد جدى البغلين وقد أصابهما "بوتيه" بالعمى ، فأطلق عليهما الرصاص ، ولفترة طويلة بقيت شظايا العربة منتشرة فى حوض النهر ، أما "يان بوتيه" ذاته ، فلم يعثر عليه جدى ، على الرغم من أنه أرسل الرجال للبحث عنه فى الوادى عدة أيام ، واعتقد الجميع أنه قد رحل لشمال البلاد فى الليل ، كنت بعد الحادث ولفترة طويلة مريضة جداً حتى

أن والدى جاء من مزرعته ليرانى ، وكان يريد اصطحابى معه ، لكننى طلبت من جدتى أن تبقينى ، وكان أبى لا يرفض طلبا لجدتى ويثق فى كل ما تقوم به ، فتركنى عندها .

لم يمض على رحيل أبى عدة أيام إلا وأحضر "فرانز لانجرمان" لجدتى وجدى أخباراً عن "يان بوتيه" ، يقيم "فرانز لانجرمان" بمكتب تحصيل الرسوم عند مدخل الممر الموجود بالجبال ، وقد جاءه "بوتيه" فى هذا المكان ليطلب منه أن يبيع له عربة يد صغيرة تقف عند بوابة المكتب ، وكانت عربة اليد هذه ثقيلة وغير مصقولة ، حتى إن عمال رصف الطرق الذين يصلحون طريق الممر تركوها خلفهم لهذا السبب ، وقد سأله "فرانز لانجرمان" عما سيفعله بهذه العربة ، فرد عليه "بوتيه" : " أنا الذى قتل البغلين ، ويجب أن أعمل الآن مثل البغل إذا كنت أريد الحياة " ، ثم قال له : " اذهب إلى مزرعة نويتجادخت ، وقل للسيدة ديلبورت إن كل ما يوجد فى الصندوق المعدنى الصغير بحجرتى أصبح ملكاً لها كثن مقابل البغلين ، وهناك أيضاً ما يكفى لتغطية ثمن عربة اليد ، هذا إذا وافقت السيدة ، وعليها أن تعطيك حقك فقط . "

سألت جدتى "فرانز لانجرمان" : " لكن ما الذى يريد عمله بتلك العربة ؟ "

أجابها : " سيدتى ، سوف يمضى عبر البلاد يجر عربة اليد بدلاً من البغل ، ويجمع الأشياء التى قد يجدها ، بعد ذلك يبيعها ثانية حتى يستطيع العيش ، وقد صنع "يان بوتيه" لنفسه لجاماً بالفعل من سير جلدى أعطيته له . "

دخلت جدتي حجرة "يان بوتيه" ، ووجدت الصندوق مثلما قال "فرانز لانجرمان" ، كان به نقود تكفى لسداد ثمن البغلين وعربة اليد ، ولا شيء آخر ، أخرجت جدتي الصندوق أمام "فرانز لانجرمان" وقالت : " خذ الصندوق كما هو ، ودع السيد يعطيك المطلوب بنفسه ، أما أنا ، فلن آخذ بالتأكيد ثمن البغلين ، أليست سبعة شهور الآن وهو يُعلم أحفادي ؟ ليساعده الرب ، وليرحل فى سلام " .

لكن "فرانز لانجرمان" رفض أن يأخذ الصندوق وقال : " سيدتى ، لقد أقسمت له إننى لن آخذ سوى ثمن العربة فقط ، وسأترك الباقي "

أعادت جدتى الصندوق لحجرة "يان بوتيه" ، وحملت "فرانز لانجرمان" على قدر ما يستطيع أن يحمل تلك الأشياء التى يحتاجها الواحد فى رحلة لحماً مقدداً ، بقسماطاً ، وجبة طعام ، حقيبة جلدية صغيرة مليئة بالفاكهة المجففة " ، أما أنا لو أعطيت كل العالم لـ "يان بوتيه" فإن ذلك يكون قليلاً عليه ، وعندما ترك "فرانز لانجرمان" البيت وعبر الفناء ، جريت وراءه وأنا أحمل كتابى المقدس الصغير وناديت : " فرانز لانجرمان " ! "فرانز لانجرمان" ! قل لـ "يان بوتيه" أن يأتى مرة أخرى إلى مزرعتنا ! قل له إننى سوف انتظره طوال حياتى ! " .

أجل قلت ذلك ، والرب وحده يعلم ماذا كانت تعنى رسالتى بالنسبة له ، أو أى معنى كانت تحمله عنده ؛ لكن كنت وكأنى سأموت إذا لم أتمكن من توصيلها إليه .

فى تلك الليلة ، جاءت جدتى إلى حجرتى فى ساعة متأخرة من المساء وأنا مستلقية يقظة على الفراش ، ضمنتى لصدرها وأبقتنى فى حضنها ، وكان الظلام يسود فى الخارج ، قلت وأنا أبكى : " جدتى ! جدتى ! هل الحب يعنى كل هذا الحزن ؟ "

مازال يمكننى سماع صوتها الخفيض الواضح الذى أجابنى بتحفظ شديد : " فرح وحزن ، عطاء ومنع ، ليس الحب فى آخر الأمر إلا ما يصنعه الإنسان به "

فى اليوم التالى : " طلبت جدتى أن أقوم بالتدريس لأحفادها مكان "يان بوتيه" ، فى أول الأمر ، وبسبب ضعف صدرى الذى كان يجعلنى دائماً خجولة ، لم أعتقد أنها تعنى ذلك بجدية ، لكنها كانت تعنيه فعلاً فجأة ، أدركت أننى سوف تواتينى الشجاعة على هذا العمل من أجل "يان بوتيه" ، استدعيت الأطفال ونزلنا جميعاً إلى حظيرة العربة ، حيث درست لهم هناك ، وكانت الكتب التى استعين بها فى عملى تأتينا من راعى كنيسة "بلاتكوس" طوال شهور ربيع وصيف هذا العام ، وحققت رغبة جدتى فى تعليم أحفادها .

ولأننى أحب الأطفال وصبورة معهم ، ومن أجل "خاطر" "يان بوتيه" ، نسيت ضعف صدرى ، وأصبحت معلمة جيدة ، ويوماً بعد يوم كنت أجلس على كرسى فى حظيرة العربة ، أتخيله وهو يجز عربة اليد عبر المروج ، يوماً بعد يوم ، كنت أحمد الرب على أننى علمته أية ثمار يأكل ، وأية البصيلات تروى عطشه ، أجل ، بمثل هذه الأشياء سوف يجد حبيبى راحته .

حل الشتاء بوادى "غامكا" هذا العام مبكراً ، وفى أحد أيام شهر مايو ، انهمر الثلج لأول مرة ، و ملأ النهر حتى فاض على الوادى نازلاً من الجبال ، اصطحب جدى الأطفال إلى النهر لمشاهدة الفيضان ، لم أذهب معهم ، وبقيت وحدى مع كتيبى أعمل بحظيرة العربية ، عندما تطلعت فى ذلك النهار عبر الباب الموارب ، نظرت لأعلى ، فشاهدت بستان البرتقال ، وقمم جبال "زفارتكوبس" ناصعة البياض مقابل السماء الزرقاء ، عند ذلك غشيت قلبى سعادة غريبة حزينة ، أحسست أن "يان بوتيه" وجد السلام أخيراً ، وأنهم فى طريقهم ليقولوا لى ذلك .

فى هذا اليوم ، وأنا فى حظيرة العربية ، فكرت فيه كثيراً ، كثيراً ، وعندما سمعت وقع الأقدام الثقيل ، والهمهمات عبر الفناء ، لم أعرها أية أهمية ، ثم تلاشت الأصوات ، ووجدت جدتى واقفة أمامى وحدها ، وعيونها ممتلئة بالدموع ، وفى يدها كتاب صغير مُبتل ومنتفخ ، تعرفت عليه ، إنه الكتاب المقدس الذى أرسلته لـ "يان بوتيه"

وجدوا جسده عند سفح المنحدر : لجامه حول صدره ، ويد عربته مازال فى يده .

هذه الليلة مضيت وحدى إلى الحجرة المسجى بها "يان بوتيه" ، سحبت الملاءة التى تغطيه .

كان اللجام قد ترك علامة فوق صدره حتى أخشن الجلد ، ركعت إلى جواره ، وضغطت رأسى إلى صدره ، ومن أعماق قلبى تدفقت كلمات الوداع ، كلمات رقيقة مثل التى اعتادت جدتى قولها :

يا فرحى وحزنى

يا نور قلبى ، يا كنزى .

أوتا سام وبابا نويل

تأليف : تون فان دن هيفر (٢٣)

كانت الحلوى فى ذلك الوقت مجرد ذكرى تخيلنى ، واللحم ليس أكثر من كلمة تجعل اللعاب يسيل ، كان طعامنا ثلاث مرات فى اليوم ، حنطة الكافير ، وشرابنا ثفل القهوة المغلية المصنوعة من جوز البلوط ؛ وتُطبخ حنطة الكافير بطرق متعددة نتباهى بتنويعاتها: ثريد حنطة الكافير ، ومسحوق حنطة الكافير ، وأخيراً عصيدة الحنطة اليابسة الكافيرية .

راح "جانى" يتتجب : " أج ، أوتا سام ، أود قطعة صغيرة طيبة من اللحم ، أو ملعقة حساء فوق عصيدتى ، أو قليلاً من السكر فى قهوتى " كان والد "جانى" وأخوته فى مهمة فدائية بمكان بعيد ، وقد تركوا الولد بالمزرعة فى رعاية "آيا كوما" ، الخادمة العجوز من "الجريكوا" ، وزوجها "أوتا سام" .

ذات يوم راح "جانى" يتنهد كثيراً حسرة على طواجن اللحم فى مصر ، فاستسلم "أوتا سام" لمزاجه الظريف ، وقلّى قطعة من سير جلدى قديم ، وأوهمه أنها كرشة خروف ، كانت رائحتها شهية ، لكن عندما

(٢٣) ترجمها عن اللغة الإفريقية « پارپراماكينز »

عض الولد "جاني" عليها، كشر بقرف لا يوصف، مما جعل "أوتا سام" يسقط على ظهره من الضحك، ويرفس برجليه في الهواء من السرور، الأمر السيء أن هذا السرور لم يدم؛ لأن "آيا كوما" ظهرت في المشهد، وتصرفت نيابة عن مولاها وسيدها الغائب، فقد انقضت على "أوتا سام" بضراوة، حتى أنه احتاج وقتاً طويلاً قبل أن يتجرأ ويغامر بالدخول إلى المطبخ مرة أخرى، إلا أن العجوز "أوتا سام" كان من النوع الذي لا يقدر أحد على قمعه لفترة طويلة، فهو عندما يقترب عملاً مشيناً، كان دائماً يبحث عن بعض وسائل الترضية ليستعيد مكانته.

في هذا المساء، عندما كان "جاني" جالساً كالعادة أمام مدفأة المطبخ، استهل "أوتا سام" الحديث بطريقته المسرحية المعتادة: "ستيغانوس" "يوهانس"، "ياكوبس"، "كاسترول"، هل حضرتك يمكن أن تقول لي أي يوم يكون غداً؟".

لم يكن "جاني" عند تعميده قد تسمى بأي اسم من تلك الأسماء التي ناداه بها "أوتا سام"، لكن نغمته الرزينة كانت كافية لأن تثير استجابة فورية لديه: "لا أعرف يا "أوتا سام".

"فليبارك الله روحى؛ هل تقصد أن تقول لي يا ريسى الصغير، إنك حقاً وصدقاً لا تعرف".

"نعم، أوتا سام، لا أعرف".

قال له في نغمة تأنيب: "ستيغانوس! احمنا، أنقذنا، أنك لست إلا وثناً جاهلاً! ألا تخجل من نفسك؟"

" حسنأأوتا سام ، ومع ذلك ، ما أهمية معرفة ما يوم الغد ؟ "
" إنه عيد الميلاد المجيد ، اليوم الذى يولد فيه مخلصنا المبارك ،
إلهنا . "

" لكن يا "أوتا سام" ! إلهنا موجود دائماً ، هو الذى خلق
السموات والأرض ؛ إذن كيف يمكن أن يولد غداً ؟ "

" أنظر يا ريسى ، هذه الأمور الكبيرة الرائعة ، أعلى من فهم
معظم الناس الكبار ، فلا تزعج نفسك بها ولو للحظة ، ويوماً ما عندما
تنبت لحيتك ؛ فإن "أوتا سام" سيفسرها لك "

مر الوقت فى سعادة عندما جلسا يتذكرا احتفالات أعياد الميلاد فى
السنوات السابقة - المرح ، والإثارة ، واليوم الكبير الذى يذبح فيه الخنزير ،
والشواء الكثير ، وهدايا الكريسماس ، حتى أن العجوز "أوتا سام" كاد
يبكى من التأثر ، خاصة عند ذكر جرعة البراندى المعتبرة التى كان يشربها
فى هذه المناسبة ، والتى استغنى عنها الآن مضطراً .

أبدى العجوز "أوتا سام" ملاحظة قبل أن يلقي تحية المساء قائلاً :
" يا ريسى سأرقد فى سريرى منتظراً "بابا نويل" العجوز ، فيبدو لى أنه
يتفادى المجيء لمزرعتنا ؛ لكننى سوف أظفر به الليلة بالتأكيد ، حتى لو
اضطرت لسحبه من ذقنه ، حسنأ ، علق الليلة كيس الحبوب هذا
فحسب عند طرف سريرك - أمهلنى الليلة فقط لأمسك بـ "بابا نويل" ،
وسوف تحصل على هديتك - وإلا ستقع مشكلة لشخص ما ، مشكلة كبيرة ! "

عندما استيقظ "جاني" في الصباح ، رقد في السرير ساكناً ، سارحاً ، إلى أن عاودته فجأة حديث الليلة الماضية ، ومثل البرق ، اندفع خارجاً من الفراش منقضاً على الكيس ، " أجل ، هناك كتلة ما ! ماذا تكون؟ هاى ، لكنها شيء أكبر من أن يكون "هارمونيكاً" أو مطواة فضية ! " ، دفع يده داخل الكيس ، وأغلق عينيه بأحكام وراح يتلمس بيده ما بداخله ، يا إلهى : كم هى غريبة تلك الأشياء التى ألمسها ، سحبها للخارج . . برطمان عسل أسود ، وعيدان قصب مقطعة بأطوال مختلفة ، وفى الآخر دجاجة سودانى ضخمة ! صرخ "جاني" من الفرحة ، حتى إن "أوتا سام" و "آيا كوما" هرعا مسرعين لحجرتة ليشاركاه فرحته .

حوالى الساعة الحادية عشرة صباح ذلك اليوم ، تصاعدت رائحة الدجاجة الشهية ، لدرجة أن "جاني" لم يتحمل الجلوس بالخارج وقتاً أكثر من ذلك ، ومع ذلك لم يضيع وقته فى نعيم الشمس ، فكان يراقب عمل "آيا كوما" وفكاه مشغولان بمص القصب ، وفى نفس الوقت ، كان "أوتا سام" واقفاً تحت نير ، فى كل طرف منه يتأرجح دلو ممتلئ بمياه النبع ، وعلى كل دلو إكليل من أغصان الصفصاف ، تمنع إراقة الماء ، توقف كاليت ومنخره ينتفخان وينطبقان للداخل والخارج مثل كشحى حصان يلهث من الركض .

" هاى ، تاي ، تاي ، يا ناس ! الرائحة هنا كثيرة جداً ، احترسوا وإلا فسوف تنفجرون اليوم من الأكل "

اندفعت كلمات "جاني" وراء بعضها البعض : " أجل أوتا سام ، أوه ، أشكرك ، أشكرك إلى أبعد حد لأنك ذهبت وأمسكت "بابا نويل" ، لكن ، أين وجدت الهدايا ؟ "

" على ظهر القمر ، فى ذلك المكان يجد الإنسان كل شىء "

لكن قل لى يا "أوتا سام" ، كيف استطعت أن تمسك بـ " بابا نويل "
وتحضره إلى هنا ؟ أكانت معركة كبيرة ؟ "

أنزل العجوز سام الدلوين ووضعهما على "الدكة" بالمطبخ ، ثم بعين
الخبير ، راح يقدر الرضا على وجه "آيا كوما" ، بعد أن اطمأن إلى
رضاها ، جلس على "الدكة" نفسها وتنهّد براحة ، ثم قال "يا ريسى الصغير ،
إذا لم تمنع "آيا كوما" فى إعطائى شيئاً أرطب به حنجرتى ، فإننى
سأحاول تهيتها للكلام . "

بلا أية كلمة ، صبت له "آيا كوما" قهوة جوز البلوط . "

" يا بن أبيك ، إن تجلب "بابا نويل" العجوز إلى هنا ليس شيئاً
هيناً ، لا ، وحياة "جولى" إنه ليس كذلك ! فهو من زمن بعيد يسوق
أيائل الرنة التى تجر عربته وتسرع بها ، وينزلق بخفة فوق الأرض ، حتى
أن عجلات عربته تمس الأرض مساً عابراً عند قمة التل المنحدرة ، أتعرف :
إن طريقه يجرى بطول سلسلة جبال "روى كوبس" ، لكن عطر قافلته يظل
عند القمم القريبة ، كيف كان لعجوز مثلى أنا "أوتا سام" أن يلحق بطرف
حيوانه ويمسك به بيده العزلاء ؟ لذلك أخذت قليلاً من حزم الشعير
الجديد ، حتى أغرى أيائله بالتوقف ، وأخذت رقاً كى أجعلها تحزن وتأبى
المسير فى حال إمساكى بها من الجهة التى تهب منها الريح ، وحملت
مقلاعى على ظهرى تحوطاً ، إذ ربما يفقد الرجل العجوز صوابه ويتصرف
معى بتهور ، ثم هرولت ناحية الطريق وصعدت تلأل "شوجربش"
العالية ، وذلك كى ألتقط نظرة خاطفة من الرجل العجوز .

" أتعرف ، لم أكن حتى تجاوزت " ديل فونتين " عندما لمحت أمامي مباشرة على الطريق ، شخصاً ما يعرج وعلى ظهره كيس ممتلئ .

فى أول الأمر خطر على بالى أن أطلق عليه الرصاص ، فقد ظننت حينذاك ، أنه مجرد أحد أولئك التجار الهنود ، لكننى تذكرت أننا لا نجد فى هذه الأيام أى هندي يجول على مقربة من منطقة "الترنسفال" ، لذلك اقتربت منه فى ضوء القمر ، وحدثت فيه من تحت طرف قبعتى ، تصور من كان ! أحلف لك إنه كان "بابا نويل" بشحمه ولحمه .

صحت : " أوه بابا نويل ، يا إلهى السرحيم ، كيف تسافر فى مثل هذه الليلة سيراً على الأقدام كأنك تاجر يهودى ؟ ماذا حدث لعربتك ؟ "

رد بابا نويل : " منذ جاء "جولى روبرتس" إلى البلاد لم يعد لدى من شىء سوى القلق ، والغىظ ، والأسف ! ليلة أول أمس خيمت فى الخلاء عند " فلورز فنترز " على رابية فى " دوال هوك " ، قرب نهر " فال " ، وسقت أيائلى وسط حيواناته فى الكرال ، تصور ، فقدت أيائلى هناك ، أيائلى المجلجلة التى تجر عربتى ! لسوء الحظ ، أحد رجال "جولى روبرتس" ، وهو واحد من هؤلاء "التوميز"^(٢٤) ، جاء فى الليل ليقضى على حيوانات "فلورز فنترز" الصغيرة ، وأنت تعرف الـ "تومى" شاطر جداً عندما يتعلق الأمر بقتل الحيوانات ، وكنت قد وصلت توأاً لتحتيتهم تحية ودية ، لكن مع الأسف ، كانوا قد قتلوا أيائلى .

عندئذ قلت لنفسى : يا ولد يا سام ، لا تضيع هذه الليلة وأنت واقف تنوح ، لذلك غمزت الكيس الذى يحمله بابا نويل بضع غمزات

(٢٤) التوميز : اسم أطلقه الأفارقة على الإنجليز المحتلين أثناء حرب البوير ، وهى تسمية مشتقة من اسم تومى ، «دائرة المعارف البريطانية» .

وقلت له : " أيها الأب المبجل ، هل لديك شيء ولو بسيط لصغيري ،
في مزرعة "بيتفونتين" نمرة ١٤٤ ؟ أنك تعرفها ، أليس كذلك ؟ على بُعد
مسافة قصيرة من "داسبورت" ؟ أليس معك شيء أحمله إليه ؟

"أج ، أوتا سام ، بنى العزيز الطيب ، حقًا أنا آسف جدًا ،
فالهدايا التي أحضرتها له مازالت بعربتي في فناء "فلورز فونترز" ؛ وهي
ثقيلة جدًا وليس بمقدوري حملها ، كان بها حصان رمادي منقط هزاز ،
وبندقية سوداء - ليست مثل تلك القصديرية - وبعض علب طلقات
الرصاص من أجل البندقية ، وكذلك مطواة ذات مقبض أسود بحدين ،
وعلم القراصنة ، وكان هناك . . . لكن ما فائدة البكاء على اللبن المسكوب ؟
هيا دعنا نرى لعلنا نجد شيئًا له هنا ."

أفرغ "بابا نويل" كل بضاعته على الأرض ، ورحنا نجول بنظرنا بين
الأشياء : قليل من أقراص التبغ الأسود ، وبضع لفات من علكة التبغ ،
وزجاجة أو زجاجتان من عطر اللاقندر ، وشرائط صغيرة تربط حول
العنق ، وغليونان ، وماكينة حلاقة مع مشحذ أمواس جلدي ، وشرائح من
أطوال مختلفة من فك الحوت ، وعلب إبر خياطة مع قطعة من الدنتيل .

هز بابا نويل رأسه بأسف وقال : " أوتا سام ، لا يبدو أن لدى شيئًا
يجعل قلب صغيرك يقفز من الفرح ."

استجمعت شجاعتي وسألته : " بابا نويل ، ألا يمكننا أن نحاول
محاولة بسيطة ونعود إلى نهر "فال" مرة أخرى ، لعل . . . ؟"

" ماذا بهاتين القدمين العجوزتين الواهنتين ؟ أوه ، أوتا سام ، فليباركنى الرب ، لقد جئت توأ من هناك ! كيف يمكن عمل ذلك ؟ خاصة إنه مازال على زيارة "هيدلبرج" و بوكسبرج" و "اليندرزفونتين" ، كل ذلك على قدمي ! " .

قلت بخبث : " أوه ، يا إلهي ، مسكين بابا نويل ، لكن يا أبى ، لا أحد فى العالم يمكنه أن يقوم بعملك هذا . "

تأوه بابا نويل ، وجلس حزينا على الكيس ، وحك قدميه "الموجوعتين" فى بعضهما قائلاً : " حقيقى فعلاً " فانتهزت الفرصة وقلت بكل مكر : "شوف" ، لا تفقد عزيمتك ، لأنه حيث تتوفر العزيمة والإرادة يكون هناك حل ، تعال معى حالاً إلى مزرعة سيدى ، على الجانب الآخر من هذا التل الحجرى الصغير ، وسوف أُقلك وحمولتك إلى حيث تريد ، فنحن لدينا الكثير من المركبات ، والحيوانات ، وعدة الخيل ، كل شىء موجود هناك "

" عندما وصلنا المزرعة جن جنون العجوز العزيز ، لأنه رأى بلمحة أن كل ماشيتنا وجيادنا قد أُلحقت بالجيش الإنجليزى ، رحلت ألافه بكل كياسة وقلت : " أبى انتظر قليلاً ، وسوف ترى كيف أن الرجل الذكى يمكنه أن يصنع شيئاً من لا شىء ، " ثم سحبتُ "الكارثة" القديمة التى كان والدنا نخبأها عن "التوميز" بين البوص ، عدلتها ورحلت أُحرك العجلات ، ثم دفعت بقوة المسامير لأعلى وأسفل ، ثم للخلف والأمام ، ولليسار واليمين ، إلى أن بدت مثل قنفذ كبير . "

" ربطت فى كل مسمار حبلاً قطنياً ، هذا طويل ، وهذا قصير ، وفى الطرف الآخر من الحبل ، ثبت خنفساء من خنافس الروث ، وفى لمح البصر ، صار العشب أسود من تكدس أسراب الحشرات فوق بعضها البعض مثل الجراد على فرشاة مكنسة ، كانت الخنافس تجول وتتصارع على أذرع التوصيل وتتشابك فوق بعضها البعض فوق عدة الفرس مثل ثيران مقرونة صغيرة حمقاء ، لم يمض وقت طويل حتى راح " بابا نويل " يغمغم ويدمدم متذمراً ؛ لذلك كان على استرضاءه وملاطفته ثانية ، ألا أعرف أن خنافس الروث تجوع بشدة حين تقل الماشية ؟ حسناً ، لذلك خرجت لمكان قريب ثم عدت بمقبض سوط طويل ، وكسوته بمعجون الروث عند طرفه ، مثلما يفعل الأطفال بأعواد البوص عندما يلطخونها بالطين وهم يلعبون " .

" صحت : " أبى ، اقفز إلى داخل العربة ! اقفز وإلا ستجد نفسك متخلفاً وراءنا ! "

" وما إن لمس سروال " بابا نويل " المقعد حتى غرزت السوط عند مقدمة العربة ، وصحت : " ويرا - ويرا ، هيا ! " ما الذى حدث ؟ عندما تلقت خنافس الروث الإشارة ، اندفعت العربة العنكبوتية القديمة لما فوق النخيل القصير ، حتى أن سعفها تسطح ، ثم رفعت مقبض السوط قليلاً ، وعندها ، أقسم ، راحت أجنحة الخنافس تطن مثل مليون نحلة مهتاجة ، كلها مهتاجة ومجنونة ! ثم رفعت السوط لمسافة قصيرة بهدوء إلى ما فوقى ، عندئذ ، كان لابد من أن ترى هذا المشهد ، حين تلاشت المزرعة من تحتنا على كلا الجانبين ، ولم أتمكن من تمييز أى شىء فيما عدا خزان المياه وهو يلمع تحتنا من بعيد ! "

" انحرفنا بسرعة جهة اليسار حتى نتجنب سحابة مثقلة بالمياه ،
وكدنا نلمس طرف الهلال الأيسر! وعلى سبيل الدعابة ، عملت بضع
انعطافات ودورانات حادة ؛ وقد أردت أن أعرف إذا كان « بابا نويل » خائفاً ،
أم أنه أخذ الأمور ببساطة . لم يكن خائفاً ! حتى حين انحرفت بحدة
مستديراً ، ومالت العربة عكس اتجاه الريح ، فإن العجوز أطلق ضحكة
مجلجلة ، حتى أن فمه بدا مثل بوق وهو يهتف بى : " سام ! سام
العجوز ! يا كذا وكذا ! يا الله ، سام أنت ولد بألف ولد ! أنت بطل ،
أوتا سام ، أنت الأفضل ، أنت ملك عليهم جميعاً " .

وصلنا " فلورز فترز " ، قبل أن يختفى القمر . كانت " هيدلبرج " وراءنا ،
مازال بعض الناس يعيشون فى القرى ، والمزارع ، فأنزلنا حمل الهدايا من
العربة العنكبوتية ، فأصبحت أخف وزناً وأسرع ، فحلّقنا فى الجو ، عند
أول صيحة لديك ، كنا بالفعل نندفع بسرعة البرق عائدين للبيت ،
مخلفين عن يسارنا قرية " نيجل " .

" شوف " ، أنت تعرف أن ليلة عمل مثل هذه تجعل الماشية جائعة
مثل الذئاب ، ولذلك نزلت إلى يمين " هيدلبرج " ، وهناك كانت جماعة
من " الشُّطار " الذين استطاعوا إخفاء ماشيتهم ، ورأيت إفريقيا وقد بدأ يهبط ،
ربما كانت قد جفت غمرة الروث من على سوطى بسبب الريح ، فلأول
مرة كنا نحلق على ارتفاع منخفض جداً ، وكان " بابا نويل " سعيداً جداً ،
وبينما كنا ننزل بين حقول " دورز فان توندرز " ، كان " بابا نويل " يللمم
من الحقول ويكُدس أكواماً فى العربة ، يا الله ، كان جميلاً رؤية العجوز
وهو يمرح ، كان يغنى بكل طاقته ، ويُمسّد لحيته التى فردتها
الريح على وجنتيه .

" حين كنا نمر فوق أشجار الصمغ الرمادية الضخمة فى
"يان فيرماكس" ، راحت السماء تتلون باللون الوردى ، رحنا نحلق
عاليًا لتفادها ، لكننى صحت : " يا جماعة ، هاى . . . هاى ، حلقوا
عاليًا ، حلقوا عاليًا ، " أقول لك ، لقد أصابنى خوف ما بعده خوف ،
أكبر من كل المخاوف التى عانيت منها فى حياتى ! لماذا ؟ لأن "كرال"
"يان فيرماكس" كان مليئًا بالماشية الإفريقية الحمراء ! ولا بد من أن الخنافس
قد تعرفت عليه من رائحة الروث ، فقد كان طنين أجنحتها شديدًا ، مثل وتر
ملولب إلى أقصى حد ، وفى التو انطلقوا بأقصى سرعة صوب الكرال .
" صاح بابا نويل : ارتفع بنا عاليًا ، ارتفع عاليًا " .

" صحت : اصعدوا ، هيا يا أولاد ، اصعدوا ! "

" لكن لم يحدث ! أخيرا أمسكت بالسوط عمودياً ، ومع ذلك لم
تصعد الخنافس ، كنا نندفع تجاه سور الكرال مثل قطار سريع ! وراح
السور يكبر أكبر فأكبر ، كلما اقتربنا أكثر . . . فأكثرو . . . بو . . . و . . . م . . . "

" هل انقلبت العربة ؟ ويرا . . ويرا ، انقلبت العربة ، أوه ، قدمى ،
تسألونى يا جماعة ، هل شاف "أوتا سام" النجوم هذه المرة ؟ أى نعم ،
فقد تدلينا مثل زوج من القرده ، ارتطمت العربة العنكبوتية القديمة بالأرض
ارتطامة قوية ، وقفزت من على سور الكرال ، والخبطة الثانية ، أوقعتها
بسرعة البرق على كوم من الروث عند الجانب البعيد من حفرة مصرف
الكرال ؛ وفى ارتدادها للمرة الثالثة ، يقسم لكم "أوتا سام" إنها سقطت
رأسًا على عقب فى قاع "وايلديز كوبى" ، وكل ما استطعت رؤيته كانت
لحية "بابا نويل" وهى تبرز من جانب واحد ، مثل ريش طائر وقع فى شرك " .

" وضعت كتفى تحت محور العجلة ، ورحت أرفع العربة حتى ارتعشت ركبتاي ، خرج "بابا نويل" يزحف على أربع ببطء وراح يزيل الروث عن لحيته بأصابعه . بينما كنت أرفع الروث عن العربة العنكبوتية كى أستطيع عدلها مرة أخرى ، وجدت "بابا نويل" راقدًا فوق دجاجة سودانية كادت تفتس .

" أوه ، يا إلهى ، يالها من فوضى وقعت بين الأشياء ! الجواد الهزاز الرمادى المنقط الذى كان فى كيس بابا نويل ، بدا مثل " قولحة " الذرة التتنة صحت فى ماكينة الدريس ، أما السرج واللجام الأحمر ، فكانا قد تنسلا ، والبندقية التوت مثل فتاحة السدادات المبرومة ، أما القطعة الفضية التى على مطواة "رودجير" ، فقد ظهر لها ساقان واختفت " .

" عندما وقف بابا نويل ، ترنح فى وقفته كأنه سكران ، ثم راح يبحث فى جيب معطفه وجذب زجاجة العسل ؛ التى لم تنكسر لأنها لا بد من أن تكون قد وقعت فوق الدجاجة السودانى ، ثم وضع العسل ، وقصب السكر والدجاجة معا ، وقال بأسف : " أوتا سام ، يا رفيقى العزيز الطيب ، خذ هذه الأشياء وضعها فى كيس حبوب صغيرك مع تحياتى ، يا خسارة الهدايا اللطيفة ، لكن كما يقال : لا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب ، وما حدث قد حدث ، أوتا سام ، أنت بطل ، أنت صاحب المرتبة العليا ، أنت الأفضل ! إنها حقيقة لا أستطيع إنكارها ، فى المستقبل يمكنك أن تسوق العربات كيفما شئت ، لكن لن تصطاد "بابا نويل" مرة أخرى ، فلا يلدغ المرء من جحر مرتين ! " .

" وآخر مرة رأيته كان يتهادى على قدميه ، من بعيد على الطريق السريع ، يطلع من جانب لآخر ، أكثر جمالاً مما وصفته أغنيته القديمة " .

تأليف : هيرمان تشارلز بوزمان

قال العم "شالك لورانس" : إن الإنجليز ناس غريبو الأطوار ، مثلاً :
 فى ذلك اليوم الذى اشتبكت أنا وابن أخى "هانس" مع إنجليزين قرب
 "ديوتسدروف" ، كان هذا المكان يقع على مقربة من مكتب بريد "سنا" ،
 كنت و "هانس" رابضين خلف صخرة نراقب الطريق ، وكان "هانس"
 يقضى مثل تلك اللحظات الغريبة يبرّد أطراف خراطيش سلاحه الموتر
 على صخرة مسطحة ، إلى أن تظهر الكريات الصلب من بين غلاف
 الخرطوش ، وبذلك يحولها إلى طلاقات "دَم دَم" (٢٦) .

تحدثت مراراً مع ابن أخى "هانس" عن تحويله للطلاقات ، واعتدت
 أن أقول له : " هينى ، إن ما تفعله خطيئة ، الرب يراك "

وكان هانس يرد : "حسناً ، حسناً ، الرب يعلم أن هذه حرب البوير" (٢٧) ،
 وفى زمن الحرب ، فإن الرب لا يهتم بمثل هذه الحماقات الصغيرة ،
 خاصة أن الإنجليز كثيرون .

(٢٥) عنوان القصة فى الأصل باللغة الإفريكانية The Rooinek ، وتعنى الإنجليزية:
 أثرت ترجمتها بالدخيل . المترجم .

(٢٦) نوع من الطلاقات المحرمة دولياً . المترجم .

(٢٧) حرب البوير : ١٨٩٩ - ١٩٠٢ ، وقعت بين الإنجليز والهولنديين حول التقسيم
 الجديد للمستعمرات فى جنوب إفريقيا ، شارك فيها القبائل الإفريقية منحازة إلى أحد
 الفريقين ، وضع فى معسكرات الاعتقال ٣٠ ألفاً من نساء وأطفال البوير . و ١١٥٠٠ من
 نساء وأطفال الأفارقة ، مات نصفهم خلال ثلاثة أشهر فقط ، وكانت نسبة وفيات الأطفال الأفارقة
 خلال هذه الشهور بنسبة ٨١٪ . دائرة المعارف البريطانية Anglo - boermu

على أية حال ، ونحن كامنون مترقبون خلف تلك الصخرة ، شاهدنا من على بُعد أسفل ، فارسين يعدوان على الطريق ، بقينا ساكنين تماما ، وتركناهما إلى أن اقتربا منا بمسافة أربعمئة خطوة ، كانا ضابطين إنجليزين ، امتطيا جوادين من الدرجة الأولى ، وزيهما الرسمى راق وأنيق جداً ، كانا من أكثر الرجال الذين رأيتهم منذ فترة طويلة أنيقة ، لدرجة أننى أحسست بالخجل من بنطلونى وخذائى الممزقين ، وسعدت بأننى خلف صخرة لا يستطيعان رؤيتى ، خاصة وأن سترتى ممزقة بطول الظهر ، ذلك لأننى منذ ثلاثة أيام اجتزت بسرعة سلكاً شائكاً ، وقد اجتزته فى الوقت المناسب أيضاً ، ذلك لأن "الفيلد-كورينت" ، وهو رجل بدين ، لم يقدر على الجرى السريع ، فكان خلفى بمسافة عشرين ياردة ، هذا الرجل ، ظل معلقاً على السلك برصاصة اخترقته ، لذلك كنت سعيداً طوال حرب البوير بكونى نحيفاً ، وليس لدى مشاكل بقدمى .

"أنا وهانس" أنا أطلقنا الرصاص فى وقت واحد تقريباً على الضابطين ، سقط أحدهما عن جواده ، وارتطم كتفاه بالأرض وتدحرج مرتين ، مشيراً التراب حوله ، عندئذ أقدم الجندى الآخر على عمل غريب ، فقد ترجل عن جواده ، ثم نظر جهتنا مرة واحدة فحسب ، سحب جواده إلى حيث كان الرجل الآخر يتلوى على الأرض ويزحف بصعوبة ، احتاج رفع زميله عن الأرض إلى ظهر جواده بعض الوقت ، فليس أن ترفع رجلاً عاجزاً ، وقد فعل الرجل هذا ببطء وهدوء غريب ، كأنما لم يكن يعنيه أن الرجال الذين أطلقوا النار على صديقه كانوا رابضين على بُعد مئات من الياردات عنه ، نجح فى رفع الجريح على السرج وسنده بطريقة ما ، ثم مشى إلى

جانب الجواد ، بعد أن مشى بضع ياردات ، توقف كأنه نسي شيئاً ، استدار ولوح ناحية المكان الذى ظن أننا نختبئ فيه ، كأنه يدعونا لإطلاق الرصاص عليه ، فى أثناء كل هذا كنت منبطحاً أرقبه ، وقد اندهشت من رباطة جأشه .

لكن عندما لوح بيده ، دفعت خرطوشة أخرى إلى بندقيتى "المارتين" وصوبت نحوه ، لم أكن لأخطئ قط من على تلك المسافة ، سددت بعناية وحرص ، وعند لحظة سحب الزناد ، دفع هانس ماسورة بندقيتى لأعلى .

قال : "عمى شالك" ، لا تطلق عليه الرصاص هذا رجل شجاع "

نظرت إلى "هانس" فى دهشة ، كان وجهه شاحباً تماماً ، فلم أقل شيئاً ، وأنزلت فوهة بندقيتى إلى العشب ، لكننى لم أفهم الشعور الذى استبد بـابن أخى ، وخيل لى أنه ليس الرجل الإنجليزى وحده هو الغريب ، لا يُقتل لأنه شجاع ، هذا هراء ، فأنا أرى أنه إذا كان رجلاً شجاعاً ، يحارب فى الجانب الخطأ ، فهذا أدعى لقتله .

أمضيت مع ابن أخى "هانس" بضعة أشهر بعد هذه الواقعة ، وذات يوم فى مناوشة قرب نهر "فال" ، اضطر "هانس" وبعض المواطنين الذين عزلوا عن الاتصال بالفدائيين للاستسلام للعدو ، فكانت تلك آخر مرة أرى فيها ابن أخى ، وقد سمعت فيما بعد ، عندما أسره الإنجليز فتشوه ووجدوا بحوزته طلقات الـ "دَمْ دَمْ" فأعدموه بسببها ،

كنت فى غاية الحزن عند سماعى بموت هانس ، فقد كان ممتلئاً حيوية ، وروحه المعنوية عالية دائماً ، ربما كان هانس على حق عندما قال : " إن الرب لا يهتم لحماقة صغيرة مثل طلاقات الـ " دَمْ دَمْ " ، لكن خطأه أنه نسى أن الإنجليز يهتمون "

كنت بالمروج إلى أن وقعوا اتفاق السلام ، ثم ألقينا أسلحتنا وعدنا لبيوتنا ، كنت قبل الحرب أتعرف على مزرعتى بحفرة المحجر التى كانت تحت التل ، حيث كنت أقتلع منها الأحجار الارتوازية للجرن ، بقيت هذه الحفرة كما تركتها ، أما أى شىء آخر فقد ضاع ، احترق بيتى ، انبسطت مزرعتى بوراً ، نُحرت ماشيتى وأغنامى ، حتى الأحجار التى كومتها من أجل المزرعة بُعِثت ، أخرجت زوجتى من معسكر الاعتقال ، وذهبنا معا لنلقى نظرة على مزرعتنا ، لقد دخلت زوجتى معسكر الاعتقال مع طفلينا ، وخرجت منه وحدها ، عندما رأيته لأول مرة بعد عودتى من الحرب ، لاحظت تغيرها الشديد ، فعرفت - أنا الذى خاض غمار القتال - أننى لم أعرف حقيقة حرب " البوير " .

لم تواتنا الشجاعة للحياة بالمزرعة مرة أخرى ، فالحياة ستكون مختلفة بدون الطفلين وهما يعبثان ويلعبان حول المنزل ، دفعت لنا الحكومة تعويضات ضئيلة كى تعوضنا عن خسارتنا ، اشتريت بذلك المبلغ عربة وثوراً ورحلت عن الـ " فرى ستيت " ^(٢٨) التى لم تعد تُدعى بهذا الاسم ، بل أصبحت تدعى الآن " أورانج ريفر كولونى " ^(٢٩) . سافرنا بالعربة التى

(٢٨) الولاية الحرة . المترجم

(٢٩) مستعمرة النهر البرتقالى ، والولاية أو الدولة الحرة بمنطقة الترنسفال فى الشمال ، وهما مستعمرتان هولنديتان ، بينما كان الإنجليز فى مستعمرتى الكيب ، وناatal فى جنوب الترنسفال . المترجم

يجرها الثيران ، وشققنا طريقنا ببطء عبر منطقة "الترنسفال" ، واتجهنا إلى الجزء الشمالى من "ماريكو بشفيلد" ، منذ سنوات مضت ، عندما كنت صبياً ، سافرت مع والدى إلى هذه المنطقة ، والآن عندما عدت إليها مرة أخرى ، أحسست أنها ماتزال موطنًا صالحًا للعيش به ، حصلنا على مزرعة حكومية عند الجانب القصى من "دوارسبرج" بالقرب من "ديرديبورت" ، بعدئذ انتقل فلاحون آخرون إلى هنا ، كذلك جاء للسكنى واحد أو اثنان من "الفرى ستيت" ، وتعرفت عليهما ، كان يوجد أيضاً بعض المتمردين الذين كنت رأيتهم من قبل فى الغارات ، جميعنا فقدنا أقرباء لنا فى الحرب ، البعض مات فى معسكرات الاعتقال ، أو فى ساحة المعركة ، وآخرون أعدموا بالرصاص لاشتراكهم فى التمرد ، لذلك ، وبوجه عام ، كنا نحن الذين انتقلوا إلى "ماريكو" ، قرب حدود "بتشوانا لاند" ، ممرورين وكارهين للإنجليز فى هذا المناخ ، ظهر الدخيل .

حدث ذلك فى السنة الأولى بعد استقرارنا حول "ديرديبورت" ، فقد سمعنا أن إنجليزياً اشترى مزرعة بعد مزرعة السيد "جيرهاردوس جروبيلار" ، سمعنا هذا ونحن جالسون فى بيت "وليم أوديندال" ، هذا البيت الذى كان يستخدم أيضاً كمكتب بريد ، كانت عربة البريد تأتىنا مرة فى الأسبوع بالخطابات من "زيروست" ، فكنا نذهب جميعاً إلى بيت "وليم أودينال" ، نتحدث وندخن ونشرب القهوة ، وكان القليلون منا يتسلمون خطابات ، وما كان يصل منها كان عبارة عن مطالبات بسداد قيمة حفر الآبار التى حفرناها فى مزارعنا ، أو قيمة الأسمنت ، أو مواد بناء

الأسبجة ، ومع ذلك كنا نذهب كل أسبوع بحجة البريد ، أحيانا لم تكن تأتي عربة البريد عند فيضان نهر "جرين" ، فيعود أغلبنا إلى البيت دون أن يلحظ غيابها .

عندما سمع "كوز شتاين" أن رجلاً إنجليزياً قادم للعيش بيننا ، هب واقفاً عن المكتب .

قال : " عندما يأتى إنجليزى ، فهذا يعنى أن على "البوير" أن يتراجع بعد قليل ، سوف أحزم أمتعتى وأجهز عربتى وأعد القهوة ، وأول شىء أفعله فى الصباح ، أن أرحل فوراً " .

عندئذ ضحكنا ، فقد كان "كوز شتاين" كثيراً ما يقول أشياء مضحكة من هذا القبيل ، إلا أن البعض لم يضحك ، فهناك بعض الحقيقة فيما قال "كوز شتاين" .

ناقشنا الموضوع ، وتوصلنا إلى أننا - نحن "البوير" المقيمين فى "ماركو" - لدينا القدرة على إقناع الإنجليزى ألا يعيش بيننا كثيراً ، بعد ذلك بنصف ساعة دخل أحد أطفال "وليم أوديندال" وقال : إن عربة غريبة قادمة على الطريق الرئيسى ، هرع الجميع إلى الباب ، نظرنا للخارج بحذر ، ورأينا العربة التى تتقدم على الطريق مكدسة بكل أنواع الأثاث وألواح الحديد وأدوات الزراعة ، وكان المتاع كثيراً جداً على حجم العربة ، حتى أنهم اضطروا لرفع الغطاء ، الذى من المفترض أن يغطيها ، كي يتمكنوا من تعبئتها .

تهادت العربة ، وتوقفت أمام واجهة البيت ، كان بالعربة رجل أبيض واثنان من الكافير ، قال الرجل الأبيض شيئاً ما للكافير ، ثم ألقى سوطه . مشى إلى حيث كنا نقف . كان يلبس مثلما نلبس تماماً ، قميصاً وبنتلونا وصندلاً ، وكان التراب يغطيه من رأسه لقدميه ، إلا إنه عندما خطى أول خطوة فوق شجيرات الشوك ، رأيناه مرتدياً جورباً قصيراً ، ومن هنا عرفنا أنه إنجليزى .

كان " كوز شتاين " واقفاً عند واجهة الباب ،

ارتقى الإنجليزى الدرج وأمسك بيده ،

قال بالإفريكانية : " عتم مساءً ، اسمى " ويير " ،

صافحه " كوز " وهو يقدم نفسه بطريقته الساخرة : " الأمير اللورد الفريد ميلنر " .

كان ذلك اسم اللورد " ميلنر " حاكم الترنسفال ، فضحكنا جميعاً ، وضحك الإنجليزى أيضاً .

رد عليه قائلاً : " حسناً ، لورد برنس ، إنى أتحدث لغتك قليلاً ، " وأتشم " فى أن أتحدث بها بطريقة أفضل فيما بعد ، لقد جئت للإقامة هنا ، أرجو أن نصبح أصدقاء جميعاً " .

ثم اتجه نحونا ، إلا أن الآخرين تحولوا عنه ، ورفضوا مصافحته ، فى آخر المطاف وصل إلى ، شعرت بالأسف تجاهه ، فعلى الرغم من أن أمته قد عاملت أمتى بغير عدل ، وبرغم أننى فقدت طفلى فى معسكر

الاعتقال ، إلا أن ذلك ليس خطأ هذا الإنجليزي ، إنه خطأ الحكومة الإنجليزية التي أرادت الاستيلاء على مناجم الذهب التي تخصنا ، غلطة الملكة "فيكتوريا" التي لم تكن تحب العم "بول كروجير" (٣٠) ، فقد أشاعوا أن العم "بول كروجير" قام برحلة إلى لندن ، وتحدث معها مرة واحدة فقط لبضع دقائق ، وفي نهاية اللقاء قال لها : إنه رجل متزوج راغب عن الأرامل .

عندما عاد الإنجليزي "ويبر" إلى عربته ، مشيت و"كوز شتاين" معه ، أخبرنا أنه اشترى مزرعة بعد مزرعة "جيرهاردوس جروبيلا" ، وليس لديه خبرة بالزراعة ، إلا أنه اشترى بعض الكتب عن الزراعة سيتعلم منها كل ما يستطيع ، عندما قال ذلك ، نظرت بعيداً تجاه الميناء ، فلم أكن أرغب في أن يراني أضحك ، أما كوز شتاين ، فكان تصرفه مختلفاً .

قال له : " يا رجل ، دعني أرى هذه الكتب " ،

فتح "ويبر" صندوقاً في قاع العربة وأخرج حوالى ستة كتب كبيرة ذات أغلفة خضراء .

قال كوز شتاين : " هذه كتب جيدة جداً ، نعم ، إنها جيدة جداً للنمل الأبيض ، سيأكلها في ليلتين " .

(٣٠) بول كروجير (١٨٥٢-١٩٠٤) ، رجل بولة وقائد الأفريكان (البوير ، أى الهولنديين) في الحرب ضد بريطانيا . ولد في مستعمرة الكيب ، وهاجر وهو صغير مع والديه في الهجرة الجماعية للبوير إلى الترنسفال بعيداً عن السيطرة البريطانية ، وقد شارك في العديد من المعارك ضد قبائل "الزولو" ، نتج عن تلك الهجرة الجماعية للمستوطنين الهولنديين القضاء على أعداد كبيرة من قبائل متابلي وإجلالهم عن أراضيهم والاستيلاء عليها ، كذلك قضى هؤلاء المهاجرون على القوة الكبيرة لقبائل "الزولو" ، حتى أن آخر معاركهم ضدهم - والتي بعدها أعلنوا سيطرتهم على أراضي "الزولو" وقيام جمهورية جنوب إفريقيا التي استولت عليها بريطانيا بعد ذلك - عرفت بمعركة نهر الدم التي قتل فيها أكثر من ثلاثة آلاف من محاربي "الزولو" برصاص المستوطنين .. عن "كارين ستيشن" ، (هجرة البوير الكبرى) الصفحات من ١٥٣:١٥٨ ، مكتبة جامعة فيرجينيا .

كما قلت لكم ، كان "كوزشتاين" صاحب تعليقات هزلية ساخرة ، لا يستطيع أحد أن يمنع نفسه من الضحك على ما يقوله .

حلت بنا أوقات سيئة ، فقد عم الجفاف ، ولم نستطع بذر حبوب الذرة ، وكانت السدود فارغة ، وملأت أعشاب العام الماضي المروج ، ثم نزل المطر وتحسنت الأحوال .

فى تلك الظروف، رأيت "ويبر" للمرة الثانية ، وما سمعته منه دل على اجتهاده ومثابرته على العمل ، وبالطبع لا يمكن لأى "دخيل" أن يدبر معيشته من الزراعة إلا إذا كان يرسل له أموالاً كثيرة من إنجلترا شهرياً ، اكتشفنا أن "ويبر" قد صرف كل أمواله على المزرعة ، بمداومته المطالعة فى تلك الكتب الخضراء وبحثه فيها عما يجب أن يفعل ، من حسن الحظ أن هذه الكتب كانت بالإنجليزية ، ولذلك لم يتمكن "البوير" من قراءتها، وإلا كان سيحل الخراب بكثير من المزارعين كل عام ، فقد كان يبحث فيها عن علاج لكل الأمراض - سواء إذا أصيبت ماشيته بداء تضخم القلب ، أو أصيبت أغنامه بداء اللسان الأزرق ، أو إذا ظهر الدود القارض ، أو أصيبت سيقان الزرع بالتشقق - فليجأ لكتبه بحثاً عن حلول ، وأظن أنه راح يبحث فى كتبه عن أغنامه التى سرقها الكافير .

كان "كوز شتاين" يساعد "ويبر" كثيراً ، وعلمه الكثير ، فلو كان اتبع تلك الأكاذيب التى فى الكتب الخضراء ، لكانت النتيجة سيئة . أصبح "ويبر" وكوزشتاين صديقين مقربين ، كانت زوجة "كوز شتاين" قد أنجبت طفلة قبل أسبوعين من وصول "ويبر" ، سعد الزوجان بها ، فهى طفلتهم الأولى التى رزقا بها بعد سبع سنوات من الزواج ، وقد علق "كوز شتاين" على ذلك قائلاً : " فى أول الأمر ظننتها ولداً ، لكن حتى ذلك ، أفضل من لا شىء ، للحقيقة ، فإن "ويبر" أحب تلك الطفلة وتعلق بها من أول لحظة ، وقد عمدوها باسم "جيميما" على اسم أمها .

كثيراً ما كنت أمر بمنزل "كوز شتاين" ، فأرى الإنجليزى جالساً على البسطة الأمامية حاملاً الطفلة على ركبتيه .

فى الوقت نفسه ، تضايق المجاورون له من هذه الصداقة ، وقالوا : إن "كوز شتاين" عميل وخائن ، إنه يصادق رجلاً ساعد على سقوط الأمة الإفريقية ، مع ذلك كان من رأى أنه ليس من العدل اتهمه بأنه عميل ومستسلم ، فإن "كوز شتاين" كان يقيم فى مقاطعة "جراش راينت" عندما اندلعت الحرب ، وكان من "كيب تاون" ، أى لم يكن فى حاجة للاشتراك فى القتال ، ورغم ذلك انضم لقوات الفدائيين فى "الفرى ستيت" ، وبقي معهم حتى عُقد اتفاق السلام ، ولو كان الإنجليز أوقعوا به ، لأعدموه على أنه متمرّد ، بنفس الطريقة التى أعدموا بها "شيرز" وآخرين .

وقد ذكرتُ "جيرهاردوس جروبيلا" بهذا ، عندما كنا بمكتب بريد "أوديندال" .

رد "جيرهاردوس" : "هذا تقدير خاطئ للأمور ، فالبويرى والإنجليزى أعداء منذ معركة "سلجترزنك" ، لقد خسرنا هذه الحرب ، لكن يوماً ما سوف ننتصر ، إنه الواجب الذى ندين به لأحفادنا ، أن نتصدى للدخلاء ، عليك تذكر معسكرات الاعتقال .

تباً لى ، ثمة حقيقة فيما قال "جيرهاردوس" .

رد "كوز" : "لكن الإنجليز هنا الآن ونحن مضطرون للتعامل معهم ، أعتقد أنه حين يفهم كل منا الآخر ، ربما قد لا نحتاج للقتال ثانية ، ها هو ذا الإنجليزى "ويبر" يحاول تعلم وإجادة الإفريقية^(٣١) ، ويوماً ما ربما

(٣١) الإفريقية : لغة المستوطنين الهولنديين فى جنوب إفريقيا ، وهى خليط من الهولندية ولغات السكان الأصليين .

يصبح واحداً منا ، الشيء الوحيد الذى أعيبه عليه أنه يستحم كل صباح ، لكنه إذا توقف عن ذلك ، وإذا كف عن غسل أسنانه بعد الآن ، فلن تستطيعوا التفرقة بينه وبين البوير " .

على الرغم من أنه حول الموضوع إلى مزحة ، إلا أنني شعرت بأن فى كلام " كوز شتاين " شيئاً من الحقيقة أيضاً .

ثم فى العام الذى تلى الجفاف ، ظهر مرض بطحال الحيوان ، وانتشر مثل النار فى الهشيم ، فبدأ كأنه موجود فى العشب ، ومياه السدود ، وحتى فى الهواء الذى تتنفسه الماشية ، فى كل مكان كنا نجد البقر والثيران ميتة ، وأصبحنا نحن جميعنا محبطين ، فكلنا تقريباً - فى هذا الجزء من ماريكو - بدأنا الزراعة مرة أخرى بما أعطته الحكومة لنا من تعويضات .

الآن ماتت الماشية ، ولم يتبق لنا شيء ، حيث كان الجفاف قد أعادنا من حيث بدأنا ، والآن بسبب هذا المرض اللعين لم نعد نأمل فى أى شيء .

لم نستطع بذر البذور بسبب نسبة الوفيات المرتفعة بين المواشى ، وفى فترة وجيزة ، لم يتبق لنا أى ثور يجر المحراث ، وبدأ الناس يتحدثون عن العمل بمناجم الذهب . أرسلنا عرائض للحكومة ، لكنها لم تجب .

ثم خطرت فكرة الارتحال والانتقال من المكان على بال شخص ما ، ولأيام لم نتحدث عن شيء آخر ، وطرح سؤال إلى أين ؟ وقد كان التفكير فى الانتقال إلى مكان آخر فى الترانسفال تفكيراً عقيماً ثم ذكر شخص ما منطقة غرب إفريقيا الألمانى ، لم يكن أحد هناك من قبل ، وفى اعتقادى أن هذا كان سبب اختيارنا لهذه المنطقة .

قال "جيرهاردوس جروبيلار" : "لعنة الإنجليز سادت جنوب إفريقيا ، إذا بقينا هنا سنموت ، يجب أن نبتعد إلى مكان لا يرتفع عليه علم إنجليزي " .

خلال بضعة أسابيع كنا قد رتبنا كل شيء ، عبرنا صحراء كلهارى ، وذهبنا إلى الإقليم الألماني ، وسقنا كل ما نملك على العربات التى تجرها الثيران ، وقدنا ما تبقى من ماشية فى المقدمة ، ومشينا خلف عرباتنا ، كنا خمس عائلات : " آل شتاين " ، و " آل جروبيلار " ، و " آل أوديندال " ، و " آل فيرارى " ، وأنا وسانى ، جاء معنا أيضاً ، "ويبر" ، أعتقد أن فكرة الرحيل لم تقلقه ، ذلك لأنه قد أصبح هو و "كوز شتاين" على علاقة وثيقة ببعضهما ، ولم يرغب الإنجليزى فى البقاء وحده .

كانت "جيميما" طفلة " كوزشتاين" أصغر فرد فى قافلتنا ، وكان عمرها آنذاك ثمانية عشر شهراً ، كانت الأثيرة لدينا جميعاً لكونها مازالت طفلة صغيرة .

باع "ويبر" عربته وركب فى عربة "كوزشتاين"

عند نهاية اليوم الأول ، كنا قد قطعنا عدة أميال داخل محمية "بتشوانالاند" ، وكنا فى غاية السعادة لأننا قطعنا تلك المسافة بعيداً عن منطقة الترنسفال ، تلك التى عانينا فيها الكثير من المحن وسوء الحظ ، وبرغم أن المحمية أرض إنجليزية أيضاً ، إلا أننا شعرنا بالراحة هناك أكثر مما كنا فى بلدتنا ، أصبحنا نرى "ويبر" كل يوم الآن ، وعلى الرغم من أنه أجنبى ذو عادات غريبة عنا ، وسوف يبقى أجنبياً حتى موته ، إلا أن كراهيتنا له قد خفت عن ذى قبل باعتباره إنجليزياً .

عندما وصلنا إلى " مالوبولى " كان ذلك أول يومٍ أحيدٍ يمر علينا ،
فى الجزء الأول من طريق البلدة كانت ماتزال شجيرات المرج موجودة ،
من نفس نوع الأشجار الشوكية التى تنمو فى "ماريكو" ، فيما بعد راحت
تقل كلما توغلنا فى اتجاه صحراء كلهارى التى ارتحلنا إليها ، كذلك صارت
الأرض رملية أكثر فأكثر ، بل قبل أن نصل إلى "مالوبولى" ، صارت
صحراء تمامًا ، وتبعثرت شجيرات الشوك على مسافات متباعدة على
الطريق ، ذلك الأحد أقمنا قداسنا ، قرأ "جيرهاردوس جروبيلار" من
الكتاب المقدس ورفع الصلاة ، ثم أنشدنا عددًا كبيرًا من المزامير ، بعدها
صلى بنا "جيرهاردوس" مرة أخرى ، سوف أتذكر دائمًا ذلك الأحد ،
والطريقة التى جلسنا بها على الأرض إلى جوار إحدى العربات ، ونحن
نستمع "لجيرهاردوس" ، لأن ذلك اليوم ، كان آخر يومٍ أحيدٍ كنا فيه
كلنا جميعًا .

جلس الإنجليزى إلى جوار "كوز شتاين" فى مقدمة العربة ،
والطفلة "جيميما" على حجره ، كانت تلعب فى أصابعه تحاول عضها ،
وكانت ملاحظتها وهى تفعل ذلك مسلية ، نظر "ويبر" إليها مبتسمًا ،
حيثُ راحت أفكر فى ذلك . . فعلى الرغم من أن "ويبر" ليس واحدًا منا ،
إلا أن "جيميما" لا يعنىها ذلك ، فى هذه الحالة ، ربما كانت الطفلة
أكثر منا حكمة ، فلا يشكل أدنى فرق لديها إن كان الرجل الذى تعضعض
أصابعه قد ولد فى بلد آخر ، أو لا يتحدث لغتها .

هناك الكثير الذى أتذكره عن قافلتنا التى كانت تحاول عبور صحراء كلهارى ، إلا أن هناك شيئاً يبدو لى الآن غريباً ، فمنذ اليوم الأول نصبنا "جيرهاردوس جروبيلا" قائداً لنا ، فأى شيء كان يقوله كنا ننفذه دون نقاش ، وقد شعرنا جميعاً بأن أى شيء صحيح لمجرد أن "جيرهاردوس" رغب فيه ، لم يكن ذلك لمعرفة أن "جيرهاردوس" رجل دين ، فنحن نعرف ذلك بالفعل ، بل على الأصح لأننا آمنّا "بجيرهاردوس" على أنه إلهنا ، أعتقد أنه لو أن "جيرهاردوس" لم يكن رجلاً غير مؤمن ، فإننا كنا ستتبعه بنفس الطريقة ، فعندما تكون بالصحراء ، وليس هناك ماء ، وطريق العودة طويل ، فى مثل هذه الموقف ، تشعر بأنه من الأفضل أن يكون معك رجل قوى قادر على التصرف ، لا يقرأ فى "الكتاب المقدس" كثيراً ، على أن تكون مع رجل صالح متدين لا يعرف إلى أى مدى تسير القافلة كل يوم أو فى أى اتجاه يمضى .

و "جيرهاردوس" كان يعرف الله ، وفى الوقت نفسه ، كان لديه شيء يُشعرك بأن العمل بنصائحه يضمن لك النجاح ، لقد عرفت رجلاً واحداً فقط فى كل حياتى ، كان من السهل عليه إقناع الناس بقيادتهم لعمل ما يريد . هذا الرجل كان "بول كروجر" ، إنه يشبهه "جيرهاردوس" إلى حد كبير ، إلا أن "جيرهاردوس" كان أقل مشاكسة . لكن إذا فاضلت بينهما ، فإن "بول كروجر" يعد الرجل الأعظم .

أذكر أن "جيرهاردوس" فقد أعصابه مرة واحدة فقط ، كان ذلك قرب "نجمال" عند "أيلاندسبرج" ، كان يوم أحد ، وكنا نسير إلى جانب نهر "كروكوديل" ، تنقل "جيرهاردوس" فى الصباح الباكر من عربة لأخرى ، وقال : إنه يريدنا جميعاً أن نكون عند عربته ، كان الرب

راضياً عنا فى ذلك الوقت، حتى أنه أنزل علينا مطراً كثيراً لنا ولماشيتنا التى بدأ يزيد وزنها ، وعلل "جيرهاردوس" هذا الطلب بأنه يريد أن يقيم قداس شكر للرب لكل أعماله الحسنة ، وخصوصاً لما قدمه الرب لمزارعى الجزء الشمالى من مقاطعة "جسروت ماريكو" ، كانت فكرة جيدة ، فذهبنا جميعاً نحمل أناجيلنا وكتب التراتيل . لكن رجلاً واحداً لم يأت معنا وبقي فى عربته ، كان ، كارل بيتر " . ذهب جيرهاردوس إليه مرتين يستدعيه لحضور القداس ، لكن بيتر الذى كان راقداً على الأرض ، لم ينهض لحضور القداس . وقال : " صحيح ، شكراً للرب على نزول المطر الآن ، لكن ماذا عن مواسم الجفاف وموت ماشيتنا من العطش ؟ " هز "جيرهاردوس" رأسه بحزن وأسف ، ثم قال : " أنه ليس بوسعه عمل شىء الآن لأنه يوم أحد " ، صلى بنا ثم دعى أن يهدى الرب الأخ "بيتر" ، أنهى الصلاة بقوله : " على أية حال ، إنه فى الصباح سوف يساعد على هداية الأخ بنفسه " .

فى الصباح ، مشى "جيرهاردوس" إلى حيث يجلس "كارل بيتر" أمام ناره يراقب الكافير وهم يعدون القهوة ، كان كلاهما ، "كارل" و "جيرهاردوس" قويّ البنية ، تعاركا ، وكان "جيرهاردوس" أكثر إجادة للعراك فى النهاية فاز ، وربط " كارل " إلى دولاب عربته بسلبه الثور ، وجلده أمام زوجته وأبنائه .

لقد حدث ذلك منذ سنوات بعيدة ، لكن لم ينسَ أى منا ؛ لذلك ، ونحن فى الكلهاى ، عندما دعانا للصلاة لم يتأخر أحد .

خارج "مالوبولى" مباشرة ، يوجد نهر "عكر" ، يجف فى الفصل غير المطير من السنة ، وتصل المياه فيه إلى قدم فى فصل المطر ، وكانت مياهه مالحة بعض الشيء ، كنا محظوظين لوجودنا فى وقت امتلاء النهر .

فى باكورة الصباح ، ملأنا براميل الماء التى كانت فى عرباتنا قبل خروجنا من "ماريكو" ، لأننا كنا سندخل إلى عمق الصحراء بعد ذلك مباشرة ، ولم نكن نعرف أين سيمكنا الحصول على الماء مرة أخرى ، حتى كافيرجوا ، قبائل "ماكوينا" لم يكن فى استطاعتهم إخبارنا بشكل مؤكد عن ذلك .

عندما شرعنا فى التحرك ، صاح "كوز شتاين" : " قافلة دورستلاند الكبرى" ، على أية حال لم يكن حالنا أسوأ من حال قافلة الـ "دورستلاند" ، فسوف نفقد ماشية أقل مما فقدوا ، ليس لشيء سوى أننا نملك ماشية أقل منهم ، وباعتبار أننا خمس عائلات فقط ، فلن نخسر سوى اثنى عشر فرداً بالموت عطشاً .

عندما أطلق "كوز شتاين" هذه المزحة عن هجرة " دورستلاند" الجماعية^(٣٢) ، اعتبرتها فالاً سيئاً عليه ، وأظن أن الآخرين أحسوا بنفس الشعور ، سرنا طوال ذلك اليوم فى الصحراء ، عند غروب الشمس ، لم نكن قد أتينا على أية إشارة للماء ، قرب المساء ، قال "إبراهيم فيريرا" : ربما يكون الأفضل أن نعود إلى "مالوبولى" ، ونحاول معرفة أفضل طريقة لاجتياز " الكلهارى " ، رد الآخرون ، وكأننا كنا مخدرين ، أنه لا داعى لعودتنا ، وسوف نجد الماء فى الغد بالتأكيد ، وبما أننا انطلقنا ، فلا داعى لأن نعود للوراء ، لكن بعد أن سقينا الماشية لم يتبق لنا الكثير منه .

(٣٢) لم أجد أية إشارة فى كثير من المراجع عن هذه الهجرة ، وإن كان البوير قد قاموا بالهجرة فى جماعات صغيرة فى أول الأمر ، أغلبها عائلية مع الجيران المقربين ، والكثير من هذه الجماعات كانت تشتبك مع السكان المحليين للمناطق التى حاولوا الاستقرار بها ، وقد قتل أعداد كبيرة من هذه الجماعات البويرية قبل أن يتجمعوا تحت قيادة مركزية موحدة تحت رئاسة "أندرياس برييتوريس" الذى قادهم إلى القضاء على "الزولو" وإعلان أراضي "الزولو" ملكاً للمهاجرين البوير ، عن كران ستيقن ، المرجع السابق ، مكتبة جامعة فرجينيا .

عند منتصف اليوم التالى ، نفذت مياها فى عدا القليل الذى احتفظنا به للأطفال ، ومع ذلك تابعنا سيرنا ، الآن وقد توغلنا فى الصحراء ، أصبحنا نخشى العودة إلى "مالوبولى" ، فى المساء كنا فى غاية الاضطراب ، ركعنا جميعاً على الرمال ورحنا نصلى ، تردد صوت "جيرهاردوس" حزيناً ، جاداً وهو يصرع إلى الرب أن يشملنا برحمته ، خاصة الصغار ، وذكر الطفلة "جيميما" بالاسم ، كان الإنجليزى راكعاً إلى جوارى ، فلاحظت ارتجافه عندما ذكر "جيرهاردوس" طفلة "كوزشتاين" .

كان المساء مقمراً ، وكل ما حولنا صحراء ، بدت عرباتنا ضئيلة وموحشة ، يلفها شيء حدادى ، لفت النساء والأطفال أذرعهم حول بعضهم البعض ، وظلوا يكون لوقت طويل ، وقد وقف تابعينا من الكافير على مسافة يراقبوننا ، وضعت زوجتى "سانى" يدها على يديّ ، وعدت بذاكرتى إلى معسكر الاعتقال ، المسكينة ، عانت الكثير ، كنت أدرك أن أفكارها تماثل ما يدور بفكرى فى هذه اللحظة ربما كان موت طفلينا فى الماضى أفضل من موتها الآن .

كنا قد توغلنا فى الصحراء كثيراً جداً ، حتى أننا "رحنا" نقول لبعضنا لا بد من أننا قد اقتربنا من النهاية ، مع أننا كنا نعرف أن الغرب الألمانى مازال بعيداً ، ومع أننا نعرف أن بوتيرة السير التى نساfer بها لم نقطع سوى مسافة أكثر قليلاً من بداية الكلهارى ، مع ذلك رحنا نقول الأكاذيب لبعضنا عن احتمال قربنا من الماء ، قلنا هذه الأكاذيب لبعضنا ، لكن فى دخيلة كل رجل ، كان يعرف الحقيقة ، فيما بعد توقفنا حتى عن قول الادعاءات عن الفرصة الذهبية التى أتاحت لنا الفرار أحياء من الوباء ، يمكنكم تصور الورطة التى كنا فيها مع النساء والأطفال بشأن إخفاء وضعنا

عنهم ، البعض منهن بكين ، لكن هذا لم يشكل أى فرق . . . لم يعد أحد يحاول تعزية النساء والأطفال الذين كانوا يبكون ، وعرفنا أن النساء لسن أقل شجاعة من الرجال ، فبعد فترة لم يعد هناك المزيد من البكاء فى قافلتنا ، بعض النساء اللائى مرت بهن أحداث الأيام المقبلة ، وعدن بسلام إلى الترنسفال ، لم ييكن فى حياتهن مرة أخرى ، فما شهدنه حجر أفئدتهن ، لقد أصبحن مثل الرجال ، أعتقد أن هذا أكثر الأشياء حزناً فى العالم ، أن تمر النساء بمعاناة ساحقة شديدة تجعلهن يصبحن مثل الرجال .

تلك الليلة لم ننم تقريباً ، وفى الصباح الباكر خرج الرجال للبحث عن الماء ، بعد ساعة من شروق الشمس ، عاد "فيريرا" وأخبرنا أنه وجد بركة ماء موحلة على بُعد بضعة أميال ، ذهبنا جميعاً إلى هناك ، ولم يكن بها سوى قليل من الماء ، حصلنا على ذلك القليل ، فشعرنا ببعض التحسن ، لكن عندما قررنا قيادة الماشية لبركة الماء ، وجدنا الكافير من أتباعنا قد هربوا أثناء الليل بعد نومنا ، فلم تستطع بعض الماشية الراقدة التحرك عن موضعها والذهاب إلى البركة ، لذلك تركناها ، وقد دهس البعض فى بركة الطين حتى الموت أو اختنق فى الطين ، فكان علينا جرّها خارج البركة لندع البقية تنزل ، كان حالنا بائساً .

قبل أن نترك المكان ، ماتت إحدى بنات "فيريرا" ، جرفنا الرمل وحفرنا حفرة ودفناها .

عند ذلك قررنا العودة .

بعد دفن الطفلة ، تطلع "إبراهيم فيريرا" إلى "جيرهاردوس" وقال له : "إننا إذا كنا قد أخذنا بنصيحته عن العودة مبكراً ، فما كانت ابنته لتموت" .

رد "جيرهاردوس" عليه : "إبراهيم ، ابتك ماتت ، لا فائدة من الحديث عنها أكثر من ذلك ، كلنا لابد من أننا سنموت يوماً ما ، وقد رفضت أن نعود مبكراً ، لكننى أقرر العودة الآن ."

حذق "إبراهيم فيريرا" فى عينى جيرهاردوس وضحك ، سوف أتذكر دائماً رجوع صدى هذه الضحكة فى الصحراء ، صوته المبحوح من الرمل والعطش ، صوت متهم من فعل الصحراء به ، و وجهه مسطراً بالأسود ، وشفته سوداوان ، ولا شىء مما حوله يعزیه فى كارثة فقد ابنته .

رد عليه : "عمى جيرهاردوس ، ابتك مازالت على قيد الحياة" وأشار إلى العربة حيث ترقد زوجة "جيرهاردوس" واهنة مع الطفلة التى ولدتها منذ بضعة أشهر فقط .

رد "جيرهاردوس" : "نعم مازالت على قيد الحياة . . . ماذا بعد ؟ استدار "فيريرا" ومشى وهو يضحك ، وسمعناه بعد قليل يفسر لزوجته بصوت مشروخ سبب ضحكته .

راقب "جيرهاردوس" "جروبيلا" انصراف الرجل الآخر دون أن ينطق بأى شىء ، كان إيماننا كبيراً "بجيرهاردوس" فتبعناه فى كل شىء ، لكن لحظة أن قرر العودة ، فقدنا كل إيماننا به ، فقدناه فجأة ، كنا نعرف أنه من الأفضل أن نعود ، وأن الاستمرار يعنى أن نموت كلنا فى الكلهاى ،

رغم ذلك ، إذا كان "جيرهاردوس" قال لنا أن نستمر ، فإننا كنا سنستمر ، كنا سنمضي معه حتى النهاية ، لكن الآن ، بعد أن ظل يردد : " إن الصحراء قهرته " ، لم يعد لنا أى إيمان به ، وهذا ما جعلنى أقول أن "بول كروجر" أعظم منه ، لأن "بول كروجر" كان نوعاً من الرجال مازلنا نؤله ، حتى حين قرر العودة والتراجع ، لو كان "بول كروجر" هو من قال لنا لا بد من أن نعود ، كنا سنعود بقلوب قوية ، كنا سنعود بنفس الحب لقائدنا ، ونحن نعرف أنه هُزم ، لكن من لحظة أن قال "جيرهاردوس" يجب أن نعود ، عرفنا أنه لم يعد قائدنا ، وعرف هو ذلك أيضاً .

عرفنا ما الذى يتربص بنا ويمتد بيننا وبين "مالوبولى" ، لذلك حين حولنا اتجاه عرباتنا ، ملأ قلوبنا القلق والشك الأسود ، كانت ماشيتنا فى غاية الضعف ، وعلىنا أن نقرنها كلها إلى العربات حتى نتمكن من السير ، ولم يكن لدينا ما يكفى من النير لذلك ، فقطعنا عرائش للعربات من الشجيرات المنتشرة ، وربطناها إلى المركبات ، اضطررنا لتثبيت النير بسيوره الجلدية إلى رقاب الثيران مباشرة ، لذلك اختنق منها الكثير .

ثم رأينا "كوزشتاين" وقد بات مسجنوناً ، لقد رفض العودة ، وقرن ثيرانه واستعد لمواصلة الرحلة ، جلست زوجته صامته مع الطفلة فى العربة ، فأينما يذهب زوجها سوف تكون معه ، وهو بالطبع الحل الوحيد الصحيح بالنسبة لها ، ودعتها النساء باكيات ، لكن زوجة "كوزشتاين" لم تبك ، حاولنا إثناء "كوز" عن رأيه ، لكنه رفض الإصغاء ، وقال : إنه لن يقفل راجعاً من أجل بعض الهراء .

قال له "جيرهاردوس" "جروبيلا" : "لكن يا رجل ، ليس معك ماء للشرب" .

رد "كوز شتاين" مازحاً كعادته : " إذن سأشرب القهوة " ، ثم أمسك بسوطه ومضى مبتعداً بعربته ، ذهب "ويبر" معه ، فى تصورى ، لمجرد أن " كوزشتاين" كان طيباً معه ، وهذا سبب قولى أن الإنجليز غريبو الأطوار ، فهو يعلم بالتأكيد إن لم يكن "كوزشتاين" جن فعلاً ، فإن ما يقدم عليه هو الجنون بعينه ، ومع ذلك استمر معه .

افترقنا ، مشيت عرباتنا راجعة إلى "مالوبولى" ببطء ، بينما توغلت عربية "كوزشتاين" داخلية الصحراء ، كانت عربتى آخر عربية مشيت ، نظرت للوراء على عربية "كوز" ، فى هذه اللحظة ، كان "ويبر" ينظر ورائه أيضاً ، شاهدى ، فلوح لى بيده ، وذكرنى هذا المنظر ، بذلك اليوم من أيام حرب "البوير" ، بذلك الإنجليزى الذى كنا أطلقنا النار على زميله ، عندما استدار ولوح لنا أيضاً .

أخيراً ، وصلنا "مالوبولى" بعربتين وعدد ضئيل من الماشية ، فقد تركنا عرباتنا الأخرى بالطريق ، لقد حدثت أشياء رهيبة فى تلك الصحراء ، مات عدد من الأطفال ، كانت عربية "جيرهاردوس" تسير أمامى ، فشاهدت صرة تسقط دفعة واحدة عن جانب غطاء العربى ، عرفت ماهية هذه الصرة ، لم يتجشم "جيرهاردوس" عناء دفن طفله ، وكانت زوجته راقدة أضعف من أن تتحرك ، لذلك نزلت من العربى ، وحفرت موضعاً دفنت فيه الطفلة ، وكومت قليلاً من الرمل فوق الجثة ، كل ما أتذكره بعد ذلك عن

العودة إلى مالوبولى " هو الشمس ، والرمال ، والعطش ، فى بعض الأوقات ظننا أننا فقدنا الطريق ، إلا أن ذلك لم يعد يهمنى فى شىء لقد فقدنا الشعور ، ولم نعد قادرين لا على الصلاة ، ولا على اللعن ، والتصقت ألسنتنا التى جفت من العطش بحلقنا .

حتى اليوم ، وأنا غير متأكد من الأيام التى استغرقناها فى طريق عودتنا ، إلا إذا جلست لأحسبها ، وبعد ذلك أفترض أننى حسبته خطأ ، عدنا إلى مالوبولى حيث الماء ، وقلنا إننا لن نبتعد عن هناك ثانية أبداً ، وأظن أن الأباء والأمهات الذين فقدوا أطفالهم ، لم يحزنوا عليهم فى هذا الوقت .

فقد كانوا مصعوقين مما مروا به ، لكننى أعرف أنهم فيما بعد - سوف يسترجعون كل شىء ، وعندئذ ، سيتذكرون أشياء عن مقابر سطحية فى الرمال ، وسيفكر "جيرهاردوس جروبيلا" وزوجته فى الصرة الصغيرة التى رقدت عارية فى الكلهاى ، عرفت كيف كانا سيشعران .

بعد ذلك ، جهزنا عربة بثيران جديدة ، وحملنا مؤنة وافرة من الماء ، وعدنا إلى الصحراء بحثاً عن عائلة "كوز شتاين" ، وبمساعدة كافيرو "سكون" الذين يجيدون اقتفاء الأثر ، وجدنا العربة ، كانت الثيران متشرة بالمكان ، بعضها رقد ميتاً إلى جوار العربة ، حدد الكافير آثار أقدام على الرمال ، تلك الآثار بينت لنا الطريق الذى سلكه هذان الرجلان وتلك المرأة .

فى النهاية ، وجدناهم .

رقد " كوز شتاين " وزوجته إلى جوار بعضهما في الرمال ؛ رأس المرأة يتوسد كتف الرجل ؛ وشعرها الطويل انحل وراح يطير مع الريح بنعومة ، وسفت الرمال وتراكمت على جسديهما ، على مقربة منهما رقد الإنجليزى ووجهه لأسفل ، لم نعثر على الطفلة " جيميما " قط ، لابد من أنها ماتت بمكان ما على الطريق ودفنها " كوزشتاين " ، واتفقت آراؤنا على أن الإنجليزى " ويبر " لابد من أن وقد مر بأشياء شنيعة ، فهو لم يقدر قط على فهم كيف يعرض الزوجان " شتاين " طفلتهما للخطر ؟! ، ربما كان يعتقد حتى لحظة موته أنه يحمل الطفلة ، ذلك لأنه عندما رفعنا جسده ، وجدناه مازال يحتضن بين ذراعيه المتبيستين خرقا بالية من ملابس الطفلة ، وبدا لنا أن رياح الكلهارى تهب ناعمة وتسفى بهدوء هذا الصباح .

نعم ، كانت الريح تسفى بهدوء .

طفلة السحاب

تأليف : ستيفن بلاك

ذات مرة قلت لأحد الأجانب أننى لم أصعد قط إلى قمة جبل "تَابُل" ، أو حتى إلى نصفه على الرغم من إننى ولدت وترعرعت فى "كيب تاون" ، نظر إلى غير مصدق ، لذلك قررت صعود الجبل منذ بضعة شهور ، أعترف ، أنى لم أصعد على قدمى ، لكن المهم أننى وصلت للقمة ، بينما كانت البغال تتقلب فى الرمل ونبات السرخس ، رحت أتجول حول الصهاريج ومررت بطفل أوربى الملامح ، مع أن لونه كان أسمر مثل العديد من أبناء الكيب ، كان طفلاً خجولاً ، شعره أشعث وبلا حذاء ، يرتدى "شورتاً" واسعاً وقميصاً صوفياً ، كنت مندهشاً حقاً ، كيف لطفل حاسر الرأس حافى القدمين فى السابعة من عمره أن يصعد إلى قمة جبل "تَابُل" ، بينما أنا لم أصعد إليه وعمرى ثلاثون عاماً ، لكن الأكثر إثارة للدهشة ، أن الولد لم يكن قد نزل من على الجبل قط ، لقد أقام طوال حياته بين السحاب .

قال : " ولدت هنا فوق " ، مشيراً إلى منزل عند نهاية الصهريج ، قال هذا بعد أن تغلبت على خجله ، وذلك بأن سمحت له بأن يتفحص صنارة الصيد المجهزة ، وكنت قد سحبت توتاً سمكة " الحسناء المبرقشة " .

التي وزنها على الأقل ٦٥٠ جرامًا ، ورحت أنظر إليها بفخر ، علق الولد في بساطة : " أنا لا أصطادها أبداً ، " نظر إلى بأسى ، ورأيت دمعة تتجمع في عينيه عندما سحبت الخطاف من فم السمكة وهى تتلوى ، واصل كلامه : " إننى أحب مراقبة السمك وهو يسبح فى الماء ، أحب أن أراه فى الشمس وهو يتقافز ، ويتلوى .

تركت الصنارة جانباً ، وقد شعرت بعدم الراحة من نظرتة ، سألته : " ما اسمك ؟ " رد : " اسمى فيليب ، وينادوننى ، فيل " سألته : " من اسمك هذا الاسم ؟ " يبدو أنه كان سؤالاً سخيفاً ، فرد على بنغمة دهشة : " أبى وأمى ، " لم يكن يدرى أن هناك أطفالاً بلا والدين .

" قل لى ماذا تفعل طوال اليوم ، " كان مفهوماً عن الحياة فى الجبل أنها حياة مملّة كئيبة . سرنا بعيداً عن المياه ، والسمكة معبأة فى السلة . وقد انتابنى شعور بالأسف على صيدها .

بدأ فيل الكلام ، قال : " إنه استيقظ فى الصباح ، وذهب إلى أشجار الصنوبر التى تنمو عند حافة الماء ليستمع إلى هديل الحمام ، كان يعرف كل عش من أعشاش طائر "الحسون" ؛ ذلك الطائر الذى يبنى عشه على الماء ، كانت طيور " الحسون " الكافيريه جميلة ، كذلك عيدان قصب السكر وكان ينمو بالوادي " نبات الـ "ديساس" الأحمر والأزرق ، كل شىء يقف أعلى من رأسه ، أطول منه ، النباتات دائمة الإزهار ، وزهور "سكولباد" و "تبيوش بيزيه" التى يقطفها الناس ، لكن " فيل " قال أنه لم يضطر لقطف هذه الزهور قط ، فهى تنمو فى كل مكان ، كما أنها فى مكانها أفضل من قطفها ووضعها فى إناء حيث تذبل ، وكانت عيدان

قصب السكر المملئة بالعصير الحلو تنضج فى الخريف ، فيجمع عصيرها فى قدر لأمه التى وتغليه وتصنع منه عسلاً لذيذاً ، كثيراً ما كان يرى الأطباء ، وهى ليست متوحشة بالمرّة ، ولا أحد يزعجها بالبنادق ولا تطاردها الكلاب ، أما كلبه فأسمه "ماك" ، وفى مثل هذا الوقت ، يكون الكلب مع والده عند الطرف الآخر من الخزان .

كان ساحراً أن تسمع طفل السحاب وهو يتكلم ، كان طفلاً بسيطاً ، صادقاً ، مثالياً ، فى حين أن معظم أطفال المدينة فى عُمر السابعة قساة عندما مشينا إلى المكان الذى يمكن أن نشاهد منه المدينة بأفضل صورة أخبرنى . . إنه قرب الليل يحب مراقبة طيور الـ "الدورى" الحمراء وهى عائدة لموطنها على المرتفعات ، هذه الطيور تتصايح بحزن ، وتأكل ثمار التوت فقط ، بينما عصافير "الدورى" ذات الرؤوس البيضاء تحوم طوال اليوم حول أبقار والده ، وتتصايح عالياً عندما تأكل القراد من على جسمها ، " عندما وصلنا عند حافة الجبل صحت بفرح للمنظر الذى رأيته أسفل الجبل ، لمعت عيون الولد بالفرح أيضاً. قال : " إننى فى غاية الشوق للنزول تحت ، وأنت أيضاً ؟ "

أجبتة وأنا أشعر لأول مرة هذا اليوم بالتفوق : " لقد كنت بأسفل " قال فيل بفخر : " أبى أيضاً ينزل . وأمى قالت أنها نزلت بى حين كنت ولداً صغيراً ، سوف نذهب جميعاً يوماً ما فى السلة ذات السلك الكهربى "

كان المنظر من أروع المناظر التى رأيته فى حياتى ، مع أن الناس القادمين من الخارج بالسفن يقولون إن منظر جبل "تابل" أجمل فى

الصباح الباكر حين يرونه من على بُعد بضعة أميال فى البحر ، لكن ليس هناك أى منظر يمكن أن يمحو الانطباع الذى يتركه فى النفس . . . المنظر من على قمة الجبل ، من بعيد ظهرت سلسلة جبال " هوتنتوت هولندا " ، وكل ما حولنا يعمه السلام .

تكلم الولد : " عندما كنت ولدًا صغيرًا ، اعتادت أمى أن تأتى معى كثيرًا إلى هنا ، كانت تُرينى البحر والسفن والمنازل البيضاء الكبيرة ، إلا إننى أريد أن أراها عن قرب ، فهى هكذا بعيدة جدًا ، " ثم سأل فجأة وهو يشير إلى سفينة عملاقة كانت تبحر : " هل يجرى هذا القارب الصغير فى البحر ؟ " قلت نعم ، لكنه ليس قاربًا صغيرًا ، بل سفينة كبيرة جدًا ، " وظلت السفينة التى تحمل عشرة آلاف طنًا تبدو له قاربًا صغيرًا من هنا .

قال الولد : " إننى أرى السفن كل ليلة من هنا ، تأتى السفن كل ليلة مثلها مثل النجوم والزهور التى تأتى فى الربيع ، وتذهب مثل الطيور إلى أعشاشها ، لكن ، لماذا تأتى ثم تذهب ؟ لا بد من أنها فى مشكلة كبيرة ؟ وإلى أين تذهب النجوم كل ليلة ؟ فأنا أراها فقط عندما أذهب للفراش ؛ لكن عندما أستيقظ فى الصباح تكون قد اختفت " .

كان معى منظران ممتازان ، أخرجتهما من جراي ، لا بد من أنها ستكون تجربة ممتعة لـ " فيل " ، سوف يرى السفن والمنازل البيضاء الكبيرة ، قبل أن أتكلم قال : " لا بد من أنها جميلة من أسفل ، هل يمكنك أن ترى الجبل دائما من هناك ؟ نحن نكون محاطين كثيرًا بسُحب كبيرة ، رطبة ، عندئذ لا أستطيع رؤية السفن أو المنازل ، تأتى السحب وتغطينا ، ثم تهب

الرياح ، تقول أمى فى مثل هذه الأوقات ، إنه لا بد من أن أبقى فى البيت . ما هى تلك الأشياء الصغيرة التى تشبه زهور الأقحوان الموجودة على الأرض قرب البحر؟

تحتنا، على الرمال البيضاء ، رأيت حشداً من الناس متجمعين ، قلت له : " إنهم ناس "

رد : " أوه "

راح طفل السحاب يسألنى عن كثير من الأشياء ، حدثته عن القطارات التى تجرى ذهاباً وإياباً تحت سحابات الدخان ، فظل ساكناً متفكر صا لوقت طويل، ثم قال : " أريد أن أرى قطاراً ، إننى أحب الأشياء الكبيرة التى تجرى حول الجبل والبحر ، يقول أبى ، إنها عربات " ترام " تعمل بالكهرباء ، حقاً ، هذه العربات الكبيرة جميلة ، فعندما تصعد الجبل فى الظلام ، تكون مثل النجوم المتحركة ، تقول أمى أن هذه العربات تمشى فى الليل ، إلا أننى فى هذا الوقت أكون نائماً ولا أرى سوى عربتى " ترام " بنجوم ، أول مرة رأيتها كنت ولداً صغيراً، وظننت أنها نجوم تأتى فى الليل مثل الأخريات ، لكنها مرت بسرعة جداً، مثلما تفعل الشهب وهى مسافرة ، سأكون سعيداً جداً عندما أنزل من الجبل ، لأننى سأرى كل تلك الأشياء التى أحبها . "

" أتعشم فى ذلك يا قُيل "

ثم واصل كلامه بشغف : " إننى أرى كثيراً من المنازل الصغيرة الجميلة التى تتحرك هنا وهناك ، تمشى قليلاً ثم تتوقف قليلاً ، أعرفها كلها، كل ليلة قبل أن أوى إلى الفراش أفكر فى تلك المنازل الصغيرة ،

وأصلى للرب وأقول : يا إلهي الحبيب ، أعطني واحداً منها عندما أكبر ،
لأجل خاطر المسيح ، آمين ! ثم صاح فجأة : " انظر ، انظر ، ها هي ذى
واحدة قادمة "

تناولت منظاري ، ثم عدّلتُ عدساته ، وبينما أقوم بذلك شاهدت
بوضوح عربة ضخمة يسحبها أربعة أحصنة ، إلا أنني لم أستطع تمييزها
من على مسافة بعيدة .

" ما هو ، ما هو ؟ بيتي يصعد ويهبط ، قل لي ما هو ؟ !

كان لدى شك ، لكنني لم أنطق. وبدلاً من الرد عليه ، أطلتُ النظر
في المنظار ، فقد رأيت عربة قمامة البلدية ، إلا أنني لم أخبر الصبي .

تأليف: وليم بلومر

يتصرف الناس العاديون أحياناً بطريقة غير عادية ، فقد يملكهم مزاج فجائى ، يسوقهم إلى التخلص من صلاتهم الحميمة ، التى يجدونها تقف حائلاً فى طريق تحقيق رغباتهم الجديدة التى تتصف بالجنون ، فيحلقون عالياً ، إذ لم تعد بهم حاجة للأودية المريحة ، يهجرون الواقع ، ويعانقون الهواء ، على أية حال ، ذاك كان حال السيدة "ريموند" .

فى أوائل العشرينيات من هذا القرن ، عند الساحل الجنوبى لـ "ناتال" ، كان هناك مكان منعزل ساحر ظهرت عليه مظاهر الفساد ، أو كما يقال الآن : التطور! . . . الطريق مثلاً ، الذى يمر الآن بمحاذاة آل "ريموند" ، يعج بالمواصلات ، وارتفعت المباني فى كل مكان ، لكن فيما مضى ، كانت وسيلة الاتصال الوحيدة بالعالم الخارجى - بعد درب أو اثنين يمران عبر الدغل ويؤديان إلى منطقة السكان الوطنيين - هى محطة القطارات الصغيرة جداً، التى عُرِفَتْ بموقف "ريموند" ، لم تظهر قط بجدول مواعيد القطارات ، فكنت تلمحها بطريقة خاطفة من القطار، كان خط السكة الحديدية يمر بين البحر والمنزل ، وفى كل مكان كان يُرى الدغل المميز الكثيف ، انتصب منزل آل "ريموند" على أرض قُطعت أشجارها

وحولت إلى حديقة جميلة : نجيلة ، نخيل ، نبات البونسيه وغيرها ، خلف المنزل نجد معشوشباً أسماه السيد "ريموند" "المزرعة" ، حيث أطلق فيه بعض البقر ، وبعض الطيور الداجنة ، وأبقى على بعض حقول الذرة ، وبستان كبير للخضراوات ، فكانت تلك الأشياء تستنفد جلّ وقته ، وبرغم ذلك ، فإن السيد "ريموند" كان يتناول كافة الأمور ببساطة تامة ، وهو ما يزال تحت الخمسين ، ولقد تركت الحرب آثارها السيئة عليه ، يمثل نوعاً من الرجال الهادئين ، غير مؤذٍ ، رصين ، غير مهتم بالسياسة - على عكس أغلب مواطني جنوب إفريقيا ، فقد اعتاد القول : "كل الحكومات متشابهة" - وهو ، على عكس الكثير من جيرانه أهل الريف ، يعامل الوطنيين بعدل ، وحتى بطيبة ، لذلك كانت له سمعة طيبة بينهم .

أما زوجته ، فكانت أصغر منه ، وقد زعم الناس أن زواجهما رومانسى ، محتمل أنه لم يكن أكثر رومانسية من معظم الزيجات الأخرى كانا بلا أطفال ، إلا أنه كان واضحاً أنهما سعيدان معاً ، متشابهان بما يكفى (فى ميلهما للحياة الهادئة ، مثلاً) ، ومختلفان أيضاً بما يكفى ليتوافقا معاً ، فقد التمس السيد "ريموند" فى الاهتمامات الهادئة بـ "المزرعة" ما ينسبه شقاء حياته السابقة ، أما زوجته ، على العكس ، وجدت أمور المزرعة تضيق عن اهتماماتها ، فبذلت جهداً لتبقى على اتصال بالعالم الخارجى ، قرأت قليلاً من الكتب ، لعبت كثيراً من التنس ، وعزفت القليل لـ "شوبان" ، وأبدت اهتماماً بكل الأنشطة ، لم تكن متعلمة تعليماً راقياً ، شعراؤها المفضلون "روبرت بروك" و "عمر الخيام" ، بينما كان التراب يغطى كتب "إيلا وهلر ولكوكس" ، مع ذلك كانت تستمتع بالمجهودات التى تبذلها لتحسين مستواها والاستمتاع بما حولها ، هذا

الاختلاف بين طبيعة كل من الزوج وزوجته خلق توازنًا جيدًا، فقد كان يجلس أحيانًا على كرسي مداد في الشرفة يستمع إليها وغيلونه في فمه، وعندما تنتهى من الكلام، ربما يسألها المشورة أو يخبرها عن هذا أو ذاك من الأمور التي حدثت بالمزرعة، وضعت في حساباتها دائمًا قضاء يوم في "دن سبورت" مرة في الأسبوع، من ناحية لأغراض التسوق، ومن ناحية أخرى، لمقابلة ورؤية أصدقائها هناك، بينما كان ذهاب السيد "ريموند" إلى المدينة أقل منها بكثير.

كان يضرب بهما المثل كزوجين، إلى أن أصبح الملل الطفيف في سلوك السيدة "ريموند" ملحوظًا، بدت تصرفاتها كأنها لم تعد تستمتع بأنشطتها في ذاتها، لكنها تؤديها كمتنفس للطاقة المحبطة، على الرغم من إنها لم تعد شابة بعد، يتوقع منها أن تكون مثل زوجها: قانعة، مستقرة، إلا أنها أيضًا ليست متقدمة في السن إلى الحد الذي يجعلها تتصرف كأن الحياة لم تعد سوى استكانة للراحة، لا، إنها مازالت مفعمة بالحياة، على الرغم من أن الوقار والرضى بالأمر الواقع كانا قد تركا عليها مسحة خفية تشي بعمرها.

طالب الطب الشاب المدعو "إدواردز" هو من أتيح له أفضل فرصة ليلاحظ تصرفاتها، إنه ابن عم السيد "ريموند"، جاء لقضاء شهرين عندهما: التماسًا للهدوء، لأن لديه بعض الدراسات التي عليه أن يتمها استعدادًا للامتحان، بالتأكيد، كانت المزرعة أفضل الأماكن هدوءًا، فاندمج فورًا في الروتين المعتاد، الذي كانت تقطعه أحيانًا حفلات الرقص فقط، وعطلات نهاية الأسبوع في "دن سبورت"، اعتاد "إدواردز" النزول إلى الشاطئ مع كتبه بعد الإفطار مباشرة، كان يذهب دائمًا حافي

القدمين ، ينحدر أولاً بضع خطوات فى اتجاه السكة الحديدية - حيث يكون كل شىء متقدماً تحت شمس الصباح ، ثم يمر فوق القضبان الملتهبة اللاسعة ، بعد ذلك يمضى فى الدرب القصير الذى يشبه النفق و يمر خلال الدغل مؤدياً للبحر ، هذا الدرب داخله ظليل ورملى ، وساكن ، وفجأة يجد المرء نفسه خارجاً مرة أخرى إلى الشمس وصوت الأمواج ، اعتاد العمل طوال النهار ، ثم يسبح بعض الوقت ويعود للمنزل لتناول الغذاء فى الشرفة ، ينام بعض الوقت فى الهواء الطلق ، ثم يذهب للصيد - رغم أنه لم يصطد إلا القليل - أو يمشى بمحاذاة السكة الحديدية ، أما إذا كان الجو شديد الحرارة ، فإنه يذهب مرة أخرى للسباحة ، وعادة يعود للعمل ثانية ، إلى ما قبل العشاء ، ويقضى المساء فى المسامرة ، أو الغناء - فى الواقع كان غناؤه سيئاً - بمصاحبة السيدة "ريموند" ، بينما زوجها يجلس فى الشرفة يدخن غليونه ، الاختلاف الوحيد عن هذا البرنامج هو الزيارات من وإلى جيرانهم ، هؤلاء الجيران الذين لا يسكنون قريباً جداً منهم ، ذات يوم اصطحبه السيد "ريموند" للصيد البرى ، فى الخلاء ، لكنهما عادا تقريباً بلا صيد يذكر ، فسخرت منهما السيدة "ريموند" ضاحكة ، وفى ضحكاتها رنة أسمى .

حل فصل الشتاء ، وكان الطقس مثالياً تقريباً ، فى بعض الأحيان كانت تشتد الرياح بعض الشئ ، انتشر فى الجو خمول ونعاس أشاع الهدوء والرضى ، عكسه فقط الاضطراب الطفيف للسيدة "ريموند" ، والخلافات التافهة التى تحدث كل يوم ويُبَالِغ فى أهميتها فى الأماكن المنعزلة النائية .

قال السيد " ريموند " لضيفه مرة أو مرتين : " آمل أن تكون موجوداً ،
عندما يأتي السردين " .

كان من المتوقع قدوم السردين فى موعده من كل عام ، الحدث
السنوى الكبير ، أفواج هائلة سوف تمر ببطء متجهة إلى الشاطئ ،
ومنتهىة قربه ، يتبعها أعداد لا حصر لها من طيور البحر والأسماك
المفترسة الضخمة ، وفى ذلك الوقت ، يتوقف الجميع عن العمل
ويتحولون لصيد السمك .

كان " إدواردز " مازال يقيم لدى " آل ريموند " عندما جاء السردين
قرب نهاية يونيو فى يوم جميل ، ولكن ، مثل معظم الأمور الجميلة ،
لم يبق هذا اليوم جميلاً للنهية ، فقد وقع حدث كبير فى تلك الفترة ،
لم تكن ثمة سحب أو أمواج ، ولم يكن ثمة ريح ، الجو حار تماماً ،
وساكن ، والبحر يتماوج بكسلٍ شديد حتى خُيل لنا أن المد والجزر توقفا ،
وصار نادراً ما يضطرب الماء عند حافته ، كانت السماء فى الأفق بلون
أزرق أشد دكنة من ماء البحر ، وقت الغداء ، جلب مساعد المطبخ إشاعة
اقتراب وصول السردين ، ساد جو غير عادى من التوتر والإثارة فى التو ،
مثلما يحدث غالباً قبل وقوع بعض الأحداث الطبيعية ، وبدا الثلاثة كأنهم
فقدوا شهيتهم ، بعدئذ ، اشتدت الرياح قليلاً ، ولم يعد البحر ساكناً تماماً ،
لكن هذا كان حاله المؤلف عند كل أصيل .

حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، شوهدت بعض البقع الداكنة ترتفع
وتتخفض مع الأمواج ، اضطربت المياه حول تلك البقع و حومت الطيور
فوقها ، بعد برهة سمعوا أصواتاً آتية من جهة الشاطئ ونزل الجميع

مسلحين بصنارات الصيد والشباك والسهل ، وقد سبقهم الخدم إلى الشاطئ.

الرمال التي كانت مهجورة معظم الوقت ، أصبحت الآن تعج بكل نوعيات البشر ، رجالاً ، ونساءً ، وأطفالاً ، من كل الألوان والأعمار ، وعن اليمين واليسار ، ارتفعت مئات الصنابير في الهواء ، الجميع كان يشخص ببصره تجاه البحر ، قرب الشاطئ إلى الرقع السوداء ، التي كانت أفواجاً هائلة من السردين ، راحت تنتشر وتنتشر ، وكلما اقتربت أصبحت أكثر ضخامة ، كان يمكن للمرء أن يرى بوضوح لمعان الزعانف المثلثة ، والذيل المقوسة للأسماك الأكبر التي كانت تسبح بجنون حول فريستها ، كانت معظم الطيور التي تحوم من النوارس والأطيش ، مثل ثلج أبيض في "عز" شمس الظهيرة ، كانت الطيور تنزل منقضة مثل القذائف ، دقيقة أو اثنتان ، ثم ترتفع "بنيّة" ومبللة من الأمواج ، وسمكة عالقة بالمنقار ، المد ، التيار ، المطاردون ، التحالف الغامض بين القدر والطبيعة ، ساقوا جميعهم وبشكل تدريجي أعداداً لا تحصى من الضحايا تجاه الشاطئ ، حيث تحولت الإثارة إلى نشوة ، في آخر الأمر ساقى موجة أول فوج إلى الشاطئ ، وعند تراجعها ، تركت بعض الأسماك الفضية المتخبطة على الرمال المبللة ، فوراً ، جرت حركة مفاجئة بين الناس ، واندفعت في اللحظة التالية سيدة هندية عجوز ، في "جونلتها" الأرجوانية إلى المياه مع سلتها ، وفي ذات اللحظة ، وصل السردين ، يشعر المرء بأن ثمة عدالة شاعرية في حقيقة أن لا أحد كان يهتم بأمر هذا السردين ، فالسردين له ما يكفيه من الأعداء بالفعل ، لقد كان الصياد العجوز في

قلب كل إنسان وراء لعبة أكبر ، فالسمك الكبير الذى يلاحق السردين ، هو ما سعى كل صياد للحصول عليه .

بلغت الإثارة ذروتها ، كان هذا يوم الجنون والصخب فى السنة ، ليس فقط لأن السردين جُنْ خَوْفًا - أو أيًا كان ما يقابل هذا الشعور - من مطارديه ، بل تملك السردين خوف آخر ، خوف أن يساق بعيداً عن بيئته .

أما فيما يتعلق بالغنيمة الهائلة من الأسماك الكبيرة ، فإن حمى المطاردة فى البحر ساقطها فى نوبة سعار شديد إلى الشاطئ بغض النظر عن أى عواقب تنتظرها هناك ، حتى أن الكثير منها كانت مدفوعة دفعاً بكل طاقتها ، وقوة الأمواج إلى الشاطئ ، حيث حفرت زعانفها اللامعة ، وذيولها الصلبة أخدوداً فى الرمل الناعم المبلل ، مثل الأخاديد التى تتركها بطون الزوارق حين تجرى مرتطمة بالأرض فى الضباب ، حتى تلك اللحظة ، فإن عداء الأسماك الطبيعى للإنسان كان خاملاً ، ولو كانت الأسماك قادرة على استيعاب هذه الكراهية لكانت اعتبرت الإنسان عدوها بلا شك ، ثقل الجو بالأجنحة وصيحات الطيور، لكن الطيور حافظت على ارتفاع معين بينها وبين الأسماك .

كان أكثر ما يلفت النظر فى كل هذا ، هو سلوك الناس ، كان سلوكاً مختلطاً ومتنوعاً جداً ، هنود ، و "موريثيسيون" ، يعملون بعمل تكرير السكر الموجود على بُعد بضعة أميال ، الزولو من "كرال" و "كيتشن" ، فقراء البيض ؛ والمختالون بأنفسهم بعض الشيء ، كالمهندسين الإسكتلنديين من العمل ، وينظرونه الآن مطوى حتى ركبتيه ، وواحد أو اثنان من نوعية آل "ريموند" ، ومجموعة متتقاة من الأشخاص غريبى

الأطوار الذين اعتادوا العيش فى هذه الأنحاء ، مختبئين هنا وهناك فى بيوت صغيرة عند نهاية الدغل بطول الشاطئ ، كانت هناك أيضاً ، المرأة النحيلة ، النباتية ، التى تسكن بمفردها وتعول نفسها من عمل لوحات الألوان المائية ؛ وبحار نرويجى يعيش بين الشمس والبحر لابساً شورتاً كاكياً فقط ، وقد صار لون جذعه المغطى بشعر ذهبى ناعم ، فى لون خشب الورد ؛ وأسرة من اللاجئيين الروس : أب كهل لا يبرح منزله أبداً ، وابنته التى تعمل فى "دن سبورت" ، وابنه الشاب ، اعتادت السيدة "ريموند" و"إدواردز" إطلاق النكات على هذه الأسرة ، خاصة الابن ، وهو شاب طويل ، مهذب ، بعيون بريئة ملفتة ، بالفعل ، كانا قد أطلقا عليه تدليلاً اسم "طفل الدغل" ، نسبة إلى "جلاجو" ، مخلوق الغابات الغريب ، ذلك المخلوق ذو العيون الواسعة ، "طفل الدغل" هذا ، مثله مثل أى امرئٍ آخر فى الجوار ، الذين كانوا معروفين لهم بالشكل أو بالسمعة ، كان على الشاطئ فى هذا اليوم عندما جاء السردين . . .

تركت الإثارة ، فى ذلك الحين ، تأثيراً غير عادى على أذهان كل هؤلاء البشر ، تأثيراً بعنف وسحر التأثير على الأسماك ، وحد هذا الحدث بين الناس الذين كانت الفوارق قائمة بينهم طوال الوقت : فوارق عرقية ، مالية ، طائفية ، طبقية ، امتيازات ، اللغة ، الغرور ، الخوف ، وما يفوق كل هذه الفوارق ، فارق اللون ، الهنود والوطنيون يتبادلون الاحتقار فيما بينهم ، "الملونون" ينظرون بازدراء لجيرانهم السود ، البيض ومن يقاربهم فى اللون ينظرون بازدراء للجميع ، بسبب ذلك ، ولسوء الظن المتبادل بين الجميع ، انقسموا طوال الوقت ، أما الآن ، وبشكل مذهل ، صاروا كلهم فى مستوى واحد تماماً ، مثل الأعداء عندما يتحدثون أمام الخوف

والخطر المشترك ، سوف يوحدهم شيء ما ، شيء يثير عاطفة تشبه الخوف البدائي ، أو تشبه ، وعدًا بامتلاك شيء بلا مقابل ، فى هذه الحالة ، لمسة الطبيعة القوية جعلت من الناس المختلفين عشيرة واحدة .

امتزجت أصوات المياه المتساقطة و "طرطشاتها" ، بصيحات الطيور والأطفال ، وسُمع هسيس أسلاك الصنارات الملقاة وأزيز لف البكرات ، هنا وهناك كانت تُصاد سمكة كبيرة ، ورؤية قضبان الصنابير المعدنية منحنية انحناءً مضاعفًا ، تكاد تنكسر فى أية لحظة ، مهتزة اهتزازات عنيفة متقطعة دون توقف ، كأن موتور دراجة بخارية معلق عند نهاية الخطاف المعقوف وليس سمكة ، باستثناء حال البحار النرويجى العجوز ، كان مستحيلًا تقريبًا بالنسبة لفرد أن يسيطر على سمكة واحدة ؛ فكل صنارة علقت بها سمكة اختص بها صيادان على الأقل ، وكان ممكناً رؤية هندى أو زولو ، أو أبيض أو مهجن وقد اتحدوا جميعاً فى عمل مشترك - وإنه لمشهد نادر حقًا فى "جنوب إفريقيا المتحدة" ! .

لم يمض وقت طويل حتى قالت السيدة "ريموند" لـ "إدواردز" : "أوه ، تشارلز ، انظر ، ها هو ذا طفل الدغل الروسى ! لقد صاد سمكة!"

ها هو ذا ، شاب أشقر تحت العشرين بقليل ، يرتدى "شورتا" وقميصًا مفتوحًا ، نحيف إلى حد ما ، بعيون واسعة لامرئ عرف ، وهو صغير جدًا ، معنى الجوع ، وشاهد الموت عن قرب فى وقت مبكر ، كان يتمايل بشدة على الرمل ، وبدا كأنه يؤدى بعض الرقصات البربرية ، أحكم شد كل عضلة فى جسمه ليمنع نفسه من أن يُسحب داخل البحر ، ولكى يُبقى على الصنارة رأسية التى تقوس على شكل حرف " د " وراحت

تتطوح فى يده ، مثل شجيرة فى إعصار تقاوم الانفلات من يده أو الانكسار والخدام الذى جاء معه كان يمسك به من الخلف ، وولدان أو ثلاثة هرعوا لمد يد المساعدة عند الضرورة ، كان الانطباع برمته ، أنه بدلاً من أن يناوروا السمكة ، كانت هى التى تتلاعب بهم جميعاً .

كانت السيدة "ريموند" مفتونة بما يجرى ، لم تكن عيناها تتحولان إلى أى شىء آخر ، كان زوجها مشغولاً على مسافة منها ، وبدا واضحاً أنه لم يصطد شيئاً بعد ، أما "إدواردز" فقد اصطاد فعلاً سمكة مناسبة الحجم ، وسلم صنارته لمساعد المطبخ ، ولم تلق السيدة "ريموند" بالاً لأى منهما ، ولا حتى عندما صاد الأطفال سمكة ضخمة من سمك المسلمين بأيديهم فقط ، وسحبوها وهى تتخبط فى الماء ، فقد كان انتباهها منصرفاً كلية .

الشاب الروسى ، أو بالأحرى ، سمكة الشاب الروسى ، تحركت تدريجياً جهة اليسار ، بعيداً عن المشهد الرئيسى للحدث ، وتحركت السيدة "ريموند" معها أيضاً ، لم يفهم "إدواردز" ما الذى يثير فضولها إلى هذا الحد ؟ ! أحس بالمشهد كأن اثنتى عشرة مشادة غير عادية ، تجرى فى وقت واحد .

الأحداث الهامة فى الحياة غالباً تأتى فجأة وعلى غير توقع ، حتى أنها تترك الإنسان مشدوهاً مبهوراً الأنفاس ، فإذا حدثت لإنسان آخر ، ويكون المرء متفرجاً فقط ، فإن الأمر غالباً يصعب فهمه على المتفرج ، فضلاً عن توصيله أو الوصول لمعرفة سببه الحقيقى ، أو تفاصيله وعواقبه .

كل ما كان يعرفه "إدواردز" أنه أحس بشعور أكيد بأن شيئاً هاماً سوف يقع ، وأن ذلك الشيء لن يقع له هو ، على يسار الشاطئ وقفت صخور مفلولة ، وقد راح الروسي يقترب منها ، وظل مساعده يحذرونه بانفعال كى يحاول تجنبها ، والسمة فى حالة وحشية أو ربما كانت حكيمة ، فقد غطست متعمدة فى ذات الاتجاه ناحية الصخور ، وبين ألفينة والأخرى ، كانت ترتفع خارجة من الماء ، وفى الضوء الأخير بدت ، لخيال المشاهدين الخصب ، كبيرة فى حجم دولفين ، فى اللحظة التالية وثب الشاب الروسي على صخرة مرتفعة ، ووقف على بقعة متقلقلة تماماً ، فبدأ كأنه سيقع ، لكنه تثبت بمكانه ، وتوقع "إدواردز" أن تقول السيدة "ريموند" : " أليس جريئاً ؟! لكنها كانت بعيدة بانتباهها عن أى كلام . ألقى "إدواردز" نظرة خاطفة للوراء ليرى مقدار المسافة التى بينهما وبين الحشد ، وإذ ذاك سمعها تطلق فجأة صرخة قصيرة بصوت مثير للمشاعر ، بدا له كأنه خارج من قلبها مباشرة ، وعندما استدار بسرعة ، شاهد الشاب الروسي وقد اختفى ، جرت مسرعة للأمام ، يغوص كعباً حذائها العالى فى الرمال ، و "إدواردز" يتبعها .

عندما وصلا إلى مكان الصخرة ، كان الشاب الروسي قد رفع من الماء ، سقط شعره المبتل على وجهه ، ونزفت ساقه بشكل رهيب ، وبمعجزة ، لم تنكسر الصنارة ، ولم تُفقد مع التيار ، فقد سبح هندى نحيل قوى فى نفس اللحظة ثم وقف فى الماء حتى خصره ، ورفع الصنارة بكل قوته إلى أعلى ، وضغط عقبها الغليظ فى جنبه ، الشاب الروسي ، "طفل الدغل" ، فقد وعيه من النزيف ، ولحسن الحظ ، فإن كلا من "إدواردز" والسيدة "ريموند" كانا يعرفان ، ما يجب عليهما فعله ، كانا قد قاما ببعض أعمال التمريض أثناء الحرب العالمية ، عندما كُبح تدفق الدم بالرباط الضاغط ،

حُمل الشاب إلى البيت، وأُرقد، بناء على أوامر السيدة "ريموند"، فى فراشها، تلفتت مرة باحثة عن زوجها، لكنه كان قد رحل قبل وقوع الحادث، ولم يعرف بما جرى إلا بعد رجوعه إلى البيت.

قالت وهى تلفتت ناحية "إدواردز": "أتحضر الطبيب يا "تشارلز"؟ أفضل ذهابك أنت وليس أحد الخدم."

ذهب "إدواردز"، متجهاً لمكان الطبيب، وكان ذلك يعنى رحلة طويلة مخترقاً عشش السود، بل لن يتمكن من العودة معه قبل العاشرة، كل ذلك تغير الآن، فلديهم تليفون وسيارة وهلم جرا، ظهر أن السكين التى يقطع بها الطعام هى سبب الجرح، فقد كانت تلبس عادة حول الوسط عادة دون "جراب"، ووجد أيضاً كسراً بسيطاً بالقدم من أثر السقطة، النتيجة، تقرر ضرورة بقاء المريض فى مكانه حيث هو، وقد بقى بالفعل، يجدر القول أن السمكة التى أكمل الهندى اصطيفادها، كانت من نوع السمك "الوثاب"، طولها يزيد على خمسة أقدام، بهيئة ولون الطوربيد، قبل تقطيع السمكة، صور "إدواردز" المريض والهندى مع الجثة الرائعة للضحية، ملأ ذلك السيدة "ريموند" ابتهاجاً.

قالت لمن حظى برعايتها: "أنت - فعلاً - من أمسكت بها."

فى غضون ذلك، استمر "إدواردز" فى عمله كالمعتاد، وذهب السيد "ريموند" كل يوم لرؤية والد المريض العجوز يحمل إليه أخبار تحسن الشاب، مثل كل الروس، كان الوالد متحدثاً عظيماً، ومثل كل اللاجئين الروس، صور حاله ليبدو كأنه على علاقة ما بالبلاط، على أية حال، نشأت علاقة صداقة هادئة بينه وبين السيد "ريموند"، الذى كانت

زياراته لمعارفه الجدد تزداد نمواً كل يوم ، وهكذا ، أصبحت علاقة السيدة "ريموند" بمريضها أقرب مما كانت ستكون عليه في وضع مختلف .

التغير الذى طرأ عليها خلال الأيام التالية كان لافتاً للنظر ، ما كان لديها من ضجر راح يتلاشى ، وبدأت أصغر عن عمرها بعشر سنين ، كانت تصمت أحياناً لبضع دقائق ، على غير طبيعتها ، وعندما تشرع فى الحديث ، فإن حديثها يدور حول "بوريس" : تقدمه فى الشفاء ، وما حكاه لها عن حياته السابقة ، وما قاله عن هذا أو ذاك ، أو عن الآخرين ، فى بعض الأحيان كانت تشبه أمّاً تتباهى بمهارة ابنها ، ولن تكون هناك مبالغة عند القول بأنها فى أحيان أخرى كانت تبدو مثل شابة تطرى حبيبها بحياء ، عندما أصبح "بوريس" قادراً على النهوض من الفراش والعرج باستخدام عكازين ، كانت فى غاية السعادة حتى إنه لم يكن مستغرباً سماع صيحتها : "انظر ، يمكنه المشى !" كانت سعادتها غاية فى الوضوح ، إلا أنها كانت تنزع إلى الفظاظ مع زوجها ، بل إلى إهماله ، أو هكذا تصور "إدواردز" ، الذى راح يراقب السيد "ريموند" عن كثب ليتعرف على وقع ذلك عليه ، لكن ذلك الرجل المعتدل المزاج ظل على حاله دائماً .

وفى ذات يوم كان ماشياً حافى القدمين فى الشرفة ، تصادف أن نظر من النافذة ، فرأى "بوريس" يقبل السيدة "ريموند" . بعد أن تغلب على المفاجأة - رغم أن الأمر لم يكن مفاجأة بالمرة - تساءل : ألن يكون غراً وأحمق ، إذا اضطر للفت انتباه السيد "ريموند" لما كان يجرى ؟ إلا أنه لحسن الحظ كان لديه ما يكفى من حسن التقدير كى يمسك عن الكلام ولا يتفوه بشيء .

سرعان ما تخلى " بوريس " عن عكاكيزه واستعاض عنها بعصى المشى ، اعتاد هو والسيدة " ريموند " الذهاب معاً سيراً على الأقدام فى نزعات قصيرة ، بل قصيرة جداً ، لأنهما كثيراً ما كانا ينزلان للحديقة ، ثم يعبران خط السكة الحديدية ، ويسلكان الدرب عبر الدغل ، ثم يقصدان مجموعات الصخور على الشاطئ ، ويجلسان مستترين بها لساعات طويلة فى كل مرة .

عندما تحسنت حالة " بوريس " ثانية ، عرف أنه بدلاً من ذهابه إلى كوخ والده على الساحل ، سوف يذهب للالتحاق بوظيفة فى " دن سبورت " ، قبل يومين من سفره ، تصادف مرور " إدواردز " خلال درب النباتات الهادئ ، بين السكة الحديدية والساحل ، وخاض مجهداً فى الرمل الكثيف الجاف ، فلم يستطع تجنب استراق السمع للأصوات القادمة فى اتجاهه .

قال " بوريس " ، بلكته الأجنبية الجذابة : " إذن تعرفين استحالة هذا فعلاً . . . "

ردت السيدة " ريموند " ، وقد تغير صوتها من الانفعال الداخلى : " لكننى لن أنسى أبداً . "

راح " إدواردز " يتنحى ، وعندما صار وجهاً لوجه معهما ، أبدى بعض الملاحظات عن حال الطقس ، ومثلما ضاعت ملاحظته أدراج الرياح ، كذلك كانت العلاقة .

رحل بوريس من فوره ، ولأسبوع أو أسبوعين ، كان واضحاً أن السيدة " ريموند " تفتقده بشكل موجه ، فى الواقع إنها كانت تحاول إخفاء تلك الحقيقة ، فكانت تذكر افتقادها عرضاً أكثر من مرة ، حتى تظاهرت بالمزاح فى هذا الأمر ، والقول بأنها عادت لطبيعتها مرة أخرى ليس دقيقاً .

وعندما كانت تحاول تكييف نفسها بقدر ما تستطيع مع غياب بورييس، كان يبدو عليها أنها فقدت ضجرتها السابق، وعلى نقيض حماسها الجديد، ظهر سنّها الحقيقي على نحو واضح.

خلال بضعة أسابيع كان يبدو كأنها قد تصالحت مع فارق السن بينها وبين زوجها، وحلّ سلام جديد مؤكّداً نفسه في علاقتهما، وثقة متبادلة ذات يوم في أثناء جولة على الشاطئ، التفت السيد "ريموند" إلى "إدواردز" وبدأ أنه يحاول الحديث، لكن كان واضحاً أن الكلام يشق عليه، فهو لم يكن كثير الكلام في أي وقت، وغير معتاد على التعبير عن مشاعره الحميمة.

قال: "أوه، "تشارلز"، أريد أن أفسر لك شيئاً قد لا تستطيع فهمه تماماً."

"نعم؟"

قال "ريموند"، وهو ينظر ناحية البحر: "عن زوجتي، وبورييس"

"نعم"

"لماذا تقول "نعم" بمثل هذه الطريقة؟ أفترض أن لك أفكارك... أظن أنك تتساءل لماذا لم أفعل شيئاً حيال ذلك الأمر؟! هذا بالضبط ما أردت تفسيره لك، حسناً، أنت تعرف أحوالنا، ليس لنا أطفال، ولا نلتقي بكثير من الناس هنا، بالطبع أنا لا أهتم بذلك، لكن بالنسبة لزوجتي، للمرأة، أنت تعرف، فهذا أمر ليس مريحاً، أحياناً كنت أحس شعورها بالوحدة والانعزال، حسناً، وهي بالطبع غير معتادة على حياة الريف

مثلى ، عرفت كيف يكون ذلك بعد ، بعد مجيء السردين ، هذا الشاب أصبح بالنسبة لها كل شيء كان الابن والصديق والحبيب كلهم اجتمعوا فى شخص واحد ، حسنًا ، أنا لست رجلاً غيوراً ، إلا أننى لا أستطيع القول : إننى أحببت هذا الأمر برمته ، لكنك تعرف ، إذا كان ثمة شيء لم أقدر على تحمله ، فهو أن أشعر بأن زوجتى لم تكن سعيدة ، اعتقدت أنه من الأفضل أن أدع الأمور تأخذ مجراها ، كنت متأكدًا من أنه زوجتى سوف تعود للأرض مرة أخرى سليمة معافاة ، وقد عادت . . . الآن أنا متأكد من أنه لا شيء مثل هذا سوف يقع لنا مرة أخرى ، إننى أجرؤ على القول إنه أمر غير سار أن تشعر المرأة بأنها سوف تواجه قريبًا خريف العمر . . . ومن ثم ترى ، النساء غريبات ! سوف تكون غاية فى الضيق إذا ظنت أننى لم أكن أغار ، وإذا عرفت أننى كنت أغار فإن ذلك كان سيستفزها أيضاً . . . آه ، حسنًا ، أنا متأكد من أن كل شيء قد انتهى الآن . . . لا أعرف لماذا أخبرك بكل هذا ؟ ! فيما عدا أننى لا أرغب أن تدور بنفسك أفكار خاطئة ، لا بد من أن أقول : إن الأمر ما كان ليصبح أسهل إذا كنت غير موجود بيننا - فمثلثات العشاق تميل لأن يكون لها روايا حادة - على أية حال ، إذا لم تكن موجودًا هنا ، كان سيفوتك مجيء السردين . "

قال " إدواردز " : " لم أكن قط أحب أن يفوتنى شيء . "

لقد تاق لمعرفة كيف بررت السيدة " ريموند " تصرفها بعد رحيل بوريس ، هل ذرفت دموع الندم ؟ هل اعتُبر كل شيء أمرًا واقعيًا ؟ أم ماذا ؟ - لكنه لم يرغب الخوض فى ذلك ، علاوة على أنه أراد أن يظهر بمظهر الفاهم ، كرجل ذى حنكة ، فشارك بالصمت ، على أية حال ، كانا قد

وصلا قرب البيت ، وراحت السيدة "ريموند" تلوح لهما من عند مائدة الشاي الموضوعة فى الشرفة .

عندما غادر "إدواردز" الساحل الجنوبى سرعان ما انشغل بشئونه الخاصة ، لكنه كلما تذكر آل "ريموند" كان يلزمه صوت المرأة قائلة :
"لن أنسى أبداً . . . " وتعاوده صورتها وهى تسرع ، وكعبا حذائها العاليان يغوصان فى الرمال عند كل خطوة تخطوها ، فى اتجاه آخر عاطفة فى حياتها.

موت ماسابا

تأليف : ر. ر. دلو مو

"يا زملاء ، ما رأيكم فى موضوع "ماسابا" ؟"

"حسنًا ، أخبرنا بما حدث"

"الولد يحتضر. وقد سمعت من "ستيمل" مساعد الرئيس ، أن ماسابا أصيب بالإغماء مرتين فى المنجم اليوم ، جرى إلى رئيس العمال "توم" ، الذى لم يرغب حتى فى الاستماع إليه ، وقال : "اغرب عن وجهى ، هناك الكثير من الصبية السود فى العشش"

"لكن ، لماذا أغمى على ماسابا فى المنجم ؟"

"حسنًا... اعتقد أن هناك "غلطة" فى بطاقته التى لم تختتم لمدة عشرة أيام من العمل تحت الأرض"

ضحك الآخرون ، عندما سمعوا كلمة "غلطة".

تصايحوا: "خلّص" ، ليس هناك أى غلط ! فنحن الصبية الأكبر سنًا نعرف تمامًا أن "ماسابا" إذا كان رجلاً أبيض ، فلن يكون ثمة "غلطة" فى بطاقته ، ألم يقل الرئيس توم إن هناك الكثير من الكافير فى عشش السود ؟! إذا مات واحد ، وهو يقصد "ماسابا" ، فإن الحكومة سوف تأتى بكثيرين

غيره ، ألم يقل ذلك حين أخبره ستيلا أن ماسابا مغمى عليه ، وأنه غير قادر على القيام بالتكسير !

بقوا صامتين ، وكل مشغول بأفكاره .

كان هذا الموضوع ينهش قلوبهم ، هؤلاء الرجال - الخمسة الذين تحلقوا حول راكية النار المتوهجة - كانوا قد تركوا قراهم وذهبوا إلى مناجم الفحم مجبرين على ذلك من الجوع والفاقة ، تركوا بيوتهم وهم مدركون للحوادث المرعبة التى تحدث تحت أسطح المناجم ، وكان أملهم الوحيد ، أن الناس البيض الحكماء دائماً ، سيكونون منصفين لهم ، وسوف يعاملونهم بطريقة حسنة : أى يحمونهم من مخاطر وأخطار ما تحت الأرض ، ويعاملونهم كبشر لهم مشاعر مثلهم على الرغم من جلودهم السوداء .

كان موقع العمل المخصص لهم منخفضاً عن سطح الأرض حتى عمق الطبقة الثامنة عشرة ، وكانت الحرارة عند هذا المستوى رهيبية ؛ حرارة شديدة لدرجة أن الصبية غير المؤهلين لهذا العمل كانوا عرضة للإصابة بضربة حرارة ، يمتد خلفهم ممر رأسى غائر واسع ، موحش ، يهدد حياتهم ، بينما فى المقدمة صخرة مسلولة ترتفع فوقهم وتصدر صريراً ، ومن شراستها تلوث الوجوه بوحل يقترب نقاط ماء قدر سام .

تحت كل هذه الظروف المهلكة مع الموت الذى يطل من كل مكان ، ووجود الرئيس "توم" ينخسهم كأنه روح انتقام تسعى وراءهم ، هنا كانت أجسادهم النصف عارية منحية باستمرار على المجارف والرفوش ، وحتى الأيدي العجوز المدربة على تكسير الحجارة ، كانت تخون أصحابها من شدة الحرارة وعض الجوع ، كأن هذا قدرهم اليومى فى الحياة ، هذا

القدر الذى لا يفكرون فيه أبداً، لأن لديهم ثقة مطلقة بسادتهم ، لكن اليوم، عندما رأوا ماسابا ضحية الإهمال واللامبالاة القاسية، أجل ماسابا، زميلهم الصبى الريفى - الذى لا يفترض حتى أن يعمل مع جماعة التكسير، دميت قلوبهم ، الحادثة الأولى وقعت عندما كانوا يجرفون بجنون، فجأة سقط "ماسابا" . . . وأغمى عليه.

"ستيملا" ، رئيس الصبية ، جرى لإخبار الرئيس "توم" :
"يا ريس ، الولد ماسابا أغمى عليه ، إنه غير قادر على العمل فى التجريف."

اندهش الرئيس توم جداً عندما سمع أن كافيراً غير قادر على أداء العمل الوحيد الذى خلق له ، وهو العمل بالجساروف ، وقال "لستيملا" :
"ماذا! ماسابا غير قادر على العمل؟! هل الكافير الملعون . . . غير قادر على التجريف!؟"

رد ستيملا : "سيدى ، لكنه أصيب بالإغماء بمجرد أن . . . ، أظن أنه لم يعتد على ذلك العمل بعد "
"أوه، "ستيملا" ، ارفسه"

كان "ستيملا" أحد رؤساء الصبية الطيبين ، اختفى من أمام "توم" ، وبدلاً من إيقاظ ماسابا برفسة تبعاً للأوامر ، ذهب إليه وقال له : "قم يا بنى ، وحاول العمل ، سوف يضربك الرئيس "توم" ، يقول إنك تضيع الوقت بالتهرب من العمل"

ذهب "ماسابا" المسكين وألقى بنفسه على قدمي سيده.

"يا ريس ، إننى لم أعتد العمل فى التجريف بعد ، سيدى ، لقد تعبت جداً ، ورأسى ألمتنى جداً ، وقد غامت عيناي عندما انحنيت للتجريف ، أتوسل إليك يا سيدى ، يا ريسى الفاضل الطيب ، يا والدى ، اعطني عملاً آخر إلى أن أعتاد على العمل فى التجريف ، سيدى سوف أعمل جيداً ، سوف أعمل أى شئ من أجلك . يا ريس!! ، أرجوك . . إن العمل هذا يقتلنى"

وانفجر فى البكاء ، بينما زملاؤه العمال يهتمون من بين أنفاسهم المنذرة بالشر.

إنه أمر صعب وشاق على صبي ورئيسه أن يتوصلا لتفاهم سريع فى المنجم ، تحت الأرض ، هناك تختلف لغتهم عن لغتنا ، ويتألف خطابهم من تلك الكلمات العارية المكشوفة المثيرة للاشمئزاز ، التى يخجل منها أمير الظلام نفسه ، مازال العمال يهتمون فيما بينهم ، قالوا : " ماسابا ، هل بطاقتك مختومة ؟ "

راح ينشج وهو يقول : " لا أعرف ، هذه أول مرة أعمل فى المنجم ، لقد بدأت العمل أمس"

زعق السيد " توم " وهو يتقدم ناحيتهم : " هاى . . ماذا يجرى هناك؟ ماسابا ، إذا ضبطك تتكلم مرة أخرى ، سوف أريك الجحيم!!"

صاح " ستيمل " بصوت متوتر : " سيدى!! ، إنه يحتضر"

عندئذ ، نطق رئيس العمال " توم " بكلمات تبدو بريئة فى اعتقاده ، لكنها فى أذهان السكان الوطنيين مليئة بالمعانى اللعينة ، رئيس العمال الأحمق الذى لا يعرف طريقة تفكير العمال الوطنيين قال : " هناك الكثير من الكافير فى العشش . "

لم يتحمل الرجال هذه الكلمات ، وانحنوا أكثر على مجارفهم ، لكن صيحة حادة أوقفت عملهم ، صيحة تمزق نياط القلب ، على إثرها سقط "ماسابا" سقطة أحدثت صوتاً مكتوماً ، وراح يتخبط رأسه فى قطعة صخر مسننة فى الحفيرة ، بسرعة حُمل إلى السطح ، ومن هناك أسرعوا به إلى المستشفى ، اكتأب زملاؤه القرويون عندما سمعوا بحالته الخطيرة .

"إلهنا ، نرجوك إنقاذ "ماسابا" ، لأجل "خاطر" أمه المسكينة . سوف تكون وحدها بالحياة ."

فى اليوم التالى ، بينما كانوا يغيرون ملابسهم المبتلة ، دخل حارس المنجم إلى حجرتهم : " يا جماعة ، قال لى المدير : إنه لابد من أن أتى وأخبركم بموت "ماسابا" . "

عندما أجرى تحقيقاً حول موت "ماسابا" أدين رئيس العمال "توم" ، فهو المسئول عن "ترك ولد جديد يعمل فى التجريف تحت الأرض قبل أن يضعه أولاً فى عمل خفيف ، مثلما هى القاعدة المتبعة مع الصبية الجدد ، وتسبب بإهماله ولا مبالاته فى موت "ماسابا" "

"يا زملائي ، إننى أقول لو أن "ماسابا" مات موتاً طبيعياً ، فإن ذلك لم يكن ليغضبنى ، لكننى اعتبره قتل ، ذلك لأن بطاقته كانت مختومة : " لا يوظف فى التكسير"

"أوه - هوه ، ألم تسمع أن الرئيس "توم" قال "لستيملا" : " إن هناك الكثير من الكافير فى العشش ؟ "أوه ! أوه ! ألا تعرفون القوم البيض ! ومضوا لحفر قبر "ماسابا" .

تأليف : بيتر إبراهيمز

كنت قد وصلت توّاً إلى " كيب تاون " ، عندما اكتشفتها ، جرى ذلك بسرعة كبيرة ، أتعرفين ، كنت سعيداً وأنا ماضٍ في طريقى ، إلى أن وصلت إلى تلك البقعة . كانت بقعة غريبة ، ومنذ ذلك الحين وأنا أتساءل لماذا كان يجب أن يتوقف القطار هناك؟ أتعرفون ، فيما بعد ، كان لها تأثير كبير جداً علىّ ، فلم أستطع النوم لليالٍ ، وكنت أواصل التفكير فيها .

عندما تأملت الأمر ، رأيت كل شيء مرة أخرى . بعض المنازل على جانبي خط السكك الحديدية ، عندما مر القطار . . موغلاً في وادٍ ، بانت الأرض خضراء ، جميلة وخضراء ، وأصابع صغيرة من الحشائش انبسطت وامتدت لتلمس الشمس ، تماماً مثل البشر عندما يمدون أيديهم ليلمسوا شيئاً لا يعرفونه . ومن الغريب حقاً أن الناس يريدون الأشياء التي لا يعرفونها ، لكن هذا ما يجعل الحياة جديرة بأن تُعاش . . . أكره الفلاسفة أحياناً ، وأعرف أن أصدقائي سوف يقولون : " أوه ، لا تقل ! ألا تعرف أنها جريمة ؟ ! " لكننى أحب الجرائم أحياناً ، ذلك النوع من الجريمة ، إنها لجريمة أن تعرف كثيراً ، وأن تفهم كثيراً ، مثل الفلاسفة .

ما أعنيه ، أن الطبيب الذى يساعد امرأة على الولادة إنما يؤدي عملاً ، مجرد عمل ، فإذا ما كان طبيباً حديث التخرج ، فإن للأمر بعض الإثارة، لكنه يبقى مجرد عمل . . . أما الولادة بالنسبة لى ولك فهي أمر مختلف جداً . إنها الأرض ، أجيال من الأرض ، الأرض السرمدية . تتفجر بلين وبطء . تظهر ثم تتفتت ، أتعرفين ، مثل كرة من الطين المبلل ، تتفسخ ؟ تنظر داخلها ، فلا ترى شيئاً . ومع ذلك ، جميل أن تنظر إليها ، رغم أنك لا ترى شيئاً . . . ذلك ما يفقده الفلاسفة ، ولهذا السبب أكرههم أحياناً .

الوادي قاتم بدون الشمس ، كان ذلك فى الصباح الباكر ، أخضر الساقى قدح القهوة الذى كان بلون الماء الموحد ، أتعرفين ، كنت مسافراً فى عربة الملونين ، وهى بعيدة جداً عن عربة المطعم ؟ لذلك كانت القهوة موحلة وباردة . . . لكننى شربت أشياء أسوأ من ذلك فى حياتى ، وكانت على ما يرام ، لم أوبخه على مطالبته لى بـ "تيكيه" ٣ ب عن قدح القهوة البارد الموحد ، بل قلت : " أشكرك " ، بتهذب شديد ، وابتسمت له ، أما هو فنظر إلى فحسب ، وأخذ "التيكيه" ، وأنصرف . حتى ذلك لم أوبخه عليه . أتعرفون ، كان رجلاً أبيض وأنت كل شيء إذا كنت أبيض ، أسقفاً ، ملكاً ، ساقياً ، عاطلاً ، ساعياً فى مكتب . . . تكون "ابن الله المختار" ، حتى السيدة "ميلين" تقول ذلك ، فهى تقول : " إننا نحن الملونين أبناء الله غير الأشقياء " ، كل الصحف تؤمن على قولها "حقاً ، حقاً" ، إذن ماذا أقول؟ حسناً ، لا شيء .

غير أن هذا القدح كان جميلاً فى هذا المكان الصغير ، بعد أن أخذ الساقى "التيكيه" وانصرف ، جلست أغص بالماء الموحد ، فلا يجب أن أنظر إليه نظرة متشائمة ، حتى لا يثير غيظى النظر إليه ، كانت القهوة فى داخلى

أفضل منها فى خارجهى ، لأن داخلهى لىس له عيون ، ولذلك لن يرى الماء الموحل ، نظرت من النافذة . . . كان من الأفضل لى أن أنظر لاستراحات موظفى السكك الحديدية التى على الطريق ، فأنا أعرف كيف تبدو مساكن "الوطنين" ، أعرفها تماماً دون رؤيتها ، كان يجب أن أفحص بيوت الموظفين، لكننى لم أفعل. بل رحت أتفحص منازل "العمال الوطنيين" الذين هم عمال ، أقول هذا لأن فى هذا البلد عمال وعمال وعمال، فعمال بالحروف الصغيرة تعنى كل عمال الطبقة العاملة. وعمال بالحروف المتوسطة، هم الذين يتلقون الأوامر من العمال المكتوبة بحروف كلها كبيرة، ثم يمررونها إلى هؤلاء العمال المكتوبة بحروف كلها صغيرة، إذن، فهى " عمال ، وعمال وعمال " .

إذا ما كنت محظوظة بما يكفى لأن تكون لك نظرة طائر سقيمة وهو محلق ، سوف تعرفين ما أعنيه . . . فقط نظرتك السريعة سوف تكون كافية، فهذه المنازل لم تكن بأية حال منازل، نصف "دسته" من قطع الحديد المعوج، عمود ، عادة جذع شجرة متعفنة ، وبعض الأسلاك الشائكة ، حبال ، دوبارة ، وألواح خشب عفن، كل أنواع الخردة . . . ثبت كل هذا جميعاً ، بذلك تكون لديك صورة لهذه المنازل التى رأيتها أنا لكننى لم أصدم مطلقاً. أردت إنعاش ذاكرتى فحسب.

أتعرفين، إنها هكذا فى كل مكان فى هذا البلد ، انطلق من "لويس ريتشارد" أو "بيترس بورج" ، واهبط إلى "كيب تاون" أو "ناتال" ، وإذا لم تكن قد سافرت من قبل، أسدل ستار النافذة لتغازل الفتاة التى ركبت عند المحطة النهائية، تلفت حولك، وقل: " يا للأشياء السوداء المسكينة" ، وألق بقطعة نقدية صغيرة عندما ترى أبناء الوطنيين وهم

يستجدون على أرصفة المحطة ، ثم اسدل الستار مرة أخرى . . . فكثيراً ما سوف تقدم على مثل هذه التصرفات ، إن لم تفعل ، سوف ترى الكثير مما يماثلها فى كل مكان ، سوف ترى القذارة ، والموت ، والروائح العفنة ، والبؤس ، وسوف تتعجب .

إن كل الناس فى هذا البلد ألفوا كل ذلك ، الجميع يفعلون كل الأمور التى حكيت عنها ، أسدلوا ستائرهم ، غازل الفتاة التى ركبت عند المحطة النهائية ، وهمهم : " يا للأشياء السوداء المسكينة " . ألق بـ " التيكه " واضحكى وأنت تراقبين الحقائق الصغيرة من جلد وعظم وهى تتقاتل عليها .

" يا للأشياء السوداء المسكينة " .

هذه جنوب إفريقيا ، أرض الرجل الأبيض ، سُرقت من الرجل الأسود . إنه يقول هذا . أنا لم أقل ، أنا لا أقول شيئاً من عندى ، فأنا ليس لى عقل . يفترض ، هنا ، أن الزوج بلا عقل . وأن العقل جريمة ، قال لى أصدقائى مرة أخرى : " لا يجب أن تقول مثل هذا الكلام . نحن من البيض ، لكننا نحترم عقلك ، نعاملك على قدم المساواة معنا ، ألا نفعل ؟ لا تكن انهزامياً . وسوف تنصلح الأحوال ، يتعلم البيض ، فى هذا البلد ، ليعرفوا أن السود متساوون معهم تماماً . ويجب أن تؤدى دورك فى تعليمهم ، " .

نعم ، لكن من أنا ؟ هل أنا رجل خارق ؟ متفهم دائماً ؟ أقوم بالأعمال الصحيحة دائماً ؟ هل يجب أن أكون الشخص الكامل الواعى دائماً ! أنا إنسان ، أيضاً ! أريد أن أعيش حياة معقولة ومنطقية ، أنا لا

أريد العمل من أجل أمور ربما تأتى وأنا غير موجود على قيد الحياة ، لماذا يجب أن أعمل من أجل عالم جديد رائع قد لا أراه؟ إننى أفكر، أيضاً ، فى أمور الحياة البسيطة .

كانت هذه هى الأشياء التى حدثتها عنها عندما قابلتها فى " كيب تاون " فور وصولى .

كان النظر إليها جميلاً ، أعتقد أننى أحببتها قليلاً ، فى الواقع لم أفعل ، أعتقد ، أن ذلك الحب كان بسبب الوحدة فحسب ، أظن أن الوحشة جعلتنى أتخيل أننى واقع فى حبها - لحد ما - التعاطف الإنسانى، التفهم، وشخص ما أشاطره بعضاً مما يعتمل فى نفسى . . .

- لكن، يا رفيق، أنت انهزامى، يجب ألا تفكر فى مثل هذه الأمور، أنت تعرف بوجود رفاقية فى الحركة - بقدر ما -

- إلى حدٍ ما .

- إلى أى حد ؟

مرة أخرى حدثتها عن الأرصفة حيث توقف القطار، وما فعله الساقى، وكيف نظرت إلى أكواخ العمال الوطنيين، وحدثتها عن أصناف العمال الثلاثة .

لم تفهم ، أعرف أنها تحسبنى مجنوناً بعض الشيء ، وأننى انهزامى، وأننى تخليت عن الحركة : آه ، شىء غريب! حسناً ، إنها الحقيقة ، الحركة، الناس التى تعيش فى أكشاك ، الناس تستجدى الرزق .

شعور المثقفين الصغار العقيم .

إنهم لا يفقهون ، وقالوا: "يا رفيق، لا تقل هذا الكلام ، تلك انهزامية ."

ما معنى الانهزامية بالنسبة لى ، بينما أنا أشعر بالوحشة ؟ لم أهتم بأى شيء ، فى حين أننى أحتاج رفقة وتعاطفاً إنسانياً ، وقيل لى إن كل شيء سوف يكون على ما يرام بعد ال . . .

ماذا عن القليل منه الآن ؟

زنجى له عقل ! زنجى يفكر ! لا . . أنا آسف لأننى "خيت" أملك ، أخاف التفكير ، سوف أجن إن فكرت ، فالآخرون الذين فقدوا عقولهم كانوا يفكرون بتلك الأمور ، لقد دفعوا بهذه الأمور لوعى ، حدثتها عن تلك الأمور ، عن قليل من الرفقة ، لا نقاش لأى شيء ، لا إصغاء إلى أننى "كاتب" الحركة الواعد ، ألا يقال لى إنهم يعتقدون أن كتابى سيكون مفيداً ، لا لكل هذه الأشياء ، لا أريد أن أسمع أن هناك " لقاء جماهيرياً" وأننى لابد من أن أمنح الحشد أفضل ما عندى .

ماذا عن قليل من الدفء ؟ شخص ما احتضنه بين ذراعى ، شخص ما أحبه وأرقد إلى جواره عندما أكون متعباً ؟

مثقف صغير؟ يكون أفضل إذا كان أحمق صغيراً .

ونحن جالسون على مقهى مخصص لغير الأوربيين ، حيث ذهبنا ليكون كل شيء على ما يرام ، حدثتها عن كل تلك الأشياء .

كنت واقعاً فى حبها بعض الشيء ، أو بالأحرى ، واقعاً فى غرام
صحبته ، كان يمكنها أن تتفهم أن تمنحنى تعاطفاً ، وبعدئذ تشدنى إلى
" اللقاء الجماهيرى " ، لكننى خمنت أنها تريد أن تنطلق إلى العرض ،
وهكذا تناولنا الشاى بسرعة بالغة ، فقالت لى مرة أخرى إن " الحركة "
محكوم عليها بالإخفاق إذا ما كان القادة من المثقفين الصغار مثلى قد
أصبحوا انهزاميين ، فماذا يفعل الرفاق فى البلدان الأخرى ؟!

- لديهم على الأقل من يتحدثون معه ، امرأة تتفهم ، جنس يمكن
الحصول عليه فى الشارع ، لكن الرفاقية هنا مثل دين إله .
توقف القطار عند الوادى الأخضر ، قرب الأرصفة ...
الزرائب المكشوفة التى أنعشت ذاكرتى عن شعبى .

الساقى .

الليالى المنقضية فى القراءة ، محدثاً نفسى بصوت عال ، لا لشيء
سوى أن أسمع صوتاً ، أى صوت ، وإن كان صوتى ، فقط حتى لا أجن
عند الصباح .

مثقف صغيراً

الله والحركة ، يجب فعل شيء .

هل تعرف ماذا يعنى أن تكون زنجى الجسم؟ إنسان أدنى ، فى رأى
إنسان آخر؟ هذا ما أسميه الوحشة ، لكن لا تنس ، أنا لا أفكر ، تلك
فضيلة خاصة بالأوروبيين فقط ، أما الزوج فيزج بهم فى السجون .
تلك البقعة ... الزوج الصغار يلمسون بنساً ...

رجل أبيض يغازل الفتاة التى ركبت عند المحطة النهائية .

ساقى ، وماء موحل ، أوه ، يا رب !

كانت تتكلم ، ماذا عن الوضع فى الشمال؟ كيف يجرى العمل؟ . .
إلى الجحيم بالعمل والوضع ، وكل شيء! كونى رفيقة حياتى! انظرى ، أنا
وحيد ، أنا لم أحادث إنساناً طوال سنوات ، فإما الكلام عن الحركة أو لا
كلام ، أستحلفك بالله ، تكلمى عن أى شيء ، أى شيء قديم لعين .

تلك البقعة ، الوادى الأخضر على مقربة من الجبال عند الأرصفة
حيث توقف القطار ،

سنوات من الوحشة التامة ،

الحركة ،

امرأة أحادثها ، امرأة ذات عقل يمكنها أن تتحدث معى ، بدلاً من ،
هذيان الصمت .

المسيح ، جسد زنجى ، جسد حيوان ،

عقل إنسان ،

تلك البقعة ، الماء الموحل ، الرب وأجساد زنجبية بعقول زنجبية ، لكم
تمنيت أن أكون مثلهم!

أحمق وملعون ، التحق بالجامعة .

ليس المتكلم أنا .

- "هل تعرف ما قلت ؟ هل تفهم ؟

إذا كنت لا تفهم ، لا تخجل من أن تقول ذلك ، فالملايين أيضاً فشلوا فى الفهم .

من الأفضل جداً قول الحقيقة ، حتى تتمكن من الفهم .

إذا كنت قد فهمت ، فهذا أكثر بكثير مما أصدق!

لا تُخفِ إبتسامة أسفك . "

- أنا أفهم...

الوحشة علمتنى . . .

البقعة . .

الرب !

س . إى . مويكانجو

وقفت "سيبوليلو" بنت قبيلة "باسوتو"^(٣٥) تتأمل الموقف . هناك على أرضية الكوخ ، كان يرقد الزوج ، من قبيلة "الزاهوسا"^(٣٦) ، وسط السائل الذى تقيأه قبل أن يسقط ، وبعد أن ضربها فى ثورة غضبه وهو سكران .

راحت تفكر : " لو أعرف أن الحياة الزوجية بهذا الشكل ، لبقيت فى بيت أبى و أمى ، ولسعدت بأن أدعى عانسًا ، بدلاً من أن أعامل مثل كلب . لم تخبرنى أمى أن الحياة الزوجية علاقة نتنه .

حملت طفلها ، ثم وضعت على ظهرها وربطت الأحزمة الجلدية الرافعة حتى لا ترتخى أثناء انطلاقها وهى خارجة مسرعة ، وجمعت أشياءها الشخصية فى "صرة" لتحملها فوق رأسها ، قالت : " أبق هكذا ، كلب عديم القيمة ، أبق متمرعًا فى رائحة ذلك القذر الذى تقيأته " ، ثم أسرع خارجة من نطاق البيت ، بعد أن خلفت باب البيت وراءها ،

(٣٤) ترجمها الكاتب "مويكانجو" عن لغة "سوتو" الجنوبية .

(٣٥) شعوب "سوتو" ، أرضهم تقع غرب جبال داركنزيرج مباشرة ، تعرف الآن باسم "باسوتولاند" ، ومن مجموعة شعوب سوتو أيضاً ، قبائل بتسوانالاند (. د . محمد عوض - مرجع سابق .)
(٣٦) "الزاهوسا" قبائل فى نفس المنطقة ، ولغتهم تحمل نفس الاسم ، وهى الآن أحد اللغات الرسمية بجمهورية جنوب إفريقيا ، إنترنت ، إفريقيا ، كوم .

راحت تحدث نفسها مرة أخرى كما لو كانت تحدث شخصاً ما: " مازال أبى و أمى يحباني ، لن يبعداني عن البيت "

مشيت بسرعة بقدر ما أسعفتها قدمها ، وحيدة تماماً فى الليل ، كانت بحكم تربيتها خائفة من الأرواح ، لكن بسبب ما تعانيه الآن نسيتهم تماماً .

كان الطفل الذى تحمله على ظهرها هو طفلها الثانى ، فقد أجهضت فى الشهر الخامس من الحمل فى طفلها الأول .

بعد أن مشيت مسافة ميلين تقريباً ، قابلت جماعة صغيرة من الرجال الذين كانوا عائدین من حفل زفاف ، ارتعدت ، لكنها تماسكت واستجمعت شجاعتهام مثل شخص يتحفز لأى طارئ ، تعرفت عليهم من أصواتهم ، وهم أيضاً ، تعرفوا عليها فى الحال .

" مساء الخير يا صبية ، "

" مساء الخير يا آبائى ، "

سأل كبيرهم المدعو " بوتسو " : " من أين أنت قادمة؟! ، وإلى أين تذهبين فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل . "

" أنا قادمة من هناك ، من القرية ، وسوف أذهب إلى موطنى ، لقد مضى وقت طويل منذ آخر مرة زرت فيها أمى و أبى "

" ما الخطب الذى جعلك تضطرين للسفر فى الليل ، والأسوأ ، سفرك وحدك؟! " .

" فضلت السفر بالليل حيث يكون الجو لطيفاً ، كما أريد أن أصل موطنى قبل شروق الشمس . "

غمغم "تيبلو" : " يا رجال ، لدى شك فى أن تلك المرأة هجرت بيتها ، فلا توجد امرأة لديها الشجاعة للسفر وحدها فى الليل على هذا النحو ، تُرى هل وافق زوجها على سفرها لزيارة والديها ؟ " ، مع ذلك تركوها تمضى فى طريقها .

جدت "سيبوليللو" السير خوفاً من أن يخبر الرجال حماتها ، فتلحق بها وهى مازالت قريبة من القرية ، كانت تسافر فى ليلة مقمرة ، حيث يمكن رؤية الواحد للآخر وهو على مسافة بعيدة ، بينما كانت تسير بالطريق وأفكارها مشتتة ، حيث كانت تفكر فى منزل حميها ، كانت تنظر خلفها كثيراً ، ثم سمعت قرع طبول : تو - تولو - توتولو - تو ، وغناء ، وكان الغناء يأتى من بعيد مكتوماً غليظاً ، توقفت لتتعرف على الاتجاه الذى يأتى منه هذا الطبل والغناء . سمعت الصوت بوضوح آتياً من الاتجاه الذى كانت ذاهبة إليه ، وراح يقترب أكثر فأكثر ، فتملكها خوف مفاجئ ، قالت : " أوه ، سأموت وطفلى فى بلد غريب ! نظرت حولها ، رأت على جانب الطريق بمسافة قصيرة ، شجرة ضخمة كثيفة الأوراق . قدرت ارتفاع الشجرة ، وتسليقتها بسرعة ، وجدت بها مكاناً يشبه مستراحاً بين الأغصان تكون من ضربة مطرقة ، فجلست فيه مربعة الساقين وطفلها فى حضنها .

كانوا مجموعة كبيرة من الرجال والنساء ، كلما اقتربوا أكثر ، صار الغناء وقرع الطبول أوضح .

كان قادة المجموعة يحملون بيرقاً طويلاً جداً ، من طوله بدا كأنه سيبلغ السحاب ، تدلت من البيرق أشياء صغيرة عند حوافه ، أحدثت صوتاً مثل صوت الناقوس : دينج ، دينج .

وكان هناك ثلاث طبول ، واحدة حملها القادة ، والثانية حملها من في وسط الموكب، بينما الثالثة حملها من في المؤخرة ، كان موكباً مربعاً من الرجال والنساء ، وبينما "سيبوليللو" جالسة تراقبهم وهي مرتعدة من الخوف ، رأتهم ينحرفون عن الطريق ويتجهون مباشرة صوب الشجرة التي اتخذتها ملاذاً هي وطفلها ، هؤلاء الرجال والنساء كانوا يتحركون ويجرون وهم عرايا تماماً .

كانت "سيبوليللو" مقتنعة تماماً بأنهم السحرة الذين سمعت عنهم كثيراً في طفولتها ، لكنها لم تكن تعتقد في وجود مثل هؤلاء الناس قط .
قالت : " ها أنا ذا أراهم اليوم بعيني . "

أدوا كل أنواع الكهانة والعرافة الغريبة لفترة قصيرة . ثم استهلوا مراسم "الصولجان السحري" ، الذي قيل أنه الدرس الأخير الذي يتعلمه المرء الذي يرغب في تلقي أسرار السحر ، وبتدبير العناية الإلهية استغرق طفلها في النوم .

تحدثت امرأة ما وقالت : "أنتم ، فلان ، وفلان ، وفلان ، وفلان ، ارقدوا على بطونكم قرب هذا الحجر الصغير ، أما أنتم ، فلان ، وفلان ، وفلان ، وفلان ، ارقدوا قرب كومة الحشائش تلك - كل زوج يتجه اتجاه عكس زميله ، أنتما ، "خوري" ، و"هوفواي" ، ارقدا هناك على جانبيكما في مواجهة بعضكما البعض ، و شبكاً أيديكم ببعضها ، لا بد من أن تغلقا عيونكم تماماً "

ثم أمسكت بـ "العصا السحرية" التي تسبب النعاس والنوم ، وقالت : " أريدكما أن تنظرا إلى هذه العصا عن قرب بدقة ، وتشيرا إلى الفرق بينها وبين العصا الأخرى التي تسبب اليقظة "

راحت تحرك "العصا السحرية" عليهما كالمروحة ، وقد راح الاثنان الراقدان على الأرض يغطان بسرعة في نوم عميق ، بعدئذ قالت : " أنت يا "لبلين" ، هز " كاتس " ، وحاول إيقاظه ؛ أمسكه من يديه واسحبه للأمام ، ثم أمسك به واحمله فوق كتفك " ، أدى كل ما قالت ، كأنه كان يتعامل مع جثة . فجأة انفجر في الكلام : " هذا الرجل ميت . "

أمسكت الساحرة المعلمة « العصا السحرية » الأخرى وقالت : « هذه هى العصا التى تستعمل لهما ذات الطول والسّمك ، وكذلك لهما اللون نفسه ، لكنهما مختلفتان فى الثقوب التى على كليهما فقط ، فعصا الإيقاظ بها ثقب صغير جداً عند الطرف الرفيع يرى بصعوبة بالغة ، ولها رأس حاد ، " أمسكت بها وراحت تحركها عليهما كالمروحة ، فاستيقظا ، لكنهما كانا غير قادرين على قول ما حدث خلال الوقت الذى قضياه نائمين .

بعد ذلك قالت الساحرة المعلمة : " ما - "سيبوليللو" ، تريدان تلقى أسرار مهنة السحر ، إن السحر ليس لعبة ، فلا بد للمرء من أن يكون مستعداً لتقديم اسمى تضحية ، حياة البكرى هى الاختبار الحقيقى لنواياه .

جلست "سيبوليللو" على الفروع العالية ساكنة كالميتة ، بينما الساحرة كانت مستمرة فى الكلام ، لكن فجأة تبول طفلها الذى كانت تحمله بين ذراعيها ، ونزل الماء عبر فروع الشجرة . ، نزل الماء يقطر : دريب ، دريب ، دريب ، دريب ، دريب ، دريب ، دريب ، دريب .

" صاح شخص ما أسفل الشجرة : " أوه ، هذا يوم الحظ السعيد حقاً ! الطيور تبول ! وقد أوشك نور الفجر أن يدركنا . دعونا نرحل ! "

نهضوا جميعاً وتركوا المكان فى عجلة ، لم يعد يسمع أى صوت بعد رحيلهم ماعدا نعيب البومة على فترات متباعدة ، البومة طائر السحرة .

راقبتهم "سيبوليللو" إلى أن اختفوا تماماً ، الآن لا صوت لطبول ،
ولا لأى غناء .

كانت "سيبوليللو" حائرة بين رأيين ، رأى يقول : " ارجعى من
حيث أتيت " ، والآخر يقول : " واصلى إلى موطنك ، " قالت لنفسها ؛
سأنتظر قليلاً على الشجرة وأرضع طفلى ، فربما قد يعود أحد من الجماعة
بالمصادفة . "

كان رأياً صائباً فعلاً ، فقد شاهدت امرأة عائدة تجرى على طول
الطريق . وصلت إلى المكان وراحت تنظر باحثة عن شىء ، وفى وقت
قصير ، وجدت الشىء المفقود . وقالت : " لم أفقد شيئاً ذا أهمية " كان
الصوت الذى سمعته معروفاً لها جيداً .

عندما جلست "سيبوليللو" استغرقت فى التفكير ، وراحت تتساءل
عن كل ما سمعته ورأته ، وغلبها النوم ، وراحت فى سبات عميق ،
فالنوم عدو لا يعترف أبداً بوجود الأعداء الذين يحيطون بالإنسان ، عندما
استيقظت كان ضوء الفجر قد بزغ ، فحملت الطفل على ظهرها ، والصرة
على رأسها ، وواصلت السير فى اتجاه موطنها .

جدت فى السير فوصلت موطنها عند شروق الشمس . . . وصلت
إلى البيت الذى عاشت فيه طفولتها ، حيث كبرت وصارت فتاة غير
مختونة ، فيما بعد مرت بجميع المراحل الطقسية لدخول عالم النساء
وأصبحت كاملة الأهلية . . . فى هذا البيت رغبوا فى تزويجها ، وفى
النهاية تزوجت ، وصلت فى الوقت الذى كان الجميع مشتاقين فيه لرؤيتها .

استولى خوف مفاجئ على أختها الصغرى "سيباتى" عندما رأتها فجأة عند السياج ، صاحت صيحة تعجب ودهشة : "أختنا سيبوليللو ! " ، خرج على إثرها كل من البيت ، تعانقتا عند الباب ، حتى الكلاب ابتهجت وبدت كأنها تسأل : أين كنتِ طوال هذا الوقت ؟ خرجت أمها ، رحبت بها وقبلتها بلطف ، سألت وقد ارتسمت على وجهها نظرة دهشة : " سيبوليللو، ابنتى ، من أين جئت فى ليلة كهذه ، كنا نعتزم أنا ووالدك سؤال حميك ليأذن لك بزيارتنا حتى نرى طفلك الذى رزقت به ، والذى سمعنا عنه ولم نره ، يا له من طفل وسيم ! ما اسمه؟ " .

" أمى ، أسماء الزاهوسا صعبة ! لا أعرف هل فى استطاعتك نطقه . لقد سُمى على اسم أحد زعماء قبيلة أبيه ، سموه " ساندایل " .

" سانتيل ، حفيدى ، تعالى " ، ثم مدت يديها ، وتلقت الطفل وقبلته .

" ياله من طفل ذى سجية سمحة ! إنه ليس مثل الأطفال الآخرين ، فهو لا يرفض الناس . "

كان جده آخر من خرج من البيت ، قد أيقظته الجلبة التى فى الخارج ، رحب بابنته وسأل عن أحوال الحياة .

" أين أصدقائى ، "موزنداكى" ، و "مدلامينى" ، كيف حالهما ؟ "

" أبى ، الجميع بخير "

" هل تمطر هناك ؟ "

" إذا كان على المطر فهناك الكثير منه ، سوف يكون عام وفرة ، إن لم تأت الرياح الباردة التى تهلك المحاصيل ، كيف حالك أنت يا أبى ؟ " ابتى ، ليسبغ الله رحمته علينا "

" لقد مات فى الشهر الماضى "ناهينج" ، الابن الأكبر لزعيمنا ، فقد كان مريضاً جداً ، كان الأطباء يسهرون على العناية به ، مع ذلك رأيناه وهو يفارق الحياة ، ليس لدينا أى مطر ، فى بداية الشهر الماضى سقط عندنا وابل من المطر ، فغرسنا بذورنا فى قليل من أراضى البساتين ، لكن المحاصيل احترقت من الحر وهلكت ، وكان علينا الذهاب لمساعدة جيراننا فى الحصاد . "

التفت ناحية زوجته وقال : " ما - سيبوليللو ، من فضلك أعطنى الطفل ، أود أن أراه " ، أعطته الجدة الطفل ، تلقاه الجد وقبل خده وقال معلقاً : " ياله من طفل زاهوسى وسيم ! إنه يشبه قومه ، إنهم قوم رائعو الشكل ، أما لون بشرته وفتحة أنفه ، فهما صورة طبق الأصل من أمه . "

تدخلت " ما - سيبوليللو " مقاطعة " را - سيبوليللو " : " الطفل الذى كنا نسعى له وصل معها ، وها نحن أولاء نراه لأول مرة ، ألا يوجد أى حيوان نذبحه ترحيباً بهما فى بيتهما ؟ هذا الطفل زعيم فى موطنه ، لذلك يجب أن يعامل بتبجيل . "

" نعم ، إنها الحقيقة ، فهو يزور موطنه الأمومى لأول مرة . "

عندما ترك القطيع الـ " كرال (٣٧) " فى اليوم التالى ، استبقى " نخونيلى " الشور الأحمر المنقط ، الذى يقود قطيع " را - سيبوليللو " ،

(٣٧) "الكرال" : القرية فى جنوب إفريقيا ، والكرال أيضا تعنى وحدة اجتماعية ، وتقال أيضاً على " زريبة " للحيوانات الأليفة

وترك فى الساحة الواسعة بالكرال وأرجله الممدودة مقيدة . . . الثور الذى كان عزيزاً جداً على قلب " را - سيبوليللو " حتى إنه كان قد ألف بضعة أبيات من الشعر تعبيراً عن حبه له :

خونيلى ، ثور را - سيبوليللو الأحمر المنقط ،

عندما كان فى أسر باتولكو لم يرحمهم ،

وراح يجأر بصوت حزين ،

من الظلم سماع حيوان " كونيנג " يصرخ فى قرية غريبة ،

صرخاته ، أطلقت القطيع من الأسر .

كان يقودهم عندما دخل قريته ،

ومنخاره مخضل . . حيوان " سوتو " المعبود .

بعد ذبح وسلخ الثور ، قطعه الرجال للشواء إلى قطع صغيرة .

جذبت رائحة شواء لحم الثور اللذيذة المارة إلى الساحة الواسعة ، ذلك لأن الثور كان يرعى فى مراعى غنية ، فصار سمينا حتى حافره .

راحت النساء يعملن بين القدور بهمة ، طبخن نصف الحيوان ، لأن

فى بيت " را - سيبوليللو " عدداً كبيراً من الأطفال ، وبينما كانت " ما

-سيبوليللو " تغرف اللحم فى الصحن وتوزعه حسب العُرف المتبع ،

نادت على ابنتها كى تريها الصحن وتعطيها النصائح والأوامر بشأنها .

" ابنتى ، انتبهى جيداً ، هذا الصحن يخص الرجال فى " الخوتلا (٣٨) ، وهذا لوالدك ، وهذا لك ، وهذا لى ، وهذا الأخير للنمل الذى يملأ بيت أمك . . . للأطفال ، أمل أن ينفذ كل شيء بالضبط . سأذهب لتنشق السعوط عند " ما - بوتسان " ؛ تلك المرأة التى تسحن وتصنع سعوطاً جيداً . "

" حسناً يا أمى ، سوف أتبع ما قلته بالضبط ، " عينت سيبوليلو كل صحن كما حددته أمها ابتدأت بصحن الأطفال ، وانتهت بصحن الرجال فى الـ " خوتلا " . "

ذهبت السيدة العجوز ، وغابت لوقت طويل فى بيت صديقتها ، ثم عادت بعد فترة .

" كنت أظن أننى سأعود سريعاً ن ولم أعرف أن " ما - بوتسان " ستؤخرنى بحكاياتها الكثيرة ، لقد سعدت عند سماعها بوصولك ، وقالت أنها سوف تأتى غداً لترحب بك ، لأنها اليوم مشغولة فى جدل حشية لزوجها أبنتها التى فى المخاض "

" ابنتى ، هل أكلت نصيبك من اللحم ؟ "

" لا يا أمى ، لقد أكلت توتاً لحم دجاجة سمين جداً أحضرته عمى " مزيلى " ، سوف أكل نصيبى من اللحم بعد إرضاع الولد . "

(٣٨) " الخوتلا " : مجلس استشارى للقبيلة ، يرأسه زعيم القبيلة عادة ، ويضم مستشاريه من كبار السن والأعيان ، منوط به تصريف زمر القبيلة أو العشيرة ، يشبه المجالس العرفية فى بلاد المجالس العرفية فى بلاد العرب .

قالت الأم : " إذن إحضري صحنى ، أريد أن أكل لحمًا كثيرًا حتى أشبع . تعلمين أننا لا نذوق اللحم إلا عندما يكون عندنا ضيوف مثلك فحسب "

ولأنها لم تذوق اللحم منذ زمن طويل ، ابتلعت القطع الغليظة دون مضغها جيداً . وكان باقيا قطعة غليظة من اللحم يغطيها الدهن ، فجأة سمعوا : " إه ، إه ، إه ، إه ، إه ، إه ، إه " ، وزاغت عينا " ما -سيبوليلو " فى محجريهما .

استدعى "را - سيپوليللو" على وجه السرعة من "الخوتلا" .

١٠ "سأل ما الأمر؟ ماذا حدث؟"

■ لا ندري يا أبي ■

" أسرع واستدع الطبيب ، قل له أن يأتي حالا " ، لكن قبل أن يصل الرسول إلى مكان الطبيب ، كانت الروح قد فارقت الجسد .

" يقول الطيب إنه قادم " وبينما الرسول مازال يتكلم ، قال آخر : " هاهو ذا العجوز " مامبورو " قادماً ببطء يعرج . . . "

"مامبورو" الطبيب العراف صاحب الخبرة الشهير ، يعرفه ،
ويحترمه الجميع كثيراً لإنجازاته التي أذاعت صيته .

« ما الأمر ؟ »

أجابه شخص ما: "سنعرف منك ما حدث"

أخرج "مامبورو" صرة من حقيبته ، وقام بحلها ، ثم أخرج منها
الـ "سيروكولو" ، وقطع منها قطعة بأسنانه ، ومضغها ، ثم قرع بها على
عظام كانت بين يديه ، ألقى بالعظام على الأرض ، ومكث صامتًا بضع
دقائق ، وراح يتفحصها طوال الوقت ، ثم تلى تعويذة :

" فالفلافا تابعة راخاتوى ،

تلك المعلقة على شفا كارثة مع فأر الحقل الرضيع ،

المُروحون الذين يحركون ما لا يتحرك ،

ادفعيهم للأمام حتى يظهروا ،

حكاية السحرة التى لم تنفض قط ،

فقط " مامبورو " " التسوانى " هو من يكشف مثل هذه الأمور .

هاهو ذا قرد ينزل من على سطح بيت ،

قل لى أسماءهم واحداً واحداً ، دعنا نسمع . "

" مامبورو ، إنهم لن يكونوا من خاصتى ، لا يُتعاطف أبداً مع من يقتل نفسه ، " ما - سيبوليللو " قتلت نفسها ، امرأة معينة أعطتها لفيفة سُم صغيرة ، هاهى ذا تلك المرأة ، تشير العظام إليها ، قردتان تتحادثان .
ها هما ذان وجهاهما متقابلان وهما تتناقشان .

المرأة العجوز ، " ما - سيبوليللو " ، أمرت بقتل شخص ما ، كى يتسنى لها الدخول لمهنة السحر وذلك باستعمال أجزاء جسم القتيل ، وقد تسبب هذا الدواء فى مقتل " ما - سيبوليللو " .

بعدئذ جمع " مامبورو " عظام الحيوانات الميتة ، التى يتنبأ عن طريقها بأمور الحياة ، حياهم جميعاً قائلاً : " أترككم على خير " ، ورحل .

عاد " مامبورو " لبيته وترك الناس مصعوقين من الحزن ، وقد قال شخص ما ملاحظة : " أليس من المستحسن استدعاء طبيب آخر .

" لم تكن سيبوليللو تعير الأمر أدنى اهتمام ، وراحت تطحن أحجار المغرة الحمراء .

نادت على أختها : " تالين ، أعطني 'السيابيلو' الموجود فى البيت كى أخلطه مع دهن ثور أبى ، فأنا أعده حتى أدهن به جسمى ، أريد أن يعرف الجميع أننى فى بيتى الآن . "

تعجب كل الحاضرين من تصرفها .

فى أثناء ذلك ، انتفخ جسم الميتة وتغير لونه ، وأصبح أخضر مثل طحالب الماء ، الفم مفتوح عن آخره وقد علاه الزبد ، وتدلى اللسان مثل لسان كلب بعد صيده حيواناً فى وقت القيظ ، والعينان بارزتان مثل عيني تلك البومة التى كانت بين فروع الأشجار الكثيفة فى وضوح النهار ، كان " را - سيبوليللو " خجلاً من تصرفات ابنته .

قال : " إنك تخجليننى حقاً ، نحن فى حزن شديد ، ومصدومون لموت أمك ، وأنت تبدين وكأن شيئاً لم يحدث . "

" أبى ، يؤلمنى حقاً أن ترانى مخطئة ، لا أظهر الاحترام الواجب ، لكن إذا عرفت ما أعرفه ، ما قلت لى هذا الكلام . "

" ما هذا الذى تعرفينه ؟ أخبرينا به حتى نسمعه ونقدره . "

" الأباء والأمهات ، أصغوا إلى جيداً حتى تفهمونى ، إنكم تستدعون الأطباء وليس لديكم أية ثقة بهم ، ومع أن البعض منهم غير أهل للثقة ، إلا أن اليوم ، هذا الطبيب بالتحديد قد ذكر الحقيقة التامة ، لقد اتصلت به أرواح الأجداد ، تلك الأرواح التى تعيش فى ذلك المكان والتى لا تحمل ضغينة أو شر ، وبينت له علامة "

ساد صمت قاتل ؛ حتى الذين يكون جففوا دموعهم وأنصتوا باهتمام وراحوا يتابعون كلام "سيبوليللو" فى تبريرها عدم اهتمامها غير اللائق بموت أمها ، واصلت "سيبوليللو" الحديث بصعوبة كأن الكلام ينتزع منها انتزاعا .

أكملت حديثها قائلة : " تركت بيت حماتى قرب موعد النوم ، حين عبرت نهر "ليخلاتين" عند منتصف الليل تقريبا ، وعندما اقتربت من الشجرة الضخمة عند النهر ، ومن ناحيتنا ، سمعت غناء وقرع طبول ، وقفت ساكنة وأصغت السمع ، ثم رأيت موكباً كبيراً من الرجال والنساء قادماً على الطريق ؛ وكان واضحاً أننا ستقابل ، فقلت لنفسى : "يا شجرة ، ستكونين أبى وأمى اليوم ، " تسلقت الشجرة ، ووجدت بها مكاناً صالحاً لى بين الفروع ، فاستقررت به ووضعت طفلى بحجرى ، كنت أظن أنهم قد يمرون إلى مكان بعيد عن مكانى ، إلا أنهم انحرفوا وجاءوا مباشرة إلى الشجرة حيث كنا مختبئين ، كنت فى الواقع ميتة من الخوف ، هؤلاء الرجال والنساء ، الذين كانوا فى طليعة الموكب كانوا عرايا ، وكى يبعدوا عنهم الشعور بالخجل ، أدوا كل أشكال السحر . شاهدت العصوين القصيرين اللذين يداران مثل المروحة على الناس ، لتويمهم أو لإيقاظهم ، وسمعت أيضاً التعليمات التى قيلت بخصوص كيفية استعمال هاتين العصوين ، لكننى سمعت أكثر من ذلك بكثير .

" وبعد وقت طويل تكلمت امرأة وقالت : أنت يا "ما - سيبوليللو" تريدن تلقن أسرار مهنة السحر ، إن السحر ليس لعبة ، أنه يتطلب التضحية بحياة شخص ، ثم سلمت أمى صرة صغيرة وهى تقول : " إن من يسعى لهذه المهنة عليه أن يهئ نفسه لتقديم تضحية كبيرة . . . حياة بكرهه هى الأساس المتين ، يجب أن تأكل "سيبوليللو" ، وسوف نأتى بعد

دفنها ونبش قبرها فى الليل ، ونستعمل الأجزاء المستقطعة من جسدها لنبدأ معك طقوس الدخول لمهنة السحر ، إذا اتبعت تعليماتى ، دون خطأ واحد ، فإننى أؤكد لك أنه لن يُعرف مطلقاً سر ما حدث . ها أنا ذا أمامك ، لدى حتى الآن أكثر من مائة وثلاثة وأربعين ضحية تحت الأرض ، ومدة زواجى ثلاثة وأربعين عاماً فقط ، ولم يشم هؤلاء الأطباء العرافون المشهورون رائحتى ، أو يكتشفون أعمالى ، لماذا ؟ لأننى اجتزت طقوس هذه المهنة ، لأنى ضحيت بابنى البكر "مويتسيبى" ، ذلك الطفل الذى كنت أحبه كثيراً "

" صديقتى ، أرجو أن تكونى تابعت وفهمت ما قلته جيداً . "

ثم اختفت الجماعة وتفرقت عندما تبول ابنى من فوق الشجرة . رحلوا بسرعة ، بينما جلست أفكر ملياً ، وتساءلت عما شاهدته وسمعته . وحين رفعت بصرى رأيت هيئة إنسان قادم مسرع على الطريق ، وصلت امرأة إلى المكان الذى كنت به ، بحثت عن شىء تحت الشجرة ووجدته ، بعد ذلك جرت وتبعت الجماعة ، لقد عرفت من كانت هذه المرأة من هيئتها وصوتها .

بعد اختفاء تلك المرأة ، سألت نفسى أسئلة كثيرة ، ثم رحت فى غفوة أنا وابنى ، عندما أيقظته كان الفجر قد بزغ ، نزلت عن الشجرة ، واتخذت الطريق إلى موطنى حتى وصلت لبيتى بمجرد أن غربت الشمس عن الأرض . لن أزعجكم بحكاية ذبح "خونيلي" التى تعرفونها جميعاً ، فاللحم كان قد أُعد وتم طبخه ، وبعد تقسيم اللحم ، استدعتنى أمى ، حين كنت مشغولة فى أعمال البيت ، لترينى ترتيب الصحون . قالت إنها

سوف تذهب إلى بيت "ما - بوتسان" لاستنشاق بعض السعوط ، وقد أنهت حديثها بهذه الكلمات: " يا ابتى ، أرجو أن ينفذ كل شيء بالضبط " .

حسنا يا أمى سينفذ كل شيء بالضبط . ورحلت أوزع الصحنون واحدا تلو الآخر ، وأشارت لكل صحن بإصبعي ، فهذا للأطفال وهذا للرجال فى الـ " خوتلا " وقالت لى أمى : " لن تكونى ابتى التى ربيتها إذا ما اخطأتى توزيع الصحنون " .

أخيرا عادت أمى من عند صديقتها وقالت لى: " ابتى ، هل أكلت نصيبك من اللحم ؟ من فضلك أعطينى صحنى حتى أشبع شوقى الشديد له ، فأنت تعرفين أننا لا نأكله إلا عندما يكون لدينا ضيوف مثلك " هذا ما حدث ! الآن ترون نتيجة الصرة الصغيرة التى التقطتها أمى من تحت الشجرة . هل مازلتם تصرون على أن الطبيب العراف كاذب ، وأنه يجب استدعاء طبيب آخر ؟

واصلت "سيبوليللو" الحديث: " أستطيع التعرف على بعض أولئك الرجال والنساء الذين كانوا ضمن "جماعة الليل" ممن يعيشون فى قريتنا ، بل ويمكننى أن أسميهم بأسمائهم عند الضرورة ، أما أغلبية الرجال والنساء فكانوا من القرى المجاورة . "

كانت المرأة التى ذهبت إليها "ما - سيبوليللو" لاستنشاق السعوط ، وأولئك الذين كانوا ضمن الجماعة فى تلك الليلة موجودين ، وقد شعروا بتأنيب الضمير ، وحسبوا أن أسماءهم سوف تعلن على الملأ . أولئك خفضوا عيونهم ولم يستطيعوا النظر لوجوه الحاضرين .

كان "أبو - سيبوليللو" رجلاً ذا مكانة ؛ مهيباً ومحترماً في القرية وفي البلاد ، فقد كان مستشاراً في "خوتلا" للزعيم "ثولوان" ، أصبح مشوش الذهن بسبب الكارثة التي حلت به ، ومع ذلك كان مضطراً لأن يبلغ الزعيم بما وقع ، قال : "سينوكوان ، أسرع إلى الزعيم ، وأخبره بأنني أرسلتك لتطلعته على موت "ما-سيبوليللو" المفاجئ ، ومن الضروري أن تحكى له كل الحكاية مثلما روتها "سيبوليللو" .

كان الزعيم "ثولوان" زعيم "تالجو الصغرى" يسكن في "مفاران" ، زعيماً ذائع الصيت ، ليس فقط لمآثره في الصيد ، بل وأيضاً لحكمه بالعدل تبعاً للقانون في "خوتلاه" ، وقد كانت حالات المراجعة والاستئناف من قراراته نادرة جداً .

رحل الرسول بسرعة بالغة ، لأن الجثة كانت في حالة سيئة بالفعل . وقد أجبرت الناس على ترك الكوخ ، ولحسن الحظ وجد المستشارين مجتمعين في الخوتلا للاستماع للدعوة .

رفع الرسول يده بالتحية للزعيم قائلاً : "موتنج !"

بعد قليل همس أحد المستشارين في أذن الزعيم ، وأخبره بوجود رسول في الخوتلا ، فتأجلت الدعاوى لبعض الوقت .

"أيها الزعيم ، لقد أرسلني إليك "را-سيبوليللو" لأنقل إليك نبأ وفاة "ما-سيبوليللو" المفاجئ" .

سأل الزعيم : "متى حدث ذلك ؟ لقد شاهدنا "ما - سيبوليللو" مرة إلى جوار بيت "مابوتسان" ، وشاهدناها وهي تدخل من باب البيت"

"أيها الزعيم ، لقد ماتت آخر النهار ، فور عودتها من عند مابوتسان ، ولكي يعرف الزعيم الموقف على حقيقته ، أمرت أن أحكى ما حدث بالتفصيل . لقد وصلت "سيبوليللو" عند شروق الشمس إلى البيت ، قادمة من موطن أهل زوجها ، وقدمت لنا تفسيراً كاملاً لموت أمها" .

ثم راح "سينوكوان" يروى حكاية "جماعة الليل" وما حدث تحت الشجرة قرب نهر "ليختلان" ، وكل ما رآته وسمعته "سيبوليللو" هناك . ووصف كيف ذُبَحَ "خونيلى" ثور "را-سيبوليللو" ، وطُهِى اللحم ، وغُرِف الطعام تبعاً لأوامر الأم المتوفاة ، كما أخبر الزعيم بما قاله الطبيب "مامبورو" ،

الذى كشف الأمر عندما ألقى عظام العرافة والتنبؤ ، وكيف أن ما قاله إتفق مع الرواية التى روتها "سيبوليللو" بعد رحيله

قال الزعيم : "أخبر "را - سيبوليللو" أننى تلقيت الأخبار المحزنة ، وأعبر له عن تعاطفى معه ومع عائلته ، ومع كل أقارب دمه ، ومع ذلك ، فإن جثة تلك الكلبة ، تلك الساحرة قاتلة شعبى ، يجب أن تسحب على الأرض ويلقى بها بعيداً على قمة الرابية التى تشرف على القرية ، إلى أن تنهشها النسور ويُشبع أكلو اللحوم جوعهم منها ، ولا يدفن جسدها بالطريقة المعتادة ."

رغم أن أوامر الزعيم كانت مؤلمة ، إلا أنهم كانوا مضطرين لتنفيذها .

أمرا - سيبوليللو "سينكوان" : "أربط الجسم بالحبل وأسحبه ، ثم ألقِ به بعيداً فوق تلك الربوة ."

قال سينوكوان: " ما من طريقة لربط الجسم وسحبه على الأرض لأنه قد تحلل ، الحل الوحيد هو حمل الجسم على عارضة خشبية ، مع أننى أعرف أن هذا مخالف لأمر الزعيم "

قال صاحب الجثة: " احملها إذن وسوف أتحمل العواقب " .

تبادلوا حملها بالدور ، كانت المتوفاة امرأة بدينة و ضخمة ، وضعوا الجثة فى المكان المحدد وتركوه مهجوراً .

عندما رحلوا ، شاهدوا النسور تحلق عاليًا فى الجو ، وبمجرد أن دخلوا القرية كانت الطيور الجارحة تجثم فوق الجثة ، منتظرة وصول النسر "موريناتلاك" ، ملك النسور، ذى الرأس الأصلع ، ليفتح الطريق أمام عوام النسور كى يشبعوا جوعهم وصل النسر الملك ، وتقدم من الفريسة ، جذب إحدى العينين ، ثم الأخرى ، وهكذا أعلن عن افتتاح الوليمة . فى طرفة عين لم يبق شىء من الجثة سوى الهيكل العظمى ، وشكلت الضلوع ما يشبه القفص الذى يمكن أن يبنى النحل فيه خلية بسهولة ، وكان منظر تجويفى العينين يشير الرعب فى نفس من ينظر إليهما .

أخافت كلاب القرية الطيور الجارحة وأبعدتها ، ثم تحركت فوق الجثة وهى تقضم ما تبقى بالهيكل العظمى من لحم ، أبعد الصبية رعاة القطيع الكلاب عندما وصلوا بالماشية والغنم من المرج عند الغروب ، بعد حلب الماشية ، وإدخال العجول الزرائب ، أمسكوا الهيكل العظمى بسياطهم وسحبوه إلى البركة الكبيرة ، التى عادة كانوا يسقون قطعانهم منها.

فى اليوم التالى ، وجدت كل الكلاب التى كانت تنهش فى الهيكل العظمى ميتة ومتحللة، وتساقط اللحم من أحشائها عند لمسها .

أُرسل رسول إلى جبال "متلاكنج" لمعرفة حال النسور .

ترك أحد الرحالة "توتيسنج" إلى "بايتسنج" ، عندما وصل "خوتلا" "مَفَرَّان" ، كان منفعلاً جداً ، لدرجة أنه نسى العادات المتبعة عندما يقابل الرجال بعضهم البعض لأول مرة ، قال : " عندما مررت بقرب متلاكنج ، شاهدت منظرًا غاية في الغرابة ! هناك ، عند سفح الجبل كانت العشرات والعشرات من النسور ميتة ، يبدو أنها سقطت متدحرجة من على جانب الجبل ، وبأعلى المنحدرات ، رأيت الريش وأجزاء من الأجنحة التصقت بجانب الجبل . وكانت الرائحة غير محتملة ، لقد سافرت بطول وعرض البلاد ولم أر شيئاً مثل هذا قط "

قال "تسو" أشهر صيادي "مَفَرَّان" : " إن الذى قتل هذه النسور هو الذى قتل كلابنا ، لقد فقدت أجمل كلب لدى . كان يدعى "فافم" ، وكان يتعقب الطرائد ، وقد كلفنى سبعة أغنام دفعتها للزعيم ، لم أر فى حياتى مثل هذا العداء السريع ، لم يكن يجرى ، بل كان يطير ، كان يطعم أسرته ، فلم تبت يوماً بلا لحوم ، كلما خرجنا للصيد ، كنت اعتبره مثل بندقيتى ، أننى أعانى من خسارة لا تعوض ، أن القوة السحرية لتلك المرأة كانت سماً قوياً ، مثلما أرادته أن يكون ، وأخشى أن يُبِيد الناس ، لو كنت الزعيم لكنت لأجبرت "سيبوليلو" على ذكر اسم تلك الساحرة ولقتلتها " تجول الرحال فى القرية ، وتطلع إلى حيث ترقد الكلاب الميتة متعفنة ، عندئذ عرف سبب موت النسور .

قال : " أتفق معكم ، يجب عليكم أيها الرجال أن تجعلوا الزعيم يدرك مدى الخطر الذى يهدد قبيلته " .

عندما عاد الرسول الذي كان قد ذهب للجبال ، لم يكن قادراً على وصف بشاعة موت النسر ، وبشاعة الرائحة المنبعثة منها .

قال : " لقد أحصيت عشرين نسرًا ميتًا ، بما فيهم زعيم النسر العظيم " موريناتلاك " ، الذي كان يرقد برأسه الأصلع بين أتباعه .

قال " تسو " وقلبه يتوجع عندما تذكر كلبه المحبوب " فافم " ، وكل ما أصاب القرية منذ أن عادت " سيبوليللو " لوطنها : " كل هذه الطيور المسكينة ، وزعيم هذه المخلوقات ، وكلابنا ، كلهم بلا شك ضحايا ما-سيبوليللو . "

مَدَّةُ فِي الْقَرْنِ

تأليف : د. ب. ز. نتولى^(٣٩)

الأبناء، والأحفاد، وأبناء الأحفاد ، جلسوا على العشب في الظل ، كانوا جميعاً يحملقون متوقعين شيئاً من " ما - ماسومي " ، السيدة الطويلة العجوز جداً، جلست وأومات لهم بعينيها الدامعتين الرماديتين ، كان وجهها شبكة مختلطة من الخطوط والتجاعيد، وعندما ابتسمت ، كشفت عن سنة وحيدة ، كان لديها كل الحق لكي تبتسم هذه الابتسامة العريضة ، لأن أبناءها قد رتبوا حفلاً رائعاً للاحتفال بما قُدر أنه السنة المائة من حياتها على هذه الأرض .

" أبنائي ، ماذا تريدون ؟ أتريدون أن أحكى لكم حكاية أهم حدث وقع لي خلال هذه السنوات المائة التي عشتها ؟ "

أعلن أبنائها الكبار ، الذين رتبوا للحفل ، موافقتهم في حماسة ، فهم يعرفون أن في حياة أى إنسان عاش مائة عام ، حدثاً خاصاً بعينه ربما يتميز عن الأحداث الأخرى التي مرت في العمر ، قال أحد الأحفاد : " جدتى ، لا تحكى لنا حدوتة ! "

(٣٩) ترجمها إلى الإنجليزية عن لغة "الزولو" : ث.س.ز. نتولى .

"أبنائى ، ليس هناك تجربة حقيقية لم أحك لكم عنها ، لقد حكيت لكم كل شيء استطعت تذكره ، إذا كنتم تريدون قصة ، دعونى أحك لكم حدوتة ،"

"لا يا جدتى ، من فضلك ! أحكى لنا قصة حقيقية - شيئاً ما وقع لك بالفعل - لا يهمنا حتى إذا كان البعض منا قد سمعها من قبل ، سوف تكون جديدة بالنسبة للكثيرين منا على الأرجح ، من فضلك يا جدتى ، الحدث الأهم الذى وقع فى حياتك"

توقفت السيدة العجوز عن الابتسام ، وقطبت غضون جبينها : "حسناً يا ولدى، هذا حقيقى ، مع أننى حكيت لكم الأحداث الهامة تقريباً فى حياتى ، إلا أن هناك حدثاً احتفظت به طوال السنين ، قلت لنفسى : إننى سوف أحكى قصة هذا الحدث إذا أراد الخالق لى أن أعيش طويلاً جداً ، حسناً ، وأنتم تقولون : إننى عشت طويلاً جداً ، إذن ، ربما يكون قد حان الوقت لأروى القصة ، إنها قصة التجربة الأكثر رعباً التى مررت بها فى حياتى ، حاولت دائماً ، وبجدية، أن أنسى تلك التجربة المخيفة ، لأننى كلما فكرت فيها أصاب بالرعب تماماً ، فقد كنت أخشى أن يحدث كل ما حدث مرة أخرى ، مثلما حدث فجأة فى ذلك المساء البشع ، منذ زمن بعيد . . . بعيد"

تنحنحت السيدة العجوز بتمهل كى تجلو صوتها ، ومرت على تجاعيدها بالمنديل الجديد ، ثم راحت تحديق باضطراب فى الوجوه المضيفة المتألقة حولها ، كانوا كلهم آذاناً صاغية وعيوناً متنبهة ، حتى الصغار بين أذرع أمهاتهم سكنوا كأنهم مقدرين لفرق السنوات بينهم وبين السيدة العجوز .

" حدث ذلك بعد أن أصبحت واحدة من عائلة "مالنجاني" بوقت قصير ، أعتقد أنه لا يجب أن أخبركم بهذه القصة ؛ لأننى إذا حكيتها قد لا تنامون الليلة جيداً . "

صاحت كثير من الأصوات الصغيرة جمعياً : " لا يا جدتى ! من فضلك أحكى لنا القصة ، لن نخاف ، "

قطبت جبينها مرة أخرى ، هذه بالتأكيد ليست مجرد واحدة من الحكايات الفاتنة التى كانت تحكيها من قبل ، لابد من أنها قصة فريدة ، لأن الجدة لم يكن من عاداتها أن تتوسع فى حديث ملفت حتى تصل لحكاياتها ، ساد الصمت تحت الشجرة ، ولم يقطعه إلا الحفيف الرقيق لأوراق الشجرة .

" لم يكن "مالنجاني" فى البيت ذلك اليوم ، وكانت البنت الصغيرة التى جاءت معى يوم زفافى قد خرجت لجمع الحطب ، كنت وحدى تماماً أغنى أغنية مثلما كنت أغنى فى بيت أهلى ، فجأة اقشعر بدنى ووقف شعر رأسى ، قلت لنفسى . . إنه لا شىء ، ثم وقف شعر رأسى مرة أخرى ، تقلصت كل فروة رأسى وصارت باردة ، كل شعرة فى رأسى وقفت منتصبه لآخرها ، توقفت عن الغناء ، وانتشر الخدر فى كل جسمى ، شعرت بعدم الأمان فى الكوخ ، كأن كائناً مهلكاً على وشك الانقراض على ، أبعدت المكنسة التى كنت أنظف بها الأرضية ، نظرت حولى ، هل استطاعت حية أن تنسل للداخل الكوخ؟ لا ، لم تكن هناك حية ، إذن ، هل كان هناك شىء يطاردنى خلسة من الخارج ؟ ذهبت إلى الباب واختلست النظر إلى الخارج ، لم يكن هناك شىء أمام الكوخ مباشرة ، نظرت يمينا ، لا شىء هناك ، ثم نظرت يساراً ، و . . . كان الشىء هناك ! منذ ذلك اليوم

البعيد يا أبنائي ، وأنا لا أفهم لماذا لم أسقط ميتة عند مدخل الباب ؟! لقد كان الشيء هناك ، واقفاً ساكناً تماماً ، مثل مامبا^(٤٠) سوداء تقف متحفزة للانقضاض... "

" جدتي ، ماذا كان ؟ أسد ؟ "

" لا يا بُنى ، بل شيئاً مرعباً إلى أقصى حدود الرعب ، كان رجلاً أسود عملاقاً ! "

" كان أسود بلون القار ، يلبس جلد أسد فقط ، ويحمل نبوتاً ضخماً في يده اليسرى ، لم يتحرك ، لم يتكلم ، كان يحملق فيّ فحسب ، مغضباً وعيونه واسعة مثل عيون الثور الواقف هناك ، كنت مرعوبة ، خطوت خطوة للخارج ، ونظرت بعيداً عن تلك العيون للحظة حتى أرى إن كان هناك أى إنسان يمكن أن يسمعني إذا صرخت ، كأن العالم كان مهجوراً ، فكرت في أن أجرى هاربة ، لكن لمحة إلى تلك الأرجل أقنعتني بأن ذلك الكائن الوحشى سيلحق بى ببضع خطوات واسعة من ساقيه ، كان متين الجسم ، عضلاته الضخمة تتنفخ كأنها ستندفع خارجة من تحت جلده الأسود . "

" أبنائي ، لقد رأيت تلك العضلات بوضوح عندما راح ذلك الكائن البشع يتحرك ناحيتى ببطء ، اقترب ، حيثئذ لاحظت إلى أى حد كان بشعاً ، لقد كان مسخاً بشعاً بلا أية قسَمات ، اقترب منى بكل قبحة اللزج المثير للغثيان ، ارتعشت ، أردت أن أصرخ ، توقف على بضع خطوات منى فقط ، راح يحملق فىّ ، كان قفص صدره يرتفع وينخفض ، انتبهت حيثئذ لصوت تنفسه العالى . "

(٤٠) أفصى إفريقية سامية .

"فتحت فمى كى أصرخ ، لكن لرعبى الهائل ، لم يخرج صوتى من حنجرتى ، توقفت ورحت أحملق فى الرجل الأسود ، دق قلبى بعنف ، للحظة حولت نظرى بعيداً عن عينيه ، وفى تلك اللحظة صرعتى بضربة من نبوته"

"عندما استعدت وعيى ، التقطت أذناى صوت هدير مطرد ، فتحت عينيّ ، كان ستار من الماء الأبيض الثلج يندفع بعنف من فوق قمة جرف عال ، ويغوص بهدير داخل بركة واسعة عند قاع الجرف ، كنت أرقد قرب شلال ، والوقت حينئذ كان بعد غروب الشمس ، حاولت النهوض ، لم أستطع ، فكل جسمى كان يؤلمنى ، ثم سمعت نقيق الضفادع على مسافة بعيدة عند مجرى النهر ، واستطعت أن أرى دغل البوص والأرض السبخة ،

حاولت التعرف على المكان ، لكننى لم أستطع التعرف عليه ، سألت نفسى لماذا أنا هنا؟ ثم تذكرت . . . الرجل الأسود ا هو آخر شىء كنت قد رأيته . وعندما فتحت عينيّ ثانية - الآن أصبح تفكيرى صافياً تماماً - رأيته ، كان جالساً على حجر يحملق فىّ ، مثلما فعل قبل أن يضربني ، كنت مروعة ، وفكرت فى "حمواى" ، فكرت فى أبى وأمى ، فكرت : "ماذا لو وجدونى هنا ؟ ما الذى سيلحق بسمعتى ؟"

"جلس الرجل هناك ينظر إلىّ فحسب ، بل لم تطرف عينه ، أظلم المكان تدريجياً ، لم أسمع أية ضجة فيما عدا نقيق الضفادع وهدير الشلال ، لم أر سوى سقوط الماء الأبيض والرجل الأسود ، حاولت أن أنهض ، لكننى لم أستطع تحريك أى طرف من أطرافى ، شعرت كأن كل جسدى مشلول ."

" ثم ، رأيت هيئته واهية فى ظلمة الليل الزاحفة ، ظل الشلال يهدر برتابة حتى أصابنى الدوار ، رحت أشجع نفسى حتى لا يغشى علىّ ، راودنى أمل فى أن يغلب النوم أسرى ، نظرت ناحيته ، فربما يكون قد نعس بالفعل ، كاد قلبى يقفز إلى حلقى ، فقد كانت عينا الرجل الأسود الآن متقدتين مثل جمرتين ، أدركت حينئذ أن ورطتى أشد مما كنت أظن ، مرة أخرى حاولت النهوض والصراخ لطلب النجدة ، لكن بلا جدوى ، "

" الشلال الهادر صار رمادياً فى الظلمة ، العينان الناريّتان ما زالتا تحمقان نحوى ، صارت الجمرتان بالتدريج شعلتين ساطعتين تضيئان كل المكان أمام الرجل الأسود ، ورأيت ركبتيه " وبينما كنت أحاول بكل جهدى التفكير فى طريقة للهرب ، سمعت ضجيجاً آخر غيره ونبوته . "

صوت الشلال ونقيق الضفادع ، كانت أصوات كثير من البشر ، ارتفع الضجيج تدريجياً ، وعرفت أن الناس يتقدمون أقرب فأقرب ، كلما علت الأصوات ، كلما زاد الدوار الذى أصابنى ، أحسست كأننى أتأرجح فى الجو ، والآن سمعت ما كان يغنيه هؤلاء الناس ، رحت أنصت كأن حياتى تتوقف على سماع جوقة المنشدين المقترين ، أصوات أطفال ! كانوا يغنون ويصفقون بأيديهم على الإيقاع ، رحت أنصت ، التقطت كلمات الأغنية الغامضة :

هاسيسى ، هاسوسا ،

شيا شيا هاسيسى ، هاسوسا ،

كويا خويا ، هاسيسى ، هاسوسا ،

" اقترب الغناء ، لم أر المغنين ، لكننى سمعتهم واقفين من حولى ،
ضجيج الشلال صار أضعف تدريجياً ، بينما ارتفع دوى الغناء :
"هاسيسى ، هاسوسا" .

"فجأة هدر صوت رعدى من المكان الذى كان يجلس به الرجل
الأسود قائلاً : "ما - ماسومى" ، إننا الآن فى حمية العمل ، أنت أيضاً
يجب أن تغنى ، هيا ، الآن!"

"ولدهشتى الكبيرة ، عادت حنجرتى للعمل بالطريقة العادية مرة
أخرى ، وبدأت الغناء مع أطفال غير مرثيين ، فى البداية غنيت بتمهل
وتردد ، ثم التقطت اللحن الذى كان يغنيه الأطفال ، رددته بضع مرات ثم
غنيت كأحسن واحد فيهم ، وبسرعة صرت المغنية التى تقود
الغناء : "هاسيسى ، هاسوسا . . ."

" نفذت الأغنية إلى عقلى ، وقلبى ، وروحى ، غنيتها بكل
أحاسيسى حتى كدت أبكى ، بتُ واعية تماماً لكل ما يدور حولى ، مدركة
تماماً لما أفعله ولماذا أقوم بذلك ، حتى الدوار انتهى ، كان ذهنى صافياً ،
وفكرت فى جدكم ، تساءلت ما الذى سيفعله حين يكتشف اختفائى ،
فكرت فى أن خبر اختفائى لابد من أنه سيتشر بين الجيران ، وأن جدكم
حتماً أرسل رسولا إلى موطنى ، ولابد من أن البحث والتقصى قد بدأ"

" قرأ الرجل ذو العينين الناريتين أفكارى ، زار قائلاً : " لا تقلقى ،
إننى المسئول هنا ، اليوم سوف تتحولين ، سوف أقرر ماذا ستكونين ؟ ،
لن تحتاجى فترة طويلة لتعتادى على العيش بالطريقة التى أريدها ، أريدك أن
تكونى مثل أولئك الذين يغنون ، ارفعى صوتك أعلى ا غنى ، أعلى "

"غنيت بصوتى الحاد ، ثم شرع الرجل فى الغناء بصوته العميق الغليظ ، اقتربت الشعلتان أكثر ، وعرفت ما الذى يعنيه ؟ : كان الرجل الأسود يقترب أكثر فأكثر ، وعرفت من حركة الشعلتين أن ذلك الكائن الوحشى يرقص انطلقت أصوات الأطفال بالغناء فى نشاط متزايد وهم يلقون بتعليق بين الفينة والأخرى إعجاباً بأداء الرجل الأسود ، اقتربت عيناه الناريتان منى جداً ، عندئذ ، لم يعد لدى شك فى أن أيامى فى الحياة الإنسانية الطبيعية قد انتهت فى هذا الليلة كنت سأتحول إلى واحدة من أشباه البشر ، أولئك الذين رفضت دائماً الاعتقاد فى وجودهم ، كانت العينان الناريتان تثقبان دماغى ، بينما كان الشخص المرعب واقفاً منفرج الساقين يغنى فوق جسدى المسجى ، كان يغنى ، وكنت أغنى ، والجميع يغنون : هاسيسى ، هاسوسا ."

"فجأة ، أمسكت بى أيدى كثيرة خشنة ، رفعونى فى وقت واحد عن الأرض ، واستمروا فى الغناء وهم يرفعوننى ، ولم أتوقف عن الغناء ، بينما راح الرجل يغنى فى صخب ، ثم تكلم مرة أخرى : "اسمى بادلوزا ، أنا الذى يغير الأشياء ، سوف تنفذين مشيئتى " ، بعد ذلك راح يغنى ، فكنت أرتفع أعلى . . . فأعلى . . . ، ثم بعد جذبة قوية طرحتنى الأيدى فى البركة ، بمجرد أن لامست الماء ، نزل النبوت الضخم على أم رأسى ، وفقدت الإحساس بالمكان والزمان .

عندما أفقت ، كان جسمى مغموراً فى ماء مثلج ، شعرت بجسمى ينكمش ، ويغدو أصغر فأصغر ، وهم مستمرون فى الغناء : "كوياخويا ، هيا ، هاسيسى ، هاسوسا ."

"آه يا أبنائي ، عندما أقول: إننى عجوز جداً، فإننى أعنى بذلك شيئاً أكثر من العمر الذى يحسب بالسنين ، إننى أشير إلى تنوع، وعمق ، وكثافة التجارب التى مررت بها"

ساد الصمت بين الأبناء ، وأطل التشوق من عيونهم ، رأت "ما - ماسومى" تعبيرات التعاطف العميق ، وطلبوا منها أن تستمر فى الحكى .

"أبنائي، من الصعب الاستمرار، أعتقد أنه لا يجب أن أخبركم ببقية ما حدث لى فى تلك الليلة ، فقد كان شيئاً مرعباً غاية الرعب ، إننى لن أنساه أبداً حتى فى قبرى ، فى الحقيقة، ولأننى لم أمت فى تلك الليلة ، اعتقدت أننى لن أموت أبداً، هناك مظاهر فى الحياة لا يصدقها الإنسان، إلى أن يمسك بالحقيقة العارية لتلك الأشياء ، عندما تسمعون عن الغواصين الذين قضوا فترات طويلة فى قيعان البرك العميقة ، وظلوا يتنفسون ، ربما تعتقدون أنها خرافات نساء عجائز ، ومن السهل أن تهزوا رؤوسكم بالإنكار فى ثقة عندما تسمعون عن أرواح الماء ، أو الجثث التى عادت للحياة وتحولت إلى عفاريت ، لكنكم عندما ... حسناً ، حسناً ا دعونى أرجع للحكاية"

"كان جسدى مغموراً بالمياه المثلجة ، وشعرت به ينكمش ، ثم راح جسمى يأكلنى كأن جيوشاً من النمل الصغير تقضم جلدى ، وعلى الرغم من كل ما حدث فإن عقلى كان ما يزال صافياً، تذكرت ما قاله الرجل الأسود عن كونى تغيرت إلى شىء آخر، وصممت على أمر: إذا كان يعنى أنه يريد تحويلى ، إذن فهو مخطئ خطأ كبيراً، فأنا لست على استعداد للتغير، وسوف أظل كائنًا إنسانياً عادياً ، اشتد القرص على جلدى ،

لم أكن أريد أن أتغير ، فأنا غير مستعدة للانفصال عن "مالنجاني" أبداً !
استمر المغنون فى الغناء ، وبرز فى المقدمة الزئير الغليظ للرجل الأسود ،
وراح الآخرون يلشغون بنشاط وقوة مثلما كانوا دائماً ، إلا أن أصواتهم
صارت مبحوحة ، ثم تحدث الرجل : " ما - ماسومى " ، إنك جوزه صعبة
الكسر ، سأعبر بك الآن للمرحلة التالية ، وسوف تخضعين لمشيئتي . "

" شعرت بالأيدى مرة أخرى ، سحبونى خارج البركة وحملونى
بعيداً وهم يغنون أغنيتهم طوال الطريق ، حملونى إلى كهف واسع ، فى
الضوء الخافت للنار التى كانت مشتعلة بالكهف النتن ، شاهدت كثيراً من
الجماجم البشرية ، وجماجم قرود البابون ، وجماجم الكلاب ، وجماجم
كثيرة لحيوانات غريبة أخرى ، وفى الضوء ذاته شاهدت - لأول مرة فى
تلك الليلة الطويلة - أى نوع من المخلوقات التى تألفت منها جوقة الرجل
الأسود ، كانت هيئتهم هيئة بشرى كل الذكور والإناث بالنظر إلى أجسامهم
يظنهم الواحد أطفالاً ، فقد كانوا جميعاً قصاراً ، لكن رؤوسهم كانت مثل
رؤوس الكبار ، وكان للرجال لحى قصيرة ، وكلهم يلبسون "تنورات" من
القش ، رقصوا وغنوا بحماس ونشاط أكثر ، ومع ذلك لم يعرقوا . "

" وبينما مازلت أتطلع حولى فى ذهول ، دخل الرجل الأسود ، لم
يعد هناك المزيد من النار فى عينيه ، جاء وجلس إلى جوار النار ، ثم راح
يغنى ، مرة أخرى أسر عينيّ إلى عينيه ، وبينما يواصل التحديق فى عينيّ
راحت رأسى تدور مرة أخرى ، الرائحة الكريهة زادت من مشقتى وعدم
ارتياحى ، تحدث الرجل : " ما - ماسومى ، هذه نهاية الطريق ، وكما
تعرفين الآن ، فإن اسمى بادلوزا ، لم يقاومنى أحد قط فى هذه المرحلة ،

هذه هى المرحلة الأخيرة ، " ما ماسومى " ، إنك شخص عنيـد ، وأنا سعيد لأننى استحوذت عليك ، سوف تكونين مفيدة لى جداً ، أنتم هناك ، هيا ارقصوا! غنوا!"

" راحت الكائنات القصيرة ترقص بهمة أكثر من قبل ثم شكلوا صفاً واحداً ، وتحركوا حولى ، وهم يرقصون ويصفقون بأيديهم ، رَجَّع الكهف صدى الغناء ، ودقات الأقدام ، وتصفيق الأيدى : "هاسيسى، هاسوسا" .

" أمسك الرجل شقفة من الشقفات الفخارية المكسورة المحيطة بنا ، ووضع بعض الجمرات فيها ، نثر بعض المسحوق فوق الجمرات المشتعلة ، وتصاعد دخان أزرق من المسحوق المحترق ، أمسك الرجل برأسى وأمال وجهى جهة الأرض فوق الدخان المتصاعد ، ثم أمرنى أن استنشق هذا الدخان ، عندما فعلت ذلك ، أحسست بأن رأسى قد انشق إلى نصفين ، وفجأة حل محل كراهيتى للكهف البشع ، حبٌ متقد لهذا المكان ، أحببت الرقص ، أحببت الرجل الأسود ، وشعرت بكراهية شديدة لجدكم ، بل وتمنيت ألا أراه أبداً مرة أخرى ، ولأول مرة منذ صرعت أمام باب كوخى ، نهضت وانضمت للرقص .

" رقصت كما لم أرقص حتى فى يوم عرسى ، كل ما تمنيته أن أتحول وأكون فى مثل طول الآخرين ، أما فيما يخص الغناء ، فقد كنت ناجحة تماماً وراضية عن نظرى ، ارتفع صوتى الحاد الندىّ عالياً واضحاً ، حين كنت أقود الأداء الأفضل لأغنيتنا الرائعة :

هاسيسى ، هاسوسا ،

شيا شيا ، هاسيسى ، هاسوسا ،

كويا خويا ، هاسيسى ، هاسوسا .

"أبنائى ، تلك التجربة هى أكثر تجاربى التى تستحق أن أذكرها من سنواتى المائة التى قضيتها فى الحياة "

سأل أحد المستمعين : "يا جدة ، ماذا حدث بعد ذلك فى الكهف ؟
إننى أراك ما زلت طويلة جداً ، كيف هربت ؟"

قالت العجوز مبتسمة : "أوه ، أنت وأسئلتك ! حان وقت الطعام ،
أحضر كل الطعام الشهى اللين الذى لا يحتاج أى مضغ ، ثم سوف أريكم
كيف تحتفلون ، لكن احنوا رؤوسكم أولاً ، ودعونى أتفحصها"

انحنى كل الرؤوس أمام العجوز ، صفقت بيديها ، وصاحت :
" كما حسبت تماماً ! الآن عرفت أنه ليس حقيقياً أن تظهر القرون فى رأس
أى إنسان يستمع لحكاية خرافية بالنهار !"

ضحك الجميع .

خارج النافورة

تأليف: دوريس ليسنج

كان يمكننى أن أبدأ القصة بأن أقول : فى يوم من ذات الأيام كان هناك رجل يدعى "إفرايم" عاش فى . . . لكن بالنسبة لهذه القصة ، فقد بدأت بسبب الضباب ، حيث تسبب ضباب باريس فى تأجيل رحلة طيران إلى لندن نحو ساعتين ، ولذلك جلست مجموعة من المسافرين حول مائدة يحتسون القهوة ويتسلون بتبادل الحديث مع بعضهم .

راحت امرأة من "تكساس" تتندر بأنها الأسبوع الماضى كانت قد ألقت بعملات معدنية إلى النافورة فى روما ، أماً فى حسن الطالع ، ومع ذلك ، لازمها سوء الحظ منذ ذلك الوقت ، وقالت الكندية إنها أنفقت مالا كثيراً فى إحدى العطلات ، ومنذ ثلاثة أيام عند النافورة نفسها ، حين لم يكن يراها أحد، حاولت استخراج العملات بمغناطيس ، وقال شخص آخر أنه فى الليلة الماضية كان فى مسرح برلين ، وكان بالمسرحية مشهد لفتاة ترمى النقود على خشبة المسرح ، بإيماءة احتقار كبيرة ، وهذا دفعنا إلى الحديث عن احتقار المال : دوسه بالأقدام ، وحرقه ، أو رميه ، أو أية طريقة طقسية غريبة أخرى تدل على هذا الاحتقار ، ففى الماضى لم يكن يحدث فى الحياة مثل هذه الأفعال ، قالت عجوز من "نيويورك" : ليس بشكل مطلق ، فقد رأت بعينها بعض الصبية من بائعى الزهور يحرقون المال

على الرصيف ، لإظهار احتقارهم له ، وأنها كانت تعتقد أن هؤلاء الأطفال لابد من أن أهاليهم من الأغنياء ، وهذا ما مهد للقصة ، أو بمعنى آخر ، كان الضباب .

إذا وضعنا فى الاعتبار الدور الذى يلعبه المال فى كل حياتنا ، فمن الغريب أن نجد كثيراً من الكُتاب يجعلون شخوصهم تحتقر وتهين أوراق الدولار ، والروبل والجنيه ، ما الذى يجعل جمهور المشاهدين يعودون لمنزلهم ، والقراء يغلقون كتبهم ، وهم يشعرون بأنهم تطهروا من المادة ؟ وأنهم يسمون عليها ؟

بينما قرأنا عن السلاطين الذين كانوا يلقون بالعملات الذهبية إلى الناس ، الذين كانوا يتدافعون عليها فى سعادة ، وأن الملوك كانوا يصدقون الذهب على وزرائهم المفضلين ؛ لذلك إذا كان قد قيل للناس : إن السماء تسقط أحجاراً كريمة ، فلم يكن ليتشكك أحد فى الأمر .

ومن الحوادث القريبة التى يتذكرها أى منا عن مثل هذه التصرفات الملكية ، مكافأة أحد أقطاب الصحافة فى لندن ، لصحفى شاب واعد (عن مقال أعجب به هذا القطب) ، حيث أرسل له مظروفاً محشواً بأوراق البنوك فئة الخمسة جنيهات مع مرسال خاص ، إلا أن مثل هذا التصرف يفتح باباً للتفسيرات الفظة القاسية ؛ ويظهر أيضاً المشاعر العدائية التى تملأ قلوب الزملاء الصحفيين ، ربما الخوف من القيل والقال أثار الرعب فى نفس المتلقى ، وربما يكون هذا هو السبب الذى يجعلنا نقدم تلك المشاهد المسرحية معكوسة ، ويفسر لماذا عندما نكون عند حافة نافورة سحرية ، نسرب عملة ؟! ، كأنها رسالة غرامية فى علاقة يعتبرها الحس الراقى مشينة ، سحر تعاطفى ، لكنه سحر صغير ، سحر مُصغر ، الاستدعاء

الأكثر خفية لآلهة الذهب و إذا ارتفعت يد من النافورة وألقت إلينا
بالمال ، أو المجوهرات ، فالشيء الأكثر احتمالاً - هو أننا نحن الذين
تربينا وثقّفنا بالآداب الحديثة ، سنهزأ من ذلك ، وسنعيدها إلى النافورة -
بالتمام والكمال مثلما يقال .

ثم تحدث الرجل الذى لم يتكلم من قبل وقال : إنه شاهد موقفاً
كانت الجواهر تتساقط على الأرض ، فى أحد الميادين العامة بإيطاليا ولم
يعدها أحد ، وأخرج حافظة من جيبه ، ثم أخرج منها ورقة مطوية مثل
التى يستعملها الصاغة ، وفى الورقة كان شيء يشع ويضوى : كانت
شريحة من الأوبال بألوان قوس قزح واللبن ، قال : أجل ، لقد كان هناك
والتقط كسرة واحتفظ بها ، بالطبع لم تكن نفيسة ، وقال : أنه كان
سيحكى لنا الحكاية لو كان هناك وقت ، فلبعض الأسباب كانت الحكاية
أثيرة لديه ، لذلك لا يريد أن يحكيها بغير إتقان بسبب العجالة ، تكاثفت
دوامات الضباب الناعم خلف الحاجز الزجاجى للمطعم ، وأعلن عن
تأخير الرحلة مرة أخرى ، تأخير آخر لا مفر منه .

لذلك حكى لنا القصة ، ذات يوم قدمنى أحدهم إلى شاب يدعى
" نيكى " - أو سموه ما شئتم - ولد أثناء الحرب العالمية الثانية فى إيطاليا .
كان والده بطلاً ، وأمه الآن زوجة للسفير فى . . . أو قد أصادف فتاة ،
ربما فى أتوبيس ، أو حفل عشاء ، يتدلى من عنقها سلسلة بها لؤلؤة ،
وعندما أسألها عنها ، قد تقول : " تصور أعطى أمى هذه السلسلة رجل لا
يمت لها بصلة ، وعندما أعطتها لى قالت . . . قد يحدث أحياناً شيء
بمثل هذه الطريقة : غير أن هذه القصة لها بداية مختلفة ، ليس سببها
الضباب على الإطلاق .

كان هناك رجلٌ يدعى "إفرايم" ، عاش فى "جوهانسبرج" ، كان والده يعمل فى مجال الماس ، مثلما كان أبوه من قبل ، وكانت العائلة من المهاجرين ، هذه حقيقة مؤكدة عند كل الناس فى "جوهانسبرج" ، المدينة ذات المائة عام ، كان "إفرايم" الابن الأوسط ، ليس حاد الذكاء ولا غيبًا ، ليس طبيبًا ولا شريرًا ، غير مميز ، أصبح أخواه تاجرى ماس ، أما "إفرايم" فلم يكن يصلح لأى شىء مما ذكرناه ، وفى نهاية المطاف أصبح حرفيًا متمرنًا لدى عمه ، راح يتعلم حرفة قطع وتشذيب الماس ، كى تقطع ماسة قطعاً جيداً ، فإن هذا يشبه انغراز سيف الساموراي ، أو تصويب رامى سهام بارع على المركز ، عندما يشكل الرجل ماسة قيمة ، ربما يقضى أسبوعاً ، أو حتى أسابيع ، يدرسها ، ويستجمع كل طاقات الانتباه والتذكر والتخيل ، إلى أن يصل فى النهاية إلى تلك اللحظة التى يعرف فيها ، أن نقرة واحدة على الحجر ، فوق نقطة الجهد المحددة بالضبط ، سوف تفلقها على النحو المطلوب .

عندما كان "إفرايم" يتدرب على هذا العمل ، عاش فى البيت بإحدى ضواحي "جوهانسبرج" ، تزوج إخوته و أخواته وكونوا عائلات ، أما هو فكان الابن الذى يتروى فى موضوع الزواج ، وهو الذى كانت الأسرة تطلق عليه النكات - أنه مدقق صعب الإرضاء - ثم كفوا عن ذلك عندما راح الآخرون يتحدثون عنه بتلك اللهجة القاسية ، الغضبية ، مع بعض الخبث ، بل والخوف الذى يسببه هؤلاء الرجال والنساء الذين يرفضون تحقيق الأغراض العادية للطبيعة ، أما الطيبون فقالوا: إنه ابن بار ،

يعمل بهدوء تحت إشراف عمه "بن" ، ويعيش باحترام فى البيت ، وفى ليال الآحاد يلعب "البوكر" مع أصدقائه من العُزَاب .

أصبح فى الخامسة والعشرين ، ثم الثلاثين ، ثم الخامسة والثلاثين ، ثم الأربعين ، وصار والداه عجوزين ، وماتا ، فعاش وحده فى بيت العائلة ، وكف الناس عن ملاحظته ، فلم يعد أحد يتوقع منه شيئاً .

ذات يوم مرض الرجل الأول فى العمل ، فطُلب من "إفرايم" أن يحل محله فى السفر إلى الإسكندرية فى مهمة خاصة ، فقد اشترى تاجر ثرى من الإسكندرية ماسة غير مشذبة هدية لابنته ، التى سوف تتزوج قريباً ، وكان يرغب فى أفضل تشذيب للماسة ، وقد توج "إفرايم" بعد هذه الزيارة، كواحد من أساتذة العالم فى تشذيب الماس ، سافر إلى مصر ، حيث قضى بعض الأيام فى صلة حميمة مع الحجر الكريم بغرفة هادئة فى بيت التاجر ، ثم قطعها إلى ثلاث قطع بديعة ، حلق وخاتم .

وبعد . . . كان يجب أن يركب الطائرة عائداً للوطن ، لكن التاجر دعاه لتناول العشاء ، تلك الدعوة الغريبة - غير عادية - فليس كثير من الناس يدخلون ذلك العالم الثرى المغلق ، لكن ربما كان التاجر قد تأثر بالأسبوع الذى قضاه "إفرايم" وحده فى عزلة مع الماسة داخل حجرة هادئة .

قابل "إفرايم" على العشاء الفتاة التى كانت المجوهرات مقدرة لها ، والآن - ما الذى يمكن قوله عن الأسبوعين اللذين تبعوا هذا العشاء ؟ بالتأكيد لم يُعد هذا "إفرايم" ، الصائغ الماهر النكرة القادم من "جوهانسبرج" ، حين وقع فى غرام "ميران" ابنة التاجر الأمير الجديد ،

لا شيء بسيط ، لكن هذه المسألة غير العادية في عرفهم ، بانت في رد فعل التاجر ، الرجل التقليدي المحافظ والد "ميران" عادية .

تقليدي ، عادي ، تافه ، تلك مصطلحات هذه الجماعة أو الطبقة التي تنتمي إليها "ميران" كانطانيس" ، يعيشون في مواطن متفرقة من مدن البحر المتوسط ، أثرياء جداً ، بذوق راق جداً ، بل يتبعون أحدث الموضات العالمية ، ويفضلون "باريس" في هذا ، و "لندن" في ذاك ، يقومون برحلات إلى نيويورك وروما ، يصطافون في أي منتجع يختارونه ، في نوع من التجمع الغريزي ، فيصبح الشاطئ المناسب للعام ، و يتقبلون تفاوت الآراء بصدر رحب ، كانوا بشرا بلا أي شيء يميز سوى ثرواتهم ، و "ميران" التي تسبى القلوب ، التي شاهدها أول مرة عند النافورة في "الموسلين" الفضى المطرز ، دعنا نقول ، إنها لم تكن الأكثر جمالاً ، ولا الأكثر موهبة من بين حفنة من فتيات الإسكندرية ، ولا من بين ألف وأكثر من فتيات مصر كلها ، ولا من مئات الآلاف من الفتيات فيما حولها من البلاد ، فأية واحدة منهن لها مثل هذا النمط الخاص - نمط جمالها: عظام دقيقة ، شعر فاحم ، عيون سوداء ، بشرة مشمشية ، لدنه .

عاشت "ميران" في هذا الوسط من الترف المنتقى بعناية ، أحبت أمها وتشاحت مع أخواتها ، واحترمت أباهما ؛ الذي اعتزم تزويجها من "پاولو" ، شاب من "أمريكا اللاتينية" ، والذي معه سوف تستمر في ذات الحياة ، لكن في "بوينس آيريس" .

بالنسبة لها ، كانت أمسية عادية ، عشاء عائلي يحضره صديق "بابا" ، لم تكن تعرف بأمر الماسات . . فهي مفاجأة ، كانت ترتدى ثوباً على موضحة العام الماضي ، وعقداً من اللؤلؤ المقلد . . فقد كانت

موضحة هذا العام ارتداء اللؤلؤ المقلد ، وترك اللؤلؤ الحقيقي فى صندوق على التسريحة .

رأى "إفرايم" ابن صاغة الجواهر ، اللؤلؤ المقلد حول تلك الرقبة ، فعذبه ذلك .

مع ذلك ، لِمَ هى ؟ "فجوهانسبرج" مليئة بالفتيات الجميلات ، ربما لأنه لم يسافر كثيراً ، وجوهانسبرج قاسية ، قائمة على الذهب ، كأن ناسها يتنفسون بقوة الذهب ، "جوهانسبرج" شمعية باهتة ، تزدهر أو تضمحل بثروات الذهب - (كأنها مدينة تناسب هذه القصة) - ربما تكون مثيرة ، وعنيفة ، ورنانة ، لكن بلا غموض ، لا شىء متروك للخيال ، بلا أية أبعاد غير مرئية ، فى حين أن الإسكندرية . . . هذا البيت مثلاً ، بأسواره الخارجية التى تخفى أى شىء ، جريمة ، أو تخفى بلاطاً سرياً لملك معزول ، يحيط بالبيت حدائق ، ونوافير ، و "ميران" ترتدى اللون الفضى ، والتى . . . فى الواقع ، ربما لم تكن فى أفضل حالاتها فى هذا المساء ، كان هناك من قالوا : "إن لها ضحكة مزعجة" ، فقد كانت الأسرة أحياناً تمارحها بأنه لحسن حظها ليست مضطرة لكسب معاشها ، ربما دفعها شعور أثناء العشاء للمساهمة فى الضيافة ، فحكّت قصة سطحية مهلهلة ماجنة عن صديقة ، بالتأكيد كانت تشعر بالضجر ، فقد ثأبت مرة أو مرتين ، ولم تحاول إخفاء ثأؤبها ، حذق فيها صانع الماس القادم من "جوهانسبرج" ونسى أن يأكل ، وسألها مرتين لماذا تلبس اللؤلؤ المقلد ؟ ، أصدرت حكمها عليه بأنه رجل أحمق ، وتجاهلته ، لم يعد للوطن ، أ برق يطلب مالاً .

كان يدخر هذا المال ، ويبخل به على نفسه ، لذلك توفر له قدر كبير منه يصلح لشراء لؤلؤة واحدة مثالية ، تلك التى قضى أياماً يبحث عنها ، وقد وجدها فى آخر المطاف فى الشوارع الخلفية لحي قديم من أحياء القاهرة ، حيث ظل يساوم تاجراً فارسياً عجوزاً على فناجين قهوة لعدة أيام ، وكان هذا التاجر العجوز يعرف الكثير عن الأحجار الكريمة بنفس القدر الذى يعرف به هو ، ولم يكن يتاجر سوى فى أجودها .

وصل إلى بيت والد " ميران " بتلك الدرة ، وعندما أُجلس فى حجرة مفتوحة على ردهة القصر الداخلية ، حيث الياسمين يكسو الحوائط ، والسوسن يطفو على حوض الماء ، طلب الإذن بتقديم اللؤلؤة للفتاة .

كان غريباً أن يدعو " بابا " هذا التاجر مرة أخرى إلى العشاء . وكان غريباً أيضاً ألا يغضب ، فقد كان رجلاً داهية . . لا . . بل كان هو الدهاء ذاته ، لم تصدر عنه أى نظرة توحى بأن فكره تجارى " بحث " ، ولا نبرة من صوته ، ولا كلمة فى تركيب جملته ، إلا أنه كان واثقاً تمام الثقة من صحة تقديره لهذه اللؤلؤة ، أمام هذا الرجل الخرافى ، الذى لا يدخل بيته سوى الأثرياء ، جلس قاطع الماس النكرة ، الذى اعتزم أن يقدم لابنته ثروة صغيرة على هيئة لؤلؤة ، والذى لا يرغب فى شىء مقابلها .

شربوا القهوة ، ثم شربوا "الويسكى" ، وتحدثوا عن عالم الأحجار الكريمة والعُرس الوشيك ، ثم دعى "إفرايم" للعشاء .

جلست "ميران" على العشاء مقابل السيد الكهل - كان فى الخامسة والأربعين - الذى عرفته على أنه رجل أعمال صديق لـ "بابا" ، والذى كان عادة مهذباً شديد التهذيب عندما كان ينظر إليه "بابا" . المشاركون

فى العشاء . . "ميران" وخطيبها "باولو" ، و"إفرايم" ، أما الأم والأخوات فكن يقمن بزيارة ، لم يحدث أثناء تناول الطعام شىء يذكر ، وكان العروسان الشابان فى غفلة عن الكهلين - فى النهاية ، أخرج "إفرايم" ورقة مطوية من جيبه ، وفضها عن لؤلؤة مثالية ، راحت تضوى مثل جسد وردى ، جسد فتاة فى العشرين - قدم هذه اللؤلؤة لـ "ميران" ، مع تعليق بأنها لا يجب أن تلبس أبداً لؤلؤة مقلدة ؛ وللمرة الثانية كان يتصرف بخشونة ، وتذمر ، أو لوم لنقص الكمال .

وضعت اللؤلؤة على الحرير الأبيض فى ضوء الشمعة ، وكان "إفرايم" يميل بوجهه فى الضوء الواقع على اللؤلؤة ، هذا الوجه الذى كان من الصعب عليها تذكر ملامحه منذ أن رآته آخر مرة من أسبوعين .

بالطبع ، كانت لحظة غير عادية ، لكن لم تكن مفاجأة درامية ، بل كانت لحظة تفتقر إلى الذروة الحرجة ، مثل تلك التى كان ينقر فيها "إفرايم" ماسة ، أو مثل لحظة إطلاق رام بارع لسهمه ، نظرت "ميران" إلى والدها بحثاً عن تفسير ، كذلك فعل خطيبها . لم يبد على الأب أى ارتباك ، أو تورط ، بل إنه ارتدى سمت الرجل المحايد ، كما لو أنه غير المختص بالحكم فى هذا الموقف ، ومن المحتمل أن "ميران" لم يكن لديها قط فى كل حياتها من قبل حرية اتخاذ قرار .

التقطت اللؤلؤة من على الحرير ، ثم تركتها فى راحة يدها ، نظرت هى وخطيبها ، ووالدها إلى اللؤلؤة ، التى كانوا جميعاً قادرين على تسمينها ، بينما نظر "إفرايم" إلى الفتاة بتجاهل ، رفعت أهداباً كثيفة سوداء ونظرت إليه فى تساؤل ، وعيناها تنشدان تركها لحالها ، كانت عيناه

تقران بالإحباط ، وقالتا كل ما عبر عنه بالكلمات من قبل : لماذا ترضين بأشياء من الدرجة الثانية ؟

- غير معقول . . .

- شيء غير محتمل . . .

كانت فى هذه الليلة ترتدى " الأورجانزا " الوردى ، أخيراً هزت كتفيها هزة خفيفة وقالت لـ " إفرایم " : " أشكرک ، أشكرک جداً . " نهضوا عن المائدة ، شرب الأربعة القهوة فى " التراس " ، حيث حرك قمر الإسكندرية الشاعر ، وكان قبل يومين من اكتماله ، قمراً لا يشبه أبداً أيّاً من تلك الأقمار التى تسطع فوق " جوهانسبرج " الصاخبة ، تركت " ميران " اللؤلؤة راقدة على راحة يدها تعكس ضوء القمر ، وعيناها السوداء تخاطبان " إفرایم " من حين لآخر - ولكن أيّاً كان لون عينيّه - فهذا لن يهتم أحداً - كانتا عينا رجل يحذر ، أو يُذكر ، أو حتى يوبخ . عاد فى اليوم التالى إلى " جوهانسبرج " ، وعلى التسريحة وضعت " ميران " علبة فضية صغيرة ، بداخلها لؤلؤة مثالية .

كانت ستزوج بعد ثلاثة أسابيع .

انتشرت الواقعة فى الحال بين العائلة : ذلك اليهودى ، ضئيل الشأن ، المخبول ، وقع فى غرام " ميران " . . . ، وكان قبولها للؤلؤة يفسر على أنه تصرف كياسة ، وشفقة ، ف " ميران " أشفقت جداً على ذلك الشيء العجوز المسكين ، " هكذا هذبوا ما حدث ، وجعلوا الواقعة التى لا تُقبل فى حياتهم وعرفهم مقبولة ، لكنهم كانوا يعرفون ، بالطبع ، خاصة ميران ، أن شيئاً آخر قد وقع .

عندما رفضت الزواج من "باولو" بمنتهى الظرف والرقّة ، علق الأب والأم "كانطانيس" التعليقات التقليدية عن حماقتها ، وعقوقها . . . إلخ ، وفى مثل تلك الحالات من الخطبة ، لا يتوقع انكسار القلوب ، لأن مثل هذه الزيجات تشبه الزيجات المرتبة بين السلالات الحاكمة ، فإذا لم تتزوج من "باولو" ، فإنها ستتزوج من آخر يماثله . . ثم إنها مازالت شابة بعد . لاحظ الأهل أنها لم تعد لطبيعتها منذ حكاية اللؤلؤة ، قال الوالد فى نفسه ، إنه لن يدعو إلى مائدة عشائه مزيداً من المسافرين الذين يصلون ليلاً ، ورتبوا لها زيارة للأقارب فى إسطنبول .

فى غضون ذلك ، كان قاطع "الماس" فى "جوهانسبرج" يعمل فى مهنته ، يشذب الماس ويشكله خواتم خطبة ، بروشات ، دبائيس أربطة العنق ، عقود وأساور ، تخيل طبقاً مسطحاً من "الكريستال" يضوى كالماس متكثلاً بالورود ، كل وروده بيضاء ، بكل درجات الأبيض ، تخيل به وروداً من مرمر أبيض بارد ، وأبيض يجاور لون القهوة ، وأبيض يميل للاخضرار يشبه لون أجنحة بعض الفراشات ، والأبيض حين يتورد ، وأبيض بلون الزبد ، وأبيض يقارب البيج ، وذلك الأبيض الذى يميل بالكاد للاصفرار ، تخيل مئات من درجات الأبيض فى ظلال الوردية ، كل ذلك مصهوراً جميعاً ، فطعم به طبق كريستال ووهبه لاسم "ميران" ؟ ربما أصبح من النادر أن يفكر فيها ، وإن كان يتخيل كل الأحجار الكريمة التى جمعها بدرجات اللون الأبيض ، ويبدع منها حلية . . أسورة أو عقد ، أو مشبك شعر ، ويهدى كل هذا لاسم "ميران" ؟ وهل يهم لمن كانت

هذه الحلوى ؟ راح يشتري الأوبال الذى يشبه الضباب الرقيق المعلق خلف زجاج تتموج وتختفى عليه الأضواء ، والأوبال بلون اللبن الذى أطفئ فيه نار ، والأوبال بلون نفس فتاة تكثف فى ليلة صقيع ، اشترى اللآلىء كل واحدة على حدة ، وكل واحدة مثالية ، اشترى الصدف ، وأحجار القمر التى تشبه الماس المغبش ، اشترى حتى اللمبات الزجاجية التى صممت لتعكس الضوء بشكل فريد ، واشترى "اليشب" الأبيض "والكريستالات" ، وجمع شظايا الماس ، كل هذا ليركبه على اللؤلؤ و الأوبال المطفأ المكتوم ، ليضفى عليهم بريق الأحجار الأخرى ، واحتفظ بهذه المجوهرات فى ورقة مطوية وضعها بعلة سجائر صغيرة ، بعد ذلك نقلها فى علة أكبر ذات تجاويف ، ثم نقلها إلى علة أكبر كان يوضع بها السيجار ، لعب بهذه الأحجار الكريمة ، وجرت أحلامه حولها ، وراح يرتبها فى عقله بآلاف الطرق ، أحياناً كان يتذكر فتاة غاية فى الأناقة، كانت ترتدى المسلمين الفضى : وشيئاً فشيئاً ، أصبحت الذكرى مثل بطاقة بريدية رقيقة ، أو "روزنامة" عتيقة .

تزوجت "ميران" فى أسطنبول دون موافقة عائلتها من مهندس إيطالى شاب ، لم تكن لتقبله فى حياتها العادية ، كان عمها يعمل فى إعادة بناء "يخت" ، عندما دخلت "ميران" ، كان المهندس فى مكتب العم لمناقشة العمل فى إعادة البناء معه ، كانت البادئة : هكذا استدعى الموقف ، المهندس فى السابعة والعشرين ، بلا شئ سوى راتبه ، وبلا أية توقعات خاصة لمستقبله ، يدعى "كارلوس" ، ويعمل بالسياسة . أو على وجه

الدقة ، كان ثوريًا ، متمرّدًا ، متآمرًا ، ولم تكن بالسياسة قد دخلت عالم ميران ، أو على الأصح نستطيع القول إن هذه العائلات هي السياسة بطريقة ما ، فالسياسة مظهر لثرواتهم ، إلا أن هذا كان يُرى فقط عند عقدهم الصفقات التجارية الضخمة التي لها طابع دولي ، ويكون صيت الصفقة له دوى يماثل دوى التحالفات والخلافات بين الدول .

أطلق "كارلوس" على "ميران" الأوزة البيضاء" ، عندما حاولت أن تؤثر عليه بمكانتها . وأطلق عليها " العاهرة الصغيرة الغنية" وتعطف عليها باصطحابها إلى اجتماع مع الشباب الجادين ، رجالاً ونساءً الذين يناقشون موضوع الحرب الوشيكة - وكان العام ١٩٣٩ ، وهذا يتمشى وطبيعة مثل هذه العلاقات : فعائلتها كانت ترى أنها تلقى بنفسها في الحضيض ، وهو وكل أصدقائه اعتبروه مكسبًا لها .

ولكى تمنح نفسها الشجاعة في حسم نزاعها معه وتكون كفأ لبطلها الشاب البارز ، كانت تفتح علبة فضية صغيرة ، حيث رقدت اللؤلؤة في الحرير ، وتقول لنفسها إنه يظن إنني بلا قيمة . . .

تزوجت كارلوس في نفس الأسبوع الذي تزوج فيه "باولو" فتاة من السلالة الحاكمة في فرنسا ، انتقلت "ميران" إلى روما وعاشت في فيلا بلا خدم يخدمونها ، وبلا شيء تلجأ إليه سوى ذكرى رجل يصعب وصفه ، كان قد جلس أمامها طوال سهرتي عشاء ممّلتين ، ثم أهداها لؤلؤة كأنه يلقنها درسًا ، كانت تفكر في أنها طوال حياتها لم يطلب منها أحد غيره أي شيء ، أو يسألها رأيها عن شيء ، لم يأخذها أحد قط على محمل الجد .

بدأت الحرب وعاشت العروس التي احتلت مكانها في "بوينس أيريس" في ترف ، أما "ميران" فأصبحت ربة بيت فقيرة ، ترى زوجها الذي كان ثائراً ضد الفاشست و "موسولينى" ، مجنّداً إجبارياً في جيوش "موسولينى" ، ثم رآته يذهب للقتال بعيداً ، بينما كانت تنتظر مولودها الأول .

التهمتها الحرب ، سُمع عنها مرة أخرى عندما مات بطلها وطفلها الأول ، وكانت قد اكتشفت حملها الثانى بعد فى الزيارة الأخيرة لـ "كارلوس" ، ومن المنتظر أن تلد خلال شهرين ، عاشت فى مدينة صغيرة بوسط إيطاليا بلا موارد ألبتة ، كبرياؤها يمنعها من الاتصال بأهلها : فقد أقسمت ألا تستجدى موافقة أهلها تحت أية شروط سوى شروطها ، وكانت عائلة زوجها تعاني معاناة شديدة ؛ فقد كانت تعيش فى حجرة بيت عمه زوجها .

كان الألمان يتراجعون عبر إيطاليا : ومن ورائهم جيوش الحلفاء . . .

لكن هذا يتردد كتاريخ رسمى للحرب .

فلنعد للطرف الآخر: بطول وعرض شبه الجزيرة التي دمرتها ، وخربتها، وأجاعتها الحرب كان جيشان غريبان عن مواطنى البلد ، فى تحرك دائم ، جيش ينسحب إلى جسم أوروبا والآخر يتبعه ، وكانت هناك بعض الأماكن الجغرافية تتقابل وتتمازج فيها أجساد الجيشين تماماً ، ولا يفرق بينهما سوى الزى ، كلا الجيشين مستدفيء ، رجاله يلبسون جيداً ، يتغذون جيداً ، مزودون بالكحوليات والسجائر .

فى أحد الجيوش ، كان رجل يدعى "إفرايم" جندياً غير مقاتل . .

لأنه كان كهلاً لذلك ألحق بجهاز الإمداد "عريقاً" غير لافت للنظر مثلما كان فى الحياة المدنية ، طوال السنوات الأربع التى قضها جندياً ، فى

أقصى جزء من شمال إفريقيا ، كان يسعى وراء هدف خاص ، أو هاجس استحوذ عليه مدفوعا إلى البحث عن الأماكن أو الناس الذين يمكن أن يضيفوا شظية قزحية اللون أو جوهر براق إلى الكتلة التي يحملها في علبة صفيح مسطحة داخل "مخلتة" .

وجد فيه الرجال وفي انشغاله مادة تسلية لطيفة ، لم يكن محبوباً تماماً ، ولم يكن مكروهاً لدرجة أن يصبح هدفاً للسخرية ، لم يسخروا منه ولم يدعوه مجنوناً ، ربما كان أكثر شبهاً بذلك الكلب ، حيوان الفوج المدلل ، ذات مرة نسي أين وضع علبته الصفيح التي بها ثروته ، فجازف رجلان وتعرضا للخطر من أجل إعادتها : فقد كان أحياناً يحضر له أحد رفاق السلاح قطعة صغيرة من حجر ما ، أو يلتقط آخر من بازار "كهрман" أو تيمة من "اليشب" ، كان ينصحهم كيف يساومون ، وقام معهم بزيارات لشراء هدايا من الأحجار الكريمة للزوجات والبنات يقدمونها هدايا عند العودة للوطن .

هذا الأسبوع كان في إيطاليا - عندما كان كل شيء متفسخاً ، أي إنسان دخل الحرب ، أو اقترب منها - في ذلك الوقت - هذا يعنى كل إنسان في أوروبا - يعرف فترة التفسخ تلك التي قد تمتد أسبوعاً أو أياماً ، وأحياناً تكون مجرد ساعات - عندما يتداعى كل شيء ، ويتلاشى كل نظام بما في ذلك الحدود التي تعين الفرق بين عدو وآخر .

في فترة التفسخ تلك ، تُصفى كل أنواع الحسابات القديمة ، إنه الوقت الذي يُقتل فيه الضباط المكروهون "صدفة" ، الوقت الذي يقتل أو يضرب فيه رجل رجلاً آخر يكن له كراهية، والرجل الذي انتهى امرأة

يغتصبها إذا كانت بالمكان ، أو يغتصب امرأة أخرى بدلاً منها إذا لم تكن موجودة ، أما اللاتى يرغبن فى الاغتصاب فعليهن التواجد فى المكان الذى يغتصبن فيه ، والمرأة التى تكره امرأة أخرى سوف تُقدم على إيذائها ، باختصار ، إنه وقت الفوضى ، والسلب ، والحرق المتعمد ، والتخريب من أجل التخريب ، يعتقد البعض أن هذا الوقت الخارج عن النظام المعتاد هو سبب الحرب ، كلها مظاهر تختفى وراء ما نراه ، فيما بعد لن توجد سجلات لما حدث ، فلا أحد يحتفظ بالسجلات ؛ فكل واحد سوف يكون مشغولاً بالمشاركة فى الغنيمة ، أو بحماية نفسه .

كان " إفرایم " فى مدينة صغيرة قرب " فلورنسا " حين وصلت الحرب إلى تلك الحالة ، وكان معه " كوربورلا " من چوهانسبرج " أيضاً " ، عيناه تلمعان كلما تحدثا عن علبة " إفرایم " الممتلئة بالمجوهرات ، ذات مساء ، عندما كان كل إنسان إما صائداً أو فريسة ، مناوراً من أجل مصلحة أو متبعاً حسب الريح ، كان هذا الرجل ، الذى هو صاحب دكان فى الحياة المدنية ينظر داخل حجرة " إفرایم " ويكشر عن أنيابه ، عرف " إفرایم " ماذا عليه أن يتوقع ، كل واحد عرف ما يتوقعه ، وفى مثل هذه الحالة عادة ما تطفو المعارف والغرائز القديمة على السطح ، ترك " إفرایم " فصل المدرسة التى كانوا يقيمون بها فى هدوء ، وكانت قد تحولت إلى مطعم للجنود هذا الأسبوع ، خرج مبكراً فى الظلمة إلى الشوارع الخالية بسبب الخوف ، حيث كانت الحوائط ما تزال تهتز ، وتنهال سحابات التراب من جراء قصف المدافع القريبة ، إلا أن الشوارع كانت هادئة أكثر مما ينبغى ، صمت رعب بارد يصيب بالغثيان ، وأيدى غير مرئية توضع فوق الأفواه . . . الشخص الذى يمر عرضاً فى تلك الشوارع

يجب أن تسبقه عيناه ، ويطبق فمه ، فى هذه الحالة إذا تقابل شخصان ، فإنهما لا يريان بعضهما سوى للحظة ، حين تصطدم العيون فى معركة تساؤل ضارية ، خلف مصراع كل نافذة ، أو عند ناصية شارع ، أو باب ، سواء كان الناس واقفين أم جالسين أم منحنيين ، فإنهم ينتظرون الوقت الذى تنتهى فيه حالة الخروج على النظام وفى متناول أيديهم الأسلحة والآلات الحادة .

مشى " إفرایم " خلال تلك الشوارع ، لم يره " الكوربورال " حين خرج ، لكنه الآن لابد من أنه قد استشعر ذلك ، فى أية لحظة سينقض على " إفرایم " الذى يحمل علبة صفيح مسطحة فى يده ، والذى كان أثناء تجواله يتطلع داخل فجوات الجدران ، وإلى الأرصفة ، ويحدق فى الكنيسة التى انسدت حتى نصفها بالأنقاض ، ويتحقق من الأرض التى مزقتها شظايا القنابل ، بل ويرفع بصره إلى فروع الأشجار حينما كان يمر بالنباتات النامية عند مداخل البيوت ، أخيراً ، وعندما مر بالنافورة التى انسدت بالأنقاض ، انحنى للحظة ودس علبة فى الطين ، ثم مشى مبتعداً بسرعة دون أن يلتفت ورائه ليتحقق من أن أحداً لم يره ، وعند ناصية الكنيسة ، قابل الكوربورال " فان دير ميرف " ، عندما ظهر " إفرایم " أمام عدوه ، كانت يدها فارغتين ، فوقف ساكناً ، كان " الكوربورال " رجلاً ضخماً ويصغره بعشرين عاماً ، ألقى " فان دير ميرف " عليه نظرة جبهة ، دالة على ما يملكه من دهاء - تشبه إلى حد ما نظرة والد " ميران " عندما سمع كيف أن هذا الرجل النكرة اعتزم أن يهدى ابنته لؤلؤة نفيسة بلا أى داع على الإطلاق - وحين اقترب منه ، رفع " إفرایم " يديه فى الحال فوق رأسه كأنه أسير يستسلم ، بينما " فان دير ميرف " يفتشه ، فى لحظة كاد " إفرایم " أن يقتل : حين فقد توازنه ، إلا أن مرور مجموعة من الجنود

كانت تسلب الصور والأشياء الثمينة من كنيسة أخرى أنقذه ، فانصرف انتباه "فان دير ميرف" إليهم ، وراح يراقب "إفرايم" وهو يمشى مبتعداً ، ثم أسرع "الكوربورال" ليلحق بالنهايين ، بمضى الزمن انتهى موسم الفوضى ، وكان "إفرايم" على بُعد مائتى ميل شمالاً ، ثم بعد سبعة أشهر كان فى مدينة تبعد عشرة أميال عن مكان المدينة التى كاد أن يُقتل فيها على يد أحد مرءوسيه ، لكن تلك الحادثة تلاشت ودفنت فى نسيج أبعاد أخرى - طلب "إفرايم" تصريحاً بالخروج مساءً ، وسافر إلى المكان الذى كان يتخيله : سيمشى فى الشوارع المهجورة إلى نافورة ممتلئة بالأنقاض ويجوار هذه النافورة سيجثو ، ويدس يده فى الماء العطن ويسترد كتزه .

إلا أن الصورة اختلفت ، فقد امتلأ الميستان بالناس ، ولم يعد ذلك الزمن الذى كان هناك مقهى واحد لا يقدم سوى القهوة أو الماء برائحة المطهرات ، الآن المقهيان ممتلئان بالناس الذين يتضورون من الجوع تقريباً ، لكنهم يعيشون أشكال الحياة العادية ، والمقهيان يقومان على خدمة الزبائن بتقديم كميات لا محدودة من النبيذ الرخيص ، الجميع مخمورون ، أو مترنحون من السكر ، فى بلد النبيذ ، عندما لا يوجد طعام ، يصبح الخمر نوعاً من الطعام ، احتياج مثل الطعام ، مشى "إفرايم" بمحاذاة النافورة ، ورأى الماء الآسن ، ملوثاً إلى حد لا يدع أحداً يفكر أن يرى ما به ، أو أن يزيل الأنقاض ، وبين الأنقاض يرقد كتزه .

جلس على الرصيف إلى منضدة خشبية متصدعة تحت مظلة ممزقة
وطلب قهوة ، كان الجندي الوحيد هناك ، أو على الأقل ، البذلة الرسمية
الوحيدة ، حيث كان المد والجزر الأساسى للجنود يُعمر جانباً وحيداً من
هذه المدينة الصغيرة ، البذلة الرسمية كانت تعنى المقايضة ، تعنى الطعام ،
والملبس ، والسجائر ، فى طرفة عين كان ستة من الصبية رهن إشارته
يعرضون عليه الفتيات ، ونساء من كل الأعمار يمشين بتؤدة قرب المقهى ،
يظهرن أنفسهن بطريقة أو بأخرى محاولات جذب عينية ، حيث وصلت
حال النساء فى تلك المدينة إلى الحالة التى نصفها - بأنهن على استعداد لبيع
أنفسهن مقابل سيجارة ، أما العجائز من النساء والشيوخ من الرجال ،
والمشلولين ، وكل أصناف البشر- مدوا أياديهم إليه بأشياء تافهة . .
ولاعات ، ساعات ، أباريم قديمة ، حليات معدنية ، أو زجاجات
أو بروشات - وهم يأملون فى الحصول مقابلها على شكولاته أو طعام ،
استمر "إفرايم" جالساً ، يأسف فى قرارة نفسه لأنه لم يحضر معه بيضاً
أو معلبات أو شكولاته ، لم يتصور ذلك ، جلس والناس الجوعى
ووجوههم الحادة التى تلمع من حمى الخمر ، يتزاحمون ويلحون عليه ،
وأجساد اثنتى عشرة امرأة أو نحو ذلك ، عدلن أنفسهن على هذا الوضع
أو ذاك ليعاينهن ، شعر بالغثيان ، هم بالرحيل ونسيان أمر علبته الصغيرة
الممتلئة بالمجوهرات ، عندئذ جاءت امرأة بادية التعب ، بطنها مرتفع أمامها ،
ورداءها غُسل كثيراً ، جاءت وجلست إلى منضدته ، ظن أنها جاءت لبيع
نفسها ، لم يطق النظر إليها ، فلم يقدر على احتمال فكرة أن امرأة حامل
قد وصلت بها الحال إلى هذا الوضع .
قالت : "ألا تذكرنى ؟ "

راح يتطلع كل منهما - متفحصا - وجه الآخر، كان ينظر إلى "ميران" ، وكانت تحاول أن تعرف كنه ذلك الشيء الذى غير حياتها ، أن تكتشف المعنى الذى جسده تلك اللؤلؤة التى تحملها معها فى قطعة قماش صغيرة مخاطة فى قميصها الداخلى .

جلسا يحاولان تبادل الأخبار ، لكن هذين الشخصين لم يكن لديهما إلا قليل من الأشياء المشتركة ليقولاه لبعضهما: كيف كذا وكذا ؟ ما الذى حدث له ولها ؟ .

انسحب سكان البلدة الجائعون إلى طريق جانبي صغير ، لأن هذا الرجل صديق له "ميران" ، إذن فهو صديق لهم .

بقيا معا ساعتين ، غلبهما الارتباك ، كان واضحا لكليهما - أنه مهما كانت الأحداث التى وقعت ، خطيرة أم لا ، فإنهما لم يكونا على استعداد للخوض فيها ، تلك الأحداث إذا رجعا لحقيقة ذاتهما كانت غريبة ، وإذا كانا صادقين ، فإنهما غرباء عنها أيضا ، فلم تكن المسألة أنها فتاة من الإسكندرية لا تنسى ، وقد أصبحت امرأة مغبرة تنتظر ولادة طفل فى بلدة حطمتها الحرب ؛ لم تكن المسألة أنه لأجلها حمل معه خلال سنوات الحرب الأربع ثروة من المجوهرات ، بعضها نفيس وبعضها غير مبالغ فى قيمته ، والبعض عديم القيمة - إنما المسألة أن هذه القطع الصغيرة من الأحجار الكريمة جمعها شيء واحد مشترك تعود إليه كل قيمتها إلى: ارتباطها بأشياء أخرى طيبة ، ارتبطت كلها على نحو اعتباطى ولفترة قصيرة ، باسم "ميران" .

أصبح الجلوس هناك شيئاً لا يطاق ، يشرب قهوة صنعت من حبوب محروقة ، وكل العيون الجائعة جوعاً شديداً مُسلطة عليه ، على ذلك الجندي ، الذى جاء بكل قسوة إلى بلدتهم التى تتضور جوعاً ويداه فارغتان ، كان مضطراً أن يرحل ، فقد وصل إلى هذه البلدة جالساً على حافة عربة فلاح ، فلم يكن هناك وسيلة ركوب أخرى ؛ وإذا لم يحصل على "توصيلة" من نفس النوع فإنه سيضطر أن يمشى عشرة أميال حتى يصل إلى المعسكر قبل منتصف الليل ، على الجانب الآخر من الميدان ، ظهر قمر رطب جائع ، لا يشبه قمر مدينته ، ولا قمر الإسكندرية البرى ، أخيراً ، نهض ببساطة ومشى إلى حافة البافورة ذات الرائحة البغيضة ، ركع عند حافتها ، دس يده داخلها ، صادفته كل أنواع الأشياء اللزجة ، ربما فئران أو قطط ميتة أو حتى قطع صغيرة من أجساد بشر موتى وبعد وقت من تلمس وتحسس يده للأشياء ، شعر بالكتلة المألوفة لعلبته الصفيح ، سحبها ، جففها ببعض أوراق الصحف القديمة التى كانت تطير هنا وهناك ، وعاد إلى المنضدة ، ثم جلس وفتح العلبة ، الضوء والهواء هما غذاء الآلى . . لا يحب الأوبال الابتعاد عن الضوء الذى يبعث أعماقه للحياة ، أفرغ الكومة اللامعة على المنضدة الخشبية المتصدعة فراحت تضوى حيث لم يصل الماء إليها ، طوقهما كل الناس الجوعى وراحوا ينظرون إلى الجواهر وهم يتخيلون الطعام .

أخرجت من صدرها قطعة قماش صغيرة ، حلتها وكشفت عن لؤلؤتها ، سلمتها إليه .

قالت : " لم أفكر فى بيعها قط "

راح ينظر إليها بعبوس ، مثلما فعل فى الماضى .

قالت - بالإنجليزية الجميلة للذين تعلموها من مربيات الأطفال - :
" تعرف ، أحياناً أكون جائعة ! ليس عندي خدم "
نظر إليها ، أوه ، لكم عرفت تلك النظرة ، لكم تأملتها فى ذاكرتها!
مزيج من الغضب ، والأسى ، لكن بالأساس ، خيبة أمل ، والأكثر من
ذلك ، رسالة تنبيه أو تحذير ، أحست نظرتة تقول لها : " أنت أيتها الإوزة
البيضاء السخيفة ! العاهرة الصغيرة الغنية ! التافهة المسكينة ! لما تفهمين
دائماً خطأ ؟ لما أنت غبية ؟ ما قيمة اللؤلؤة بالنسبة لمعناها ؟ إذا كنت جائعة
وتحتاجين المال - بالطبع - تبيعينها !

جلست فى ذلك الصمت المفاجئ الذى يقال عنه : أن الإنسان يقاوم
البكاء ، امتلأت عينها الجميلتان بالدموع ، وقالت بعناد : " لن أبيعها أبداً ،
أبداً ، " أما هو ، فراح يدمدم : " كان يجب أن أحضر طعاماً معى ، لقد
كنت غيباً ، ما قيمة هذه الأشياء . . .

قرأ فى العيون الجائعة المحيطة بهما ، أنهم يعتقدون فى وجود نساء
ورجال - حتى فى أوقات المجاعة - لديهم طعام مُخبأ ، يشتري بالذهب
والجواهر .

قال للأطفال والنساء والمسنين : " خذوها . "

لم يفهموا قصده ، لم يصدقوه .

قال مرة أخرى : " هيا ، خذوها ! "

لم يتحرك أحد ، عندئذ وقف وراح يقذف فى الهواء اللآلى ،
والأوبال ، وأحجار القمر ، وأحجاراً كريمة من كل نوع ، سقطت كيفما
اتفق ، فى لحظات ساد مشهد جنون ، تدافع وتزاحم الناس بالمناكب ، ثم

صار الميدان فارغاً ، تسابق الناس بما التقطوه من التراب إلى العودة للأركان التى يعيشون فيها .

لم تحتج الأسطورة زمناً لتنتشر ، حكاية الجندى الذى قدم إلى البلدة ، وبطريقة متعذر تفسيرها ، أخرج من النافورة كنزاً ، و قذف به فى الهواء مثل ملك أو سلطان - كنزاً غامضاً ، خصباً ، كأنه كنز ملك - ثم يأتى رجلٌ ويلتقط ماسة براقّة ، تتحول بعد ذلك لزجاج براق عديم القيمة ، وآخر حصل على لؤلؤة صغيرة (لم تختبر بعناية) فكانت قيمتها تكفى شهوراً من الطعام ، أو حتى شراء منزل أو مزرعة صغيرة .
قال إفرايم لرفيقتة : " يجب أن أنصرف . "

أحنت رأسها مودعة ، مثلما يحدث بين المعارف الذين يتقابلون باستمرار ، وراحت تراقب الرجل الأشيب ، البدين ، النكرة ، وهو يتعد متجاوزاً النافورة ، والكنيسة ، إلى أن اختفى عن الأنظار .

بعد هذه الليلة ، أخرجت اللؤلؤة وأمسكت بها فى يدها ، إذا باعها سوف تعيش فى راحة ، مستقلة عن عائلتها ، وهنا ، فى دائرة أسرة زوجها الميت ، قد تتزوج مرة أخرى من مهندس آخر أو موظف : فى هذه الحالة تكون اللؤلؤة ذات قيمة كبيرة ، حتى وإن كانت أرملة لها طفل . وبالطبع ، إذا عادت لأسرتها ، سوف تتزوج مرة أخرى ، كأرملة شابة ثرية لها طفل تخلف عن الحرب المخيفة ، التى لحسن الحظ انتهت الآن .

جال بخاطرها كل هذا : فى النهاية رأت أن ما تقرره لا يشكل أى فرق عندها ، ما أداه تدخل "إفرايم" فى حياتها ، قد انتهى عندما رفضت الزواج من "باولو" ، وقد تزوجت من "كارلوس" ، وجاءت إلى إيطاليا وأنجبت طفلين ، مات أحدهما بأحد أمراض الأطفال التافهة ، الذى كان

قاتلاً فحسب بسبب نوعية طعام الحرب . . . عنف الحرب ، لقد انحرفت
عن مثالها ، عن بيتها ، وسُحقت بسبب اللؤلؤة - وبشيء آخر ، لا شيء
الآن قادر على إعادتها مثلما كانت من قبل ، لم يعد يهم إذا أقامت في
إيطاليا أم عادت إلى الدوائر التي ولدت فيها .

أما "إفرايم" ، فقد عاد إلى "جوهانسبرج" بعد انتهاء الحرب ،
واستمر في تشذيب الماس ، ولعب البوكر في ليالي الأحاد .

انتهت هذه القصة مع النداء على رحلة الطيران ، حين مشينا على
الطريق الإسفلتي ، كان خيط رفيع من الضباب مازال عالقاً بالمكان ،
وسألت السيدة التي من "تكساس" الرجل الذي حكى القصة : " هل من
المحتمل أن يكون هو "إفرايم" ؟ "

قال د. روزن : " لا ، إن إفرايم رجل في الستين تقريباً ، يقيم في
جوهانسبرج ، رجل نشط ، أنيق ، لا شيء يميزه مثل كل المواطنين في
العالم . "

لا ، ليس هو "إفرايم" بالتأكيد .

إذن كيف عرف كل هذا ؟ ربما كان هناك ؟

نعم ، كان موجوداً هناك ، وأنه لو حكى ملخصاً لحكاية كيف جاء
هذه المائة ميل ، لكانت قصة أطول من التي حكاها .

ربما كان يسعى وراء علبة "إفرايم" هو أيضاً ! نستطيع التفكير بهذه
الطريقة إن شئنا ، وقد يكون لنا عذر أن نزن ذلك ، فقد كان بالعلبة
الصفيح ثروة ، عرف بها كل رجل في الفوج .

هل هو صديق لـ "إفرايم" ، حسناً ، يمكنه قول ذلك ، يمكنه قول
إنه يعرفه ، فهو في الخمسين تقريباً . . . نعم قد يكون صديقاً له .

جلس د. "روزن" فى الطائرة يقرأ دون أن يطلعنا على شىء آخر ،
لكن ، ذات يوم ، قد أقابل شاباً يدعى "نيكى" ، أو "رفائيل" ؛
أو فتاة تعلق حول عنقها سلسلة يتدلى منها لؤلؤة ، أو ربما أقابل امرأة فى
منتصف العمر قد تقول : إنها تعتقد أن اللآلى تجلب سوء الحظ ، وأنها
لن تلمسها أبداً ، فقد أعطى رجل لأختها ذات يوم لؤلؤة ، وهذه اللؤلؤة
دمرت حياتها تماماً ، قد يحدث شىء مثل هذا ، وقد يكون لهذه القصة
شكل مختلف .

أليف: چاك كوب

إعلان عن الوصول إلى أثينا، طوى الرجل فى المقعد المجاور بعض الأوراق، وبدأ ضجراً، قلت له: " رحلات الطيران تغير أفكار الإنسان عن المكان والزمان والوطن، فى الحقيقة لم تعد هناك بلاد بعيدة قط، على الأقل ليس بالمفهوم القديم، فلم تعد هناك أماكن تبعد عن بعضها البعض أكثر من أربع وعشرين ساعة، إن تلاشى الحدود أصبح مسألة وقت فحسب... "

ضحك .

قلت: " ما الغريب فى ذلك؟ من حيث جئت، ما زال الناس هناك يقدرّون المسافة بالأيام، فيقول الواحد إنه يقطن على بُعد يومين فى اتجاه الغرب، وهذا يعنى مشى يومين. "

" يبدو هذا بالنسبة لى أمراً يمت لما قبل التاريخ "

كان الرجل أمريكياً وتعين على شرح طبيعة الأشياء فى بعض أجزاء إفريقيا، فقد كنت أعمل طوال خمسين عاماً فى الأماكن الأكثر بدائية .

تابعت: " لقد حطمتنا البُعد الرابع، لكن عقولنا لم تستوعبه، لا نعرف ما الذى أصابنا، أصبحنا مثل المراهقين، خطرة، وتضاءل العالم وأصبح صغيراً "

ظن الأمريكى أننى غير طبعى ، وقال : " قادم من جنوب إفريقيا ،
أعتقد أنه كان يجب أن تكون أسود وتتحدث لغة " الزولو " .
أجبتة : " إننى أتحديثها . "

ترك الرجل الطائرة فى أثينا ، وافترقنا بلا أى أسف ، لم يكن يشك
فى أننى متلهف للعودة إلى " جوهانسبرج " ، التى - بحساب الزمن -
تبعد بقدر اثنتى عشرة ساعة فقط ، لكن بحساب المكان ، تبعد عشرة آلاف
فرسخ ، وفى إفريقيا، ينتفى الزمان وتتفى الأبعاد بعناد .

لم أكن من قبل فى أثينا ، فأسرعت أنزل السلالم حتى أزرع قدمى
لأول مرة فى التربة الإغريقية ، هنا ربما مشى " يوريبس" ، أو
"أرسطوفانيس" ، لم أكن مصدقاً لحقيقة أننى هنا، وأنهما ربما شهدا نفس
تلك التلال البيضاء والذهبية ، وتنفسا هذا الهواء فى الماضى ، خلف المطار
الدولى المترامى الأطراف .

دلفت إلى عربة " التروल्ली " الصغيرة ، وانسحب " التروल्ली " فى
خفة ، كان آخر النهار ، وضياء الصيف المنير المتوهج يغلف التلال البيضاء
البعيدة ، فوق دخان الزيوت الساخنة وغار " المواير " ، توهمت أننى أشم
رائحة توابل فى الهواء ، وعند مدخل المطار، كانت نباتات " الأزريون "
وبعض النباتات الورقية فى أحواض متربة وجافة ، كانت أثينا ذاتها ترقد
على بُعد بضعة أميال ، فشعرت أن هذه فرصتى الضائعة ، فرجما لن أعود
إلى هنا أبداً .

اليونان والجزر المقدسة . . . الفتيات وهن يقدن بقرة صغيرة إلى
الاحتفال ، والأشرطة حول قرونها، " والأثينيون " الذين كان جهرهم

بالإيمان علامة ضد كل أنواع الشك لآلاف السنين ، إيمانهم : بأن الإنسان هو جمال العالم .

شاب ضئيل الحجم ، بأسنان بالية وشعر أسود صقيل أملس ، منسدل للخلف ، جذبني من كمي ليعرض علىّ صوراً جنسية ، مثل المطار ، ورائحة الزيت ، والمسافرين الذين بلا ملامح ، كان هو رمزاً لهذا العالم ، هل كان بوسع أحد أن ينكر: أنه ليس من سلالة الأسلاف الذين خاضوا الماراثون ؟

حيثئذ جاءت جماعة صغيرة حائرة ، دخلت بحركة عصبية إلى بهو المطار ، تدلت أيدي الرجال الكبيرة الضاربة للحمرة من أكمام أطول من المعتاد ، يرتدون ملابس المناسبات المتواضعة ، والنساء بأغطية الرأس حملن "صُرر" وصناديق صغيرة ، وكان يُجر على الأرض صندوق سفر بألوان زاهية ، في وسطهم وقفت شابة تجول بعينيها الواسعتين فوق كل الأشياء الغريبة عليها غرابة مطلقة ، كانت غائبة عن الوعي ، ذاهلة ، ترتدى جاكيت أصفر فاقع اللون معلقاً بطريقة غير مريحة حول أكتافها ، وراحت التنورة ذات الكسرات تتأرجح مع خطواتها القوية . نظرت إلى مباشرة بنفس الدهول ، ثم ابتسمت واستدارت ، كان "بروئيل" وجهها بلا روح تقريباً ، إلا أنه في غاية كماله - أنف قصير مستقيم ، وشفتان دقيقتان لينتان ، نثرت على جدائل شعرها السوداء السميكة عقود من الورود الصغيرة ، بيضاء وساطعة كالنجوم ، ابتلع الموكب في دفعة من الأصداء ، والجرى ، وروائح المطهرات التي تشيع في جو المطار .

مازال الضوء يشتعل فوق التلال القديمة ، وفوق الزيتون الأخضر الفضي على المنحدرات ، الذي يقتم لونه كلما انحدرت الشمس نحو

المغيب، أما أنا حين تشرق الشمس ذاتها مرة أخرى ، فإنها سوف تكون شمساً حمراء شتوية ، فوق مناجم الذهب وتضاريس الطريق الملتوى حول المستودعات فى منطقة "إيست راند" ، لماذا لا أتوقف هنا مثل زميل الطائرة القادم من سان "فرنسيسكو" ، كى أكتشف بعض القرى العجوز المتبقية فى سهل " ثيتالى" ، أو كوخ فى التلال ؟ فربما لم تفقد اليونان سحرها ، وربما كان هناك طريق للتوفيق والتصالح ، طريق بين الماضى والحاضر، فزيارة اليونان مثل الحج، تحتاج أن تقوم به ولو مرة واحدة .

ترددت التنبيهات من خلال جهاز النداء الخارجى، أسرعرت إلى التروल्ली، وقفزت داخله وهو يتحرك، ضوء الشمس المنحدرة بسرعة، كان يخطط مظلة المحطة الإسمتية ، حين اقتربنا، اندفع وميض بطن الطائرة الأملس إلى عيوننا. أحنيت رأسى بسرعة وكنت آخر راكب يدخل من باب الطائرة المقوس ، عند مكانى خلف الجناح وجدت الكرسي المجاور وقد تركه الأمريكى خالياً، الآن تستقر فيه فتاة الموكب الصغير ، هبت واقفة فى الحال ، وصافحتنى ، وبدأت فى ضوء كوة الطائرة متوردة ومحتدمة بالانفعال ، كل حركة بسيطة من حركاتها كان لها تدفق الطبيعة، كتلك التى لبعض الكائنات غير خاضعة لرقابة نصف مروضة ، ترددت تحيتها بسحر غريب ، وفى عينيها كان أثر دموع.

عادت إلى مقعدها، وفوراً تشبثت بنافذة الطائرة ، لتلقى نظرة خاطفة على الأشكال البعيدة عبر ممر الإقلاع ، فضت منديلاً كان مطوياً بإحكام فى يدها، وراحت تلوح به عند نافذة الطائرة ، لن يرى أحد هذه التلوينة الأخيرة ، اهتزت الطائرة عند دوران محركات الانطلاق ، كانت الورد

التي فى شعر الفتاة من زهر البرتقال ، وإصبع اليد التي على النافذة ،
يحمل القيد الذهبى اللامع لخاتم زواج حديث .

بكت فى صمت ، والرجفة العنيفة التي اجتاحتها بسبب فراق الوطن
لم تبد شيئاً ذا بال أمام الاضطراب الكبير الذي يضطرم داخلها ، دمدمت
الآلة على طول ممر الإقلاع ، وبقوس واسع انعطفت ثم توقفت بتوازن كى
تقلع ، واهتزت الطائرة من قوة تشغيل محركاتها ، كنا ننزلق على الأرض ،
وتعاضم تدفق الدخان الأسود المندفع من المحركات ، تمت الدفعة الأخيرة
لأعلى ، تلاها إحساس بالراحة عندما تأرجحنا تجاه السحب البرتقالية عند
حافة الأرض .

البحر المفتوح من تحتنا أزرق داكن ، وبعيداً ناحية الغرب ، فوق بقعة
من الأرض مليئة بالدخان ، كان قرص الشمس الغاربة يرقد فى المياه .

فجأة ، ظهرت بجلاء على الفتاة دهشة الرحلة الأولى ، كان فمها
مفتوحاً ، نظرت حولها ولمست الستارة والنافذة كأنها تتأكد من شكوكها
بحواسها ، عندما التقت بعينى ، وكان بهما ضحك خفيف واستغراب ،
وتأثر شديد ، قالت شيئاً بهدوء ، هازة رأسها ، وتلألأت الدموع على
أهدابها ، لكن خفت وطأة الشجن وخرج الخوف ، وبعد هنيهة لمست
ذراعى وأشارت منفعة إلى شىء على الأرض ، حملت إلى حيث
أشارت عبر النافذة ، كانت أثينا تغيب فى البحر والليل ، وسفintان
تضاءلتا إلى حجم ورقتى شجر فى بركة ، كانت تجران وراءهما أثرهما
الضعيف فى الماء ، كنا بالفعل قد بلغنا مستوى السحاب ؛ على مسافة
كبيرة ، والسحب تتوالى كسرب من طيور "الفلامنجو" العائدة .

فكرت في أنه من المستحسن العودة لمطالعة مجلتي ، فلم تكن هناك طريقة للمسامرة معها ، وليس من معنى أن أجلس متطلعاً لجمالها الأخاذ فحسب ، لم تكن على قدر كاف من الوعي بالصعوبات التي ستواجهها ، وبعد أن جففت عينيها وطوت منديلها ووضعت في طية ثدييها ، بدت هادئة ومستعدة لاستكشاف ما حولها من غرابة .

قالت وهي تخط على صدرها : "إيكاترينا"

قلت لها اسمي : نيل ، "نيل جوردان" ، هذا التعارف استدعى مصافحة أخرى باليد ، وابتهجت لكونها فُهمت بسهولة ، وباستعمال مجموعة من الإشارات والإيماءات ، استطعت أن أجيب على أسئلتها بأنني لست إنجليزياً ولا ألمانياً ولا أمريكياً ، بل مواطن من چوهانسبرج .

"آ . . آ . . ، "چوهانسبرج" ! " ذلك كان المكان الذي سوف تتجه إليه هي أيضاً ، كم أنا محظوظة ، كم هو رائع ، وكم هو غريب - كانت تلك واحدة من الإيماءات ، أو ربما جميعها ، التي تناسب ما نطقت به نظرتها ، خبطت يديها إحداهما في الأخرى ، وضيق عينيها ، وعلى الفور انطلقنا في رفقة حميمة ودافئة ، كأن التلال الصخرية ذاتها كانت تأوينا ، وإن لم يكن في الكوخ نفسه ، راحت ترقزق بتؤدة ، وتغيرت تعبيرات وجهها من حين لآخر ، وتوهجت شفتاها ، وبلا قصد أدارت خاتم الزواج في إصبعها ، ونظرت مكتئة ، ثم ابتسمت بغموض ، متذكرة شيئاً ما ، ولم يشغلها أنها غير مفهومة على الإطلاق ، شعرتُ بتدفق كلماتها ، هذا الكلام كان بمثابة عزاءٍ لها ويبحث بإصرار عما يقويها ، كانت مثل طفلة تحدث نفسها أو أم تسرد أفكارها لوليدها ، لم أكن مخطئاً

بشأنها ، للحظة نظرت إلى بلاء عينيها ، لكن عينيها بقيتا غائمتين وحزيتين ، وعندما توقفت عن الكلام قليلاً ، قلت إنها تشبه الصورة التي رسمتها في خيالي لأندروماك أو " إيثيچينيا " .

هزت رأسها بقوة أن لا ، إنها ليست " أندروماك " ولا " إيثيچينيا " ، إنها . . . " إي-كات-ر-ينا " . لم أجرؤ على الابتسام ، لكن الفتاة أحست بسرعة أنها قالت شيئاً مضحكاً ، فانفجرت ضاحكة .

أخيراً قالت بطريقة ذات مغزى : " نيل . . . چوهانسبرج " ، وهي تعنى ، من يدرى ، ربما فى يوم ما يمكننى أن أخبرها ماذا كنت أقول .

كانت مضيضة الطائفة مارة ، فأوقفتها لأسألها إذا ما كانت تعرف اليونانية ، قالت باللهجة " الترנסفالية " الواضحة : " ولا كلمة ، لكن هناك سيداً فى الخلف ، يجلس على الممر الذى بين الكراسى ، يبدو يونانياً ، وسوف أسأله ، " كان إيطالياً ، لكنه كان تواقاً بشدة لتبديل الأماكن معى وتسليّة الشابة .

قلت للمضيضة : " أخبريه أن يذهب للجحيم . . . "

أضيئت الأنوار ؛ على ارتفاع سبعة أميال ، كان الأفق ينسحب إلى شريط بنفسجى منير ، وقليل من النجوم الواهنة تؤطر الفضاء البنفسجى للنافذة . خلعت الفتاة سترتها ، وكشفت عن بلوزة مطرزة بدقة وصدارة من الكتان الرقيق ، ولم تكن ترتدى ملابس تحتية ، دعتنى لإبداء إعجابى بالبلوزة ، فابتسمت ، واستدارت فى مواجهتى تستعرض بلوزتها بطريقة أبرزت حلمتها ، من الواضح أنها طرزت البلوزة بنفسها ، تلك التى كلفتها ساعات لا حصر لها من الصبر ، على عكس " الجاكيت " الجاهز الأصفر

الفقير، كانت البلوزة قطعة ذات شخصية ، وربما ذات نكهة تقليدية .
أسرفت في امتداحها ، وظلت ترقب تعبيراتي بحماس وتورد خفيف ،
انقلبت عيناها حزيتين ، جلست متفكرة ، راحت تسوى تنورتها ، ثم
انحنت لتزيل التراب عن حذائها الأسود "اللميع" ، قررت ، وأخرجت
من حقيبتها كيساً مربعاً ، أخرجت منه جواز سفرها الذى وضعت بين
يدي . كان جواز سفر صادراً من بلدى ، بكلمات إنجليزية وأفريكانية
مألوفة . الوجه الصغير الخائف الذى لاح فى الصورة، بعيد الشبه عن وجه
إيكاترينا الجميل ، كيف حدث وأصبحت مواطنة من جنوب إفريقيا ؟ إنها
لم تكن هناك من قبل قط ، ولا وضعت قدميها خارج موطنها " هيلاس " (٣٨)
الفاتن الفقير المحطم .

لم أجد صعوبة فى تكوين صورة ما حدث ، فقد استبدلت جنسيتها
بعملية زواج بسيطة ، بالزواج من أحد مواطنى بلدى ، وزوجها ؟ كان فى
" چوهانسبرج " ، ستلتقيه هناك ، لم تكن قد رآته قط ، فقد هزت رأسها
نفياً بشدة ، تزوجته بتوكيل ، ووقف أخوها مكان العريس ، رتب الوالدان
الزواج ، جمعت كل هذا جميعاً ، فاكتملت الصورة ، تكفل الزوج بكل
شئ ، لقد دفع ثمنها ، أرسل المال لرحلة الطيران ، وملابسها كانت
بائنتها ، ثم أصدر لها القنصل جواز السفر وتصريح الهجرة ، اتقد وجه
"إيكاترينا" ، وقبضت على الوثائق بقوة

كان العشاء سيقدم بعد نصف ساعة، لكننى طلبت زجاجة
"بوجوليه" لنشرب نخب سعادتها، جاء المسافر الإيطالى ومال فوق المقعد ،
أخبرته أن إيكاترينا قد تزوجت هذا الصباح، ودعوته ليشرب نخباً ، جرب

(٣٨) هيلارس : اليونان

الحديث إليها، بالإيطالية ، والإسبانية ، والألمانية ، لكنها نظرت إليه
محدقة فحسب ، رفع كأسه وأصر على تقبيل يدها الصغيرة ، القوية الخشنة
من العمل .

قال : " مهما كانت عائلتها ، فهي جميلة جداً ، هل أنت مرافقها ؟ "
نفيت ذلك . . . وأوضحت له أنى أحاول قدر جهدى التصرف بلباقة ،
ولدى فرصة طيبة للنجاح فى ذلك .

" إنها مجرد طفلة . "

أعرف كم عمرها ، فقد رأيت جواز سفرها توأ ، " سنور ، ألا زلت
تريد تسليتها ؟ "

هز كتفيه استهجاناً دون أية مداراة عائداً إلى مقعده ، قالت إيكاترينا
شيئاً ، وابتسمت ، رشفت رشفة من النبيذ ، ولحظت شرودها ، كانت
قصيرة القامة ، لا يزيد طولها عن خمسة أقدام ، لكن هذا لم يكن يقلل
من تأثيرها الأخاذ ، فجمالها طبيعي ، خالد ، غير منتهك ، لم يكن
يشعرنى بوجودها فى الواقع الفعلى سوى الدقات الضعيفة غير المرئية
لنبضها ، والبريق الخفيف للزغب الغامق على ساعديها .

تحولت إلى بجدية وهى قلقة ، قررت شيئاً ، ويبدو أن هذا الأمر
كان يشير شكوكها ، أتت بإشارة حازمة ، كأنها تحتكم إلى لدعم قضية
مقدسة وخطيرة ، ثم مدت بهدوء صورة فوتوغرافية وسلمتها لى .

كانت الصورة المطبوعة فى حجم البطاقة البريدية ، لشاب فى حوالى الثامنة والعشرين أو الثلاثين ، له شعر أسود يتكتل بكثافة فوق جبهة مسطحة عريضة ؛ كان الوجه كريماً بطريقته ، قويا إن لم يكن وسيماً ، بعينه نظرة مؤرقة لفتت انتباهى ، كانت الصورة قد وضبت بالقص ، إلا أن ما تبقى منها كان كافياً لإظهار الشاب وهو يستند بظهره إلى سيارة لامعة جديدة .

من هو ؟ بالطبع كان زوجها الذى لم تره من قبل قط ، قالت لى : " سافس أثاناسيادس ! " لم أرفع عينى عن الصورة ، لأننى كنت أعرف أنها تراقبنى فى صمت قاتل وتوتر ، يعتبر " سافس " قياساً إلى العربية ، قصيراً بشكل غير عادى ، بالتأكيد لا يزيد عن خمسة أقدام ، كنت أمتلك سيارة مثل تلك ، قبل الحرب ، لم أراد العريس أن يظهر فى صورة إلى جوار سيارة شيفروليه عمرها ثلاثون عاماً ، هذا شأنه على أية حال .

أردت أن تصل إليها فكرة أننى سعيد بلا أدنى شك ، رجل شريف وسيد مهذب ، ورجل عظيم ، هذا هو " سافس أثاناسيادس " .

تجنبت النظر لعينيها ، ورحت أصب النبذ فى الكأسين مرة أخرى ، وحين رفعت عينى إليها ، أدركت أن حدسها قد تيقظ بحدة ، إن بعض قوى النساء تفوق القوانين الطبيعية ، والمنطق ، والأحاسيس الفيزيائية ، نظرة " إيكاترينا " قالت لى إنها لا تصدقنى - فلم تطرف عيناها ، وأطبقت فمها كأنه نُحت من مرمر إيطالى وردى ، واستقر أنفها المستقيم وحاجباها فى جمود . بعد ذلك خفضت عينيها وتنهدت ، غلفت صورة " سافس " بحرص ، ووضعتها فى مكانها ، انتبهت لكأسها ، ورفعتها بإيماء وقالت : " چوهانسبرج " .

وكان نخبي .. " أثينا ! " راحت تكرر ، وأضافت بكآبة ،
وابتسامة حزينة : " فارى " ، لم أكن أعرف " فارى " ، وحاولت تخيلها ..
بلدة صغيرة قديمة مبنية على تل مدرج من فتات الأحجار الذهبية ، لكن
الصورة التى خلفها اسم البلدة ، أشار إلى بلدة صناعية ممتلئة بالدخان
والمخلفات وآلاف الشوارع المزدهمة ، " فارى " ، أينما كانت ، ومهما كانت ،
فهى لا تزال تملك قوة وسحر الماضى ، وفيها تركت " إيكاترينا " أحلامها .

قُدم العشاء على صوان بلاستيكية ، فى أوعية أنيقة معقمة ، والعلبة
مغلقة - نوع من الوجبات عديمة المذاق غير المميزة بأية ميزة - بأية أحد يمكنه
أن يبدأ من حيث يشاء وينتهى بشعور خيبة الأمل نفسه ، راحت إيكاترينا
تأكلها بالملاحظة والتقليد ، أريتها كيف تمسك بسكيتها والشوكة ، فتدبرت
الأمر بلا أى مظهر للخجل أو الارتباك ، توردت تورداً خفيفاً من الخمر ،
فكانت تغمز لى من وقت لآخر بطريقة جميلة ، كانت تخلق فوق سحابة
تحملها إلى جبال " الأوليمب " قبل وليمة من ولائم الآلهة .

هبطنا فى الخرطوم ، وتركنا الطائرة لفترة قصيرة حتى تُفحص وترش
ضد الذباب والبعوض ، الليل الإفريقى الحى التف علينا ، خانقاً ، ثقيل
الوطأة ، برائحة لا يمكن تسميتها ، اقتربت إيكاترينا منى حين كنا نمشى
بتمهل فوق الطريق الأسفلتى ، ترنح الذباب الدائع فوق الموائد القذرة فى
المطعم ، وشرب المسافرون الليمونادة الفاترة التى كان مذاقها بطعم الصابون
المعطر ، حددت الفتاة فى السكان طوال القسامة ، المرتدين الأبيض مع
الطرايش والأحزمة الحمراء ، وأباريقهم الزجاجية الطويلة ممتلئة بسائل
مقزز . راح بائع متجول يفرد عليها حبراً يابانياً من الألياف الصناعية

الرخيصة ، فالتمعت عيناها بالسرور والأسف ، عرضت عليها أن أهديه لها ، لكنها رفضت برقة ، هازة رأسها ، لا ، لا ، لا ، شكرتني ، لكن لا ، ومستحيل ، ليس لأنني كنت غريباً ، لم يكن الأمر كذلك . ماذا ؟ ربما قد لا تستطيع أن ترد أى شيء فى المقابل ، درجة الحرارة تعدت المائة ، وكانت تروّح على نفسها بمنديل مضلع ، دس البائع المتجول مروحة من البامبو فى يدها ، كانت تساوى بضعة سنتات ، ولم يكن معى سوى جنيهاً صحيحة - لكن هذا أمر مختلف - فهذه المروحة ضرورية .

أقلعت الطائرة مرة أخرى ، وهى تعلو أكثر فأكثر فوق إفريقيا النائمة ، سبحت الأضواء الأخيرة فى طريق النسيان ، ولبرهة رقد النيل كفلق فضى رشيق ، جاذباً ضوء القمر إلى أن اندمج هو أيضاً مع الأرض السمراء ، وظللنا نواصل الصعود وحدنا نحو السماء اللبينة المضيئة ، خُفضت أنوار الكابينة ، وكل الحمولة البشرية راحت تعدل من أوضاعها ، رجعوا فى كراسيهم للخلف واستقروا فى أماكنهم الضيقة ، متتهزين الفرصة للنوم ، استدارت تجاه النافذة ، أما أنا فرجعت فى الكرسي للخلف ونعست بطريقة غير مريحة : ركبة مضغوطة فى المقعد المقابل ، والساق الأخرى ممدودة لمسافة فى المشى بين الكراسي ، كان ورائى إفريقى ضخم بذقن تدلت طياتها ثلاثاً ، ورأس مخلوق - دبلوماسى من إحدى الدول الجديدة - راح يغط غطيظاً فائق الغلظة من ورائى .

بعد نصف ساعة من الطيران بامتداد العمود الفقرى للقارة ، استيقظت دائخاً ، ومثل عجل حديث الولادة أو جرو ، دنت إيكاترينا منى واستكنت التماساً للدفع والحماية ، كان ذراعها يلتف حول عنقى ووجهها

نصف مدفون فى كتفى ، انبعثت منها رائحة دافئة حلوة ، مثل رائحة العشب أو أرض سوداء محروثة حديثاً ، استغرقت فى النوم بسرعة ، وانطلقت روحها ، عائدة إلى "فارى" ، عائدة إلى شارع بأكواخ صغيرة هادئة ، إلى حجرة واحدة ممتلئة بالأخوات والأخوة ، وجدى على الأرض ، وحمل ، وكلب أو ربما اثنين ، ودجاج راقد ، رحت أتساءل فى نفسى عما إذا كانت قد نامت وحدها من قبل فى أى وقت ، من كنت أنا فى نعاسها ، من كانت تحتضنه بين ذراعيها النحيلين ؟ هل هو أخ صغير ، لم يكن يكف عن البكاء ؟ أم أخت لا تهدأ من الجوع ؟ لم أفهم كيف بيعت الطفلة الجميلة ، أو باعت نفسها إلى عريس غير معروف لها ، "سافس أثانا سيادس" ، الذى ربما كان رجلاً ذا حيثة ومكانة ممتازة فى مجال مميز ، والآن يعود إلى جذوره ، إلى الماضى ، إلى ما قبل زمن "بايرون" ، إلى ما قبل الغزو التركى ، والعصور الوسطى ؛ عاد ليختار عروساً من سلالاته ، من الدم اليونانى الخالد ، فىا ليته يكون رجلاً يستحق ذلك ، يكون مثل إله إغريقى لعن ، وليس كما يقال فى النكات ، إغريقى ملعون من الآلهة ، لم أستطع كبح جماح هذه الأفكار المدومة ، فقد كنت نصف مخدر من الإرهاق بتأثير تخليق الطائفة فى الطبقات العليا من الغلاف الجوى على أجهزتى ، لم يكن سهلاً القول بأن الفتاة "إيكاترينا" لا تمثل شيئاً بالنسبة لى ، حين كانت مستغرقة فى النوم مستدفئة ، ومفعمة بالحياة لصق جسدى .

نعستُ ، وعندما استيقظت ، وجدت إيكاترينا مستيقظة ، تنظر إلى وعيناها على اتساعهما ، لكنها لم تتحرك ، كم من الوقت ظلت تحملق فىّ على هذا النحو ؟

قلت بكسل: " هاللو، إيكاترينا . "

" إيلو " .

ثم أغمضت عينيها ، ولفت ذراعيها حولي بإحكام أكثر ، وأراحت وجهها ليستقر بمكانه على كتفي وعادت للنوم .

" إيكاترينا ، أنا أتحدث إليك . "

حركة خفيفة من رأسها أوضحت أنها مستيقظة .

اسمعي ، ربما يكون طيباً أنك لا تفهمين ما أقول ، إيكاترينا ، أنصتي ، لا يجب أن تكوني هنا ، عودي لموطنك ، انتهزي أول فرصة لتعودي ، ربما تكون هذه تجربة ناجحة ، لكنها مخاطرة ، وإهانة ، إنها خطوة خاطئة من البداية ، ولن تنقذ أحداً ، أنت لست قطعة أثاث ، إنك لست أسيرة ، لا أحد يعرف ما الحرية إلى أن تسلب منه ، عودي وتعلمي أن تكوني حرة . لقد سلبوا منك ماضيك ، وأنت تغامرين بالمستقبل ، " إيكاترينا " ، لا تهربي ، لا بد من أن تعرفي أنه من الأفضل أن نموت ونحن نقاوم .

هكذا راحت تلك الأفكار تجول برأسي وأنا أحادث نفسي تقريباً ، لا هي ، ولا أحد غيرها يمكنه تمييز أى شيء من هذا بسبب طنين الآلات حولنا ، ربما وصلها شيء ما من خلال نبذة صوتي ، ومرة أخرى ، أدركت إلى أى حد كانت متوترة ، ومنتبهة ، وحساسة ، فقد راحت تبكي .

شقت الطائفة الكبيرة طريقها في الظلمة الناعمة ، رقدت إفريقيا تحتنا كعملاق يغط أثناء رياح ليلة طويلة ، ظهر لون أخضر في الظلام الخارجي

عند جناح الطائرة ، ومن كابينة الطيار البعيدة ، تخيلت أننى أسمع شيئاً رتيباً ، ما هى الرسالة التى كانت تخترق الغلاف الجوى الرقيق؟ بعيداً بالأسفل ، رجال ونساء نائمون فى الدفء كأنهم موتى ، والبعض يطن فوقهم ، والعناكب و"أم أربعة وأربعين" تتحرك حولهم فى العشب .

بكت "إيكاترينا" بهدوء لفترة وجيزة ، كأن ذرف الدموع ترف كبير بالنسبة لإنسان بسيط اعتاد المعاناة ، أمسكت بيدي وقبلتها قبل أن تتمكن من سحبها ، إظهار فريد للمشاعر الحسية الممتنة ، لكن بالنسبة لى كان تعبيراً غير محتمل ، جففت عينيها وأنفها ببراءة فى ظهر يدها ، وتحدثت بمرح طفل ، بدت خجلة من أن أرى فى حزنها ضعفاً ، ولبضع دقائق ، جلست فى مقعدها منتصبه متصنعة الجدية ورأسها مرفوع ، سريعاً ما تمايل رأسها من النعاس ثانية ، ارتخى جسمها ، وانفرد ذراعها فى ظل طمأنينة غريزية وشعور بالحب.

وصلنا فوق هضبة "الترنسفال" قبل الفجر ، الأضواء الخافتة الغائمة تصارع للظهور عند بعض المدن الواقعة فوق هذه الهضبة ، خلفها ، مثل خنجر أحمر حاد ، زحفت نيران الهضبة إلى ما فوق التلال ، عندئذ بدأ الأفق يللمم الألوان الوردية والأرجوانية ، وسرعان ما ظهرت الأرض ذاتها خارجة من الفضاء ، راح المسافرون يتحركون ، ذهبت إلى مؤخرة الطائرة كى أحلق ، عندما عدت إلى مقعدى وجدت إيكاترينا فى حالة احتياج ، لقد فقدت شيئاً ، كانت تبحث فى كل مكان ، ومضيفه الطائرة وصلت عندها وظلت واقفة فى حيرة ، لا أعرف لماذا كانت الفتاة الإغريقية تنشج وتلوح بيديها ، ودموعها توقفت لامعة فى عينيها السوداوين ، لم يستطع

أحد أن يفهم لِمَ كان كل هذا؟! ، كان المسافر الإيطالى هناك ، نزل بفروسية على يديه وركبتيه ليساعد فى البحث .

سألته : " سنيور ، عن أى شىء تبحث ؟ "

وقف على قدميه ، ونظر إلى " بغيظ " ، قال الإيطالى : " الفتاة فى حالة سيئة ، ماذا فعلت بها ؟ "

" سنيور ، إنك لم تنم جيداً . "

" نعم ! أنا لا يمكننى أن أنام فى تلك . . . رحلات الطيران تلك . "

" إذن ، من الأفضل أن تسافر على جمل . "

عاد إلى مقعده ، استغاثت " إيكاترينا " بى ، لكننى لم يكن لدى فكرة أكثر من أى أحد آخر عما فقدت ، مهما كان هذا الشىء ، فمن المحتمل أنه فقد فى الخرطوم .

ألقت ذراعيها إلى جانبيها قائلة : " الخرطوم " ، لقد سُرقَت ما فى ذلك من شك ، سرقها السودانيون ، شرعت تندب هذا الظلم ، بينما أمسك مسافر يجلس عند آخر المشى لفة من ورق الجرائد مربوطة بخيط ، آه ، تلك هى - صحف الأمس الإغريقية ، من أجل أن يقرأها سافس ، " أثينا " فى المساء ، " يوهانسبرج " فى اليوم التالى ، معجزة لأجل " أثانا سيادس " الطيب .

ساعدتها على إنزال حقائبها وصناديقها ، كان وجهها عاجياً فى الجو الصقيعى ، رفعت طرف ياقة معطفها ، ونظرت حولها فى خوف ، عند

مكتب جوازات الهجرة انفصلنا ، ولم أرها مرة أخرى إلى أن خرجت إلى الساحة الرئيسية لمبنى المطار ، خلف أصص سعف النخيل ، وكشك ومجموعات من المقاعد الطويلة مكسوة بالجلد الأخضر ، وقفت إيكاترينا ، بين مجموعة من أربعة أو خمسة ، وقد أحنّت رأسها وأخفت وجهها بين يديها ، لم أعرف أيهم كان " سافس " ؛ فلا يوجد أى شخص ينطبق عليه الشبه الذى بالصورة .

رفعت إيكاترينا رأسها ، وحدقت حولها ، رأيتنى ، فجاءت تجرى عبر الصالة ، وضعت جبهتها على صدرى مثل طفل ، وراحت تنشج ، جماعة الغرباء الصغيرة الكثيرة نظرت من على بعد ، الآن رأيت " سافس " هناك ، العريس بشحمه ولحمه ، كان يحمل قبعة سوداء فى يد ، وبالأخرى كان يمسح بمنديل فوق رأسه ، هو بلا شك " أثاناسيادس " ، أصلع تمامًا ، مسن وبدين جداً ، يقارب طوله عرضه ، وكنت قد توقعت ذلك .

" إيكاترينا ، سوف أساعدك على العودة إذا رغبت ، إلى أثينا ، فارى . . . "

أعطيتها بطاقتى ، حملت فيها بعينين تغشاهما الدموع ، ثم أمسكت يدي بقوة للحظة ، وجففت دموعها ، وبإيماءة إلى ، مضت ببطء وكبرياء .

التقيت ابنى وزوجته اللذين وجدانى واقفاً هناك أحرق خلف إيكاترينا بعد انسحابها .

سألت لورين : " من تكون تلك التمثال الجميل الصغيرة ؟ "

" إيكاترينا ! "

"أهى قصة حب ؟"

"لورين" ، لا أعرف ، تبدو لى نهاية حزينة ، كنهاية تشبه نهاية
إيفجينيا!"

على الإفطار فى المطعم الواسع البسيط المبهج ، راحا يمزحان معى
حول إيكاترينا.

"ببساطة ، ربما تكون قد فهمت كل شىء خطأ ، على أية حال ، لم
تكن قادراً على فهم كلامها ، وكان عليك الاعتماد على خيالك لملأ الثغرات ."
"غريزتى ."

" لا يمكنك أن تثق بغريزتك ، المرأة فقط يمكنها أن تجازف بذلك ."

كان يجب أن أتحدث مع " سافس أثاناسيادس " ، والآن لا أعرف
أين أجده ، اسمه ليس فى الدليل ، انتظرت على أمل أن أسمع شيئاً من
إيكاترينا ، لكن لم يحدث شىء ، ولا كلمة ، أين هى ؟ إننى أتذكر كيف
كانت تمشى مبتعدة ، ورأسها مرفوع ، بهدوء ، لكن بلا جرأة ، وشعرها
الأسود البراق ، وتاييرها الأصفر - "الآن أترك نفسى مع التيار . . . فربما
كانت "لورين" على حق ."

أربعة أيام الآن ، ولم أسمع شيئاً .

تأليف: إنجريد يونكر (٣٩)

من مكانها حيث كانت تقف عند النافذة ، استطاعت سوزان أن ترى التل الصخرى كطيف يلوح من بعيد من خلال ضباب الصباح ، ذلك المكان الذى كان التيس يفضل التجول حوله ، فى هذا الوقت لابد من أن يهبط من أعلى المنحدر الجبلى ، يجد فى السير تحت ركام الضباب الأبيض ، إذا ما أدارت وجهها فى اتجاه الريح ، كانت واثقة من أنها ستراه واقفاً هناك تحت شجرة السنط ، بالضبط ، خلف السياج السلكى لحديقته ، لكنها ثبتت نظرها عند الخط القريب من شجيرات الورد ، تفتقت بعض البراعم مزهرة ، عندما مس النسيم سوزان مرة أخرى ، تحولت بعيداً عن النافذة ، ولفت " الروب " الحريرى الأزرق على بطنها المرتفع .

نادت : " هاين ! "

لم يتحرك من نومه أدنى حركة ، كأنه اعتاد ذلك الصوت اللحوي الذى يصرخ باسمه دائماً ، كان يرقد على جنبه ، ويده التى تحت خده ، غضنت جلد الوجه ، ذلك الوجه الذى لوحته الشمس ، لحيته المحددة

(٣٩) ترجمها إلى الإنجليزية عن اللغة الإفريقية كل من المؤلفة " وچاك كوب "

البارزة استوت على الغطاء ، تذكرت "سوزان" عمل هاتين اليدين فى حَلْب الماعز ، وغرس البذور ، والمقدرة الراسخة لمعصميه النحيلين ، والفرح المنبعث من بين أصابعه ، إلا أنه فى الآونة الأخيرة راح يتعد عن المنزل ، ويهمل إنجاز الأعمال المطلوبة منه باستمرار ، عندما أحضرت له قهوة الصباح ، رفع نفسه بهزة وراح يشربها بشراهة ويزدرد رشقات صغيرة متلاحقة بصوت مسموع ، فوراً . . . حدقت من النافذة إلى الخارج ؛ ونظرت إلى الجانب الآخر من حديقة الورد تستطلع ما تحت شجرة السنط ، لم تتمكن من تمييز هيئة الحيوان فى الضباب ، لكنها رأت رقعة أشد بياضاً مما حولها ، راحت تحديق فى الضباب حتى استشفت الخطوط الخارجية الباهتة لهيئة التيس ، انزاح الضباب تدريجياً ، عند ذلك أيقنت أن التيس يتقدم بخطواته الحذرة ، الحريصة ، متحدياً إياها .

نطح التيس الهواء بغطرسة بضع مرات ، وانتفش شعر قدميه الضارب للصفرة مع النسيم ، وقد ثبتت عينيه الخاليتين من أى تعبير باطراد عليها ، من خلفه ، وقفت شجرة السنط بأوراق قليلة وبراعم متفخة صفراء فى مواجهة زرقة السماء الشاحبة .

نهض الرجل من السرير ، بجسمه النحيف الأبيض ، وبطنه المتغضن ، وركبتيه الممتلئتين بالعقد ، "ما الذى تحديق فيه يا امرأة ؟"

رأت التيس يستدير ، ويرعى العشب مطمئناً غير عابئ بأحد ومؤخرته تجاهها ، مشت متمائلة على الجنبيين ناحية الرجل الواقف فى منتصف الغرفة يدعك صدره بيديه بوهن : "سوف أقتل هذا التيس فى يوم من تلك الأيام الجميلة ."

" من الذى سَيُقْتَلُ ، التيس ؟ "

" نعم ، أنا أحذرك ، سوف أقطع رأسه . "

" هذه مصيبة كبيرة ، ماذا لديك ضد هذا الشيء النتن ؟ "

أشارت بذراعها بنفاد صبر ناحية النافذة : " أنا ، ضده إننى أحذرك
لأبد من أن تبيعه . "

" أف ، أسقطيه من حسابك . "

" إذن ، لِمَ هو قابع هنا ؟ "

" حسنًا ، لا أعرف ، أظن أنه موقعنا ، والماعز يجول من حولنا ، ولِمَ
لا يفعل ؟ "

" لِمَ لا ؟ لِمَ لا يمكث مع بقية الماعز فوق التل ؟ ماذا يريد ؟ "

" رحمتك يا رب ، ما الإثم الذى ارتكبه فى حقك هذا التيس ؟ "

" يحاول دخول فنائى . "

" أنت تعرفين أنه لا يمكنه دخول الفناء الخلفى ، فالبوابة الخلفية
مغلقة . "

" فقط ، دعه يفعل ذلك . "

" أف ، الآن ، يا امرأة . . . "

" أوكد لك ، أننى مستعدة له . . . ب . . . عيونه الوقحة الآثمة . "

" حسناً، فلتحل على اللعنة ! "

كان يقف هناك عارياً تماماً ، فقالت : " أوه ، اذهب وارقد ملابسك .
هل تظن أنني أحتاج لرؤيتك على هذا النحو طوال اليوم ؟ تحرك واطرد
هذا التيس لأعلى التل حيث مكانه . "

هز كتفيه استخفاً وسحب " شورتة " الكاكي وقميصاً صوفياً من
الكومة التي على المقعد ، مديراً لها ظهره وهو يرتدى ملابسه .

قالت سوزان : " طلعت الشمس منذ ساعات ، " ثم راحت تغمغم :
" لا يريد أن يعمل ، ومع ذلك يوهم نفسه بأنه أب . "

أسرع ينتعل حذاءه ، وانطلق خارجاً من الغرفة ، لكنها استوقفتها :
" طبعاً ، تخرج دون اغتسال . . لأنك رجل ، " فخرج من الباب يعدو دون
توقف .

أحياناً كانت تتباطأ أفكارها حول أحضانه العصبية ، ويخيل إليها في
أحيانٍ أخرى ، أنها تراه يمشى وعند طرفي كتفيه شيء صلب ، وفي المرات
التي كان يرقد هادئاً ويستمتع بدفئه الخاص ، كانت تعاتبه بصمتها البارد .
لقد أصبح الآن غريباً عنها ، حتى المولود المنتظر لم يعد ذا قيمة بالنسبة لها .

كانت قد ارتدت ملابسها عندما سمعت صوت تشغيل محرك اللورى
يدوى فى الصمت ، فجأة ، أفزعها هدوء البيت ، فهي لم تسمع صوت
" لينا " فى المطبخ ، انقشع الضباب ، من المحتمل أن " هاين " قد ساق
التيس إلى التل أخيراً ، فمكانه تحت شجرة السنط أصبح خالياً .

تكدست الصحنون فى حوض المطبخ ، يغطيها بعض الذباب ، كوب
"لينا" الخزفى الأزرق كان يعلوه الزبد فوق الموقد ، تفحصت "سوزان"
المكان حولها ثم شاهدت من باب المطبخ ، الفتاة الملونة قادمة تخطر فى
مشيتها بخطوات راقصة مارة بمحاذاة شجيرات الورد. خيل لسوزان ، كأن
الفتاة تخطر متمائلة على إيقاع نغمة حزينة ، لكن عندما ظهرت فى
الشمس رأت ابتسامتها . وقد تقاطعت أشعة الشمس على أكتافها،
وسقطت على نهديها المتحررين تحت الصدارة الصوفية ، توقفت الفتاة عند
بوابة الحديقة ، وأراحت يدها عليها، ثم أدارت رأسها، كأنها تنصت لتلك
الأغنية وهى تخبو وتتلاشى بين أشجار البستان.

" لينا! "

فتحت الفتاة البوابة وأسرعت بالدخول .

" هل كنت فى الخارج لمقابلة " ياجر " مرة أخرى؟ وكل الصحنون
المتسخة متروكة بالحوض! "

عندما مرت الفتاة منسلة من أمامها ، شىء ما فى تصرف المرأة جعلها
تلقى نظرة على الوجه المتنفخ .

" هل فقدت لسانك ؟ "

" سيدتى "

" أنا أسألك هل كنت مع " ياجر " مرة أخرى؟ "

" نعم، يا سيدتى . "

" لآى سبب؟ "

" حملت له قهوته "

" وماذا عن عملك فى البيت ؟ اسمعى . . إنك تتخطين حدود واجباتك ، "لينا" ، كُفى عن المراوغة ، إن "ياجر" الملعون عليه أن يحصل على قهوته بنفسه إذا أرادها ، هل لابد لى من أن أخبرك بذلك كل مرة ؟ "

عندما عادت "سوزان" للمطبخ لتجمع أدوات تشذيب الحشائش ، كانت "لينا" تجفف الصحون بطريقتها الرشيقة السريعة ، للحظة ، حدثت فى ظهر الفتاة وراحت تراقب حركة كتفيها.

غمغمت "سوزا" ن متذمرة : "حسناً ، أظن أنه ضاجعك ، أليس كذلك؟" ثم استدارت وتناولت مقص الحشائش وراحت تدمدم فى سرها ، نظرت إليها : "على أية حال هو أكبر منك جداً ، حصاد مبكر يعنى عفناً مبكراً ، " ثم اندفعت فى غضب قائلة : " لا أرغب فى أى رقاد مع الرجال هنا ، هل تسمعينى ؟ "

مرت على الوجه الشاب اليانع للفتاة بنظرات خاطفة ، الفم مفتوح قليلاً كأنه ينتظر قبلة ، وفوق الفم عينا بلونهما البنى الغامق - مستاءتان .

لمع المقص فى الحديقة ، وألقت النار بريقها على حوائط البيت البيضاء ، وقفت متلكئة عند شجرة الورد الأولى ، مدت يديها بحرص بين أوراقها ولمست برعماً متفتحاً ، كانت التويجات ما تزال مطوية برقة ، هزت رأسها : " تلك الورد مازالت قادرة على أن تزهر فى مثل هذه الأرض ! "

تمطى الطفل وتحرك حركة خفيفة تحت قلبها ، جلست تستريح بين الورود ، شعرت بالنعاس من أثر الشمس على رأسها المكشوف ، والروائح التي تفوح من أوراق الزهور ، تعجبت من أنها قد صارت تحب العمل فى الأرض . لابد من أنها قد اكتسبت هذا الأمر من "هاين" ، عندما قدمت معه وهى فتاة صغيرة إلى قطعة أرضه الحجرية أعلى الخليج ، لم تكن تعرف شيئاً عن البستنة ، كانت قد تربت فى المدينة فى كنف عائلتها الكبيرة ، عندما قابلته كانت فتاة بوجنتين متوردتين ، أما هو فقد كان أكبر منها بعشرين عاماً ، وكرجل عاش فى المروج الواسعة ، فقد كان مستقيم القد ، هادئاً ومتحفظاً .

اندفع الدم لوجتيها لحظة أن اشتمت فى الجو رائحة البول اللاذعة ، كان "التيس" واقفاً خلفها ، وعند وقوفها على قدميها بسرعة ، ودون أن تنزل عينيها عنه ، أغلقت بلوزتها عند صدرها ، فى أول الأمر ، تقافز التيس بضع قفزات صغيرة كأنه يدعوها للانطلاق واللعب ، ثم راح يضرب الأرض بمقدم حافره بإيقاع منتظم .

خطت بضع خطوات واسعة فى اتجاه البوابة وفتحتها بهزة عنيفة . التمع المقص فى يدها ، وجاء "التيس" يتقافز ناحيتها .

" ألا ترى ، سوف أذهبك ؟ " لكنه واصل اقترابه ، يسيل لعبه من لسانه ، نصف مازح ، نصف مهتاج .

حذرته مرة أخرى : " سأقتلك ! " أحنى قرنيه تجاهها بوقاحة ، ووقف ساكناً بكل شعره الأبيض اللامع ، أمسكت بشعر التيس ، فطار المقص من

يدها ، فقبضت عليه بكلتا يديها وراحت تدفعه أمامها ، حتى أطلق ثغاء عاليًا من حلقه قبل أن تتركه يرحل ويجرى عائداً من الممر الخلفى للحديقة فى اتجاه المطبخ .

أسندت " لينا " المكنسة فى الركن بترتيب ، ونظرت لبرهة مشفقة على المرأة التى سقطت جالسة على الكرسي قرب منضدة المطبخ ورأسها بين يديها .

وقفت سوزان متعبة .

" سيدتى ، هل أعد لك الغداء؟ "

" لا .. لا شكراً ، يا لينا " شعرت بدوار ، فخرجت إلى الممر ، جلست على المقعد الخشبي الأخضر على بسطة الدرج ، حيث كان يمكنها رؤية مياه الخليج البراقة الزرقاء من بعيد ، ربما " هاين " بمكان ما بين صيادى السمك ، أو يشرب النبيذ فى الأكواخ الحجرية الرطبة ، أو ربما كان عند حوض السفن حيث يعمل الصيادون فى إصلاح قواربهم ، أو عند المرفأ حيث تفوح رائحة السمك والطعوم من كل ذرة فى الألواح الخشبية . تكاد تراه هناك جالساً بين الرجال بأقدامهم السمراء المبللة ، أو واقفاً يتحدث مع رجل من رجال المدينة الذين يجيئون للصيد محملين بعدة الصيد ، ووجوههم الحمراء المحترقة من الشمس تختفى تحت قبعاتهم القش البيضاء .

كان آخر النهار عندما شاهدت اللورى صاعداً عند منعطف الطريق ، طوت فى حجرها زوجي الجوارب اللذين ترتقهما ، توقف " هاين " عند الباب ، نزل من اللورى مع آخر ضوء للنهار ، وتقدم ناحيتها بتردد .

" إذن تجلسين على الدرج؟ "

ردت وهي تسحب جسمها الثقيل لمكان آخر: " هممم "

" آه ، حسنا ، . . . " تنهد وجلس إلى جوارها ، وبغيط مكتوم نخلع " شورته " الكاكي ، وبدأ في حشو غليونيه .

قالت سوزان : " طبعاً ، صار الوقت متأخراً على البدء في تثبيت السور ، يوماً ما سوف يدخل " التيس " منه . "

" على أية حال ، اليوم السبت . "

" ذلك لا يعنى شيئاً ، فأنت وعدت بإصلاحه . "

" حسناً ، حسناً . . . كنت أساعد الصيادين اليوم في رتق الشباك . سوف يخرجون الليلة للصيد ، وكنت أقود اثنين من القادمين الجدد لأفضل أماكن الصيد ، حقيقة لم أتمكن من الانصراف مبكراً . "

شعر بالخرج والارتباك عندما تذكر مازحة الرجال بشأن زوجته والمولود القادم ، وأنه قد أصبح عجوزاً على ذلك ، كانوا أيضاً يظنون بأنه نصف مليونير ، ذلك لأنه يملك لوري وقطعة أرض . في الحقيقة ، هو لا يعتبر واحداً منهم ، فهو رجل مروج أكثر منه رجل بحر ، وهم دائمو التطلع إليه ، إنه يأسف لحال زوجته ، حملها ، ووجودها وحيدة لوقت طويل بالمنزل ، لكنها ربما تشكره على تركه لها وحدها ، ومع مجيء الطفل لن تكون بحاجة إليه ، أما هو فسوف يجد فيه سنداً له في سنه المتقدمة .

عن يساره ، وقعت عينه على "ياجر" ماشياً إلى كوخه بين أشجار
الكثرى المزهرة ، ود أن يهب منادياً ذلك الوغد ليعرف ماذا فعل طوال
يومه ؟ ، لكنه تسلل راجعاً بمحاذاة العمود الخشبي ، بخجل مفاجيء ،
فهو ذاته ، قضى اليوم لحسابه الخاص ممتعاً نفسه .

قال على سبيل الدعابة : " يبدو أن "لينا" و "ياجر" منسجمين مع
بعضهما " سوزان ، التى كانت قد لاحظت أيضاً الرجل الملون وهو يمشى
متمهلاً ، هبت واقفة .

قالت : " انظر ، إذا كان الجنس بين "لينا" و "ياجر" أمراً مسلياً لك
إلى هذا الحد ، دعنى أقل لك صراحة إننى لا أرى ذلك ، إنك لا تعباً
بكونى لابد من أن أحتمل تصرفاتهما طوال اليوم ، بينما أنت تضيع وقتك
عند الخليج ولا يقلقك أمر أن لك زوجة وطفل فى الطريق ، لا ، اللعنة
على كل ذلك . لن يمضى وقت طويل حتى يرتفع بطن هذه الوقحة ،
وتصير مثلى منتفخة بسبب متعة رجل ، وبعد ذلك سوف نرى ، كيف
سيكون هذا الهراء الممتع المسمى جنساً ؟ لا ، لن يكون هناك أى شىء من
هذا القبيل بعد ذلك . . . "

نهض بدوره واقفاً وشعره الشديد البياض يرسم خطوطاً كبيرة أمام
شعرها الوردى الفاتح ، ارتعشت لحيته ، وعيناه الكابيتان ظلتا مشدوهتين :
" ما هذه الطريقة فى الكلام ؟ "

" إننى أكلمك بصراحة ! "

" لكن ، يا إلهى ، يا امرأة . . . "

" انتبه ، إذا كنت أبلها لدرجة أنك لا تفهم ، فلم لا تغلق فمك . . . ؟ "

اندفعت منصرفة من أمامه نازلة درجات السلم ، ومضت مجهدة إلى زاوية بالمنزل ، مشت حتى شجرة السنط وهناك فقط توقفت ، حيث وقع بصرها فى الشفق على التيس وقد دخل الحديقة وراح يقضم بشراة الفروع الجديدة لبراعم الورد ، قالت : " تلك الورد لن تزهى مرة أخرى أبداً ، كما يقول المثل - ليس بعد أن أكلها التيس . "

ألقت برأسها إلى الخلف ، وأطلقت صرخة بعزم قوتها : " يا جراً " قبل أن يأتى " يا جراً " خارجاً من غرفته ، كانت كل الفروع قد قُضمت ، كان قميصه مفتوحاً حتى سُرته ، وبنطلونه مطوى ، انتزع ابتسامة متصنعة ملأت شفثيه .

" سيدتى ؟ "

" يا إلهى ، أليس لك عينان فى رأسك ؟ انظر إلى ذلك ! "

استدار ناحية الاتجاه الذى تشير إليه بإصبعها ، وهز كتفيه استخفافاً ، ثم ثبت عينيه المتسائلتين عليها ثانية .

" أمسك التيس اللعين واحجزه بالسقيفة ، يا رجل تحرك واقفز عليه . " توقف التيس عن المضغ لأول مرة ، ونظر ناحيتهما ، ثم جاء عامداً فى اتجاهها ، متأنياً ، واثقاً .

" يا جراً ، أمسك بهذه البهيمة العمياء "

قفز "ياجر" من فوق السلك، هبط إلى الأرض بخفة ، وأمسك التيس بسهولة من قرن واحد، انعقدت العضلات على طول ذراعه وعلى ظهره تحت القميص الخفيف ، ثم نزل ببعض الرفسات على جانب الحيوان حتى تمكن من السيطرة عليه والإمساك به من قرنيه ، راح يتراجع للوراء ساحباً معه التيس، الذى كانت حوافره تزحف طوال الوقت على الأرض الممتلئة بالحصى ، بينما جرت "لينا" ودفعت باب السقيفة عن آخره ، وقفت المرأة تحت شجرة السنط متصلبة، وفى الضوء الخافت، أبقت عينيها تتابعان "التيس" المسحوب المهتاج، ورأته يُدير رأسه ناحيتها قبل أن يطلقه "ياجر" داخل السقيفة ويغلق عليه الباب بقوة .

سحبت "سوزان" أحد أدراج المطبخ دون أن تعي عم تبحث هناك، وبين بكرات الحبال والكبريت وركام من الأشياء ، لمع سكين الذبح، فأطبقت بأصابعها على المقبض.

" ماذا تنوين؟ "

دفعت الدرج مغلقة إياه واستندت إليه لكن زوجها كان قد رأى ما بيدها ، خرجت أنفاسها متلاحقة من فمها المفتوح، ولم ترد.

" أنا أكلمك! "

تراجع خطوة، مكوراً قبضتيه ، وقد عصر التوتر حلقه ، قالت: " لا يكدرك ألبتة أن لك زوجة بطنها يرتفع بسبب متعتك . " نظر حوله مرتبكاً ، وفى الظلال المتحركة على الحائط ، شعر أن الاتهامات التى توجهها إليه تتدفق من ثدييها المتضخمين من الحمل، شعر بهذه الاتهامات فيضائاً يغمره .

وقفت ساكنة تماماً وبينما تراقبه فكرت في سبب وجود طفلها، الطفل الذي كان يجب أن يساعدهما على التخلص من الغربة التي استقرت بينهما ، الطفل الذي كان يجب أن يجعلهما متقاربين كما لو كانا شخصاً واحداً. لكنه الآن طفلها وحدها، لا طفلها ، لقد اختلفت الحال، ليس هذا ما كانت تأمل فيه ، أما هو ، فيقف دائماً بعيداً، مراقباً من قمة صخرية باردة .

سمعت فجأة ، الثغاء الأتر آتياً من السقيفة ، وميزت " التيس " واقفاً قبل الباب ، خيل إليها كأن عينيه مثبتتان عليها، متسائلتان ثم أفاقت على أنها كانت تحقق في العينين الكابيتين للرجل الواقف أمامها ، اضطرب صوته : " ما الذي تقبضين عليه ؟ "

اندفع متخطياً إياها بحركة سريعة وفتح الدرج ، أثناء مروره صدمها في جنبها، فقدت توازنها ومالت على المنضدة ، فأمسكت بها حتى لا تسقط ، ثم وقفت منحنية ورأسها مائل على صدرها ، اختطف السكين ووقف خلفها ممسكاً بالنصل مرفوعاً في قبضة يده، ثم ترك السكين يسقط .

" ماذا كنت تفعلين بهذا السكين؟ "

" كنت سأشحذه ، هذا كل شيء . "

تراجع إلى الممر المظلم ، ووقف للحظة، ثم مشى متمائلاً بشيء من رشاقتة القديمة ، ثم أسرع متعثراً على نحو مضحك إلى مقدمة الدرج ، بأسفل ، انبسط الخليج وصار داكناً، وفي أكواخ الصيادين كان الرجال جالسين بجوار المواقد مع خبزهم وحسائهم ، أمرٌ غريب، كم أحس بالدفء في هذا الأصيل عندما راح الرجال يمازحونه قائلين : " أيها التيس العجوز، متى يكون موعد ولادتها ؟ أكيد سيكون ولدًا، " الآن فقط شعر بحد السكين ذاك كأنه انغرز في صدره ، أحس كأنه نزع حتى الموت .

عندما جلسا للعشاء ، أسندت سوزان ذراعاً إلى المائدة ، وشردت
عينها ناحية النافذة المفتوحة إلى حيث السقيفة . تحرك فك "هاين" مرتعشاً
رعشة خفيفة فى أثناء مضغه قطعة من الخبز الجاف ، عندما نهضت رجع
للوراء داخل كرسيه بعدم اكتراث ، بينما مشت خارجة من باب المطبخ
دون كلمة ، توقفت عند باب حجرة "ياجر" قبل أن تطرقه ، كان صرير
السريـر مسموعاً ، فتحت الباب عن آخره ، رفع "ياجر" نفسه على مرفقيه ،
ووقعت عيناه المشتعلتان بالغضب عليها ، استدارت الفتاة التى نهضت
مفروعة ناحيته ، بصيحة خفيضة دفنت وجهها فى صدره .

" ما الذى يجرى هنا؟ "

" سيدتى ؟ "

هبت "لينا" واقفة فجأة وسحبت أغطية السريـر حول جسدها ، قالت
بتصميم ورأسها ملقى للخلف : "سيدتى ، عفواً . . . ، يمكنك صرفى
من الخدمة . "

" ياـجر ، إذا طردتها ، ماذا ستفعل ؟ فوراً تجد لنفسك على امرأة
غيرها؟ "

" سيدتى ، أنا ، لا . . . سوف أذهب معها ، "

" وبعد ذلك ، يمضى بعض الوقت ، وينتهى كل اللـهو . . . "

" سيدتى ! "

" انهض ، وامض لإخراج التيس من السقيفة ، "

" حاضر ، يا سيدتى "

" قيده إلى الشجرة "

" سوف أقيده "

كان لهواء الليل وخز ، ونصف القمر النحيل يلمع فوق البراعم البيضاء لأشجار الكمثرى ، عندما دخلت حجرة النوم ، وجدت رجلها راقداً مستيقظاً ، سقط نصف الضوء رمادياً على أغطية الفراش الوثيرة ، تعرت تماماً من ملابسها ودخلت السرير ، فتحول هو إلى الطرف القصى ، قبل أن يستغرق فى النوم رأت بريق عينيه يتحول إليها .

هبّت ريح شديدة بين الأشجار ، فلم تتمكن من سماع شيء ، ومع ذلك ، عرفت أن التيس كان يقف هناك مقيداً إلى شجرة السنط ، رفعت نفسها بحرص على مرفقيها ، فسقطت الأغطية من فوق الرجل عارى الصدر ، كانت لحيته الصغيرة بارزة بعناد ، اقتربت منه ، مالت عليه ، ثم سحبت الأغطية من فوقه حتى بات بلا أى غطاء ، يرقد شاحباً فى الضوء الخافت ، كئيباً ، قاسياً ، متحجراً ، وضعت يدها برقة على بطنه ونزلت بها إلى ما بين الردفين الضيقين ، أشار بيده إشارة وحشية " لا تفعلنى ! " أمسك بصدرة بقوة كأنه يتزف من جرح هناك ، واستنجد بالنوم ، ورجع يرقد هادئاً ، كان فمه الملتوى المثير للشفقة غائراً فى وجهه ، غطته بهدوء ، ونزلت عن السرير .

الرياح التى كانت تهب فى الخارج من ناحية التلال ، ضغطت النصل
البارد فى جيب "الروب" إلى بطنها.

" أيها الحقير ، الآن سوف تموت ! "

وقف "التيس" متبهاً كأنه فهم الأمر ، أخرجت السكين وأمسكت
بقرن الحيوان ، انبثق شبح متراخ من بين الظلال ، وانعطف ناحية جذع
الشجرة .

" سيدتى ، ماذا تفعلين؟ "

قذف "ياجر" عُقب السيجارة بحركة من إصبعى الإبهام والوسطى ،
سقط عقب السيجارة فوق بوابة الحديقة بومضة حمراء ، ثم نظر بعيداً
ناحية التلال .

" سيدتى ، لقد أتيت فقط لأخبرك بأننى راحل مع "لينا" ، أعتقد أن
هناك أواناً للأزهار ، وأواناً للذبول ، أما الآن فإننى سوف أمضى معها "
وقف "ياجر" ساكناً تماماً ، ثم نظر لأسفل ناحية التيس ، وقال
بأسف صادق: " يا للأسف ، إنه يشبه رجلاً عجوزاً "

اهتز القرن القوي بشدة فى قبضتها حتى تراخت فعلاً ، كانت تشعر
عند لمسها لشعر التيس أنه ناعم مثلما كان شعر "هاين" فى شبابه ، تخيلته
دفعة واحدة ، وكأنه لقطة فوتوغرافية قديمة ، ذات صباح منسى ، مائلاً
على معرفته فى حديقة الورد فى الضوء الخافت ، بابتسامة ناعمة غامضة ،
خالى البال ، هادئاً ، وغير قابل للتغيير.

راح " التيس " يقاوم مسكتها ، بعدها أطلقت سراحه .

ظلت " سوزان " واقفة هناك لوقت طويل بعد أن انسل التيس هارباً إلى التلال ، أبيض ، فى ليلٍ رمادى ، فقط عندما بدأ الطفل فى الحركة ، مشى ببطء راجعة عبر بوابة الحديقة ، رقد التل خلفها فى الظلام ، محصناً ، وظهر الخليج أمامها مثلما رآته أول مرة عندما وصلت لتقيم هنا . خفت الريح وارتفع ترنيم الصمت منبعثاً من الليل ، نظرت للبيت الأبيض حيث ينام زوجها ، توقفت لتلمس شجيرات الورد .

" فى الصيف القادم ، لن تكون ورود " .

حساء للمريضة

تأليف : هينى أوكامب (٤٠)

منذ عدة سنوات ، استراحت " العمة رينسى " فى رقدتها الأخيرة ، مع ذلك ظلت واحدة من أكثر الناس الذين أتذكّره من أيام طفولتى سحراً ، كانت أسيرة ، ليس لما نعرفه عنها ، بل لما كنا نتوهمه بشأنها ، فى الحقيقة ، لم تكن شخصاً استثنائياً فريداً ، بل كانت تميل إلى العزلة ، رغم أنها لم تكن راهبة ، كانت تحضر بانتظام طقوس الكنيسة والأعياد ، ومن وقت لآخر ، تزور الطبيب الاسكتلندى ، أو السيد والسيدة " فيروى " العجوزين ، غير إن هذه الزيارات كانت على فترات متباعدة ، إلى أن توقفت نهائياً ، فقد تدهورت صحتها .

لم تتلق " العمة رينسى " أية مساعدة من أحد ، كانت مكثفة بخدمة راعيتها وصديقة عمرها " صوفيتيه " ، حتى حين بدا أنها مشرقة على الموت ، لم يأت أحد من عائلتها لزيارتها ، قبل عشرين عاماً ، وصلت هى و " صوفيتيه " إلى منطقتنا " كاروو " ، ثم انتقلتا للسكن فى منزل " البرج " الذى كان يقع عند طرف المدينة ، منذ ذلك الحين لم تستقبل أية زيارات عائلية ، هل تخلت عن عائلتها؟ أم أنهم تبرؤوا منها ؟ أم لعلهم افترقوا باتفاق مشترك ؟

(٤٠) ترجمها إلى الإنجليزية عن اللغة الإفريكانية : « إيان فرجسون » ..

كل محاولات الحديث مع "العمة رينسى" عن ماضيها ، كانت تتوقف عند حاجز ابتسامتها الغامضة ، وكل من يحاول اختراق هذا الحاجز ، كان يُعرض نفسه للإهانة الصريحة أو الطرد نهائياً .

فيما بعد صار معروفاً للجميع فى "كليب كرال" أنه لا يجب على أى امرئ أن يتطفل على ماضى "العمة رينسى" ، الغرباء فقط هم الذين كانوا يقعون فى هذا الشرك ، رغم ذلك ظل الناس يتساءلون فى فضول: "ربما ولدت فى بلد آخر؟ ربما جاءت إلى جنوب إفريقيا لأسباب صحية؟ شىء ما فى حديثها، وطريقة إدارتها لمنزلها طبعتها بسمت مختلف . . . شىء ما - وعند هذا الحد يتهامسون عن ذلك الشىء الغامض الذى أثار التشوش فى كل "كليب كرال" - كان هناك شىء ما غير عادى فى علاقتها بـ "صوفيتيه" .

لا يجب أن يكون المرء صديقاً حميماً لخادمه ، لم يكن ذلك لأنهما كانتا ترفعان الكلفة بينهما ، أو لأنهما تثرثران مع بعضهما ، لكن لأن كلا منهما كانت تشعر بالأخرى إلى حد كبير ، فإذا ظهرت "صوفيتيه" عند مدخل البيت وهى تتسلل بهدوء قطعة ، كانت "العمة رينسى" تحس بذلك حتى لو كانت جالسة وظهرها لها ، عندئذ قد تقول لها: "شأى" ، فتسل "صوفيتيه" داخلة يبتلعها الممر المعتم ، وتعاملاتهما مع بعضهما - فى الحقيقة - موجزة ، مقتضبة ، عرفت "صوفى" وضعها ، - كما يقول كبار السن - والتمت به ، ورغم ذلك ، كان ثمة شىء ما بينهما .

ذات مساء خاص ، أدركت بوضوح العلاقة الصامتة بين "العمة رينسى" و"صوفيتيه" ، كانت المناسبة التى رأيت فيها "صوفيتيه" تتعدى

الحدود المألوفة ، فقد كانت "العمة رينسى" متوعكة لبعض الوقت ،
بصراحة أكثر ، كانت تلازم الفراش أكثر من قيامها منه ، أرسلتني أمي ،
التي كانت ممرضة الحى ، بقدر من الحساء إلى منزل العمة "رينسى" .

كان الباب الأمامى موارباً ، وعندما لم يجب أحد على طرق
الباب ، دخلت ببساطة ، كان باب حجرة العمة "رينسى" مفتوحاً أيضاً ،
وقد جلست "صوفيتيه" على السرير بالقرب من العمة "رينسى" ،
ويداها السمران تطوقانها كأنها تحميها ، امرأتان مستتان ، رماديتا
الشعر ، واحدة بيضاء هادئة ، والثانية سمراء ، تتهاوسان بحميمية ،
عندما شعرتا بوجودي توقفتا عن الحديث ، ورفعتا بصرهما إلى ، بهدوء
وبراعة .

حاولت العمة "رينسى" أن تسند نفسها إلى الوسائد ، وقالت : "أوه ،
ستيف ، حساء !"

قلت بفخر : "حساء طائر الحجل ، اصطلدته بنفسى"

راحت العمة "رينسى" تصارع فوق الوسائد .

قالت "صوفيتيه" بحزم : "تمهلى ، قلبك"

"ليس قلبى ، بل قلبك أنتِ يا صوفى ، لا ترفعينى مرة أخرى ."

ابتسمت "صوفى" برقة ، لم أرَ فى حياتى وجهها الصارم جميلاً
مثلما رأيته هذه المرة ، هى أيضاً عجوز متغضنة الوجه ، إذا ما نظر المرء
لوجهها عن قرب كان يرى الكثير من التجاعيد ، لكنها بدت أصغر بكثير
من العمة "رينسى" ، لم تكن "صوفى" تشبه أيًا من الملونين الذين

عرفتهم ، كان أنفها دقيقاً ، وفمها يوحى بالكبرياء ، وعيناها - ذواتا الأهداب الداكنة - براقتان .

قالت العمه "رينسى" : " صوفى ، اذهبى وأحضرى لنا أطباقاً وملاعق . "

بعد فترة وجيزة قدمت لى "صوفى" طبق حساء ، ارتبكت ، واعترضت قائلاً : " لقد تناولت طعامى قبلاً "

قالت العمه "رينسى" ملاطفة لى : " هيا ، كُل معنا من أجل الشكل الاجتماعى "

جلست "صوفى" مرة أخرى على السرير ، وأمسكت وعاء الحساء برصانة بيدها البارعة .

لماذا تتصرف العمه "رينسى" بهذه الطريقة الغريبة ؟ هل أصبحتُ أنا تجسيداً للعرف الاجتماعى الذى قاومته هى مقاومة سلبية لسنوات طويلة ؟ إنه لعبء ثقيل على صبى عمره اثنا عشر عاماً ! أم هل كانت تريد تعليمى شيئاً ؟ أم ببساطة أصبحت عجوزاً جداً ومتعبة لدرجة أنها لم تعد تعباً بالقواعد الاجتماعية .

لا يزال ذلك الأصيل يحمل فى ذاكرتى بطريقة دقيقة تفاصيل لحظات الكشف السرمدية ، عبر الستائر الخضراء ، تسرب الضوء إلى حجرة العمه "رينسى" بارداً ، فباتت كأنها حوض نباتات مائية ، يشتم المرء على نحو مفاجئ رائحة الزهور ، ولا يدرى أهى فى الحجرة أم آتية من الخارج عبر الحديقة ، لا بد من أنها من الحجرة ، فهى رائحة عطر ثقيل ، تشبه إلى حد بعيد رائحة التحلل والقدم ، فجأة ، عرفت أن بين هاتين المرأتين رابطة

تفوق إدراكى ، كنت مشدود الأعصاب ، محتاجاً لدفع حدسى لأبعد مما يسمح به سنى .

ماتت "صوفيتيه" قبل العمّة "رينسى" ، كنت جالساً مع أبناء عمومتى فى "الفرى ستيت" عندما سمعنا ذلك الخبر ، وحين عدت إلى "كليب كرال" ، سمعت بما أثاره دفن "صوفيتيه" من اضطرابات ، أرادت العمّة "رينسى" دفن "صوفى" فى الحديقة أمام بيتها ، لم يوافق مجلس المدينة على ذلك ، ثم طلبت أن تدفن فى مقابر البيض ، لكن الجمعيات النسائية نظمت اجتماعات معارضة لذلك ، وفى النهاية دُفنت "صوفيتيه" المسكينة إلى جوار الملونين الآخرين .

"أووم جاوى" ، سائق التاكسى الوحيد فى المدينة ، كان يصطحب العمّة "رينسى" إلى مقبرة "صوفيتيه" كلما سمحت صحتها بذلك ، هناك كانت تجلس لوقت طويل على كرسى البحر الذى تصطحبه معها كل مرة ، وقد اكتسب "أووم جاوى" تدريجياً عادة الانطلاق للمدينة ليخطف كأساً ، ذات يوم ، بينما كان "أووم جاوى" بالمدينة ، هاجمت العمّة "رينسى" عاصفة رعديّة أودت بحياتها .

ترك "أووم جاوى" الشراب لبعض الوقت إحساساً بالذنب ، لكن التضحية لم تكن ضرورية . . . فإن العمّة "رينسى" لم تكن ترغب فى الحياة أكثر من ذلك ، هكذا قال الجميع .

كانت وصيتها غريبة ، فقد أورثت المدينة أموالها لبناء مستشفى ، ووضعت شرطاً واحداً . . . أن ترقد بجوار "صوفيتيه" .

صار لـ "كرال كليب" مستشفى جميل بالقياس لمثل هذه المناطق الصغيرة ، لكن القس كان يقول : لا بد من أن أحداً ما يعتنى بهاتين المقبرتين . . . أى أحد .

تأليف : يان رايبى (٤١)

تكتسح دوامات التراب سطح اليابسة الأسمر، تهتز جذور العشب الذابل المترقب للمطر، والسهل الواسع المجذب ظامئ لأن تشقه الخضرة المحبوبة حتى أفقه اللانهائى ، تحت وهج شمس الظهيرة ، وقرب ليل وشيك بارد ، وسماء مرصعة بالنجوم ، يمتد خط السكة الحديدية ، مفرداً ، ومستقيماً ، منظر عام للجفاف ، صغيران جداً ، مثل حبتى رمل ، يبنى رجل أبيض ورجل أسود جداراً ، أربعة جدران ، ثم سقف ، منزل .

يحمل الرجل الأسود كتل الحجر والرجل الأبيض يصفهم فى المكان، يقف الرجل الأبيض داخل الجدران حيث يوجد قليل من الظل، يقول: "لابد من أن تعمل فى الخارج ، فأنت ذو بشرة سوداء، تستطيع تحمل الوقوف فى الشمس أفضل مما أستطيع أنا"

يضحك الرجل الأسود من تلالؤ عضلاته فى الشمس، منذ مئات السنين حصد أسلافه محاصيل داكنة برماحهم ، ودرسوا حمى الشمس السوداء بأقدامهم وصاغوا منها رقصة "النجوم"، الآن يضحك الرجل الأسود ، ثم شرع فى العبوس .

(٤١) ترجمها المؤلف إلى الانجليزية عن اللغة الإفريكانية .

يسأل : " لِمَ أنت دائم الحديث عن بشرتى السوداء ؟ "
يقول الرجل الأبيض: " لأنك لُعنْتَ ، منذ زمن بعيد لعنك إلهي
واختصك بالظلام . "

يرد الرجل الأسود فى غضب : " إلهك أبيض ، إلهك يكذب !
إننى أحب الشمس وأخاف الظلام . "

يوصل الرجل الأبيض الحديث حالاً : " منذ عهد بعيد أتى أجدادى
عن طريق البحر ، أتوا من بعيد على سفن بيضاء شاهقة الارتفاع مثل
الأشجار ، وعلى الأرض ، شيدوا حافلاتهم ، وغطوها بأشرطة سفنهم ،
ثم ارتحلوا بعيدا ، ونثروا رماد نيران معسكراتهم فوق هذه الأرض الواسعة
الهمجية ، لكن الآن تعب أحفادهم ، نريد أن نبني منازل ونعلمكم أيها
السود كيف تعيشون معنا فى سلام ، حان الوقت لذلك ، حتى لو ظل
جلدك أسود للأبد "

يرد له الرجل الأسود الضربة متفاخراً : " وأسلافى غمسوا
رماحهم فى دم أجدادك ورأوا رماحهم حمراء بلون الدم ، حمراء مثل دم
الـ "إمبالا" ^(٤٢) الذى جرى شبابنا للحاق به بين الشمسين الحمراءوين فى
التلال . "

يقول الرجل الأبيض بحزن : " آن أوان نسيانك الماضى اللعين ،
أقبل ، لابد من أن تتعلم كيف تعمل معى ، يجب أن نبني هذا المنزل "
يقف الرجل الأسود طاوياً يديه : " تأتى لتعلمنى أن الرب أبيض ،
وأنه يجب أن أبني بيتاً للرجل الأبيض . "

(٤٢) إمبالا : نوع من الغزلان الإفريقية تجرى قفزاً .

يصيح الرجل الأبيض : " أيها الكافيرى ، أنت لا تفهم شيئاً ألبتة !
(قم بما أقوله لك ! ")

يتمتم الرجل الأسود : " حسناً ، يا ريس "
يحمل الرجل الأسود كتل الحجر ، والرجل الأبيض يصفها فى
المكان .

يصنع جدراناً متينة ، توهجت عين الشمس المربعة ،
بعيداً ، كأنه الشجرة الوحيدة فى أرض عطشى ، اكتسح عمود
التراب الأفق المرتجف .

همهم الرجل الأبيض : " هذه الحرارة اللعينة ! لو تمطر فحسب "
يمسح باستفزاز العرق المتصبب على جبهته قبل أن يقول : " أسلافك
ماتوا ، آن الأوان لتساهم . "

ينظر الرجل الأسود صامتاً وعيونه تقول : " وأسلافك ، ماتوا
أيضاً ، نحن هنا وحدنا " .

وحدهما ، فى السهل الجاف ، الفارغ ، بينى الرجل الأبيض والرجل
الأسود أربعة جدران . . . متزلاً .

لم يتكلما معاً ، بينان الجدران الأربعة ثم السقف ، يعمل الرجل
الأسود فى الخارج تحت الشمس ، والرجل الأبيض فى الداخل ،
بالظل ، الآن يرى الرجل الأسود رأس الرجل الأبيض فقط ،
يصفان السقف .

أخيراً ، يسأل الرجل الأسود : " يا ريس ، لماذا تبني بيتك دون نوافذ أو أبواب ؟ "

صار الرجل الأبيض حزيناً جداً. يقول : " هذا أيضاً لن تقدر على فهمه ، منذ زمن بعيد ، فى بلد آخر ، بنى أجدادى جدراناً تقيهم خطر البحر ، جدراناً سميكة ، مانعة للماء ، لهذا السبب بيتى ، أيضاً ، دون نوافذ وأبواب . "

صاح الرجل الأسود بدهشة : " لكن لا توجد هنا مياه جارفة ، الرمال جافة مثل جمجمة ! "

قال الرجل الأبيض فى نفسه : " أنت هو البحر " ، لكنه كان بائساً أكثر مما ينبغى ليشرح له ذلك .

يصفان السقف ، يسمران آخر لوح خشب ، آخر لوح "جمالون" ، الرجل الأسود فى الخارج ، والرجل الأبيض فى الداخل ، بعد ذلك ، لم يعد الرجل الأسود قادراً على رؤية الرجل الأبيض .

صاح منادياً : " يا ريس ! " ، لكنه لم يسمع جواباً .

يفكر بخوف ، لا يستطيع الرجل الخروج ، إنه غير قادر على رؤية السماء أو معرفة الليل من النهار ، سوف يموت الرجل داخل البيت !

يدق الرجل الأسود على الجدار بقبضتيه ويصيح : " لكن يا ريس ، لن تأتى هنا أية مياه جارفة ! هنا لن يسقط المطر لأربعين نهاراً وأربعين ليلة مثلما يقول كتاب إلهك الأبيض ! "

لم يسمع رداً .

ما زال الرجل الأسود رافعاً قبضتيه وكأنه يدق الجدار مرة أخرى ،
وترتفع عيناه مشدوهتين إلى السماء الخالية من أية سحابة ، وفي
الأفق ترقص أعمدة التراب الأحمر رقصة "نجوم" المرعب ، رقصة
الجفاف .

وحده ، خائفاً ، يتمتم الرجل الأسود : " يا ريس ، أخرج ...
أخرج إلى " .

تأليف : كيزى موتسيبي

" الولد " ، ابن " إيستر " ، البغى وصاحبة الخمار ، وُلد بعرج فى ساقه اليسرى ، لكنه فى سن العاشرة كان يكسب قوته بنفسه ، باع الجرائد فى المدينة ، ادخر نقوده مثل بخيل ، وبعد عام آخر ، أمكنه شراء بنطلون وسترة قصيرة ملونة لنفسه ، شعر كأنه رجل عندما دار وهو يعرج مستنداً على عكازه فى بنطلونه الطويل وسترته القصيرة .

كانت " إيستر " فخورة بابنها ، على الرغم من أن " الولد " ترك الدراسة فى سن التاسعة ، إلا إن " إيستر " لم تجد فى ذلك سبباً يدعوها للقلق ، فقد أثبت ولدها أن لديه مؤهلات رجل تمكنه من تحقيق النجاح فى الحياة دون التقييد بالمعرفة التى قد يحصلها فى باقى مراحل التعليم الإلزامى .

بمرور الزمن كبر الولد ، وراح تفاخر " إيستر " بابنها يتضاءل ، فى الحقيقة ، صارت متوجسة تترقب وقوع الشر .

قالت " إيستر " لجارتها : " أوه ، ما - سيللو ، الولد يشغلنى بكثير من الأسئلة السخيفة ، لا أعرف ما الذى يدور فى نفسه ، " كانت « إيستر » فى غاية القلق والانفعال ، حتى إن " ما - سيللو " حاولت أن تهون عليها

قدر طاقتها لتبدد مخاوفها ، فقالت ببال خال : " كل الأولاد فى مثل هذا السن متشابهون . أولادى يتصرفون مثله أيضاً .

نادى الولد : " أمى ! " .

ردت الأم : " نعم ، يا ولدى ؟ "

" هل تعرفين تلك السلالم التى تمشى فى محطة « جوهانسبرج » ؟ "

" نعم ، يطلقون عليها سلالم كهربائية " ، وتساءلت فى نفسها :
مَن من عشاقها الكثيرين قد أخبرها بهذه الكلمة ؟ ! فكرت ربما يكون الطالب ذا الصدر المُشعر .

" تلك السلالم تصعد فقط ، لماذا لا تهبط ؟ "

" توجد سلالم أخرى للنزول "

" لكن هذه السلالم دائماً تصعد لأعلى ، هل يمكننى أن أنزل من عليها بينما تصعد لأعلى ؟ "

" لا أعرف "

" هل جربت استخدامها بهذه الطريقة ؟ "

" لا "

" هل حاول أى شخص استعمالها هكذا ؟ "

" لا أعرف ، من فضلك اسكت ! "

" سوف أذهب لتجريبها "

جرب الولد استخدام السلالم الكهربائية ، وكان سعيداً جداً عندما تمكن من النزول على السلم الكهربائي بينما السلم يتحرك صاعداً ، سعادة تشبه تلك الرعشة التى يشعر بها سائق السيارة بعد أن يقطع الطريق بأمان فى الاتجاه المعاكس على طريق ذى اتجاه واحد .

سأل " الولد " : " ماما ، ما حاجتنا لرجال الشرطة ؟ "

قالت " إيستر " متوقعة السؤال التالى من ابنها : " نحن نحتاج لرجال الشرطة . . . "

سأل " الولد " بإلحاح : " ما حاجتنا لهم ؟ "

" للقبض على الناس . "

" إذن ، سوف أكون شرطياً "

احتال الولد ليحصل على زوج من الأصفاد وصفارة بوليس ، كيف ، ومن أين حصل عليهما ؟ سوف يبقى هذا أمراً غامضاً ، لكم أحب النفخ فى تلك الصفارة ، وإلى أى حد أهاجت أعصاب " إيستر " !

قال " الولد " لإيستر ، ووميض العدالة يطل من عينيه : " أنا شرطى ، سوف أقبض على أحد هؤلاء الرجال الذين يحتسون الـ " سكوكيان " ^(٤٣) فى المطبخ . "

قال " الولد " للرجل ذى الشعر الرمادى الذى رشف توكاً رشفة واحدة من علبة : " أنا أقبض عليك . "

قال ذو الشعر الرمادى ماداً يده مماًزحاً الصبى : " حسناً ، أقبض على " "

(٤٣) نوع من الخمر المحلى الرخيص .

كَرْنَج ، كَرْنَج ، انغلقت الأصفاد على معصمى الرجل .

كان ذو الشعر الرمادى بعد ساعتين ما يزال يلمس من " الولد " نزع
الأصفاد ، لكن " الولد " طلب « خمسة » شلنات أولاً .

راح يكرر كلمة خمسة شلنات مرات لا حصر لها .

قال الرجل : " إذا لم تحل هذه الأصفاد سوف أركل ...
الحمراء . " .

عندئذ ضرب " الولد " الرجل على رأسه بعكازه قبل أن يتمكن
الآخر من نطق أية كلمة .

صاح ذو الشعر الرمادى وقد شارف على البكاء : " إيستر ! " .

وكان خيطاً رفيعاً من الدم يسيل من أم رأسه .

دفعت « إيستر » المطلوب " تماماً " لتخليص ذى الشعر الرمادى ، ،
فانفجرت الأصفاد ،

صاح " الولد " ، وهو خارج من البيت إلى الشارع يعرج : " أنا
شرطى " .

قال ذو الشعر الرمادى : " لن أشرب فى هذا البيت مرة أخرى . "

وهكذا تناقص زبائن " إيستر " ، الواحد تلو الآخر .

حتى عشاقها تناقصوا ، لَمَّا كان يقوم به " الولد " من أفعال ، فقد
كان يندفع داخلاً حجرة النوم فى منتصف الليل والعمل جارٍ على أشده ،
ومهما كان من فى الفراش مع " إيستر " ، يضربه على رأسه بعكازه .

ذات يوم قال " الولد " لأمه : " يوجد كثير من الذباب فى هذا البيت ، "

لم ترد " إيستر " ، هزت رأسها بأسى عندما تأملت ابنها وهو خارج من المنزل يعرج بعد دقائق ، عاد " الولد " حاملاً دسنة من علب الكبريت ، جلس على مقعده وفتح علبة وسحب عوداً ، أشعله وعندما انبثق اللهب راح يضحك ، ظل يقوم بذلك إلى أن صارت العلبة فارغة ، ثم تناول العلبة الثانية ، بعد قليل من الوقت فرغت الاثنتا عشرة علبة .

قال " الولد " مسحداً فى علب الكبريت الاثنتى عشرة بمرح : " الآن عندي اثنا عشر تابوتاً ، سوف أقتل وأدفن اليوم اثنتى عشرة ذبابة " فى ذلك اليوم ، دفن اثنتى عشرة ذبابة .

فى اليوم التالى وجدت " إيستر " ابنها منهمكاً فى تثبيت ألواح من الخشب بالمسامير ، كان ينظر بذلك المزاج المرح حتى أن " إيستر " ، التى لم تعد تتحمس للحديث قط مع ابنها ، لم تقدر أن تمنع نفسها من سؤاله عما كان يفعل .

قال : " أصنع تابوتاً لـ "توبسى"

كان " توبسى " كلب العائلة المدلل .

اضطربت " إيستر " لما تخفيه الكلمات ، وقالت : " لكن " توبسى " لم يميت ! "

قال : " كنت أحلم ليلة أمس بأنه مات "

شعرت "إيستر" بالراحة ، قالت : " حسنا ، كان حلمًا سيئًا ، إنه لم
يُت . "

راح الشاكوش يدق ، تاب ، تاب ، تاب .

قال : " إذن سوف أقتله ، لأبد من أن أدفنه في هذا التابوت ! "

خرجت " إيستر " للبحث عن الكلب ، نادى : " توب ، توبسى ،
توبسى سي ي . . . ي ! "

حين أدركت الكلب ، أمسكت به ، واستقلت سيارة تاكسى وذهبت
به إلى بيت خالها الآمن فى ألكسندرا

كانت الساعة حوالى التاسعة مساءً عندما عادت « إيستر » من
ألكسندرا ، وكان باب البيت موصدًا ، دقت « إيستر » على الباب .

صاح " الولد " من النافذة : " اذهبى بعيداً ، هذا بيتى "

قالت : " يا ولد ! أنا ، أمك ! " .

قال : " ابتعدى ، ابتعدى أمى لم تولد بعد ! " .

تأليف: ريتشارد ريف

"نحن جزء من مجتمع معقد ، مجتمع غاية في التعقيد بسبب أنه يحرم الأغلبية الساحقة من السكان من الحقوق الأساسية للمواطنة ، مجتمعنا هذا ، يحكم على الإنسان بمرتبة أدنى لأنه ولد أسود ، مجتمعنا هذا ، يسعى فقط للإبقاء على مكانته الاجتماعية والاقتصادية على حساب الطبقة العمالية السوداء الكبيرة .

كان "كارلى" يبذل جهداً حتى يستجمع شتات ذهنه أثناء متابعة المتحدث ، شىء ما فى خلفية عقله قال له : إن هذه كلمات عظيمة وحقيقية . . مهما كان المقصود بها ، كان المتحدث رجلاً أسود ضخماً ذا صوت متدفق ، توقف المتحدث ليرشف الماء من كوب . تصيب "كارلى" عرقاً ، ضربت شمس أكتوبر^(٤٤) الساخنة الجمع المحتشد بدون رحمة ، ولم يكن فى السماء المشتعلة فوق جبل "تايل" أى أثر ولو طفيف لسحابة ، والأشجار عند الـ "جراند بارادا" ، متدلّية وذابلة ، لا تكاد توفر سترًا ، تشبع منديل الذى كان يضعه حول عنقه بالعرق ، نظر "كارلى" بحذر إلى بحر الوجوه ، وجوه سوداء ، وسمراء ، وزيتونية ، وبعض الوجوه البيضاء ، وتبعثرت هنا وهناك بعض الطرايش الحمراء التى يرتديها

(٤٤) «الصف فى . النصف الجنوبي من القارة عكس النصف الشمالى منها»

المسلمون ، كان يقف إلى جوار سيارة متوقفة على جانب الطريق اثنان من الشرطة السرية يدونان الملاحظات ، من فوق المنصة المرتفعة كان الصوت المتدفق قد بدأ مرة أخرى ، "واجب على كل واحد منا أن يتحدى شرعية أى قانون يحكم على إنسان ما بوضعه فى مرتبة أدنى، لابد من أن نعرض على ادعاء أية جماعة بأنها تتميز عنصرياً بين الجماعات على أساس لون البشرة ، أنتم وأطفالكم محرومون من الحقوق التى لكم بمقتضى كونكم مواطنى جنوب إفريقيا ، إلا إنكم مع ذلك تعانون الفصل العنصرى لأسباب سياسية واجتماعية واقتصادية ."

شعر "كارلى" بشيء ينشط عميقاً فى داخله ، شيء لم يخبره من قبل قط ، ولم يعرف مطلقاً بوجوده فى داخله ، بدا الرجل فوق المنبر كأنه ينشر ديناً جديداً، الرجل الذى قال : إن لـ "كارلى" ، حقوقاً معينة، ولأطفاله حقوقاً أخرى ، أى نوع من الحقوق؟ مثل التى للرجل الأبيض مثلاً أن يسكن هو و "أوباس لانتجتين" أيضاً فى "بيتستين فونتين" ؟ صار للفكرة شكل ، وبدأت فى النمو ، فورة فى الشاعر ونفاذ بصيرة، لم يخبرهما من قبل قط ، وأن يجلس إلى مائدة فى مقهى بشارع "بيتستين فونتين" ويطلب هو و "نيللى" شريحة لحم وبيضاً وقهوة ، جلسة فى الطابق السفلى بصالة العرض السينمائى المحلية مع بقية الفلاحين، وأن يخرج فى الاستراحة ليشتري المشروبات من الـ "بانوراما" ، يرى أبناءه فى المدرسة العليا يلعبون «الرجبى» «والهوكى» ضد الفرق الزائرة ، أخافته هذه الصورة، لكنها كانت، فى ذات الوقت، مغرية ، ما رأى "أوكلاس" فى هذه الأمور الآن؟ "أوكلاس" الذى كان دائماً يقول : « إن الله بحكمته خلق الرجل الأبيض أبيض، والرجل الملون أسمر، والرجل الأسود أسود، ولابد من أن يلتزموا مراتبهم » ، ما قول "أوكلاس"

فى كل هذا ؟ كانت تلك الأفكار الآتية من المنصة بعيدة عن "أوكلاس" وعن الـ "بيتستين فونتين" ، ولكن بشكل ما كان لها منطق لديه .

قطب « كارلى » حاجبيه وهو يحاول أن يفهم جيداً الأفكار التى تدور حوله . كان على المنصة آخرون ، أسود ، وأبيض ، وملون ، يتصرفون جميعاً وكأنه لا توجد أى فروق بينهم بسبب اللون ، ماذا سيقول "أوكلاس" عندما يخبره عن ذلك؟ و"أوبوس لاتجين"؟ قدمت امرأة بيضاء ، فى فستان أزرق ، سيجارة للمتحدث السابق الذى كان رجلاً أسود ، كان قد قُدم للجمع باسم السيد "نكيسلى" ، رئيس اتحاد التجارة الذى كثيراً ما كان مسجوناً ، امرأة بيضاء تقدم له سيجارة! شعر "كارلى" ، أيضاً ، برغبة فى التدخين ، سحب سيجارة "كافيللا" من العلبة المتغضنة .

راح يتخيل "أوكلاس" يقدم إلى "أنيتا لاتجين" نفساً من غليونه ، ماذا سيقول أبوها؟ الأكثر احتمالاً أن "أوبوس لاتجين" سوف يمسك بينديته ويصيب "أوكلاس" فى التو ، كان الخاطر مثيراً للضحك ، حتى إن "كارلى" انفجر ضاحكاً ، نظر واحد أو اثنان من الحضور مستغربين ، وفى نوبة خجل ، حوّل الضحك إلى سعال ، لكن عقله رفض التخلّى عن الصورة ، ليس لـ "أنيتا" مكان هنا ، لم تكن تقارن بجمال هذه السيدة ، ولم يكن لها فستان أزرق جاهز ، عندما تحركت السيدة التى على المنصة ، ظهر فستانها مشدوداً على جسدها ، رأى ذلك عندما قدمت السيجارة للسيد "نكيسلى" .

إذا كان كل ما قاله المتحدث حقيقياً ، فإن ذلك يعنى إنه هو "كارلى" ، إنسان فاضل مثل أى إنسان آخر ، متساوٍ حتى مع الرجل

الأبيض ، تحرك لسانه بهذه الكلمات ، لكنه أسرع ينحى هذه الفكرة عن رأسه ، مع ذلك بدا كأن المتحدث يؤكد على هذه الفكرة فقط ، ولماذا لا يجب أن يتقبل تلك الأفكار؟ تذكر صورة مأخوذة عن صحيفة تظهر هؤلاء الناس الذين تحدوا تلك القوانين التى قالوا : إنها غير عادلة ، كان قد سأل "أوكلاس" عن ذلك ، لكن الرجل العجوز هز كتفيه استهجاناً فحسب ، كان الناس فى الصحيفة يتسمون وهم فى طريقهم للسجن ، وكانت تلك الأمور مربكة وغريبة .

استمر المتحدث ذو الصوت المتدفق فى حديثه ، وكان "كارلى" ينصت باهتمام ، بدا المتحدث واثقاً من نفسه ، وجريئاً أثناء فيض كلماته المتدفق ، أحس "كارلى" بنفسه أكبر من "أوباس لاتجين" أو حتى أكبر من المسيطر على كنيسة البيض الوحيدة فى "بيتستين فونتين" ، بعد ذلك تحدثت السيدة ذات الثوب الأزرق ، تلك التى أعطت السيد "نكيسلى" سيجارة ، قالت : "إن المرء لابد من أن يعارض ويتحدى كل قوانين التمييز العنصرى ، واجب على كل فرد أن يفعل ذلك ، يتحدى كل القوانين التى تقول : « إن هناك إنساناً أدنى مرتبة من إنسان آخر » ، اجلس حيثما تريد ، سواء فى قطار أو مطعم ، دعهم يعتقلونك إذا جرأوا ، " انهزمك الشرطيان الأبيضان فى تدوين الملاحظات ، ما الذى يدفعها ، لتقول لهم ذلك؟ فهى يمكنها الذهاب إلى أفضل دار عرض سينمائى ، وأن تسبح فى أفضل الشواطئ ، وأن تسكن فى أفضل المناطق ، ما الذى يدفع امرأة بيضاء قادرة على الحصول على كل شىء لقول مثل هذه الكلمات؟ ! ثم إنها أجمل من "أنيتا لاتجين" ، ولها شعر يلمع فى الشمس مثل الذهب .

كان مهمومًا قبل تركه "بيتستين فونتين" خشية أن تكون الأحوال في كيب تاون مختلفة كثيرًا ، وكان قد شاهد جماعة "الإسكوليز" في شارع "هانوفر" ، لكنهم لم يعودوا يُرهبونه بعد، على الرغم من أنه كان يخشاهم فيما سبق ، يسكن الآن في شارع "كاليدون" قرب دار عرض "النجم" ، وكان له عدد قليل من الأصدقاء ، أحدهم يسكن في "أثلون" وهو الذي كان ذاهبًا لزيارته عندما رأى الاجتماع في شارع "جراندا بارادا" .

اكتشف أن الحى السادس حى متواضع ، لكن لا أحد ولا حتى "أوكلاس" كان قد حذره من الأشياء التى يسمعا الآن ، كل هذا كان أمرًا جديدًا عليه ، هذا الحدث كان يهين العقل للانطلاق ، أكدت السيدة أنهم لابد من أن يعارضوا ويتحدوا تلك القوانين ويتحملوا العواقب ، نعم، يجب أن يعترض ويتحدى ، راح القرار يتخذ شكلاً فى عقله ، لكنه ما زال جريئًا وبعيدًا جدًا عن التنفيذ، وأيضًا بعيدًا جدًا عن السخف ، وفى أثناء استمرار السيدة فى الكلام بدأ التصميم يزحف على الغموض ، نعم، لابد من أن يتحدى ، هو "كارلى" ، سوف يتحدى ويتحمل العواقب ، هو، سوف يذهل "أوباس لاتجين" و"أوكلاس" و"أنيتا لاتجين" و"نيللى" عندما يرون صورته فى الصحيفة ، وسوف يبتسم هو، سوف يذهل حتى السيدة ذات الثوب الأزرق ، بحماس المؤمن الجديد عقد العزم على التحدى، حتى لو كان ذلك يعنى السجن ، سوف يبتسم مثل أولئك الناس فى الصحيفة .

لقد توصل الاجتماع لقرار، ثم غنى الجميع، ورفعوا أيديهم وأصابع الإبهام مشيرة لأعلى وصاحوا "إفريقيا!" انتهى الاجتماع وتفرق الحشد،

شق "كارلى" طريقه بحذر خلال الكتلة البشرية وهو ذاهب إلى محطة
القطار ، سوف ينتظره صديقه فى "أثلون" ، مازالت كل كلمات المتحدثين
تتلاطم فى رأسه ، أفكاره مختلطة ، إلى جد ما ، لكنها فى الوقت ذاته ،
واضحة تمامًا ، يجب أن يتحدى ، لم يكن ليحدث مثل هذا قط فى
"بيتستين ثونتين" ، أو هل يمكن أن يحدث؟ انطلق فجأة صوت فرامل
سيارة كصرخة زعر ، قفز "كارلى" بعيداً عن الطريق فى الوقت
المناسب ، أطل رأس غاضب من نافذة السيارة .

"انظر إلى أين أنت ذاهب ، أيها القرد الأحمق ؟"

حذق "كارلى" للحظة ، مبهور الأنفاس ذاهلاً لا ينطق ، بالتأكيد هذا
السائق لم ير السيدة البيضاء وهى تقدم سيجارة للسيد "نيكسلى" ، إنها لم
تكن لتصرخ فيه ، وتسميه قرداً ، لقد قالت لابد للمرء من أن يتحدى ،
كل هذه الأحداث تسبب له الاضطراب ، ربما يكون من الأفضل للحاق
بالقطار ، والرحيل إلى صديقه فى "أثلون" وإخباره بكل ما حدث ، أحس
بحاجة إلى الحديث مع شخص ما .

رأى المحطة بعيون مؤمن حديث الإيمان ، كتلة من البشر ، أكثرهم من
البيض ، مع بعض السود ، وقليل من الملونين مثله ، هنا كانوا يتدافعون ،
ويشقون طريقهم بالمناكب ، لكنهم بدوا كأن كل واحد منهم محاط بشرقة كل
فى عالمه الخاص ، الكل يتحرك حركة محسوبة فى قالب ضيق من صنعه ،
ولكن لابد للمرء من أن يتحدى كل هذه الأشياء ، هكذا قالت المرأة أيضاً
الرجل ذو الصوت المتدفق ، كل بطريقته ، لكن كيف يمكن للمرء أن
يتحدى؟ وما الذى يتحداه؟

ثم بزغ الحل أمامه ، هنا فرصته ، المقعد ، مقعد محطة السكة الحديدية، بالخرافة المكتوبة باللون الأبيض بإتقان : " للبيض فقط " ، لبرهة ، كانت هذه اللوحة بالنسبة له ترمز إلى كل يؤس مجتمع جنوب إفريقيا ، إذن، هنا كان تحديه من أجل حقوقه كرجل ، هنا يقف المقعد؛ مقعد خشبي عادي مثل مئات وآلاف المقاعد في جنوب إفريقيا ، مقاعد المحطات المترية في "كاروو" ، وتحت أوراق النباتات الاستوائية في "ناتال" ؛ المقاعد في طول البلاد وعرضها، كل مقعد بخرافته ، هذا تحديه ، تركزت حول هذا المقعد الآن، كل شرور نظام لم يفهمه ، كان المقعد عائقاً بين نفسه ورجولته ، إذا جلس عليه، يكون رجلاً ، إذا خاف، فلن يكون جديراً بإنسانيته ، كل تصوراته عن إصلاح النظام انحصرت فقط في جلوسه على ذلك المقعد، هنا كانت فرصته ، هو "كارلى" ، سوف يتحدى .

بدا هادئاً تماماً عندما جلس على المقعد، لكن قلبه كان يضطرب بعنف، تتنازعه الآن فكرتان ، الأولى قالت : " ليس لك حق أن تجلس على هذا المقعد " الفكرة الثانية قالت : " لماذا ليس لك حق الجلوس عليه ؟ " هذه الفكرة الأولى هي صوت الماضي في حياة القرية، من استسلام أبيه وجدته "أوكلاس" للعبودية، فجده هو من قال " الله بحكمته خلق الرجل الأبيض أبيض، والأسود أسوداً " الصوت الآخر في داخله وعده بالمستقبل حين قال : " كارلى، إنك رجل ، لقد جرؤت على ما لم يجرؤ عليه أبوك وجدك، وستموت كرجل " .

سحب " كارلى " سيجارة الـ "كافاللا" من العلبة المتفضنة وراح يدخن ، لم يلحظ أحد وجوده جالساً هناك ، هذا أيضاً إذلال ، ما زال

العالم يمضى فى طريقه المعتاد ، ما زال الناس أحياء ، يتنفسون ، ويضحكون ، لم ترتفع صيحة ابتهاج بالنصر ، " كارلى ، لقد انتصرت ! " كأنه إنسان عادى تمامًا جالس فى محطة مزدحمة ، يدخن سيجارة ، أكان هذا انتصاره ؟ أن يكون إنسانًا عاديًا جالسًا على مقعد !

مشت على رصيف المحطة سيدة بيضاء أنيقة ، هل ستجلس هذه السيدة على المقعد ؟ راح الصوت المزعج ينخر فى رأسه : " لابد من أن تقف وتدع السيدة البيضاء تجلس ، هذا المقعد ليس لك "

ضاقت عينا « كارلى » وهو يسحب نفسًا من سيجارته بشراهة ، اكتسحته السيدة بنظرة مترفعة عند مرورها به ، هل كانت خائفة من إقدامه على التحدى من أجل حقوقه فى أن يكون إنسانًا ؟ أو لم تكن مهمة قط ؟

أدرك " كارلى " أنه كان مستنزفًا تمامًا ، كان معتادًا على العمل العضلى ، لكن هذا أمر مختلف ، إنه مستنزف عقليًا وعاطفيًا ، تلك كانت الفكرة الثالثة التى تتنازع الآن ، وقد تسلفت إلى نفسه فكرة التعادل التى تقول : " أنت لا تجلس على المقعد للتحدى ، أنت تجلس لأنك متعب ، أنت جالس هنا لهذا السبب ، " لن يتحرك لأنه كان متعبًا ، وكل ما يريده هو أن يرتاح ، أم هل كان ذلك لأنه أراد التحدى ؟

تدفق الناس من قطار " أثلون " الذى توقف عند الرصيف ، كان تدافع الناس وتصادمهم مع بعضهم على أشده ، وبدا الأمر كأن لا أحد لديه وقت ليتبته لوجوده ، كان القطار سيمر بـ " أثلون " عند خروجه من المحطة ، ربما كان أسهل شىء فى العالم أن يخطو داخله وينطلق بعيدًا عن

كل هذا ، كان بإمكانه أن يرتاح ، بعيداً عن التحديات والمقاعد التي لا يُسمح للمرء أن يجلس عليها . بعيداً عن اجتماع "جراند بارادا" ، والسيدة البيضاء التي قدمت سيجارة للسيد "نكيسلى" ، لكن رفض التحدى يعد استسلاماً ، معاناة الهزيمة الشخصية ، قد يكون عليه أن يسلم بحقيقة أنه ليس إنساناً .

استمر جالساً ، دخن سيجارة أخرى ، وسمح لخوابره بحرية التجول بعيداً عن المحطة والمقعد ، راح إلى "بيتستين فونتين" وذاك الحديث الذى كان قد دار بينه وبين جده ، عندما كان "أوكلاس" يفضى إليه بما فى خاطره ، "كيب تاون" ، الأضواء البراقة ، والوظائف الأفضل ، والأموال الأكثر حتى إنه يمكن أن يرسل بعضها للبيت ، رفع "أوكلاس" بصره بطريقة غريبة بينما كان يدخن غليونه ، كان "أوكلاس" حكيماً ، وامتد به العمر ، أصر دائماً على أن المرء لابد من أن يتعلم من السفر والترحال ، عاش فى "كيب تاون" ، عندما كان شاباً ، وقد سال لعبه وبصق وضحك بمكر عندما تحدث عن الفتيات فى الحى السادس ، ذوات البشرة الزيتونية الجميلة ، وعيونهن مثل عيون المها ، كان "أوكلاس" يعرف كل شيء ، قال أيضاً : إن الله بحكمته خلق الرجل الأبيض أبيض ، والرجل الأسود أسود ، ويجب أن يلتزم كل منهما مكانته .

" أنت تجلس على المقعد الخطأ ، " لم يتبه "كارلى" للشخص الذى تكلم ، كان لـ "أوكلاس" عادة خاصة يمارسها عندما يكون عليه أن يقرر أمراً هاماً - خصوصاً ما يتعلق بنسائه - وهى أن يبصق على الأرض ويمط شفتيه بمكر .

" هذا هو المقعد الخطأ ، "

انتزع " كارلى " من خواطره عائداً للواقع ، كان سينهض غريزياً ، عندما أدرك من هو ، ولماذا كان جالساً هناك ، شعر فجأة بالتعب ، رفع بصره ببطء ، رأى شاباً أبيض نحيفاً ، عاقداً عصا على جبهته ، ووجهه ملىء بالبشور ، يسحب حقيبة سفر ضخمة ، قال : " أنا آسف ، لكنك تجلس على المقعد الخطأ ، هذا المقعد مخصص للبيض فقط ، "

حملق فيه " كارلى " ، ولم يقل شيئاً ،

" هل أنت أصم ؟ إنك جالس على المقعد الخطأ ، هذا ليس لقومك ، إنه للبيض فقط ، " ببطء وبترو ، نفث " كارلى " دخان سيجارته وراح يفحصها بطريقة مبالغ فيها ، أهذا هو المحك ، أهذا هو الصراع ؟ قدر الشاب الأبيض حجم " كارلى " .

" إذا لم تتحرك الآن ، سوف تقع فى مشاكل خطيرة ، "

لاذ " كارلى " بصمته العنيد ، وكان واضحاً أن الشاب لن ينفذ القانون بيديه ، أما " كارلى " فإن النطق الآن سيكون مضيعة للنفوذ والتفوق اللذين شعر أنه أحرزهما .

" حسناً ، أنت تبحث عن المتاعب ، سأبلغ عنك "

أدرك " كارلى " أن الشاب كان يواجه الموقف بالعجرفة ، وأنه خائف وغير قادر على أن يقدم بنفسه على أى فعل ، اختفى تاركاً حقيبة سفره على المقعد المجاور لـ " كارلى " ، ها هو ذا ، " كارلى " ، قد فاز بالجولة الأولى فى الصراع حول المقعد .

أخرج سيجارة أخرى ، التردد تحول الآن إلى تصميم ، تحت أية

ظروف كانت، لن يتخلى عن مقعده ، يمكنهم فعل ما يشاءون، حذق
بعدائية تجاه حقبة السفر.

خلق الشرطى فوقه قائلاً:

" هيا، أنت تجلس على المقعد الخطأ ، توجد مقاعد على مسافة أبعد
لقومك ، " رأى "كارلى" الشعر الخفيف الأحمر حول عنق الشرطى،
وقف الشاب الأبيض خلف الضابط ، لم يقل "كارلى" شيئاً.

" أنا أمرك بالتحرك للمرة الأخيرة ، " ظل "كارلى" جالساً على
المقعد.

" حسناً، إذن أريد اسمك وعنوانك، وسوف تأتى معى ، " لاذ
"كارلى" بصمته العنيد ، أمسك به الشرطى على حين غرة ، كان الحشد
يتزايد، وصاح فتى: " إفريقيا! "، ثم اختفى بين جمهور المشاهدين.

" سوف ألقى القبض عليك، هيا، انهض ، "

ظل " كارلى" جالساً على المقعد، انتزعه الشرطى من أكتافه بمساعدة
الشاب الأبيض ، تحول "كارلى" ليقاوم، متشبثاً بالمقعد، مقعده ، ضُرب
بوحشية، ثم شعر بالـم " غبى " من جراء ضربة من قبضة يدٍ سدّدت بقوة
إلى معدته ، سقط على الأرض، وانسحج وجهه فى الأسفلت الخشن ،
حينئذ، لف الشرطى ذراعى "كارلى" خلفه، وعضت الأصفاد على
معصميه ، استرخى فجأة وجاهد ليقف على قدميه ، لم يعد من داعٍ
للمقاومة ، الآن فقط حان دوره ليبتسم، لقد تحدى، وشعر بأنه انتصر، إن
لم يكن انتصاراً عليهم، فهو انتصار على ضعفه ، من يعبأ إذن بالعواقب؟
كان الشاب الأبيض ينفخ الغبار عن بنطلونه.

قال الشرطى دافعًا " كارلى " كى يمر من بين الناس المحتشدين،
" هيا! "

نطق " كارلى " للمرة الأولى: " من غير ريب " ، وصدق فى
الحشد بكبرياء الرجل الذى جرؤ على أن يجلس على مقعد . . لـ البيض
فقط Whites Onley.

السيدة بلام

تأليف : إيزاكيا مفالليل

اسم سيدتى هو السيدة "بلام" ، كانت تحب الكلاب ، والأفارقة ،
وتقول: إنه يجب على الجميع طاعة القانون حتى وإن كان مؤلماً ، تلك
كانت المبادئ الثلاثة الكبرى فى حياتها .

جئت للعمل لدى السيدة "بلام" فى "الجرين سايد" ، وهو حى لا
يبعد كثيراً عن وسط « جوهانسبرج » ، بعد أن تركت عائلتين من عائلات
البيض ، أول عائلة بيضاء عملت عندها كطاهية وغسالة ، كان رجلاً
وزوجته ، يسكنان فى "بارك تاون نورث" ، كانا سكيران ، ودائماً
ينسيان دفع راتبى ، بعد خمسة أشهر قلت لنفسى ، لا ... هذا
الحال لا ينفع ، سأترك هؤلاء "الخمورجية" ، وعليه تركتهم ، فى ذلك
اليوم كنت غاضبة مثل الحديد الساخن عندما يوضع فى الماء ، البيت الثانى
الذى طبخت وغسلت فيه ، كان ذلك فى "بلاجرافيا" ، وكان به خمسة
أطفال سيئو التربية ، كثيراً ما كانوا ينادوننى: " أنت يا بنت يا سوداء " ،
وكنت ألتزم الصمت ، لأن أهمهم كانت تسمعهم ولا تقول لهم شيئاً ،
وكذلك لأننى كنت حديثة العهد بالبعد عن موطنى "نوكانينج" ، وموطنى
بعيد عن هذا المكان ، بالقرب من مدينة "راست بورج" ، وكنت أريد أن

أتعلم وأعرف الناس البيض لكى أعرف كيف أتصرف مع غيرهم ممن سأعمل عندهم فيما بعد ؟ ، والآن تعلمت ، أما الشيء الذى ساقنى للجنون ، وجعلنى أحزم أمتعتى وأرحل ، فهو الرجل الذى كان يأتى لزيارتهم كثيراً ، قالوا : إنه ابن عم أو شىء من هذا القبيل ، كان يأتى إلى المطبخ كثيراً ، ويحاول ملاطفتى ، ثم ربت على ردفى ، أخبرت سيدى ، مع ذلك فعلها الرجل مرة أخرى ، فطلبت من سيدتى فى نفس اليوم أن تعطينى مستحقائى وتدعنى أرحل .

تلك كانت الشهور التسعة الأولى منذ تركت "نوكاينج" كى أعمل فى چوهانسبرج ، كان هناك الكثيرات منا ، نحن البنات والشابات من "نوكاينج" ، و"زيراست" ، ومن "شوبنج" ، ومن "كوستن" ، وكثيرات من أماكن أخرى جئن للعمل فى المدن ، لذلك كانت ضواحي المدن مليئة بالسود ، أغلبنا تخطى الصف الدراسى السادس ، وهذا ساعدنا على تعلم المزيد من الإنجليزية فى الأماكن التى عملنا بها ، جميعنا لم نحب العمل لدى المزارعين البيض ، لأننا نعرف الكثير عنهم فى المزارع القريبة من مواطننا ، إنهم لا يدفعون رواتب جيدة ، وهم قوم قساة القلوب .

فى أعياد الفصح ، كانت الكثيرات منا يعدن لمسقط رأسهن لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ، ولكى نرى أهلنا ونأكل الدجاج واللبن الرايب ، والسبانخ المجففة ، وكنا نحمل معنا للبيت أيضاً السكر واللبن البودرة ، والشاى والقهوة والحلاوة والكسترد والأطعمة المعلبة .

كانت الفتاة "تشيமானى" من مسقط رأسى ، وهى التى اتصلت بى لأحصل على عمل فى منزل السيدة بلام ، وهذه السيدة تسكن فى الباب الملاصق للبيت الذى كانت تعمل به "تشيமானى" ، أعمل لدى السيدة

"بلام" منذ ثلاثة أعوام الآن ، لقد كنت سعيدة تمامًا معها ومع ابتسها "كيت" ، أعنى بذلك أن مكاتنى كخادمة فى "جرين سايد" لم تكن سيئة مثل مكانة كثير من الأخريات ، "تشيمانى" - أيضًا لا تشتكى كثيرًا ، يُدفع لنا ستة جنيهات فى الشهر مع الوجبات المجانية وحجرة خدم مجانية - أيضًا - لا يدعى أحد أنهم يدفعون لنا رواتب جيدة، لذلك كنا نستمر فى الشكوى بطريقة أو بأخرى ، كلما تقابلنا بعد ظهر يوم الخميس، الذى هو يوم إجازتنا جميعًا، نحن النساء السوداوات فى الضواحي، نتكلم، ونتكلم، ونتكلم . . . عن أهلنا وخطاباتهم وعن أمراضهم وعن المحاصيل السيئة وعن الأخت التى تريد زيا مدرسيًا والكتب والمصاريف الدراسية ، وعن بعض سيداتنا وساداتنا الكرماء أو البخلاء بالمال أو الطعام، أو الحمقى منهم أو التافهين، أو الذين يقتلون أنفسهم أو بعضهم البعض، أو القذرين ، وأشياء كثيرة جدًا لا يمكن حصرها .

كنا نذهب فى أمسيات الخميس للمدينة كى نشاهد المحلات ، أو نحضر اجتماعات نادى السيدات ، ولكى نرى أصدقاءنا الشباب، أو يذهب البعض منا للسينما ، فكنا نلبس ملابس غاية فى الأناقة، كى نرى الآخرين الملابس التى كنا نشترىها من تجار "المانيفاتورة" السود الذين يبيعونها لخدمات الضواحي ، نشترى عددًا من الأشياء وهم يدورون علينا كل شهر لجمع الأقساط إلى أن نسد الثمن ، لذلك كنا نلبس مثل كثير من السيدات والبنات البيض، أعتقد أننا نبدو فعلًا أنيقات ، أحيانًا نضبط امرأة بيضاء تنظر إلينا فنضحك ونضحك ونضحك، حتى نكاد نسقط من الضحك على الأرض لأننا نشعر فى قرارة أنفسنا أننا على ما يرام .

سألتنى السيدة "بلام" فى اليوم الأول الذى أتيت فيه : بم تناديك البنت التى فى البيت المجاور؟ أجبتها: " تنادينى جين" ، قالت ، أليس لك اسم إفريقى؟ قلت ، نعم اسمى "كارابو" ، قالت سيدتى ، حسناً سوف نناديك "بكارابو" ، كانت تتحدث كأنها تعرف أن الاسم شىء هام ، فقد عرفت كثيراً جداً من البيض الذين لم يهتموا بما ينادون به الناس السود طالما كان الاسم مناسباً لألستهم ، أسعدنى هذا ، أقصد استعمال السيدة "بلام" لاسم "كارابو" ، لأن الفترة الوحيدة التى سمعت فيها هذا الاسم كانت فى موطنى أو عندما ينادينى أصدقائى ، ثم أوضحت لى ما المطلوب - الوجبات ، ومواعيد الوجبات والغسيل ، وعرفتنى مكان كل الأشياء التى سأستعملها .

قالت سيدتى : ابنتى سوف تكون هنا فى المساء ، إنها بالمدرسة ، عندما حضرت الابنة ، أضافت ، أنها ستخبرنى ببعض الأشياء التى تريد أن أقوم بعملها لأجلها كل يوم .

حدثتنى "تشيمانى" ، صديقتى التى تعمل فى البيت المجاور ، عن الابنة "كيت" ، وكيف أنها تبدو متوحشة ، وعن السيد "بلام" الذى انتحر ببندقيته فى بيتهم المغلق عند آخر الشارع ، وقد تركت السيدة "بلام" ذلك البيت وسكنت هنا .

سيدتى امرأة طويلة ، ليست نحيفة ، ولا بدينة ، تتحرك ببطء ، وتكلم ببطء ، يبدو وجهها حكيماً ، وجهتها توحى بأنها ذات كبد قوى : فهى لا تخاف من أى شىء ، عيناها متفتحتان دائماً عند الجفون السفلية ، كأنها لم تنم لكثير وكثير من الليالى أو مثل ضفدع كبير ، ربما

كانت حال عينيها على هذا الشكل لأنها تدخن كثيراً ، مثل خشب رطب لا يعرف كيف يشتعل ، أو كيف يتوقف عن الاحتراق ، عندما تكلمنى تنظر مباشرة فى عينى ، وأعرف أنها تفعل هذا مع الناس الآخرين أيضاً ، فى أول الأمر كان هذا يخيفنى منها لكننى الآن اعتدت عليها ، سيدتى ليست امرأة كسولة ، فهى تقوم بأعمال كثيرة فى الخارج . . فى المدينة وفى الضواحي .

كان هذا أول شىء قالته لى الابنة " كيت " عندما وصلت وتقابلنا ، قالت لى : " لا تبالى بأمى ، فهى أحياناً تكون عنيفة مع الناس بسبب أشياء تافهة ، ثم سرعان ما تهدأ وتتكلم بلطف معك ثانية " .

أحببت " كيت " كثيراً ، وهى تحببى جداً أيضاً . قالت لى كثيراً من الأشياء التى لا تقولها امرأة بيضاء لخدمة سوداء ، أقصد عن الأشياء التى تحبها والأشياء التى لا تحبها ، عما تفعل أمها وعما لا تفعل ، وكل هذه الأمور ، فى أول الأمر كنت غير سعيدة بذلك ، وأردت إيقافها ، لكننى الآن لا أبالى .

تشبه ملامح وجه " كيت " ملامح أمها شبهاً كبيراً ، وأرى كتفيها عريضتين قويتين ، تتحرك أسرع من السيدة ، سألتها : لماذا لا تزال فى المدرسة ، فى حين أنها كبيرة الآن ؟! ضحكت ، ثم حاولت أن تخبرنى أن المدرسة التى تدرس بها مخصصة للناس الكبار الذين أنهوا دراستهم فى المدارس الأولية ، كانت تتعلم أشياء كثيرة عن الطهى والطعام ، بمقدورها أن تشرح وضعها أفضل منى ، كانت " كيت " تأتى إلى البيت فى عطلات نهاية الأسبوع ، منذ أن جئت للعمل لدى السيدة " بلام " و " كيت " تعلمنى

الكثير عن الطهى ، فى الأول تعلمت منها ومن السيدة " بلام " كلمة recipes. ^(٤٥) وعندما كانت « كيت » فى المدرسة الكبيرة علمتنى سيدتى كيف أقرأ كتب الطهى ، فى البداية تقدمت فى ذلك ببطء ، أبطأ من عربة يجرها بغل ، الآن أعرف أكثر ، وعندما عادت " كيت " للبيت اكتشفت أننى أعرف قراءة الوصفات التى تركتها لى ، وهكذا قمنا بالطهى مباشرة ، وتعتقد " كيت " أننى صرت أهلاً لأن أقوم بالطهى فى فندق ، وأمنت سيدتى على ذلك أيضاً ، فقلت : إن هذا لا يمكن أن يحدث أبداً ، أبداً ! فالطهى فى فندق يشبه العمل فى علف الثيران ، فلا أحد يقول لك شكراً أبداً ، بعد بضعة شهور استطعت أن أطهو غداء يوم الأحد ، وفيما بعد استطعت أن أطهو أطعمة خاصة لضيوف السيدة أو ضيوف " كيت " .

لم تعلمنى « كيت » الطهى فقط ، بل علمتنى كيف أخدم على الضيوف ، وامتدحتنى عندما قمت بذلك على أكمل وجه ، فهى ليست مثل البيض الآخرين الذين عملت عندهم من قبل ، إننى لا أفهم سبب اختلال عقول الناس الآخرين ، كان لسيدتى أيضاً صفوف دراسية فى المساء . تعلم فيها الخدم كيف يقرءون ويكتبون ، وكانت هناك امرأتان أخريان من " الجرين سايد " تقومان بالتدريس فى الكنيسة .

كما ذكرت من قبل ، أخبرتنى " كيت " بالكثير عن السيدة . فقد قالت لى مرات كثيرة : أمى تذهب للاجتماعات . فأسألها : من أجل ماذا ؟ فتقول لى : من أجل أهلك ؟ أقول لها متسائلة : لكن أهلى بعيدون فى «نوكاينج» ، ولديهم السنة يتحدثون بها ، لماذا تريد أن تقول شيئاً بدلاً

(٤٥) وصفات الطهى .

عنهم؟ أهى تعرف ما يريد أبى و أمى قوله؟ إنهما يستطيعان الحديث عن نفسيهما عندما يريدان ، فترفع " كيت " كتفيها وتنزلهما وتقول: « كارابو » ، كيف يمكن أن أفهمك ؟ أنا لم أقل أهلك بمعنى عائلتك فقط ، إنما أقصد كل الناس السود فى هذا البلد ، " فأقول : أوه ! ماذا يريد الناس السود أن يقولوا ؟ مرة أخرى ترفع كتفيها وتنزلهما ، وتسحب نفساً عميقاً .

أسألها : " مع من تكون فى الاجتماعات؟ "

تقول : " مع أناس آخرين يفكرون مثلها "

أسألها: " هل تقولين أن هناك ناساً آخرين فى العالم يفكرون فى نفس الأمور ؟ "

تومئ برأسها موافقة ،

فأسألها: " ما هذه الأمور؟ "

" يجب أن يصل بعض قسومك ليكونوا بين أولئك الناس الذين يحكمون هذا البلد يوماً ما ، وأن يحصلوا على أموال كثيرة مقابل ما يقدمونه للرجل الأبيض " ، و... ما الذى قالته أيضاً ؟ نعم ، إن سيدتى وهؤلاء الآخرين الذين يفكرون مثلها ، يريدون من قومى الذين تعلموا ، أن يختاروا هؤلاء الذين يجب أن يتحدثوا نيابة عنهم فى الـ " ... " ، أظن أنها تحدثت عن شىء يشبه الـ "خوتله" ^(٤٦) الموجود فى موطنى ، ذلك الذى يحكم القرى .

(٤٦) المجلس العرفى - يضم زعيم القبيلة ومستشاريه ، أو رؤساء عدة قبائل وعدد من المستشارين .

رددت عليها: " أوه ، فهمت يا " كيت " ، لكن لماذا تكتب سيدتى دائما على الآلة الكاتبة طوال الوقت ، كل يوم تقريباً ؟ "

ردت قائلة : " أمى تكتب كتباً "

أسألها وأنا أشير إلى الكتب التى على الأرفف : " تقصدين كتباً مثل هذه ؟ "

ترد « كيت » : « أجل » .

وقد قالت لى " كيت " : " إن السيدة تكتب كتباً ، وأشياء أخرى للصحف ، وأنها كتبت للصحف والمجلات تدافع عن الناس السود ، وكيف يجب أن يعاملوا بطريقة حسنة ، وأن يدفع لهم مالا أكثر ، وعن الناس السود الذين يمكنهم قراءة وكتابة كثير من الأشياء وحقهم فى أن يختاروا من يتحدث باسمهم "

وأضافت " كيت " أيضاً : " إن أمى والنساء الأخريات اللاتى يفكرن مثلها ، يرتدين الشارات السوداء فوق أذرعهن حين يكن مستاءات من الأمور التى تقع من القوم البيض ضد السود ، ويردن إظهار ذلك للحكومة البيض ، فتذهب أمى والأخريات ويقفن عند المبنى الذى يذهب إليه ناس الحكومة داخلين خارجين "

سألتها : " هل الحكومة والناس البيض يستمعون ويتوقفون عن خطاياهم ؟ " تقول : " لا ، لكن أمى ضمن جماعة من البيض مختلفين عن ناس الحكومة ، " أسأل : " هل يقدم ناس الحكومة الشاى والكعك للنساء ؟ " تقول « كيت » : « كارابو » ، كم أنت حمقاء ، أوه ! " أقول لها : « عند أهلى إذا جاء أحد ووقف أمام بيتى أقول له تفضل ، وأقدم

له طعامًا . أنتم أيها الناس البيض " Wonderful ^(٤٧) ، تبقون النساء واقفات هناك ، ولا يقدم لهن ناس الحكومة أى شىء ؟ "

ترد « كيت » : تقصدين strange ^(٤٨) ، كم مرة علمتك ألا تقولى wonderful عندما تقصدين strange ! ثم تقول بنفاذ صبر وهى تنظر لأعلى صائحة : " حسنًا ، حسنًا ، إنهن لا يقفن هناك طوال اليوم لطلب الشاى والكعك اللعين ذاك . . . آه منك "

دائمًا حين تنتهى سيدتى من قراءة الصحف تقدمها لى كى أقرأها لتساعدنى على الحديث وكتابة الإنجليزية بطريقة أفضل ، وعندما كنت أقرأها كانت تسألنى أن أحدثها عن بعض الأشياء التى بها ، وبهذه الطريقة ، كنت أحسن وأتحسن ، وكان عقلى يتفتح ويتفتح ، وأتعلم وأتعلم الكثير من الأشياء عن الناس السود فى داخل وخارج المدن التى لم أكن أعرفها قط . عندما كنت أجد كلمات صعبة جدًا ، أو أمورًا لا أفهمها كنت أسأل سيدتى عنه ، كانت تقول دائمًا : آه ، أتعرفين هذا ، أتعرفين ذاك ، إه؟ بصبر لا ينفد ، نعم ، كتبت السيدة رسائل عديدة للصحف ، فهى دائمًا آسفة للطريقة التى يضرب بها البوليس الأبيض الناس السود ، الذين يعملون عند الناس البيض ، فالبوليس يحوم حول السود الذين يجلسون بجوار البحيرة فى حديقة الحيوان ويجعلون قلوبهم تتفرض ، ذلك لأن الناس البيض يقولون « إن قومى السود يعملون ضجيجًا فى أمسيات الأحاد ، وأنهم ، « البيض » يريدون أن يرتاحوا فى بيوتهم

(٤٧) رائعون .

(٤٨) غريبى الأطوار .

وحداتهم « ، كما تكتب عن الأشياء الكثيرة القبيحة التي تحدث عندما يقابل بعض الناس البيض رجلاً أسود على رصيف أو في شارع ، عن كل ذلك تكتب السيدة في الصحف حتى يعرف الآخرون ، وكى تطلب من الحكومة أن تكون طيبة معنا .

في العام الأول أرادت السيدة " بلام " أن أكل معها على المائدة ، كان أمراً شاقاً على نفسي ، أولاً : لأننى لم أعتد على الأكل على المائدة بالشوكة والسكين ، ثانياً : لأننى لم أسمع عن طباخ قد عومل بطريقة خاصة مثل هذه ، فكنت خائفة ، خائفة من كل كائن ، من ضيوف السيدة إذا وجدونى أفعل هذا ، قالت لى السيدة : إنه لا يجب أن أكون سخيفة ، وأننى لابد من أن أثبت أن الخدم الأفارقة يستطيعون أيضاً أن يأكلوا على المائدة ، ثالثاً : لن أكون قادرة على أكل بعض الأشياء التي أحبها جداً مثل ثريد الذرة باللبن الرايب ، أو السبانخ البرية ، أو طحين الذرة المخلوط بزيت الفول ، والثريد الحامض فى الإفطار ، وأصناف أخرى كثيرة ، وأيضاً ، باستثناء ثريد الإفطار ، فإن طعامنا يكون شهياً عندما نأكله باليد ، فطعامنا شهى لأنه لا يقف بالفم أو الحلق لتحية أى أحد حيث يمر بسلاسة إلى المعدة .

كنا ، « تشيمانى » التي تعمل فى البيت المجاور ، والبستاني ، وأنا ، نتناول غداءنا غالباً جميعاً . آه ، لابد من أن أتذكر ألا أقول " ولد " مرة أخرى عندما أتحدث عن رجل ، ذكرنى هذا بواقعة حدثت فى الأسابيع الأولى لعملى فى بيت السيدة " بلام " ، كنت أتحدث عن " ديك " ، بستانى حديقته ، وقلت " garden boy " ^(٤٩) قالت لى : " كارابو ، توقفى عن

(٤٩) كلمة ولد - Boy تعنى الخادم ، ويطلقها البيض على كل السود مهما كان عمرهم garden boy or garden man البستاني .

قول "ولد" ، انتبهى لذلك ، أنتم أيها الأفارقة يجب أن تتعلموا أن تتحدثوا باحترام عن بعضكم ، وتقول: إن الناس البيض لن يتحدثوا معنا بطريقة لائقة ، إذا كنا ننظر بازدراء لبعضنا ، أجبتها قائلة : سيدتى ، لقد تعلمت هذه الكلمة من الناس البيض الذين عملت عندهم ، فكل الطبائحات يقلن " ولد " .

ردت : " هؤلاء قوم من البيض لا يفقهون شيئاً ، إنهم طبقة منحطة من البيض " ، رددت عليها قائلة : " كنت أعتقد أن الناس البيض يعرفون كل شيء " .

قالت : سوف تتعلمين يا فتاتى ، ولا بد من أن تتعلمى فى هذا المنزل ، أسمعين؟ تركتنى عند ذلك أفكر ، وكان ذهنى مشوشاً .
تعلمت ، وكبرت .

إذا كانت أية امرأة أو بنت لا تعرف نادى "الغراب الأسود" فى شارع "برى" ، فهى لا تعرف شيئاً ، أظن أن كل شىء فى الدنيا يجرى داخل ذلك المبنى ، هذا النادى موجود قرب المصانع والسوق ، حيث يبدأ الجزء القدر من المدينة مباشرة ، بعد السوق هناك المكان الذى يعيش فيه الهنود والملونون ، من عند نادى "الغراب الأسود" أيضاً ، تلف الأتوبيسات وتستدير عائدة إلى مدينة السود، فى مدينة السود ، الضجيج والضوضاء طوال الوقت ، كانت هناك نساء يبعن البطاطا الساخنة والفاكهة السودانى والبيض المسلوق فى الشتاء ، والذرة المسلوقة وأشياء أخرى فى الصيف ، كل ذلك على الأرصفة ، كانت الشوارع دائماً ممتلئة بقشر البطاطا والفاكهة وقشر الفول السودانى ، وتفوح رائحة غريبة للحم الخنزير

المشوى، أظن أن ذلك بسبب أسعار السلع المجمدة الرخيصة فى شارع
"برى" :

قالت السيدة "بلام" : إنها تعرف الناس السود الذين يعملون فى
نادى الغراب الأسود، وكانت سعيدة لأننى أقضى أمسيات الخميس فى
هنا النادى ، قالت : ستتعلمين الحياكة وشغل الإبرة وأشياء
أخرى . . سأحبها ، هل تحبين الرقص؟ أجبت قائلة : نعم، أريد أن
أتعلمه ، دفعت لى « شلنن » شهرياً حتى أتعلم الرقص .

كنا، نحن النساء اللائى يردن تعلم الحياكة - ننتظر المعلمة فى الطابق
الأول ، كنا نضحك على سيداتنا وساداتنا، وأطفالهم وكلابهم وطيورهم،
ونتحدث همساً عن أصدقائنا الشباب، سس! سيدتى، أنتم لا تعرفون،
إنها حقيقة بخيلة . . . يوو . . . يوو . . . لا بد من أن ترى كلبنا
الجديد ، شىء كبير هكذا . . . قوم مغرورون بغباء . . .

- ماذا! لقد رفست كلبة سيدى هذه " بالشلوت " ، وألقيت بها بعيداً،
فظلت تعوى . . نجوى . . . وونج . . ووا! إننى لا أمزح معهم
أبدًا، أنا . . .

- عيب عليك ، هذا الشىء المسكين! الرب يراك حقيقة . . .

- لقد أرادوا أن أصطحب كلبهم للتمشية كل مساء، فقلت لهم : إن
هذا لم يكن عملى فى البيوت الأخرى ، هذا عمل البستاني فقط ، قلت
فى نفسى : " يتلهوا " ، وليعضوا كيغانهم قبل أن أصطحب كلبًا للخارج ،
لم أجن بعد كى أفعل ذلك . . .

- آه، إن هذا ليس مثل طفل الناس البيض الذين أعمل لديهم ، والذي يحتفظ بفأر أبيض كبير فى البيت، هل تعرفون ماذا يفعل؟ إنه يضعه فى سريره عندما يذهب إلى المدرسة ، ويترك أغطية السرير تفوح منها رائحة البول، وكل القرف، ويطلبون منى أن أغسلها ، آه، يا ناس ! ...

- هل سمعتم عن الناس الذين تعمل "ريبون" عندهم؟ طردتها سيدتها لأن سيدها كان دائماً يقرص مؤخرتها ، وأمس رأّت السيدة السيد وهو يحتضنها ... يووو يوو ... يوو، يا ناس!

- رجال بيض قدرون!

- لا، ليسوا أقذاراً، السيدة رائحتها قديمة جداً بالنسبة له،

- آه!! اذهب واغسل « فمك » بالصابون، « ففم » هذه البنت قدر ...

- يوو ، "ريبون"، بنت الناس!! لا بد من أن نساعدتها لتحصل على عمل قبل أن تفكر فى العودة لموطنها.

وصلت المعلمة ، امرأة بساقين قويتين ، ووجه صلب، وعينين طيبتين ، كان لها شعر قصير وكانت ترتدى عباءة بسيطة ذات ورود رائحة، تقف متوازنة على ساقها وردفيها ، وكان هناك فراغ بين سنيها الأماميين ، ابتسمت لنا كأننا أطفالها أو أبنائها ، بدأت مجموعتنا بالألعاب، ثم أخذتنا " ليليان ناجوى " إلى فصل الحياكة، كلمتنا بإيجاز عن الفصول الأخرى.

لا أستطيع نسيان الأشياء التى قالتها هذه المرأة ، وكيف عرضتها لنا ، قالت لنا: إن الفتيات والنساء السود فى الضواحي قد حان لهن ألا يكتفين بالعمل وإرسال المال لأهلهن والذهاب لرؤيتهم مرة فى السنة ، قالت : إن علينا أن نتعلم أن العالم لن يكون أبداً مكاناً آمناً بالنسبة للناس السود إلا إذا كانوا فى الحكومة ولديهم السلطة لسن القوانين ، يجب أن تُمنح السلطة للأفارقة لأنهم الأغلبية .

سألناها بعض الأسئلة ، وأجابت عليها بحكمة . سوف أحكى لكم بعضها - هنا - بطريقتى على قدر ما أتذكر .

- هل سنأخذ مكان الناس البيض فى الحكومة؟

- نعم ، البعض منها ، بل الناس من كل الألوان أيضاً سوف يحكمون جميعاً ، وهناك رجال بيض صالحون يمكن أن نختارهم معنا ، وهناك بعض الأفارقة سوف يختارهم البيض ليكونوا الحكومة .

- يوجد سادة وسيدات بيض طيبون ، وآخرون سيئون ، أيجب أن نصادق الطيبين؟

- السيد والخادم لا يمكن أن يكونا أصدقاء أبداً ، لذلك أخرجوا هذا الأمر من عقولكم ، فاهمين! فأنتم غير متأكدين حتى إن من تقولون عنهم إنهم طيبون ، أهم طيبون أم غير ذلك ؟ إلا أنهم لا يستطيعون التنفس والحياة بدون مجهودكم ، طالما أنكم تحتاجون لأموالهم ، واجهوهم باحترام ، لكن يجب أن تعرفوا جميعاً أن أشياء كثيرة مؤلمة تحدث فى بلادنا ، وعليكم دائماً أن تتعلموا ، وأن تضيفوا معارف إلى ما تعرفونه بالفعل ، وتطيعوننا عندما يُطلب منكم المساعدة .

فى مرات أخرى أخبرتنا « لىلىان ناجوى » : « تذكروا أهلكم الفقراء فى مسقط رأسكم ، والطريقة التى ينقلهم بها البيض من مكان لكان مثل الغنم أو الماشية » ، وفى مرات أخرى قالت لنا : « تذكروا أن اليد لا يمكن أن تغسل نفسها وحدها ، إنها تحتاج للأخرى لتفعل ذلك »

عندما كانت « لىلىان ناجوى » تتحدث ، كنت دائماً أتذكر سيدتى ، سألت نفسى ماذا ستقول إذا عرفت أننى كنت أستمع لمثل هذه الكلمات ، كلمات مثل : « الرجل الأبيض اعتنت به مربيته السوداء وأمه عندما كان وليداً ، وحين كبر اعتنت به الحكومة ، وأرسلته إلى المدرسة وجعلت من المستحيل على الأبيض أن يواجه الجوع الحقيقى ، وضمنت له وظيفة عند تخرجه من المدرسة ، إذن ، كم من البيض يولدون فى المستشفيات البيضاء ، ويتدبرعون فى شوارع بيضاء ، ويلبسون الثياب القطنية البديعة ، ويرقدون على الوسائد الوثيرة البيضاء ؟ كم من هؤلاء البيض يعيشون خلف حواجز بعيداً عن ذوى الألوان الأخرى ، ثم عندما يصبحون رجالاً ونساءً ، كم منهم سيتعلم بسرعة طرق التفكير السليمة ؟ كم منهم سيتعلم بسرعة أن يتساءل وفى ذهنه أسئلة كثيرة ؟ ! ، ثم كم منهم يستطيع التخلّى عن هذا النعيم ؟ قليلون ، قليلون جداً الذين سوف يفعلون ذلك »

« أما بالنسبة للبيض الذين لم يسترعوهم التفكير ، فقد تأخر بهم الوقت ، أما الذين لحقوا بنا بكلتا القدمين فى بيتنا ، فهؤلاء فقط يمكننا أن نقول لهم مرحباً »

كنت أتعلم ، كنت أكبر ، كل مرة كنت أفكر فيها فى سيدتى ، كانت تبدو لى مثل غابة معتمة ، تلك الغابة التى يخاف الواحد منا أن يدخلها ،

والتي لا يعرفها أبداً لكن كانت هناك أوقات كثيرة أفكر فيها : أن هذه المرأة من السهل فهمها ، أنها مثل كل النساء البيض .

- ما الشيء الآخر الذى يعلمونه لك فى «الغراب الأسود»
يا «كارابو»؟

أرد عليها قائلة: لا شيء يا سيدتى ، لماذا تسأل سيدتى؟

- لأنك تتغيرين .

- ماذا تقصد سيدتى؟

- حسناً ، إنك تتغيرين .

- لكن ألا تتغير جميعنا دائماً يا سيدتى؟

ثم تركتني واقفة فى المطبخ ، حدث هذا بعد بضعة أيام عندما قلت لها : إننى لا أريد قراءة أكثر من جريدة بيضاء فى يوم واحد ، وقلت لها أريد قراءة المجلات الواردة من الخارج فقط ، إذا كانت متوفرة لديها ، وقلت لها : إن الصحف البيضاء بها صور للناس البيض فى أغلب الوقت ، ويتحدثون دائماً عن الناس البيض وحداثتهم وكلابهم ، وأعراسهم وحفلاتهم ، وسألتها إذا كانت قادرة على أن تشتري لى صحيفة الأحد التى تتحدث عن قومي أم لا ، اشترتها لى ، ولم أكن أظن أنها ستفعل ذلك ،

كانت هناك صباحات ، بعد أن ننشر غسيل الناس البيض على الحبل ، كنا نختلس بعض الوقت عند السياج لتكلم ، كنت دائماً أقف أنا و « تشيمانى » قرب حجرتينا ، حتى يمكننا أن نختبئ .

- أهلاً، « كارابو » ، هل تعلمين؟ هكذا قالت "تشيماي" ،
- لا ، ماذا ؟ قبل أن تبدئي قولى لى ، هل رجع " تيمى " إليك؟
- ههشش ، إننى لا أهتم ، فهو لا يزال غاضباً ، لكن الشباب حمقى
يرجعون دائماً زاحفين على بطونهم الفارغة ، هل تعرفين؟
- ماذا؟

- الخميس الماضى رأيت "ماروتى ك. ك" وقد ضحكت حتى وقعت
على الأرض ، كان واقفاً أمام نادى « الغراب الأسود » ، أعتقد أن معدته
الضخمة كانت تصرخ من الجوع ، لديه الآن كلب صغير يحمله تحت إبطه ،
وكان يقف أمام امرأة تبيع البيض المسلوق ، و ... ها ... « يا بلدياتي » ،
كانت « الكرشة » تغلى فى قدر ... أوه يا للرائحة! كانت جيدة حتى إنك
تشبعين منها وحدها ، أعتقد أن "ماروتى ك. ك" كان ينتظر امرأة تشتري
البيض المسلوق ، لا أعرف ما الذى كانت تفعله تلك المرأة بوقوفها طويلاً
هناك ؟ ، وكنت واقفة بالقرب منها ، راح الكلب يتملص من « ماروتى »
ويدفع أنفه للخارج ، ناظراً إلى « الكرشة » المسلوقة ، ظل «
ماروتى » يربت عليه بيده الأخرى ، « شفتى » ؟ مرة أخرى أراد الكلب أن
يتحرر من يد "ماروتى" وأطلق بعض الأصوات من أنفه ، « يا عيني !
واخذ اثنان ثلاثة ، و « هوب » ، انطلق الكلب ليخطف بعضاً من اللحم
الشهى ! لا أعرف كيف قفز وتفادى السقوط فى المرق الساخن الذى كانت
تعم فيها « الكرشة » ، وحاول "ماروتى ك. ك" الإمساك به ، فتعثر
الكلب بالبطاطس والبيض المسلوق ، وصار كل شيء فى التراب ،
نهضت البائعة وجرت وراء « ماروتى . ك. ك » ، وهى تصرخ عليه

وتطالبه بدفع ثمن البضاعة المهذرة، « شُفتى » ؟ أين كنت أنا فى ذلك الوقت؟ كدت أموت ضحكًا حتى نزلت الدموع من عيني .

أنا نفسى كنت أمسك السياج بقوة حتى لا أسقط من الضحك، وأمسكت بيطنى لأكتم ألم جنبى .

سألتها: هل عاد « ماروتى ك. ك. » . ليدفع ثمن الطعام المبدد؟

- نعم، دفع .

- والكلب؟

- أمسك به ، إنه كلب إفريقى جيد، كلب يبحث عن طعامه بنفسه، حين لا يكون هناك مواعيد للوجبات ، إنه ليس مثل تلك الملائكة الغبية المدللة التى يداوم البيض على تقديم الشاى والبسكويت لها.

- هممم .

لحق بنا « ديك » بستانى حديقتنا، مثلما يفعل فى أحيان كثيرة ، عندما أعيدت له الحكاية، كان الرجل يكاد يتدحرج على الأرض من الضحك .

سأل: من يكون ذلك المبجل « ك. ك. » ؟

قلت: إنه صاحب نادى « الغراب الأسود »

- أوه!

« تشيمانى » وأنا : كان يذكر أحدنا الآخر برئيس الجمعية الدينية الضخم « ك. ك. » ، الذى كان يأتى إلى النادى ثم ينظر إلينا بابتسامة لزجة

ملتصقة على وجهه المستدير الأملس ، ينظر إلى كل واحدة منا بتلك
الابتسامة طوال الوقت، كأنه قد نسيها معلقة على وجهه ، ربما قد نسيها
فعلاً ، لأنه حين كان ينظر إلينا طويلاً ، كنا نشعر بأنه يخلع عنا ملابسنا
بعيونه البراقة الدامعة، الغريب أن هذا الرجل كان بإمكانه أن يمتلك حقلاً
ويجلس متأملاً قمحه الناضج مفكراً في أشياء كثيرة .

كثيراً ما كان يتحدث « ك. ك. » ، بلا خجل عما يسميه « ماتيجانا »
أى الفتيات الناضجات ذوات النهود المكتنزة - كان يقول : إن هؤلاء
الفتيات بلا أية شائبة فى عقولهن أو أجسامهن ، وقد تحدث الجميع عنه
كثيراً، وعما يفعله فى مكتبه حين يستدعى فلانة أو « علانة » .

لم يكن المبجل « ك. ك. » ، يتمى لأية كنيسة ، كان يُجرى « التعميد »
والزواج ودفن الناس مقابل أجر، هؤلاء الناس الذين ليس لهم كنيسة لتقوم
بمثل هذه الأعمال ، « يقال إنه : طرد من الكنيسة الكاثوليكية، فكون
كنيستة» ، لكنها لم تدم ، وفى آخر المطاف جاء وفتح نادى « الغراب
الأسود » ، لقد عَرَفَ عند أى حد يقف مع « ليليان ناجوى » ، قالت له :
إنها على الرغم من أنها تستخدم ناديه لتعلمنا أشياء قد تساعدنا فى الحياة،
إلا أنها لن تستطيع الاستمرار إذا كان يقوم بأى شئ شرير مع الفتيات فى
مكتبه . كان « ماروتى ك. ك. » يخشاها، ولم يتخط حدوده معها . . .

عندما بدأت أحكى لكم حكايتى ، كنت أعتقد أننى سأخبركم
كثيراً عن كلبى السيدة « بلام » ، لكننى تكلمت عن الناس ، وأعتقد أن
« ديك » كان على صواب حين قال : « ما قيمة كلب! هناك الكثير من
الكلاب والقطط والببغاوات فى « جرين سايد » ، وأماكن أخرى،
حتى إن كلبى السيدة « بلام » لا يبدو أن حالة خاصة ، « لكن

كنت أشعر أن هناك شيئاً ما خاص في مسألة الكلاب في منزل السيدة « بلام » ، ربما كانت الطريقة التي أحبتهما بها .

« مونتي » كلب ضئيل الجسم ، له شعر طويل وعينان صغيرتان سوداوان ، يشبه وجه امرأة عجوز ، الآخر « مالان » ، أكبر قليلاً ، باللونين البنى والأبيض ، شعره قصير ، ويبدو عارياً إلى جوار صديقه ، ينامان في سلتين منفصلتين ، اللتان تظلان في حجرة السيدة ، كانا يُحميان ويُمشط شعرهما ويعطران ، ويجففان وينامان في الكتان الوردى . للكلب "مونتي" شريط وردي ، يبقى في عنقه معظم الوقت ، كلاهما يحمل غطاءً على ظهره ، وهما يسيران لى « القرف » « والزهرق » عندما أراهما في سلتيهما ، بدينين ، ويبدوان وكأنهما يعرفان كل شيء يجرى حولهما .

كان من عمل « ديك » العناية « بمونتي » و« مالان » ، يطعمهما ويقوم بكل شيء يخصهما ، يقوم بهذا العمل إلى جانب عمله في الحديقة وفي تنظيف البيت ، لقد وصل « ديك » في بداية العام ، جاء . . . وحسب ، كأنه جاء من لا مكان ، قدمت السيدة له عملاً حيث كانت قد طردت اثنين من قبل ، وقد أخبرتنى عن هاتين الحاليتين فقالت : « إنهما لم استطيعا العناية جيداً » بمونتي ومالان « كان « ديك » صبوراً ، حتى على الرغم من أنه قال لى ولتشيمنانى أن كلاب الأوروبيين غبية ومدللة ، وقال : « يوماً ما سوف يُلبس هؤلاء الناس البيض كلابهم حلقات وخواتم وأساور ، وذلك سيكون اليوم الذى سيترك فيه خدمة السيدة « لام » ، ذلك لأنه متأكد أنها سوف تطلب منه حيثذ أن يصقل الخواتم والأساور النحاسية »

على الرغم من إنه كان طويل البال، إلا أن السيدة كانت لا تزال غير واثقة فيه ، فكانت تذهب كثيراً إلى الكلاب بعد الوجبة وبعد التنظيف وتسألهم: " هل قدم لكما "ديك" الطعام يا أحبائي؟ أو هل « ديك » غسلكما يا أحبائي؟ دعوني أرى ، " عندئذ، كنت أرى "ديك" وهو ينتفخ مثل « البالون » من الغضب ، وكان يقول لي: " يا لهذه الكائنات المسماة بالإنسان الأبيض! يتحدثون مع الكلاب!"

أرد عليه : « الناس تتحدث مع الثيران في قرينتا، أم أن هذا لا يحدث؟ »

يقول : « نعم، لكن في قرينتا أنت تعرفين أن الرجل يتحدث مع الثور لأنه يستحبه على جر المحراث أو العربة، أو ليقف ساكناً لحتى يقرنه ، لا أحد يذهب ببساطة إلى ثور وينظر بعينين متباعدتين ويتحدث معه ، دعيني أسألك، هل رأيت أبداً إنساناً من حيث أتينا يأخذ بقرة ويحتضنها في صدره؟ قولى لى !! »

فأقول له: « إننا نتكلم عن ثور لا عن بقرة »

يضحك بملء فمه الواسع حتى تطفرف الدموع من عينيهِ، وعند هذا يضحك عالياً أيضاً.

يقول لى: « يوماً ما، عندما يكون لديك وقت، لا بد من أن تنظري داخل حجرة نوم السيدة، عندما تضع ملحوظة خارج بابها: ممنوع الإزعاج » .

اسأل ديك: « ماذا تقول؟! »

- « أنا لا أقول، أنا أعرف في قرارة نفسي » .

كان « ديك » تقريبًا في مثل عمرنا أنا و « تشيمانى » ، لذلك كنا ندعوه « موشيمانو » « فتى » ، عندما نتحدث عن حيله ، ولأنه لم يكن كبيرًا ليكون لنا « صديقًا » مثل أصدقاءنا الشباب . ويدعونا هو أيضًا : يا بنات ، وفمه الواسع كان متأهبًا للضحك دائمًا ، وأعتقد أن السيدة لم يعجبها ذلك ، فكثير من المرات كانت تقول له - حتى وإن كان « ديك » لا يقصد الابتسام - " ما الذى يدعوك للضحك الآن؟ « أو تقول فى مرة أخرى » : إذا أديت العمل وتوقفت عن رى نباتاتى بابتسامتك ، سوف تكون أكثر فائدة » « لماذا لا تكل السيدة عن ترديد قولها : « إذا تركتك تعتنى بكلابى دون أن أتابع عملك ، فإنك سوف تغرق تلك الأشياء المسكينة ؟! »

يتسم « ديك » للسيدة قائلًا : " أمعقول أن يؤذى « ديك » كلاب السيدة ؟ إن استطاع البقر أن يطير ، فإننى لا أقدر أن أؤذى كلاب السيدة بلام . " كان « ديك » يخاف الناس البيض فعلاً ، فهو دائماً كان يقلد لى و«تشيمانى» فى السر ، كيف تسير السيدة ، وكيف تتكلم السيدة ! فكان يحمل سلطانيتين ويضمهما إلى صدره ، محدثًا إياهما برقة مقلداً السيدة وهي تكلم «مونتى» « ومالان » ، أو كان يجلس إلى منضدة السيدة ويقلد الطريقة التى تجلس بها عندما تكتب ، وأحيانًا كان ينظر من فوق كتفه ويمط وجهه فيصبح مثل وجه الحصان ، كأنه ينظر من فوق نظارة ، ويطلب أن أقوم بعمل شئ ، أو كان يجلس على كرسى بذراعين ، ويضع ساقًا على ساق ، ويمثل الطريقة التى تشرب السيدة بها الشاى ، فكان يمسك بالفنجان المتخيل بين إبهامه وسبابته فقط ، جاعلاً أظافرهما يتلاقيان ، وكان يضحك

بعد كل حركة من هذه الحركات ، ويقوم بهذه التمثيليات بالطبع عندما لا تكون السيدة فى البيت ، وأين كنت أنا فى مثل هذه الأوقات التى يقلد فيها السيدة ؟ أكاد أستلقى على بطنى من الضحك ،

أوه ، لكن كم كان « ديك » يوتعد عندما كانت السيدة « بلام » توبخه ! كان يؤدى عمله فى تنظيف البيت على أكمل وجه ، أما أى خطأ يصدر عنه ، فإنما يكون مع الكلبين ، مع بياضتهما الكتانية ، وطعامهما ، ذات مساء دخل المنزل رجل أبيض ، أخبر السيدة أن « ديك » كان مهملاً أثناء اصطحابه الكلبين للتريض ، وكان كلب الرجل ينتظر على بسطة السيدة ، راح يكرر أن « ديك » كان يقودهما فى بحر الطريق ، وأنه فك « مونتي » « ومالان » ليعبرا الشارع وحدهما ، وأثار الرجل الأبيض ضجة كبيرة حول هذا الأمر ، وأعتقد أنه أراد أن تعرف السيدة إلى أى حد كان مفيداً ، فظل يقول : « بوصة واحدة فقط ، بوصة واحدة فقط . كان محظوظاً إننى فرملت السيارة بالسرعة الكافية . . . لكن الولد الذى عندك ظل ييتسم . لماذا ؟ شىء غريب ! الولد الذى كان عندى فعلها مرتين ، مرتين فحسب ، وبعد ذلك . . . ررر . . . ! » وكان الرجل يحرك يده كأنه يوقع على قرار طرد خادمه الذى لم يعد بعد ذلك قط . وبينما الرجل الأبيض راحل ، قال : « هيا يا راستى ، الولد منتظر كى ينظفك ، » رحت أفكر ، الكلاب بأسماء ، والرجال بدون أسماء ! » وانقضت السيدة على رأس « ديك » .

ذات مرة أحد الكلبين - لا أعرف أيهما - أكان « مالان » أم « مونتي » ، أخذ جواربى القصيرة الجديدة ، ومزقه بأسنانه ومخالبه . عندما أخبرتُ السيدة عن ذلك ، وكان غضبى قد وصل لحلقى ، أعطتنى

نقوداً وقالت: اشتر زوجاً آخر ، فحدث ذلك مرة أخرى ، هذه المرة قالت لى : إنها لن تعطينى أية نقود لأننى أيضاً يجب أن أحتفظ بجواربى فى مكان لا يصل إليه السيدان المهذبان ، لم تكن السيدة « بلام » تريدنا أن نقول « هش » للكليين، أما عن نفسى، فكنت أقول لهما ذلك عندما كانا يقتربان منى، ويشمشمان فى قدمى وأصابعى ، فأنا أكره ذلك .

فى عامى الثالث بمنزل السيدة « بلام » حدثت أشياء كثيرة ، معظمها سيئة بالنسبة لها ، فقد كانت هناك مشاكل كبيرة مع « كيت » ، وكان هناك مشكلة كبيرة خاصة « بتشيمانى » ، وكان قلبى يتأرجح بين حين، ومونتى ومالان أصبحا كليين بالغين خلال أيام .

كانت السيدة تقيم عدداً من سهرات العشاء والحفلات، وتدعو بعض الأفارقة إلى تلك الأمسيات ، حدثتني « كيت » عن سبب بعض تلك الحفلات ، مثلاً عندما تنتهى أمها من كتاب، أو زائر قادم من الخارج، وأشياء من هذا القبيل ، لم أكن أحب الناس السود الذين يجيئون هنا ليأكلوا ويشربوا ، كانوا يتحدثون بإنجليزية صعبة، وكأنهم ناس محشونون بكل أنواع الكتب التى فى العالم ، وكانوا يزدروننى ويستعاملون معى على أننى أقل منهم شأنًا ، أنا الإنسان الأسود مثلهم .

ذات يوم سمعت « كيت » تتحدث إلى أمها، تقول أنا لا أعرف لماذا تدعين كثيراً من الأفارقة فى المنزل ؟! ، يكفى عدد قليل منهم كل مرة ، وقالت شيئاً عن الحكومة لم أتمكن من سماعه ، ردت السيدة: أنت تعرفين أن الكثير منهم لم يقابلوا أناساً ييضاً بعيداً عن منازلهم المظلمة ، وتقول كيت : إنهم لا يأتون لأنهم يريدون صداقتها ، بل لأنهم يريدون مشروباً مجانياً .

شعرت ببساطة أنني لا أقدر أن أكون خادمة للناس البيض والسود في نفس الوقت ، في موطني أو في حجرتي يمكن أن أخدمهم بلا إحساس بالخجل، خاصة الآن، وقد عرفت أنهم جاءوا لمجرد تناول المشروبات . . !

لكن أحد الرجال السود وأخته كانا يأتيان دائماً إلى المطبخ ليتحدثا معي ، لا بد من أنني كنت عدائية معهما في المرة الأولى ، لأن « كيت » كلمتني عن ذلك فيما بعد، عندما جاءت لي في المطبخ . أعرف أنني في ذلك الوقت لم أكن مرتاحة إطلاقاً، فقد كنت خجلة وشعرت أن منزل الإنسان الأبيض ليس بمكان أبدو فيه سعيدة أمام الناس السود الآخرين، بينما الإنسان الأبيض يواصل تفحصنا .

في المرة الثانية كان الأمر أسهل، جاء الرجل وحده ، لن أنسى تلك الليلة أبداً طوال حياتي ، تحدث إليّ بكلمات طيبة، وشعرت أن قلبي يكبر ويتسع في داخلي ، لقد سبب لي اضطراباً كبيراً، وكان هناك الكثير من الزوار الآخرين، لكنني عرفت أنني أحببته، ولم أستطع مطلقاً معرفة كيف يراني، أقصد كامرأة وهو كرجل ، لكنني أحببته ومازلت أفكر فيه بقلب حزين، وعرفت تدريجياً آلام الحب، لقد كان طيباً كفاً يفيض معرفة ويعرف الإنجليزية، فلن يمكثني أن أكون نداءً له، مع ذلك عرفت أنه لا يمكن أن يتنازل وينظر إليّ كإنسانة تريده أن يحبها .

انقلبت « كيت » متوحشة ، كانت السيدة « بلام » قلقة جداً ، فجأة بدت " كيت " كأنها شخص جديد ، بأساليب جديدة، وكل شيء جديد ، لم أكن أعرف ما الخطأ أو الصواب ! راحت تدير « الجرامافون » الكبير بصوت عالٍ، كأنها تُسمع تلك الموسيقى لكل الـ "جرين سايد" ، كانت

موسيقى صاخبة، وأضاعت كل الوقت فى التلوى عليها وفمها مفتوح نصف فتحة، قامت بنفس الأشياء فى حجرتها، حيث قد أنهت الآن المدرسة الكبيرة وأصبحت تخرج كل ليلة سبت، عندما نظرت إلى وجهها، كان به شىء ما عميق ووحشى، وعندما كنت أظن أنها شابة كانت تبدو عجوزاً، وعندما ظننت أنها عجوز بدت شابة، كنا نحن الاثنين فى الثانية والعشرين من العمر، لذلك فهمت سبب قلق أمها عليها، وما تعانيه.

لكن الأسوأ كان قادمًا .

كانتا الآن، الأم والابنة، تصرخان علناً كل منهما فى الأخرى، بدأتا الشجار فى حجرة الجلوس، ثم طلعتا السلالم معاً وهما تتراشقان بكلمات سريعة ساخنة ضارية، البعض منها لم أستطع التقاطه، ذات يوم جاءت السيدة إلى وقالت لى: " هل تعرفين؟ كيت تحب إفريقى، إنه الدكتور الذى يأتى « ليتعشى » هنا كثيراً، تقول إنه يحبها جداً، وإنهما سوف يتركان البلاد ويتزوجان فى الخارج، قولى لى « يا كارابو »، ماذا يعتقد قومك فى مثل هذا الشىء بين امرأة بيضاء ورجل أسود؟ لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، أليس كذلك؟ ! "

رددت وقلت لها: " لم نرَ ذلك يحدث قط من قبل فى المكان الذى جئت منه "

" هذا حقيقى « يا كارابو »، إنه مجرد جنون "

مضت السيدة، وكانت تبدو مثل شخص ممسوس،

قلت لنفسى، هؤلاء النساء البيض، لماذا لا يكتفين برجالهن ويتركوننا نحب رجالنا؟! "

منذ تلك اللحظة . . لم أرغب في محادثة « كيت » قط ، كانت تبدو لى مثل لص ، أو ثعلب دخل بين قطيع الغنم فى الليل ، كرهتها ، وما جعل الأمر أسوأ أنه لن يسمح له مطلقاً بالحضور إلى المنزل .

كلما جاءت " كيت " للمنزل، كان يسود الصمت بيننا ، ولم يمر وقت طويل حتى أردت معرفة أى شيء عما تفعله، وأين، وكيف.

رقدت فى سريرى مستيقظة بالساعات ، وأنا راقدة هكذا، شعرت بأعضائى تنبض داخلى، مثل طلسمات المياه، تضرب بعنف وتدفع ثم تضخ بعض الماء داخل فتحة واحدة، ثم تخرج المياه من الطرف الآخر، كنت أتمطى وأتلوى كثيراً إلى أن أشعر بالتعب الشديد وأنام.

وعندما كنت أسقط فى النوم، كانت أحلامى تمتلئ بأشياء مؤلمة.

ذات مساء اتخذت قراراً، بعد أن أجلت ذلك مرات كثيرة ، أخبرت صديقى أننى لم أعد أريده ، نظر إلى متألماً، مما آلمنى أنا أيضاً ، ورحل.

كان التفكير فى الطبيب الإفريقى مازال مسيطراً علىّ، وكان يحزننى أن أعرف أننى لن أراه مرة أخرى أبداً، إلا إذا قابلته فى الشارع مساء الخميس ، لكنه كان يملك سيارة ، وحتى إذا قابلته بالصدفة، كيف أجعله يعرف بحبى له؟ أخ، لا أعتقد أنه حتى كان سيوقف السيارة ليعرف أى نوع من النساء أكون .

كانت فترة من هذا الشتاء طويلة ومضجرة بالنسبة لى ، قلت فترة لأن هناك دائماً أموراً تبقى الخدم مشغولين حين يذهب البيض إلى البحر فى الشتاء .

فى الحقيقة؁ إن الشتاء وقت الخدم؁ ولىس وقت المربىات؁ فالمرىبات يذهبن مع سىداتهن لىعتنن بالأطفال؁ الناس من أمشالى كانوا ىتركون للعناية بشئون البىت والكلاب؁ كانت العائلات كثرىاً ما تذهب بعىداً وىبقى السادة والسىدات من الكلاب؁ وكان ىمكنك أن تراهم وهم ىمشون فى الشوارع مثل الناس البىض؁ صامتىن؁ لكن فى قوة وشمسوخ؁ وعندما تراهم تعرف أنهم ممثلاثون بكثىر من التوافه والنزوات؁ كان هناك القلىل جداً من العمل الذى ىؤدى فى الشتاء.

فى أحد الأسابىع؁ سرت شائعة خفية أن " خادماً " من بلدىاتنا - نحن السود - كان ىرتب لحفل فى حجرته يوم السبى؁ أعتقد أننا تبادلناها على أنها مزحة؁ فلما أن ىكون رجلاً جرىئاً جداً أو غبىياً! فالبولىس كان دائماً ىحوم فى اللىل مفتشاً عن الناس السود؁ وإذا البىض فى البىت المجاور سمعوا ضوضاء حفل .. أو .. هوه! لكن الفكرة مازالت قائمة؁ وكنا فرحىن بذلك وأردنا الذهاب؁ أما بالنسبة لـ" دىك "؁ فقد فتح فمه الواسع وكاد ىغشى علیه عندما سمع عن ذلك وعرف أنى نوىب الذهاب للحفل.

نهار يوم السبى الموعود جاءت " كىت "؁ بدت أقل شراسة؁ لكننى لم أكن مستعدة أن أكلمها؁ وكنت مندهشة أن أسمع نفسى وأنا أرد عليها عندما قالت لى : " كارابو؁ أمى تقول : أنك لا تحبذىن فكرة الزواج بىن فتاة بىضاء ورجل أسود " و سكتت.

ثم قالت : " كارابو "؁ لكننى أرىد أن أساعده "

سألتها: " تريدین مساعدته فى أى شىء ؟

" ليصبح أعلى وأعلى ، ليصل إلى القمة "

أدركت أننى أرغب أن فى قول الكثير مما يغلى فى صدرى ، لكن لم أستطع قوله ، تذكرت " ليليان ناجوى " بنادى " الغراب الأسود " وما قالته لنا ، لكننى كنت مشوشة ، ودمى يغلى .

" ألا زلت متفقة مع أمى ؟ "

" كل ما قلته لأمك أننى لم أر قط رجلاً أسود وامرأة بيضاء يتزوجان ، أسمعيني؟ أما ما أعتقد أنه من شأنى "

تذكرت أننى أريد أن أكوى ردائى الخاص بالحفل ، لذلك تركتها ، وانشغل عقلى بالحفل مرة أخرى ، كنت سعيدة لأن « كيت » والطبيب لن يعكرا مزاجى هذا اليوم ، فى اليوم التالى سوف تشرق الشمس علينا جميعاً ، سواء بـ " كيت " أم بدونها ، بالطبيب أم بدونه .

كان البيت الذى يعمل به " الخادم " « بلدياتنا » متوارياً عن الطريق الرئيسى خلف عدد كبير من الأشجار ، سألنا أسئلة كثيرة عن الحفل و مكانه ، إلا أننا لم نتوصل لإجابات ، وها نحن أولاء قد ارتدينا أفضل ما لدينا من فساتين وبدل - تلك التى اشتريناها من الشباب الذين كانوا يسرقونها - عند ذهابنا إلى حفل " الولد " بلدياتنا . . . وكنا نتهامس طوال الطريق ونحن نصعد ناحية المنزل ، شخص ما كان يعرف المكان أخبرنا أن الناس البيض فى المنزل المجاور مسافرون بسبب موسم الشتاء ، قلنا: " أوه ، هذا إذن السبب "

تدفقنا داخل الحديقة من الخلف، ووقفنا أمام حجرته ننادى بصوت خفيض، جاء من البيت خلفنا، وصعقنا حتى الخرس عندما قال لنا : أن ندخل منزل الناس البيض، هل جُن؟ دخلنا بخطوات بطيئة نكاد نمس الأرض، ونحن غير واثقين من أى شيء، سرعان ما توقفنا وجلسنا فوق حشايا دافئة، حيث كانت المدافئ مشتعلة، غمرتنا الأنوار الخفيفة، أحصيت خمسة عشر فرداً بالمكان، وتبادلنا كلمات الإعجاب بملابس السهرة، وكان الرجال « أنيقين » أيضاً.

كانت "ناعومي"، صديقة مضيفنا، مشغولة فى المطبخ بتجهيز الطعام.

أخرج الكئوس والمشروبات الباردة، عصير طماطم، فاكهة، « جعة » الزنجبيل، والكثير جداً من المشروبات الخفيفة، كان كل شيء لطيفاً، الفطائر المحشوة، البسكويتات، الوجبات الخفيفة، ووو... أقول لكم، كان حفلاً بحق، أعتقد أننى أكلت كثيراً من كعكة الزنجبيل، أكثر مما أكلت فى حياتى كلها، وكانت "ناعومي" قد خبزت بعض الأشياء الأخرى، اقترب مضيفنا منى وقال: لا أريد البوليس أن يأتى هنا ويكون لديه سبب للقبض علينا، لذلك لم أقدم مشروبات كحولية، ولا حتى البيرة، فلا يوجد قانون يمنعنا أن نقيم حفلات، هل يوجد؟ لذلك يمكننا أن نشعر بالحرية، استخدمنا لهذا البيت هو من شأن سادتنا، وإذا كنت سألتهم كانوا سيعتقدون أننى مجنون.

قلت له: " أرى أنك جرىء جداً حتى تفعل أمراً مثل هذا "

" ضحك "

أدار موسيقى خفيفة من على أسطوانات الجرامافون، لكل من "ميريام
ماكيبا" و"دوروثي ماسوكا"، ومغنين وعازفين أفارقة، رقصنا وصار
الحفل صاخباً أكثر فأكثر، وأكثر بهجة، يا سلام...! أعتقد أن هاتين
الفتاتين، «ميريام» و«دوروثي»، مغنيتان ممتازتان، أكلنا كثيراً وضحكنا
كثيراً، وحكينا الحكايات، في وسط الحفل دعانا بلدياتنا لسماع ما سيقول،
أخبرنا كيف أنه هو وصديق له في "أورلاندو"، جمعاً مالياً ليراهنا على
حصان في سباق يوليو للسدود؟! وكأنا يقومان بذلك كل عام في "دوربان"،
لكنهما كانا يخسران، أما هذه المرة، فقد كسبا مائتي جنيه، صفقنا جميعاً
وهللنا. ووو...، «مائتا جنيه»!

قلت له: لا بد من أن تأخذ راحتك وتمكث في البيت تضيع الوقت
فحسب"

ضحك وقال: "غير معقول"

ثم قال: "أما الآن يا أخوتي وأخواتي، استمتعوا بوقتكم، إنني إذا
كنت في موطني، كان يجب أن أذبح «جدياً» للاحتفال وشكر أسلافنا،
لكن هذه حياة المدينة، لا بد من أن نشكرهم بالشاي والكعك وكل تلك
الأشياء الحلوة، أعرف أن بعض الناس يظنون أنني جرىء جداً، حتى أنه
يمكنني أن أقوم بتوليد أنثى الأسد. مع ذلك، استمتعوا بوقتكم ولا تخشوا
شيئاً"

عادت سيدتي بادية القوة والانتعاش.

الأسبوع الذي وصلت فيه جاء البوليس مرة أخرى لتفتيش حجرات
الخدم، كانوا يبحثون عن زعموا أنهم المتسكعون والرجال الذين بلا
تصاريع إقامة، الذين يعيشون مع أصدقائهم في الضواحي بطريقة غير

قانونية ، ارتعد أصدقاءنا الشباب الذين كنا ندعوهم " خدام لحم الكلاب " من البوليس ، وسبب التسمية أن " الخادم " الذى له صديقة تعمل طبّاخة ، كان يقول لأصدقائه دائماً : إنه كان ذاهباً من أجل لحم الكلاب ، فى حين كان يعنى أنه سيزور صديقه ، وهذا لأننا كنا نعطى أصدقاءنا الشباب جزءاً من اللحم الذى اشتراه الناس البيض للكلاب ولنا .

ذات ليلة دخل رجل بوليس أبيض وآخر أسود فناء السيدة " بلام " ، قالا : إنهما جاءا للتفتيش ، قالت لهما : لا ، لا يمكنهما تفتيش منزلها ، قالا : حسناً ، بل لابد من أن يفتشا ، ردت هى : لا ، اقتحما المكان إلى خلفية المنزل ، حيث حجرة " ديك " وحجرتى ، أمسكت السيدة " بلام " بخرطوم المياه الذى كانت مياهه تجرى فى الحديقة الأمامية ، وبسرعة حولته إلى الخلف ، عبرت الطابق جرياً لأرى ما كانت ستقوله لهما ، كانا يكلمان " ديك " وهما يستعملان كلمات بذيئة ، لم تنتظر السيدة بلام ، وجهت خرطوم المياه إلى رجلى البوليس ، ذهلا من تصرفها ، استدارا فى مواجهتهما ، فوجهت الخرطوم إلى وجهيهما مباشرة ، ودون أن يريانى ، ذهبت إلى الخفية فى ركن المنزل ، وفتحتها على آخرها . . رأيت " ديك " يحاول كتم ضحكته مثلى ، راح رجلا البوليس يتصايحان ، وحاولا دفع المياه بعيداً عنهما ، لكنها وجهت الخرطوم إليهما وراحت تحركه لأعلى ولأسفل ، استدارا وجريا ناحية البوابة الخلفية ، وهما يلعنان اللحظة التى جاءا فيها .

قالت السيدة " بلام " : هذا ما يستحقه .

فى اليوم التالى ، نقلت صحيفة الصباح الحدث .

بعد الظهر، وصل الشرطيان يصحبهما شرطى آخر، أشارا على السيدة « بلام » واقتادوها إلى مركز الشرطة، رحلوا للاستجواب بتهمة إعاقتها رجال البوليس فى أثناء أداء عملهم

عادت وقالت: إنها دفعت كفالة لتخرج .

قيل للسيدة أمام القاضى أثناء المحاكمة: أنها تصرفت تصرفاً خطأ، ويجب عليها أن تدفع غرامة أو تدخل السجن أربعة عشر يوماً. لكنها قالت: إنها سوف تدخل السجن لتؤكد أنها ليست مخطئة.

جاءت « كيت » وحاولت إثناءها عن فكرة دخول السجن بسبب شيء سخيف مثل هذا، وقالت للسيدة: " إن هذا ليس بشيء ذى قيمة لتذهبى إلى السجن من أجله، ادفعى النقود، ما قيمة خمسة جنيهات؟

لكن السيدة رفضت . . ودخلت السجن.

عندما خرجت من السجن كانت تبدو حزينة جداً، وتذكرت ما كانت تقول لنا " ليليان ناجوى " كثيراً: " يجب أن تكونوا مستعدين لدخول السجن من أجل الأمور التى تعتقدون أنها أساسية وحقيقية، سألت نفسى: ما الذى كانت تعتقده السيدة " بلام " بخصوصى، وتشيمانى، وديك، وكل الناس السود الآخرين؟ لم أكن أعرف، لكن وسط كل هذه الأحداث، كانت تكتب للصحف وتحضر كل الاجتماعات التى يتحدث فيها الناس البيض والسود عن الطريقة التى تعاملهم بها الحكومة، وتذهب مع النساء البيض ذوات الشرائط السوداء على

سواعدهم، يقفن فى المكان الذى سيمر رجل الحكومة الأبيض منه، وقلت
لنفسى: هذه المرأة تؤمن بنا كثيراً نحن الناس السود، لكن لم هى حزينة؟

بعد هذا عادت « كيت » للمنزل لتبقى فيه، كانت ما تزال تدير
الجرامافون بصوت عال، عال، عال، ويتلوى جسدها حتى خصرها عند
سماع الموسيقى حتى ظننت أن جذعها سينخلع، ثم رأيت شاباً أبيض
يأتى كثيراً لرؤيتها، راقبتها من خلال الفتحة الموجودة بين مفصلات الباب
الذى يفصل المطبخ عن حجرة الجلوس حيث كانا يجلسان، رأيتهما
يتبادلان القبلات لوقت طويل جداً، كان قلبى يدق بعنف عندما رأيت
يرفع فستان « كيت »، وراحت ساقها البيضاء . . البيضاء . .
ترتشان، و . . أوه . . أستحى أن أقول أكثر، نادته: جيم، وكان قولها
غريب. ذلك لأن الناس البيض فى المحلات كانوا يطلقون على الرجال
السود: « جيم » .

كانت « كيت » قد بدأت علاقتها « بجيم »، عندما قابلت الشاب
الذى أحببته وأحبته، كان أقوى من الآخر الذى تركته، وقد أحبته أكثر،
أكثر كثيراً. لكن كثيراً ما كان وجه الطبيب يأتينى، إنما لم يعد يحزننى،
وتوقفت عن التلصص لمشاهدة « كيت وجيم » من خلال الفتحات،
عدنا، كيت وأنا، إلى الحديث معاً بانطلاق مثلما كنا فى الماضى، تقريباً،
وعادت هى وأمها أصدقاء مرة أخرى.

سمعت « تشيمانى » تنادى ذات صباح بينما كنت أقوم بتنشية
مئزرى، أجبتها: « هاللو تشيمانى »، ذهبت ناحية الحبل لنشر المئزر،
رأيتها واقفة عند السياج، فعرفت أن لديها شيئاً تود إخبارى به، ذهبت إليها.

- « هاللو » ،

- « هاللو تشيمانى ، »

- أنا بخير ،

فى تلك اللحظة خرجت امرأة من الباب الخلفى من البيت الذى
تعمل به تشيمانى ،

قلت مشيرة برأسى : لم أر هذه المرأة من قبل !

نظرت « تشيمانى » للخلف : أوه ، تلك ، هاى ، يا بنت الناس إنك
ترين العجب ، أتعرفين . . . هذه التى ترينها هناك هى حماة السيدة ، ألم
أخبرك عنها؟

- نعم لم تخبرينى قط .

- الناس البيض تافهون ، أتعرفين لماذا ؟ تلك المرأة المسكينة لها يومان
هنا الآن ، وعليها أن تطهى طعامها بنفسها ، وأنا أطهو للعائلة .

- على نفس الموقد؟

- نعم ، إنها تأتى ورائى بعد أن أنتهى من الطهى .

- أليها طعامها الخاص الذى تطهوه أيضاً ؟

- نعم « يا كارابو » ، الناس البيض ليس لديهم قلب ولا إحساس .

- ما الذى يضيرهم إذا تقاسموا طعامهم؟

- خبطت يديها فى بعضهما قائلة : تسألينى ، تسألينى . يا الله ! .

سألتني تشيماني: هل جاءتك أخبار من البلد؟

قلت لها: يا « بنت الناس » ، الموتى يتزايدون ، شيء ما يقضى على الناس في بلدتنا ، كتبت لى أمى إنهم جميعاً بخير، أبى وأخوتى ، إلا أن الناس هناك تموت ، "ماليسو" ، هذا الشخص الذى عاش وحده فى منزل أريته لك العام الماضى، ذاك البيت الأبيض . . . قد مات ، ثم المدرس "سيديمو" ، كان نحيفاً جداً ويبدو مريضاً طوال الوقت ، لقد درس لأخوتى وليس لى ، وحماته، أتذكرينها؟ قلت لك : إنها ماتت العام الماضى، لا، العام قبل الماضى، تقول أمى أيضاً إن هناك امرأة ، تظن أننى لا أتذكرها، لأن آخر مرة رأيتها كانت وأنا بنت صغيرة، هى أيضاً ماتت، وكانت قد انتقلت إلى "زيروست" ، وتعتبر الصديقة الحميمية لأمى منذ كانتا بتين ، كان يجب أن تذهب أمى لجنازتها، ولم تفعل لأن قدميها متورمتان.

- - وكيف حال قدميها؟

- تقول : إن قدميها ما زالا يؤلمانها ، ثم سألت « تشيماني » : كيف حال أهلك فى فوكنج؟ ألم يكتبوا لك؟
هزت رأسها بالنفى.

رأيت من عينيها أن ذهنها كان مشغولاً بشيء آخر، وليس مع أهلها فى تلك اللحظة.

- انتظرينى يا تشيماني، أعذرينى لدى كعك فى الفرن، إه! سوف أخرجها فوراً وأعود، إه!

عندما عدت وجدت « تشيماني » تجفف دموعها ، وظلت أهدابها مندادة ،

- كارابو ، أتدرين بما حدث لى ؟

هزرت رأسى ، كى تستمر بالحديث ،

- إننى حامل ،

- أوه !

سادت الصمت لحظة ،

- تشيماني ، ممن ؟

- تيمى ، لقد عاد لبيتلبنى بهذا

- لكنه يحبك ، ماذا قال ؟ هل أخبرته عن الطفل ؟

- أخبرته أمس ، لقد تقابلنا فى المدينة ،

تذكرت أننى لم أرها فى نادى " الغراب الأسود " ،

- « تشيماني » ، هل أنت متأكدة ؟ هل نسيت شهراً ؟

أومات برأسها : لا .

وهو ، « تيمى » ، ألم يستخدم هذا الشيء ؟

- لقد عرفت بعد أن انتهى أنه لم يفعل ،

- لماذا ؟ ما الذى يقوله ؟

- يقول يجب ألا أنزعج ، وأنه سيعتبرنى زوجته ،

- « تشيمانى » ، « تيمى » شاب طيب ، كم من هؤلاء الشباب الذين يعرفون الكثير من حيل المدينة سيعترف بأن الطفل طفله ،

- « هاى » ، « كارابو » ، إنك تحدثنى عن أشياء أخرى الآن ، ألا ترين أننى لم أعمل وقتًا بما يكفى من أجل أسرتى ؟ فإذا تزوجت الآن ، من سيعتنى بهم ، بينما أنا ابتهم الوحيدة ؟

- همهم ، إننى مصغية لك ، حاولت التفكير فى قول شىء يساعد على تهدئتها .

ثم قلت : يمكنك بحث الأمر مع « تيمى » ، فتعودين لبلدتك وحين يولد الطفل ترعينه ثلاثة أشهر ، وعندما تتزوجان ، تعودين للعمل بالمدينة ، ويمكنكما أن ترسلا نقودكما لمساعدة الناس الكبار بينما هم يعتنون بالطفل ،

- وماذا سوف نأكل طوال الوقت الذى أكون فيه بالبلدة ؟ لم يعد الزمن الآن مثل أيام زمان ، عندما كان لدينا أرض وكان يمكن لأمنا العمل بالحقل إلى أن يحين وصول الطفل .

طارت أفكارى وأظلم عقلى ، ولم أعد قادرة على التفكير فى رد مناسب ، كم من المرات كنت مرعوبة من نفس الشىء ! الحظ ، ورحمة الله ، هذا ما كنت أعيش به ، هذا ما نعيش به جميعنا ، جميعنا !!

- « كارابو » ، اسمعى ، لا بد من أن أذهب لإعداد الشاى للسيدة ، ستدق العاشرة والنصف الآن .

عدت إلى المنزل ، لأن سيدتى لم تكن قد وصلت بعد ، ألقيت بنفسى على الأريكة فى حجرة الجلوس ، جاء "مالان" يتشمم ساقى ،

وضعت قدمي تحت بطنه السمينة ، ودفعته دفعة عنيفة لأعلى بعيداً عني ،
لدرجة أنه راح يعوى وهو ينسحب مبتعداً ، قلت له : اذهب وقل لأخيك
ما فعلته بك ، وقل له يحاول مثلك ، وسترى ما سوف أفعله ، وقل
لجذتك كذلك عندما تأتي .

عندما رفعت عينيّ كان " ديك " واقفاً عند باب المطبخ ، قال لي :
يا سلام ! أنت أيضاً بدأت تحادثين الكلاب !

لم أرد عليه ، نظرت إليه فحسب ، وإلى فمه الذي يشبه الحقيقة وهو
مخطوط على جانبي وجهه ومضيت لحجرتي .

جلست على سريري ، ونظرت في المرآة ، منذ الصباح وأنا أحس كأن
سحابة سوداء معلقة فوقى ، تضغط على رأسي وكتفيّ ، لم أعرف كم من
الوقت جلست هناك ، ثم شممت رائحة عطر السيدة ، ما هذا؟ أين كانت
تلك المرأة؟ بعد لحظات اكتشفت الأمر ، كان شذى عطري ، فقد كنت
أستعمل مستحضر التجميل نفسه الذي تستعمله السيدة " بلام " ، ولا بد من
أننى اعتدت عليه الآن ، لكن هذا الصباح ، لماذا أحس بالضيق من رائحة
السيدة بلام ؟ ثم ، دون أن أدري لِمَ ! سألت نفسي وقلت : لماذا يجب
استعمال مستحضرات تجميل مثل التى تستعملها السيدة ؟ رغبت فى إلقائها
جميعاً ، توقفت ثم أمسكت بكل مستحضرات التجميل وألقيت بها فى
صندوق القمامة ، حسناً ، سأشتري أنواعاً أخرى يوم الخميس ، انتهى !

لم أستطع الجلوس ، خرجت من منزل الناس البيض ثم دخلت ،
جلت به حتى أصابتنى رائحة البيت بالقرف كأنها تملأ حلقي ، ذهبت إلى
الحمام دون أن أعرف لماذا كان ممتلئاً برائحة السيدة ؟ ! وكان " ديك " ينظف

الحمام ، وقفت عند الباب ونظرت إليه وهو ينظفه من القاذورات ،
قدر جسم السيدة ، قلت لنفسى : لماذا لا ينظف الناس الحمام من قدر
أجسامهم بأنفسهم؟ قبل أن يعرف "ديك" أننى قريبة، خرجت ، أخ ...
قلت ثانية لنفسى : لماذا أفكر فى ذلك الآن ؟ بينما كنت أقوم بتنظيف
أشياءهم لوقت طويل جداً، ونظفت الحمام مرات كثيرة عندما كان
« ديك » مريضاً ، لقد أمسكت بأسوأ الأشياء التى يلفظها جسمها
مرات لا تحصى ...

خرجت ووقفت فى منتصف الطريق بين المنزل وحجرتى ، نظرت إلى
الفناء المجاور ، جاءت من البيت المجاور قطعة رمادية بثلاثة أرجل ناحية
السياح ، تقابلت أعيننا ، لا أدرى كم من الوقت وقفنا هكذا ينظر كل منا
للآخر ، كنت أفكر فى أن أقول للقطعة : لماذا لا تذهبين وتنظرين لجدتك
بمثل هذه الطريقة؟ وثبتت القطعة أرجلها الثلاثة وهى تنظر إلى بالضبط مثل
نظرة شخص يرثى لحالك.

فى حجرتى ، رحت أنظر إلى المرأة المعلقة على الخزانات ذات
الأدراج ، تساءلت : أهذه « كارابو » ؟

جاء الخميس ، وإجازة بعد الظهر ، لم أر « تشيمانى » فى "الغراب
الأسود" ، وساءلت نفسى ماذا جرى معها ؟! فى المساء وجدت ورقة تحت
بابى ، فى تلك الورقة تخبرنى « تشيمانى » بأنها إن لم تعد هذا المساء ،
فلا بد من أن أعرف أنها فى المنزل رقم « ٦٦ » بالشارع الثالث ، فى بلدة
« ألكسندرا » ، وعلى أن لا أخبر الناس البيض ، سألت "ديك" أن يأتى
معى إلى ألكسندرا بعد غسل الصحون؟ فى أول الأمر كان لا يريد ، لكننى قلت له :
عندما ترانى « تشيمانى » وحدى ، لن تصدق أنك رفضت أن تأتى معى ، فوافق .

فى الأتوبىس حدثنى " دىك " كثرآ عن أخته الصغرى التى كان ىمدها بالمال لتظل فى المدرسة إلى أن تنهى دراستها، وتصبح ممرضة وقابلة ، واكتشفت كم هو مغم بها ، قال : إنه يدعو الله دائماً ألا يضطر لفقد عمله ، فقد كان يفقد عمله بعد أن يقضى أسابيع قليلة به ، وقد حدث له ذلك كثرآ ، مما دفعه لاستلاف نقود من الناس كى يدفع المصارىف الدراسية لأخته ، ولشترى لها الملابس والكتب .

تحدث عنها كأنها محبوبته ، إنها متفوقة فى الدراسة ، وجميلة - كانت فى الصورة التى أرانى إياها من قبل - وكانت فى مدينة « أورلاندو » ، وهى تعتنى بوالديه المسنين ، على الرغم من أنها كانت فى الثالثة عشرة فقط ، يقول لى : فى الوقت الحاضر ما زلت مدينآ للكثير من الناس ، لأننى فقدت عملى كثرآ ، قلت : إذن لابد من أن تحافظ على عملك مع السيدة « بلام » لا أستطيع القول : إننى كنت أعير كل انتباهى لما كان يحكىه " دىك " ، فقد كنت أفكر فى « تشيمانى » ما الذى فعلته؟ وما معنى تلك الورقة؟

وجدناها فى الفراش ، فى تلك المدينة المربعة التى تمتلئ لىلاً ونهاراً بالسكاكين والجنازير والبنادق ونباح الكلاب الجائعة والناس الغرقى فى المشاكل ، حاولت التماسك ، كانت تتألم ووجهها صار رمادياً حتى فى ضوء الشمعة ، حولت عينيها نحوى ، كان هناك امرأة بدينة تجلس فى كرسى ، أسندت كوعها بيد بينما يدها الأخرى تحت ذقنها ، كانت قد فتحت لنا الباب بعد أن صرحنا بأسمائنا ، وإذ ذاك عادت إلى مقعدها مرة أخرى كأنه ليس لديها شىء آخر لتقوم به .

تنحنحت كأنها تقول لنا : « إنها ستتكلم » ، قالت : هل هي صديقتك؟ إنها بنت أختي الغالية ، أختي التي كانت تترك ثدى أمي لتفسح لى مكاناً ، لماذا تذهب وتفعل هذا الإثم ؟ أوه! أنتن يا فتيات هذا الزمن لا تعرفن أن الأطفال يموتون بسرعة فى هذه الأيام ، كان عليكم أن تحمدوا الله أنه ررع البذرة فى أرحامكم لتنمو أطفالاً ، إذا تركت الطفل يولد ، كنت بالتأكيد سأعتنى به ، أو كانت أختى ستقوم بذلك وهى سعيدة أن تضع حفيدها فى حجرها ، لكن ما الذى يفيد الآن؟ لقد سمحت للدودة أن تقضم الجذور ،

ثم رأيت خالة « تشيمانى » تبكى ، ولم تكن الخالة قد ذكرت اسم ابنة أختها ولا مرة ، لأن قلبها غاضب عليها ، بينما كانت « تشيمانى » تئن فحسب .

استمرت الخالة فى الكلام كأنها لن تتوقف لالتقاط أنفاسها أبداً ، بل خيل إلى أن صوتها يتحرك من ورائى ، ولم أشعر بنفسى وما حولى ، ومهما كتبت ، فأنا أحاول تذكر كل التفاصيل التى مرت بى وأنا جالسة إلى جوار « تشيمانى » مهما كانت صغيرة ، فلا شىء يمكن أن يعبر عن تلك اللحظة التى مرت بى فى تلك الحجرة الصغيرة المعتمدة ، بمدينة وحشية مظلمة الشوارع ، وتذكرت القطة ذات الأرجل الثلاث ، وعينها الرماديتين وموائها ، ما هذا الطيف الذى يحوم حولنا ولا يظهر لنا مباشرة ؟

شكرت الآلهة عندما عادت « تشيمانى » للعمل فى نهاية الأسبوع ، كانت ما تزال ضعيفة ، لكن الطيف لم يعد موجوداً ، وتعجبت من أن تشيمانى لم تخبرنى من قبل بشىء عن خالتها ، وحتى الآن لم أسألها ،

أخبرتها بأننى قلت للناس البيض الذين تعمل عندهم : « أنها مريضة »
وقد أوصلها أخ إلى "نوكانج" ، لم يحاولوا حتى اكتشاف الأمر ، هؤلاء
الناس نادراً ما يهتمون لأمرنا ، أكذب عليهم أية كذبة ، وسوف تمر ، فهم
نادراً ما يصدقوننا مهما قلنا ، وإلى أى حد يخاف الإنسان الأسود الذى
يعمل عند البيض أن يخبرهم بالكاذب ، ذلك لأنهم دائماً يوجهون
الأسئلة ، وأنت الشخص المتهم الذى عليه أن يقدم الإجابات .

أخبرتني « تشيمانى » بكل ما حدث ، لقد ذهبت للمرأة التى تقوم
بمثل هذه الأعمال ، وكانت طريققتها أن تمسك بإبرة حادة وتغطى سن الإبرة
بإصبعها ، ثم توجه الإبرة داخل الرحم ، وتظل تتحسس بالإبرة داخل
الرحم إلى أن تجد البيضة وتتقبها ، ثم تعطيك شيئاً ما يقلل التزيف ،
ولكن الألم ، آه . . . يا أرواح أسلافنا .

كانت السيدة "بلوم" و "كيت" تتحدثان ذات مساء على العشاء
عن الكلاب ، كل مرة أحضر شيئاً إلى المائدة كنت أحاول التقاط
كلماتهما ، بدا على « كيت » أنها وجدت الأمر مضحكاً ، لأنها كانت
تضحك بصوت عال ، وكانت هناك كلمة لم أستطع سماعها جيداً ،
بدايتها "مد" ، أياً كانت هذه الكلمة ، فهى كانت تخص الكلاب ، فهمت
هذا من وضع بعض الكلمات جميعاً . السيدة « بلام » قالت : إنه
شئ شائع فى المدن الكبيرة بأمريكا مثل نيويورك ، وكان أيضاً
شيئاً أرادته السيدة ، « بلام » وضحكت « كيت » على تلك
الفكرة ، فيما بعد عرفت أن " مونتى " و "مالان" سوف يكون لهما
مدفن جميل .

جاءنى صوت « تشيمانى » فى حجرتى فى الصباح التالى عبر السياج ، عندما خرجت أخبرتنى : هيه يا أختى ، هناك شىء يدغدغ أذنيك ، هل تعرفين ما هو؟ قلت : ماذا؟ قالت : هؤلاء الناس البيض يمكنهم عمل الأشياء التى تغضب الله ، فلم أر ناساً أكثر كفرة منهم ، سيدة منزلنا تقول : إن ناس « الجرين سايد » يريدون أن يشتروا أرضاً حيث يمكنهم دفن كلابهم ، سمعتهم يتكلمون عن ذلك فى حجرة الجلوس عندما كنت أقدم لهم القهوة الليلة الماضية ، هيه يا ناس ، دعوا أسلافنا يأتون وينقذوننا!!

قلت : نعم ، أنا أيضاً سمعت سيدة منزلنا تتحدث عن هذا الأمر مع ابنتها ، لقد سمعت كلاماً متقطعاً ، « وحياة أمى » تلك الكلاب سيأتى يوم وتجلس إلى المائدة وتأكل بالشوكة والسكين ، تلك الأشياء تعامل مثل البشر ، ومثل الأطفال المدللين الذين لن يكبروا أبداً.

تنهدت « تشيمانى » وهى تقول : "يا خلق هوه" ، لماذا لا يعطوننى بعضاً من هذا المال الذى سينفقونه على الأرض وشواهد قبور الكلاب كى أشتري جوارب لى ، وحياة أمى ليس لدى ما أرتديه .

من فوق كتفها شاهدت القطة ذات الأرجل الثلاثة ، أشرت برأسى ، وعندما التفتت تشيمانى ورأتها ، قالت : هممم ، حتى القطط تعيش مثل الملوك ، فقد وجدت الحماة القطة على الكرسي ، وأزاحتها ، لكن سيدتى قالت للمرأة : إنه لا يجب إزاحة القطة عن الكرسي ، ولم يكن يوجد كرسي آخر ، فاضطرت العجوز للانصراف .

تذكرت وأنا أهم بدخول المنزل الشيء الذى أردت إخبار « تشيمانى » به ، لقد عملنا جمعية من عشرة نساء بما فيهن « تشيمانى » ، كل واحدة تدفع جنيهن فى الشهر ، وتقبض عندما يحين دورها ، وأن خمسة منا دفعن كل واحدة جنيهاً لتسليفهم لها حتى تحاسب المرأة التى قامت بهذا العمل فى ألكسندرا ، وعندما يأتى الدور على « تشيمانى » فى قبض مبلغ الجمعية ترد لنا ما عليها ، كانت « تشيمانى » ممتنة لمساعدتنا لها .

ذهبت لإيقاظ السيدة « بلام » كما طلبت منى ، كانت نائمة لساعة متأخرة هذا الصباح ، وكنت فى طريقى كى أطرق الباب عندما سمعت جلبة غريبة فى حجرة النوم ، رحت أسأل نفسى : ما الذى يجرى للسيدة بلام ، أيجب أن أنادى عليها فربما كانت مريضة؟ لكن لا ، هذه الجلبة لم تكن كتلك التى لشخص مريض ، كانت أصوات سعيدة تشبه الأصوات التى تصدر عن إنسان فى الحلم ، صوت ممتلئ بالنوم ، انحنيت قليلاً لأختلس النظر من ثقب المفتاح ، ظلمت أسأل نفسى : ما هذا؟ السيدة بلام! مالان! ماذا تفعل مع هذا الكلب؟ كانت ذراعها تحيطان ببطن « مالان » وتضغطه إلى بطنها عند السرة ، وجسم السيدة بلام يتحرك فى ملابس النوم مثل شخص فى حالة نوبات . . . وساقاها يرتفعان ويهبطان . . . ومالان صامت مثل شيء مسلوب الإرادة لا حول له ولا قوة .

سمعتنى أقول : " فلتنقذنى الآلهة! وظلت الكلمات تتردد مثل الريح مندفعة من فمى : صحيح إذن ، هذا ما قال « ديك » إننى سأكتشفه!

لا أحد يستطيع أن يعرف أين بدأ كل ذلك؟ أو من الذى أثاره لأول مرة ؟ هل البوليس أراد أن يخترع سبباً للقبض على الناس الذين يوجدون بلا تصاريح إقامة ؟ الناس الذين يعيشون مع الخدم ويعملون فى المدينة أو لا

يعملون على الإطلاق ، لكن الإشاعة ملأت « جوهانسبرج » بأن الخدم سوف يسمون كلاب السادة البيض ، لأنها تشكل عبثاً كبيراً عليهم ، أكان هذا هو السبب؟

سمعنا عن الرسائل التي أرسلها الناس البيض إلى الصحف يطلبون من البوليس أن يراقب الكلاب حتى يمنع أية أعمال شريرة ، وقال البعض : إننا نحن الخدم لم نكن حقاً سيئين ، وأن هناك من حرصنا على التفكير في ارتكاب هذه الأعمال الشريرة ، وهم ناس من المدينة والأقاليم ، وآخرون قالوا : يجب أن يسهر البوليس على مراقبتنا حتى لا نقوم بتسميم سيداتنا وساداتنا ، لأن الناس السود لا يعرفون الصواب من الخطأ عندما يغضبون ، وقال آخرون : إننا ما نزال بقلوب أطفال ، قالت السيدة « بلام » : إنها أيضاً كتبت للصحف ، بعد ذلك نزل البوليس في الأحياء مثل الجراد في حقل حنطة ، وكانت هناك طوابير وطوابير من الرجال الذين يُقبض عليهم كل ساعة وطوال اليوم ، وكل من أمسكوا به كان يُسأل : " إه ، أين السم؟ أين خبأته؟ من حرصك على تسميم الكلاب ؟ إذا أخبرتنا سوف نتركك حراً ، أسمع؟ " وكثيراً من الأسئلة الأخرى .

ظل « ديك » يقول : " هذا الشيء الذي يريدون أن يفعلوه خطأ ، قتل الكلاب المسكينة خطأ ، ماذا فعلت تلك الأشياء ، كي تستحق القتل من أجله؟ ! هل الكلاب هي التي ترغمنا على حمل التصاريح؟ هل الكلاب هي التي تسن القوانين التي تسبب لنا الألم؟ ناس مجانين لا يعرفون ما يريدون ، أغبياء! لكن عندما تحدث معه رجال البوليس ، راح يرتجف ، وفقد لسانه ، وفقد كل الأشياء التي كان يعتقد فيها ، وراح يهز رأسه فقط وبعد أن فتشوا جيوبه ظل لعدة لحظات رافعاً ذراعيه ، وتسمر

مكانه مثل « خيال المآة » الذى يخيف طيور الحقل ، ولم يخفضها إلا بعد أن أشرت إليه خفية، فاندفع جرياً إلى ركن بالحديقة لاستكمال عمله.

وضعت السيدة « بلام » "مونتى" و "مالان" فى حجرة الجلوس بجوارها، وبدت فى غاية القلق ، نادى على ، ثم سألتنى : " كسارابو، هل تعتقدين أن « ديك » "ولد" يمكننا الوثوق به؟" لم أعرف كيف أجيب، لم أعرف ماذا تقصد عندما كانت تقول "يمكننا"، قلت: " أنا لا أعرف ماذا تقصد سيدتى، " قالت: " أنت تعرفين ، " وقفت أحملق فيها، ثم قلت: " لا أعرف ما تفكر فيه السيدة ، " قالت: " لا أفكر فى شيء. " كدت أضحك لأنها كانت تكذب الآن.

ربما فى ظروف مختلفة كنت سأغضب إذا كذبت على، فهى وأنا كنا كثيراً ما نكذب على بعضنا ، مثلما نفعل أنا « وكيث» أيضاً ، مثلاً عندما عادت من السجن، بعد ذلك اليوم الذى وجهت فيه خرطوم المياه على الشرطيين، قالت: الحياة فى السجن ربما تكون حسنة ، ومع ذلك كنت أراها خجلة من أنها كانت هناك ، ليست مثل ناسنا السود الذين كانوا يعتقلون دائماً، وينظرون إلى ذلك على أنه مجرد لعبة شريرة من الرجل الأبيض ، فليليان ناجوى كثيراً ما قالت لنا هذا، والسيدة « بلام » أثبتت لى مدى صحة هذا الكلام ، أنا واثقة من أننا بقينا معاً لسبب واحد، هو كذبنا على بعضنا البعض ، كان بوجه السيدة " بلام " شيء ما وهى تتحدث إلى ، شيء يجعلنى أخشأها وأشفق عليها فى نفس الوقت ، لقد رأيتهما عندما عادت من السجن، ورأيتهما عندما تعاركت مع « كيث»، وتركت البنت المنزل، والآن هذا الكلام عن تسميم الكلاب ، لكننى قط لم أر وجهها بمثل هذا الشكل من قبل ، العينان، فتحتا الأنف، والشفستان،

والأسنان، جميعها بدت ممتلئة كراهية ومرهقة ومصرة على فعل أمر سيئ، بل وشيء ما فى وجهها كان يدعونى لأكون فى صفها.

وجدتني أقول: " سيدتي ، « ديك » لا غبار عليه ، " راحت تحتضن « مالان » « ومونتي » بين ذراعيها وتضغطهما إلى صدرها ، ومسحت يديها فوق رأسيهما ، كانا يبدوان مثل طفلين آمنين فى حضن أمهما.

قالت السيدة « بلام » : حسنا، يمكنك الانصراف، ثم قالت: لا تخبرى أى أحد بما سألته لك عن « ديك » ، « فاهمة » ؟ هه ؟
عندما أخبرت ديك بذلك انزعج.

قلت له : إن ذلك لا يعنى شيئاً ،

- لقد كنت أرى من قبل أننى لا أوافق هؤلاء الناس الذين أرادوا تسميم الكلاب، لكن البوليس هبط علينا، الآن لم أعد أهتم بما يقع لتلك الأشياء العجماء،

سألته: هل كنت تسمم الكليين لو طلب منك أحد ذلك؟

رد: لا، لكننى لم أعد أهتم ،

جاء البوليس مرة ثانية ، وثالثة ، فقد كانوا يحصلون على حوافز طيبة، الجميع يدركون ذلك ، فى يوم آخر، أخبرت السيدة بلام " ديك " أن يرحل، لأنها لم تعد بحاجة إلى عمله.

كاد "ديك" يبكى عندما طُرد ، سأل : " هل السيدة غير واثقة بى
إلى هذا الحد؟ لم أعتقد أن أى أبيض يمكن أن يخاف منى! " ورحل ،
نادت « تشيمانى » على من الفناء الآخر ، قالت : " هاى ، « البوير »
يضربون بعنف ، إه! "

قالت السيدة " بلام " إنها سوف تستخدم خادماً آخر بعد أن تنتهى
هذه المشاكل .

وصل خطاب والدى من « نوكانينج » ، مكتوب فيه أن خالى قد مات
وعرفت من الخطاب كذلك بموت ناس آخرين ، وقال أهلى : إننى لن
أذكر بعضهم ، إلا أننى كنت واثقة من معرفتى بهؤلاء الآخرين ، وكانت
هناك أسماء المرضى أيضاً ، ذهبت إلى السيدة " بلام " أطلب منها الذهاب
لموطنى ، سألت : " متى مات؟ " من ثلاثة أيام يا سيدتى ، هل دفنوه؟ نعم
يا سيدتى ، لماذا تريدان الذهاب إذن؟ لأن خالى أحببى كثيراً جداً
يا سيدتى ، لكن ما الذى ستفعلينه هناك؟ لأطلق دموعى وكلماتى الحزينة
عند قبره ، وأقدم تعازى لزوجته العجوز يا سيدتى ، لا ، لا يمكنك الذهاب
« يا كارابو » ، إنك تعملين عندى ، « هه » ؟ فاهمة؟ فاهمة يا سيدتى ، أنا
من يدفع لك ، وليس أهلك ، لكن لا بد من أن أذهب يا سيدتى ، فتلك
هى عادتنا ، سكنت لبرهة ، دخلت المطبخ ، وخرجت ثانية « كارابو » ،
إذا أردت أن تذهبنى ، يجب أن أخصم من راتبك مقابل الأيام التى
ستكونين فيها مسافرة ، سيدتى هل أفقد أجرى؟ نعم « يا كارابو » .

فى اليوم التالى ذهبت إلى السيدة " بلام " وقلت لها : إننى راحلة .
إلى « نوكانينج » ، ولن أعود إليها ، فهل يمكن إعطائى خطاب توصية؟

فعلت ، بشفتين مزمومتين ، شعرت أن شيئاً ما بيننا يلسع مثل الشطة الطازجة ، كان الخطاب يقول : إننى قد عملت لدى السيدة بلام لثلاث سنوات وحسب ، ولا شيء أكثر ، ذكرى طرد " ديك " كانت ما تزال جرحاً موجعاً فى قلبى .

جاءت تشيمانى لترانى فى حجرتى فى الليلة التى سبقت يوم سفرى ، كان لديها حكاياتها الخاصة لتخبرنى بها ، « تيمى » ، صديقها تركها نهائياً ، لماذا؟ لأننى قتلت مولوده ، ألم يكن موافقاً على ضرورة أن تفعل ذلك؟ لا ، هل كان قد عبر عن قلقه عندما أخبرته بحملك؟ كان قلقاً مثلى عندما رأيتة يا « كارابو » ، لكنه يقول : « إننى إذا كنت قتلت واحداً ، فإننى سوف أكل كل أطفاله عندما نتزوج » ، هل تظنين أنه يعنى ما يقول؟ أجل يا كارابو ، يقول : « إن والديه كانا سيسعدان جداً بأن يعرفا أن المرأة التى سيتزوجها يمكنها أن تجعل بذوره تنمو » .

راحت « تشيمانى » تبكى بصوت خفيض .

حاولت أن أواسيها ، وأردت أن أقول لها لو كان « تيمى » قد تركها من أجل ذلك فحسب ، فإنه لم يكن أصلاً يريد أن يتزوج منها ، لكننى لم أستطع ، لا ، لم أستطع ، كل ما قدرت على قوله لها : « لا تبك يا أختى ، لا تبك ، وقدمت لها منديلاً » .

عادت كيت للمنزل صباح اليوم الذى كنت مسافرة فيه ، عادت من مكان بعيد جداً ، لا أتذكره الآن ، ولم تلتق أمها بالاً لما كانت تقول « كيت » ، سائلة إياها أن تبقينى ، وأنا لم أكن مهتمة بذلك أيضاً .

بعد ذلك بساعة كنت عند موقف الأتوبيس المتجه إلى « نوكانينج » ،
فى الجزء الأول من الرحلة لم أشعر بأى شىء تجاه منزل "الجرين سايد"
الذى كنت أعمل به ، فى الحقيقة كنت تائهة ، تتداعى أفكارى بين السيدة
« بلام » ، وخالى ، والدى ، « ونوكانينج » موطنى ، نمت واستيقظت
عدة مرات أثناء ركوبى الأتوبيس ، طوال فترة الرحلة خيل لى أننى أرى ،
أحياناً فى النوم ، وأحياناً بين النوم واليقظة ، سيارة حمراء تمر بأتوبيسنا ،
ثم تجرى خلفنا ، وفى كل مرة نظرت فيها للخارج كانت تختفى السيارة .

تتناوب على الأحلام ، يقول : « إنك قتلت بذرتى ، أرادت أمى أن
تعرف أنك المرأة التى فيها يمكن أن تنمو بذرتى . . . قبل أن تجعل البوليس
يأخذك إلى السجن ، تأكد من أن ذلك لأجل شىء هام ، وإلا سوف تخرج
بقلب وعقل ينزفان داخلك ويسممانك . . . »

توقف الأتوبيس لوقت قصير ، فاستيقظت ، الغراب الأسود ،
نساء النادى . . . هيه ، اسمعى ! لقد كذبت على سيدة منزلنا وقلت :
« إن لى تلغرافاً » من أمى تخبرنى إنها مريضة جداً جداً ، أريتها
التلغراف الذى أرسلته أختى على أنها أمى ، وهكذا ذهبت لموطنى
وقضيت عطلة نهاية أسبوع جميلة . . .

أيقظنى ضحك النساء فى الوقت المناسب تماماً ، لأوقف خط اللعاب
الذى يسيل فوق شفتى السفلى ، كان الأتوبيس يثير كثيراً من التراب
الآن ، فقد يجرى فوق جزء من الطريق يحفرونه ، تأكدت من أن
السيارة الحمراء خلفنا مباشرة ، لكنها لم تكن موجودة عندما
استيقظت .

أية واحدة منكن تريد أن تتعمد أو لها أقارب بلا كنيسة وتريد أن يتبعوا واحدة ، يمكنها أن تأتي وترانى فى المكتب . . . رجلاً مكوراً بكرش ممتلئ ، وعينين حادتين جائعتين ، وابتسامة تصل إلى أعماق الأعماق كأنها تخترقنا . . .

كان الأوتوبيس يرتقى بصعوبة وفى ضجيج ، رحت أهذى . . « رفت » كلب رجل أبيض ، أو ألقيت به هناك ، إن لم يكن يعلم قانون الرجل الأبيض . . . هذا السيد « مونتي » وهذا السيد « مالان » ، الآن استيقظا أيها الولدان الكسالى ، واستقبلا السيد « كيت » ، ارفعا أيديكما لأعلى وقولا مرحباً ، كارابو ، أحضري كأسين . . . انتظري قليلاً - ماذا ستأكلان يا أولاد ، بينما أنا والسيد كيت نتناول شرباً ؟ لا شيء ، أكيد .

كنا نسير الآن ييسر على طريق مستقيم مسفلت ، والأشجار تتراجع بسرعة ، تذكرت . . السيد « كيت » ، يا لها من تخاريف .

أتعرفين « يا كارابو » ، كلاب السيدة ماتت ، ماذا؟ السم ، أنا قتلتهم ، لقد طردتني من عملى ، ألم تفعل؟ بلا سبب ، الآن أريدها أن تشعر أنها طردتني لسبب ، عدت عندما كنت فى حجرتك ، وأمسكت بالكلاب وسممتها . . . وهل تعرفين ما حدث؟ لقد دفنتها فى ملاءات وردية فى الحديقة ، أوه ، ملاءات جيدة نظيفة ، سأذهب وأحفر وأخرج إحداهما ، هل تريدان الملاءة الأخرى؟ نعم ، أعطينى الأخرى سوف أرسلها لأمى . . . هيه ، كارابو ، انظري ، هنا ، إنهما قادمان ، « مونتي » « ومالان » ، الحقيران ، لا يريدان البقاء فى حفرتهما ، ارجعا أيها اللعينان ، ألا تريدان أن تتحركا؟ إه ، تعاليا هنا ؟ الآن سوف ألقى بكما فى بركة كبيرة ،

لا يا « ديك » ! لا « يا ديك » ! لا ، لا ! ديك ! إنها لا يستطيعان الكلام ،
لا تقتل الأشياء التى لا تقدر على الكلام ، السيدة يمكنها أن تتكلم بدلًا
منهما ، إنها دائمًا تفعل ذلك ، لا ! لا يا ديك ... !

استيقظت بقفزة وأنا مذعورة بعد أن صرخت باسم « ديك » ،
وارتطمت بالنافذة ، كانت جبهتى تتفصد عرقًا ، انبثقت السيارة الحمراء فى
نومى أيضًا ثم اختفت . وتذكرت صديقة من صديقاتى قالت لى : « إنها
هى والبستاني قد احتفظا بملاءتين بيضاوين كان سيدهما الأبيض قد كفن
فيهما كلبيه ، وأنهما ذهبا وألقيا بالكلين فى خزان المياه .

عندما أخبرت والدى بحكايتى ، قال : " ما دمت أنت يا ابنتى فى
صحة جيدة ، فهذا هو المهم ، العمال يموتون ، والعمل لا ينتهى ، يوجد
دائمًا عمل ، أعرف ذلك ، فعندما كنت صبيًا ويجسم معافى قوى وعقل
راجع ، كان هذا من أكبر النعم فى الحياة . . . وكان هناك دائمًا عمل ،
حتى الرجل الكسول لم يكن يقدر على أن يقول : « إنه لا يوجد عمل ،
لكن اليوم الناس ترى العمل كأنه أعظم من أى شىء آخر ، أعظم من
الصحة ، وكل ذلك بسبب المال "

رددت قائلة : " تلك الأيام قد ولت يا أبى ، لابد من أن أعود
للمدينة بعد أن أرتاح قليلًا لأبحث عن عمل ، لابد من أن أعولكما ،
اليوم الناس أكثر فقرًا إلى درجة أنهم لا يستطيعون مساعدتكما "

كنت أعرف عندما تركت " الجرين سايد " أننى سأعود إلى
« چوهانسبرج » لأعمل ، ولو أن المال قليل ، لكن الحياة فيها الكثير هناك ،
والعمل أفضل من الجلوس فى « نوكانينج » ومراقبة الشمس تشرق وتغرب ،

لذلك قلت «لتشيماني» أن تفتح عينيها وأذنيها إذا علمت بأية فرصة عمل لى.

مضى على وجودى فى «نوكانينج» أسبوع ، حيثئذ وصلت سيارة حمراء ، شخص ما كان جالساً فى المقدمة بجوار السائق ، امرأة بيضاء ، فى الحال أدركت أنها سيارة السيدة «بلام» ، كان الرجل الجالس إلى جوارها يرشدها إلى الطريق ، لأنه أشار تجاه بيتنا حيث كنت أجلس أمام واجهته ، خفق قلبى بضع خفقات ، خرج كلاهما من السيارة ، شكرت المرأة البيضاء الرجل بعد أن تكلم معى بضع كلمات.

لم أعرف ماذا أفعل ، وكيف أنظر إليها وهى تتحدث إلى ؟! لذلك ظلت أنظر إلى قطعة القماش التى كنت أطرز عليها رسوماً ، كان على وجهها ابتسامة متعبة لكنها رقيقة ، ثم تذكرت أنها ربما تكون فى حاجة لأن تجلس ، ذهبت إلى الداخل وأحضرت لها دكة منخفضة ، عندما تذكرت ذلك فيما بعد ، كانت الفكرة التى خطرت لى أن هناك أشياء لا أعتقد أن الناس البيض يرغبون فى القيام بها فى بيوتنا عندما يزوروننا لأول مرة: مثل الجلوس ، أو شرب الماء ، أو دخول المنزل ، وهذا نفس ما ظننته عندما جاء القس الأبيض لزيارتنا ، وفى سنة من السنوات ، فى عيد الفصح ، أوصلتنى «كيت» بسيارتها إلى موطنى وهى فى طريقها إلى الشمال ، وأصابتنى حالة الحيرة ذاتها لبضع لحظات ، ولم أعرف كيف أتصرف .

بعدئذ قالت السيدة «بلام» : «كارابو» ، جئت لأطلب منك العودة للعمل عندى ، هل ترغبين؟»

قلت : " لا أعرف ، لابد من أن أفكر فى ذلك أولاً "

" أتستطيعين التفكير فى ذلك اليوم ؟ يمكننى النوم فى فندق المدينة والعودة صباح الغد ، وإذا أردت يمكنك الرجوع معى "

كنت أريدها أن تعتذر لأنها طردتنى ، ولم أعرف كيف أجعلها تقول ذلك ، لأننى أعلم أن الناس البيض يعتبرونه أمراً كبيراً جداً قول « آسف » لشخص أسود ، إذا لم تقلها ، فكرت فى أمرين يصعبان عليها عودتى ، وربما حتى تخسرنى إلى الأبد .

قلت : " يجب أن تسألى أبى أولاً ، فأنا لا أعرف ، هل أنادى عليه؟ "

قالت السيدة « بلام » : " أجل "

ناديت أبى وأمى . قاما بتحياتها ، بينما كنت أحضر المقاعد ، ثم أخبرتهما بما تريد .

أبى سأل أمى ، وأمى سألت أبى ، وأبى سألنى ، قلت إذا كانا موافقين ، سوف أفكر فى الأمر وأخبرها فى اليوم التالى .

قال أبى : " سيكون ما ترغبين فيه يا ابنتى . "

قلت للسيدة « بلام » : " إذا أردتنى أفكر فى الأمر يجب أن أعرف هل سترفعين أجرى عن ستة جنيهات لأن ذلك قليل جداً "

سألتنى : " كم تريدين زيادة ؟ "

" أربعة جنيهات زيادة "

نظرت لأسفل بضع دقائق .

" وأريد أسبوعين إجازة في عيد الفصح ، وليس عطلة نهاية الأسبوع فقط ، " اعتقدت أنها لو كانت تريدنى حقًا فإنها يجب أن تدفع من أجل ذلك ، وهذا سيوضح كم هى آسفة ونادمة على فقدانى ،

قالت السيدة « بلام » : " يمكننى منحك أسبوعًا واحدًا ، إنك ترين إنه أحيانًا تكونين فيما يشبه العطلة عندما أكون فى « دوربان » فى الشتاء "

قلت : " سوف أفكر فى ذلك "

مضت إلى الفندق .

فى اليوم التالى ، وجدتنى مستعدة وقد حزمت أمتعتى للسفر معها ، كانت سعيدة جدًا ، وبدت طيبة أكثر مما عهدت فيها ، وأنا شعرت بالثقة فى نفسى ، أكثر مما شعرت فى حياتى كلها ،

السيدة « بلام » تقول لى : " لن تجدى « مونتى » « ومالان » "

" أوه ؟ "

" أجل ، لقد سُرِّقا فى اليوم التالى لسفرك ، ولم يعثر البوليس عليهما بعد ، أظن أنهما ماتا "

تذكرت « ديك » . . . وحلمى هل جرؤ؟ وهى . . . هل هذه المرأة جاءت تطلب منى أن أعود لأنها فقدت الحيوانين اللذين تحبهما؟

قالت السيدة بلام : " أتعرفين يا « كارابو » ، إننى أحب قومك الأفارقة "

وتساءلت فى نفسى ؟ " « وديك » ، وأنا "

العشاق

تأليف : بيسى هيد

بدأت علاقة الحب فى الصيف ، بدأت علاقة الحب فى ذلك الزمن المضجر الجهم الذى لم يكن يحق فيه للشباب والفتيات إقامة علاقات حب ، كان صيفا من تلك الأصيف التى ينهمر فيها المطر سيولا جارفة ، كل أصيل تقريبا ، قرب غروب الشمس ، تجرى عبر السماء السحب المنخفضة المعبأة بالماء فى كتل متراصة ، فجأة ، وبلا مقدمات ، يهطل المطر وتعم صفحة السماء .

فى ذلك الأصيل ، كانت الفتيات والبنات الصغيرات مازلن فى الغابات يجمعن الحطب عندما ظهرت فى السماء البوادر الأولى لسقوط المطر ، رفعن أكوام الحطب بسرعة ، وأخذن فى الجرى للمنزل هربا من العاصفة الوشيكة ، فجأة ، ترنحت إحدى الشابات من الألم حيث وطئت أثناء عدوها شوكة كبيرة .

نادت على البنت الصغيرة التى كانت تلهث خلفها : "مانوسى" أسرعى للبيت ! لا بد لى من إخراج الشوكة من قدمى ، إذا ما أدر كنى المطر ، سوف ألجأ إلى مأوى ثم آتى للبيت بمجرد أن ينتهى .

دون أن تلتفت الصغيرة خلفها ، واصلت الجرى وراء جماعة النساء جامعات الحطب المسرعات ، صارت الفتاة وحدها تماما مع العاصفة

الوشبكة ، تبين لها أن إخراج الشوكة صعب ، فقد انطمرت عميقاً وانكسرت فى عقب قدمها ، سقطت على ظهرها بضع قطرات من المطر، واكفهرت السماء .

نظرت بقلق حولها بحثاً عن أقرب مكان تحتوى به ورأت بين الصخور ، عند قاعدة التل كهفاً كبيراً . رفعت حزمة الحطب ، ومشت بخطوات عرجاء مسرعة ناحية الكهف ، تلاحقها ضربات المطر العنيفة ، ما كادت تدخل الكهف حتى انهمر سيل المطر بشدة ، كان كل اهتمامها منصرفاً للوصول إلى المأوى ، لكن عندما وصلت ، انتفض قلبها من الخوف حين أدركت أنها ليست وحدها ، فقد ملأ المكان دفء جسد إنسان آخر ، خطرت فى المكان بسرعة ، ووجدت نفسها وجهاً لوجه أمام شاب ، قال بهدوء مهيب: " يمكننا أن نحتوى معاً هنا من العاصفة " .

كان تعبير وجهه حنوناً تشيع منه الطمأنينة والحماية مثل كلماته ، أعاد طمأننتها ، أنزلت الفتاة حمل الحطب فى الرحبة الداخلية للكهف الكبير، ومعاً جلسا قرب المدخل ، صم هدير المطر الأذان حتى أخمد فى كثافته الرعد والبرق ، بحركات هادئة متناسقة حل الشاب جراب جلد مربوط حول خصره ، كان يقضى كل وقته فى رعى الماشية ، ولكى تنقضى الساعات الطويلة كان يشغل بأعمال الجلد ، فيركب الجلود على كل أنواع الملابس والأغطية ، فى جرابه عدد كبير من الأدوات المسنونة ، أبدى للفتاة رغبته فى إخراج الشوكة من قدمها ، مدت قدمها إليه ، ولبعض الوقت انشغل فى عمله ، أبعد الجلد الموجود حول الشوكة برقة إلى أن كشف عنها بما يكفى لإخراجها .

نظرت الفتاة إلى وجهه باهتمام واندھاش من الطمأنينة والراحة اللذين شعرت بهما في وجوده ، في عالمهم كان الرجال والنساء يعيشون منفصلين عن بعضهم البعض على نحو صارم ، خاصة من هم في سن الشباب ، وغير المتزوجين ، هذا الإحساس بالعزلة والانفصال يدوم طوال الحياة الزوجية ، فيبدو الزواج ذاته ليس بذى معنى سوى أنه لقاء للإنجاب الأطفال ، تلك الفجوة الواسعة بين الجنسين خلقت عائقاً على مستوى الاتصال الإنساني بين الجنسين ، فعندما كان الشباب يرون امرأة ، كثيراً ما كانوا يحولون عيونهم عنها بصعوبة ، أو كانوا يقهقهون ، أما هذا الشاب فلم يقدم على أى شىء من هذا ، بل كان يحدق في عينيها مباشرة ، كل حركاته طبيعية وغير متكلفة ، بل إنه كان سعيداً بالنظر إليها ، بمجرد أن أخرج الشوكة ، شكرته بابتسامة ، وطوت قدمها الممدودة تحتها ، خفت حدة العاصفة بعض الشىء ، لكن السماء المثقلة بحملها أسقطته بقوة على التل .

لقد رأت الشاب من قبل هنا وهناك في القرية ، لكنها لم تكن متأكدة من معرفتها لأية عائلة كان ينتمى ، ومع ذلك كان كل ما يعينها شعورها بالسعادة معه الآن .

سألت : " ألسنت أنت ابن " ررا-كيجا " ؟ " كان صوتها عذبةً أليفاً ، مغلفاً بمسحة من الضحك ، معبراً أصدق تعبير عن شخصيتها ، فهي تحب دائماً أن تكون مبتهجة .

رد الشاب بابتسامة : " أنا من تسمى " كيجا " على اسم جده (٥٠) ، الابن البكر في العائلة " .

(٥٠) اسم الجد يتسمى به الابن البكر عادة .

قالت : " أنا أيضًا الابنة البكر فى العائلة ، أنا "تسلانى" ،
ابنة "ماما - تسلانى" .

كانت فروع أسرته أكثر تعقيدًا من أسرته ، قال مفسرًا : " لأبى
ثلاث زوجات ، كل أول مولود فى البيت ، للزوجة الأولى ، والثانية ،
والثالثة ، ذكر ، ولأبى ثمانية أطفال ، ثلاثة ذكور ، وخمس بنات ، "
فقط عندما تعمقا معًا فى الحديث ، انتهت "تسلانى" إلى أن جزءًا من
حديثه قد فاتها ، كان صوته على طرف نقيض من نبرتها الخفيفة العذبة ،
تكلم بنبرات عميقة متزنة نابغة من أعماقه ، وبدا كأنه ابتدع لغة خاصة به ،
كان طوع أمره سلسلة هائلة من التعبيرات والمشاعر ؛ الآن أشرقت عيناه
بروح المرح ، ثم صارتا وقورتين صادقيتين ، كان يتمايل بطريقة غير
محسوسة أثناء الكلام ، تكلم بطريقة لم تسمعها من أحد من قبل ، بل
كل ما تفوه به كان مباشرًا ، وبسيطًا ، وصريحًا ، انحنت للأمام ،
وأنصت بانتباه أشد لطريقته المميزة فى الحديث .

صدمها قوله : " إننى غير راض عن أمى ، فأنا ابنها الوحيد ، ذلك
لأن أبى ببساطة لم يعد يعاشرها بعد ولادتى ، أبى وأنا متشابهان ، كلانا
لا يحب أن يتحكم فيه أحد ، وهى ، منذ بداية زواجهما جعلت حياته بائسة ،
كأنها ولدت بأفعى تنهش فى قلبها ، لأن لا شىء يرضيها ، فكانت الطريقة
الوحيدة التى يمكن لأبى أن يسيطر بها على حالتها هى تجاهلها تمامًا . . . "

لاذ بالصمت برهة سارحًا مع افكاره ، ثم قال : " أعتقد أننى لا أوافق
على الزيجات التى يربتها الأهل الموجودة لدينا هنا ، ما كان أبى ليتزوجها
أبدًا إذا كان له حق الاختيار ، بالكاد قُدم إليها ذات يوم عن طريق أسرته ،
وأخبروه أنهما سيتزوجان ، ولم يكن فى وسعه فعل شىء حيال هذا
الأمر " .

إزاء الأذى الذى تحمله من أمه، أمسك صامتًا! كانت تكرهه بشدة ومرارة، رشقته بالحجارة وخمشته بأظافرها فى ذراعيه ورجليه من جراء إحباطها الوحشى، ومثل أبيه، تملص منها، نادرًا ما كان يقضى وقتًا فى البيت، جعل من زرائب الماشية مكان إقامة وسكنًا دائمًا له، فإذا اقترب من البيت فإنه يحضر معه دائمًا بعض الهدايا أو الأغذية، فى هذا اليوم بالذات، كانت معه قرعة ممتلئة باللبن.

تزلزلت أعماق الفتاة "تسلانى"، أمام ما تكشف لها من حقائق قاسية، كانوا يعيشون أشد أشكال التقاليد تزمّتًا فى الحياة، كل الأبناء تحت سيطرة الآباء حتى يتزوجوا، ومعنى ذلك أن مناقشة الكبار تعد من المحرمات، بطريقة حديثها المندفع، وإلى حد ما بسبب ارتباكها، كان على طرف لسانها القول بأنها تحب أمها، لأن والدتها ذات قلب طيب، لكن فى بيتها أيضًا مسحة خفية من الاضطراب، والدها وأمها - وهى متأكدة من ذلك لمعرفتها بتفاصيل حياة أمها - لم يكونا يعاشران بعضهما البعض، منذ سنوات قليلة اتخذ والدها لنفسه زوجة أخرى، كانت هى وحيدة أمها، أوه، ظاهر حياتهم المنزلية هادئ ومنسجم، لكن والدها نادرًا ما كان يأتى للبيت، متى كان بالبيت؟ فإنه دائمًا ما يكون سريع الغضب ونكد المزاج.

أخيرًا قالت، بنبرة خفيضة مشحونة بعمق التفكير: "أنا آسفة لكل المتاعب التى ببيتك"، كانت تترنح تحت ضربة مفاجئة من طرق تفكير جديدة عليها تمامًا.

ابتسم الشاب وتحول بترؤ ناظرًا إليها، ومسحدًا فيها، نظرت إليه باهتمام ودى دافىء، لم تمنع فى اقترابه ممعًا النظر إليها؛ كانت رفقة مطمئنة... مريحًا، صادقًا، وصريحًا فى إيماءاته.

سأل وهو لا يزال مبتسمًا: " هل توافقين على الزيجات المرتبة؟ "

أجابت بصدق: " أنا لم أفكر قط في ذلك من قبل " .

كان الظلام يقترب بسرعة ، والمطر يقطر في رذاذ ناعم ، وقفت " تسلانى " ورفعت حزمة الخطب ، رفع الشاب قرعة اللبن ، عندما مشيا معاً في الظلام عائدتين للبيت ، كانا كطيفيين يريان بالكاد ، لم يكن بيت " تسلانى " بعيداً عن التل ، كانت تسكن عند نهاية الجانب الغربى من القرية ، وهو عند نهاية الجانب الشرقى .

أضاء وهج النار داخل الكوخ ، الذى كانوا يستخدمونه كمكان للطهى فى الأيام الممطرة ، أم تسلانى جلست منحنية للأمام على كرسى المطبخ ، منصتة بانتباه لحكاية ضيفتها ، إنها دائماً هكذا - محاطة بالنساء اللاتى يأتمنّنها على أسرارهن ، كل قصص الحياة تُفصّل يومياً حول كرسى مطبخها ؛ علل الأطفال ، النساء اللاتى أجهضن توأ ، نساء يقاسين العقم ويخضعن لعلاج الأرحام القاحلة ؛ ولا نهاية للقصة ، كانت أكبر سعادة لتسلانى أن تجلس خلف كرسى أمها بهدوء وتنصت بافتتان لقصص هذه المحن التى لا تنتهى ، ضيفة الأم هذا المساء كانت قد اقتربت من نهاية وصف حالة طفلتها ، صرع مزمن مستعصٍ على العلاج ، بدت الطفلة كأنها فى نوبة احتضار ، وكانت أمها تصف شدة النوبة المرضية التى ألت بابنتها حين دخلت " تسلانى " ، أنزلت " تسلانى " كومة الخطب فى زاوية واستمر الحديث دون مقاطعة ، أخذت مكانها المفضل خلف أمها ، جلست فى الجانب المقابل من النار ، " ماما-منوسى " ، زوجة أبيها الثانية ، والتى بدت جادة رابطة الجأش ، ابنتها ، البنت الصغيرة " منوسى " ، أخذت حاجتها من الطعام والعناية ، وراحت بعد ذلك فى النوم سريعاً على حصيرة بأحد أركان الكوخ .

أُحِبَّت "تسلانى" سيدتى المنزل بنفس القدر، كلتاهما قوية مستقلة، لكن مع فارق كبير، بين الشخصيتين: "ماما تسلانى"، ملكة تعالين مملكتها التى تحكمها، بعقل غائب، عبر سنوات حياتها الزوجية شقت طريقاً فى الحياة لنفسها يملؤها بالرضا، أشيع أن صحتها ضعيفة لأنها بعد ولادة "تسلانى" عانت عدة مرات من الإجهاض، واتضح أنها لم تعد قادرة على حمل أى طفل بعد ذلك، كان ضعف صحتها مصدر سخط شديد من جانب زوجها، وبعد وقت هجرها تماماً واتخذ "ماما-منوسى" زوجة ثانية له، بقصد أن يديم سلسلة نسبه واسمه من خلال جسدها العفى.

هذا النظام كان مناسباً لماما-تسلانى، فقد كانت ذات قلب كبير وعقل متفتح، بل على العكس، كانت تفخر بأنها شديدة التمسك بكل التقاليد التى تخلص لها الجماعة، بمجرد أن صارت "ماما-منوسى" جزءاً من البيت؛ لم تعد "ماما - تسلانى" تقوم بأى عمل، لكنها صارت تستضيف النساء وتقوم طوال اليوم بالزيارات، بينما راحت "ماما-منوسى" تدير الشؤون الداخلية للبيت.

امرأتان تكمل كل منهما الأخرى، فإذا كانت "ماما-تسلانى" ملكة، فإن "ماما-منوسى" عاملة متواضعة، كانت "ماما-منوسى" تبدو ظاهرياً سليمة العقل، متزنة مثل "ماما-تسلانى"، لكن كان هناك جانب آخر فى شخصيتها غير متزن، كان أسلوبها طوال حياتها مزعزعاً، فإذا كان كل شيء مستقراً وآمناً، فإن "ماما - منوسى" مستقرة وآمنة، إذا ما كان هنالك أى تمزق أو اضطراب، فإن مؤشر التوازن الداخلى الروحى غير المستقر يشير إلى كل ناحية وتجيئ عواطفها، تآقت دائماً لأن يتقبل الآخرون كل عمل تقوم به، وتكاد تكون مبهتسة لأيام إذا ما لحق بها نقد أو تأنيب.

هكذا، فيما بينهما، بلغتا حياة منزلية غاية فى الانسجام، امتصت كلتاها فى دائرة انشغال حياتها اليومية، كلتاها لامبالية بما تتلقياه من اهتمام شحيح من رجلهما، لأن "ررا - تسلانى" كان مستوعباً تماماً فى شئونه، كان عضواً بارزاً فى مجلس زعيم القبيلة، وقسم وقته بين المجلس وزرائب قطعانه، كان من أغنياء مُلاك الماشية، ولديه خدم يرعون قطعانه، فى ذلك الوقت، كان "ررا-تسلانى"، بعيداً، عند زرائب قطعانه.

تمتعت الفتاة "تسلانى" بعلاقة حرة وسعيدة مع "ماما-منوسى"، تعاملتا فيما بينهما دون كلفة، استمتعتا معاً بالعمل الشاق، وحينما تكونان معاً بمفردهما، تأخذان فى الضحك وتلقيان النكات طوال الوقت، بينما أمها كانت تنظر إليها على أنها مجرد شىء ما، عليها أن تخفض صوتها، وتصدر لها الأوامر من بين أسنان مطبقة، فى وقت مبكر جداً، تحركت "ما-تسلانى" فى كرسيها، وقالت بصوتها الخفيض: "تسلانى، أحضرى لى حقيبة أعشابى".

نهضت "تسلانى" بطاعة وأسرعت إلى مكان معيشة أمها لإحضار حقيبة الأعشاب، مرت فسحة من الوقت أثناء وصف الأم لضيفتها طريقة استخدام ومميزات الأعشاب ثم راحت "ما - منوسى" تجهز وجبة العشاء، انصرفت الضيفة على وعد أن "ما - تسلانى" سوف تزورها فى اليوم التالى، جلسن لبرهة فى صمت أنيس، عندما خفت لهيب النار، نهضت "ما - تسلانى" واختارت بعض قطع الحطب من حزمة الابنة لتزكى النار،

قالت: "إى "تسلانى"، حطبك جاف تماماً، هل اختبأت من العاصفة؟

ردت "تسلاني" : "يوجد كهف بالتل ، ليس بعيداً عن هنا يا أمي ، اتخذته مأوى" ورأت من الحكمة ألا تضيف أنها شاركت شاباً المأوى ، لأن ذلك سيثير كثيراً من الأسئلة المربكة .

ألقت عليها الأم نظرة غامضة ، كأنها تقول . . كل شيء في عالمها مستتب ؛ فهي دائماً تعين حقائق بسيطة عن أية مسألة ، ثم تنتقل بهدوء للمهمة التالية القرية ، فجأة ، قررت الأم أنها متعبة ، وسوف تأوى للفرش ، بقيت "تسلاني" و "ما- منوسي" جالستين قرب النار ، مازالت "تسلاني" مبتهجة من لقاءها غير المتوقع مع الشاب ؛ لذا جال برأسها كثير من الأفكار السارة .

قالت بتلهف : "ما- منوسي ، أريد أن أسألك بعض الأسئلة" .

قالت "ما- منوسي" خارجة من أحلام اليقظة : "ما الذي تريدن قوله يا ابنتي؟"

سألتها بصراحة : "هل توافقين على الزيجات المرتبة؟"

شهقت "ما- منوسي" وخفضت صوتها رعباً ، وقالت : "تسلاني ، تعرفين أنني صديقتك ، لكن إذا سمعك أحد غيري تتكلمين بهذه الطريقة سوف تقعين في مشاكل ! مثل هذه الأمور لا تناقش هنا أبداً ! ما الذي جاء بتلك الفكرة لرأسك ، فهي لم تخطر على بالي بالمرّة؟"

قالت "تسلاني" بطريقة دفاعية : "عند سن معين يحدث اعتراض على الحياة" .

قالت "ما- منوسي" بصدق : "ذلك ما لن تفعله أبداً ، إذا ما اعترضت على الحياة ، سوف تضطرب ، الحياة دائماً مرتبة ومنظمة" ،

ونظرت إليها مروعة كلية ومستثارة المشاعر، ثم أضافت متجهمّة: " أعرف أمراً رهيباً حدث ذات يوم لشخص ما اعترض على نظام الحياة " .

سألت "تسلانى" ، مستثارة المشاعر بدورها: " من كان هذا؟ ما الأمر الرهيب الذى حدث ؟ "

قالت "ما- منوسى" بحزم: " لا يمكن أن أخبرك، إن ذكره مرعب جداً " ، غرقت تسلانى فى الصمت ساهمة، فهى تعرف ماما - منوسى جيداً، لا تقدر على الاحتفاظ بسر، ويمكن استدراجها دائماً لإفشاء السر، إذا لم يكن اليوم ، يكون غداً، قررت تسلانى أن تكتشف هذه القصة المرعبة .

عندما وصل " كيجا " للبيت كانت عائلته تتناول وجبة العشاء، أقبل أولاً على مكان معيشة النساء وقدم لهن قرعة اللبن، قال: " أنجب البقر عجولاً كثيرة، هناك الكثير من اللبن، ويمكن إحضار بعضه كل يوم " .

حيته، بابتهاج، زوجتا أبيه الثانية والثالثة، اللتان سألتاه بقلق عن أحوال ولديهما اللذين يعيشان معه عند زرائب الماشية .

قال بلطف: " إنهما بخير تماماً، رتبت لهما إقامتهما وكذلك الماشية قبل مغادرتى، سوف أعود ثانية فى الصباح الباكر لأننى قلق على العجول الصغيرة " .

تجنب تحديق أمه المؤذى، وفمها المطبق، المحرم عليه الحديث معه، لم يكن لديها ما تقوله له قط ، على الرغم من أنه عند اقترابه من مكان النساء سمع صوتها الصاخب الأجش مسيطراً على الحديث، أعطوه وجبته، وانسحب لمكان معيشة والده، كان الوالد يتناول طعامه بمفرده بعيداً عن النساء، وذكى النار فى المكان .

حياء والده ، مداعبًا إياه مداعبة حنونة ومتلاعبًا باسم "كيچا" ،
قائلًا: " مرحبا، يا أبى " كيچا " تعنى لى . . أنا آكل الآن لأن لى ابنًا
يعتنى بى " .

كان الأب مغرمًا به ، لا يوجد فى نظره ابن أفضل من "كيچا" ، بعد
تبادل التحايا، سأل الأب: " وما أخبارك؟ "

أخبر والده نفس المعلومات عن ولادة البقر لعجول كثيرة، وزيادة
اللبن، وعن حال أخويه، راحا يأكلان فى رفقة صامته لبعض الوقت،
ارتفع صوت أمه صاخبًا، نفاذًا، مخترقًا صمت الليل، دون توقع، رفع
الأب بصره ناظرًا إليه، غامزًا بعينه، وقال: " يا أبى، تلك العجول
الإضافية سوف تعود علينا بفائدة، لقد بدأت توأ فى مفاوضات الترتيب
لزواجك " .

اعتصرت قلب " كيچا " نوبة قشعريرة ، وخوف بارد ، تساءل
منزعجًا: " من سيتزوج يا أبى؟ أنا ؟ "

رد الأب بفرح ، وهو غير مدرك لانزعاج ابنه : " لا يمكننى
التصريح باسم العائلة الآن ، مازالت المفاوضات فى مرحلة دقيقة " .

سأل " كيچا " ، بصوت بدت فيه حدة الغضب: " هل ورطت نفسك
فى هذا الأمر يا أبى؟ "

أجاب الوالد: " أوه، نعم، لقد أعطيت كلمة شرف فى هذا الأمر،
تلك الأشياء تحتاج وقتًا طويلاً لترتيبها، لأن هناك الكثير من الوساطات
والاتفاقات التى يجب القيام بها " .

سأل الابن: " إلى متى؟ "

رد الوالد: " ليس قبل مرور ستة أعمار جديدة تقريباً، وربما أكثر من ذلك، لا يمكننى القول بالضبط فى هذه المرحلة " .

قال الابن بهدوء قاتل: " يمكننى اختيار زوجة لنفسى، يمكننى اختيار زوجتى، وبعدها أخبرك باختيارى " .

حذق الأب فيه مأخوذاً !

قال: " لا يمكن أن تكون مختلفاً عن الجميع، لابد من أننى أب ضعيف حتى يمكنك أن تكلمنى هكذا " .

أدرك الأب أنه تساهل مع ابنه، ذلك لأن تعاملاتهما كانت حرة وسلسة أكثر من المباح اجتماعياً؛ فحتى ذلك التعامل المقتضب كان أكثر مما يسمح به أغلب الآباء لأبنائهم، كان الآباء يرتبون كل تفاصيل مستقبل أبنائهم، وفى اليوم المقدر، بالكاد يخبرونهم بأن على فلان أن يتزوج "علانة"، ولا مجال لقول: " لا يمكننى العيش مع فلان أو فلانة، أو قد تكون غير مناسبة لى "، لذلك، عندما لاذ "كيجا" بالصمت، ابتسم والده فحسب، غاضباً الطرف عن الموضوع، وانشغل معه فى حديث حول أمور تافهة،

بلغ "كيجا" بالتأكيد سن الزواج، فقد مر العام الماضى بالمراسم الشعائرية التى تؤهله لدخول عالم الرجولة، بصرف النظر عن الاختبارات التى تحملها أثناء المراسم، فقد حصل هو ومجموعة الشباب من نفس سنه على التعليمات المفصلة عن العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء، وهى نادراً ما كانت خاصة وشخصية، إلا أنها متأثرة بعدد ضخم من القواعد الاجتماعية والمحرمات، إذا ما خالف المحرمات على المستوى الشخصى والخاص، فإن الموت، والمرض، وسوء الحظ الكبير سوف يقع على أسرته،

أما إذا خالف المحرمات على المستوى الاجتماعى ، فإن الموت والكوارث سوف تقع على القبيلة ، كانت هناك فترات عديدة فى حياة الإنسان تحرم فيها العلاقات الجنسية ، غالباً هذا التحريم كان يراعى على مستوى القبيلة ، كما فى الفترة التى تسبق حصاد الغلال ، وينتهى هذا التحريم فقط يوم احتفال الشكر بموسم الحصاد .

كانت هذه القواعد والمحرمات هى ذاتها لكل من الرجال والنساء ، لكن المراسم التى تخص النساء ، والتى مرت بها " تسلانى " فى العام الماضى أيضاً ، كانت تعليماتها أكثر تعقيداً بمراحل ، كان يجب مراعاة التوازن الدقيق بين الدورة التناسلية للمرأة وبين سلامة القبيلة - ففى كل مرحلة تقريباً من حياة المرأة يوجد مصدر خطر كامن على القبيلة ، تلقت النساء كلهن تعليمات دقيقة بالحيلة والحذر ، ويجب أن يتبعنها بدقة - أوقات العادة الشهرية ، والولادة ، والإجهاض ، وعدم التقيد بهذه المحرمات قد يجلب الأذى لحياة الحيوان ، والمحاصيل ، والجماعة .

هذا يوضح أن المجتمع لم يكن به مكان للناس الذين تجرّفهم العواطف المفرطة ، فهناك منطق ونظام دقيق يكيف وينظم العلاقات بين الرجال والنساء جسدياً وعاطفياً ، وليس هناك من يتحدى النظام والترتيب القائم للأشياء ؛ فإذا ما شعر الناس بأية تعاسة شخصية كانت تكبح وتكبت ، وهكذا تواصل الجماعة استمرارها من يوم لآخر فى سلام وانسجام .

كما يفعل كل المحبين ، بدأ حواراً شخصياً وعاطفياً أقصى كل الحياة من حولهما ، ربما كان قالب واتجاه علاقتهما هو ذاته لدى كل المحبين ، مؤلم ،

ومُخبِل حِيال مطالب البداية الأولى غير المستقرة، من يبحث عن من؟ لم يستطيعا القول، ما عدا أن الطرف الغربى البعيد غير الملوّث من النهر، حيث تملأ النساء جرار الماء، وحيث توجد الغابات التى يجمعن منها الحطب، أصبحت أراضى "كيجا" المفضلة للصيد، توافقت مواعيد عملهما، فى ذلك الوقت، وكان قد تم بذر حبوب الحنطة تَوّاً، "وتبطلت" النساء فى القرية عن العمل إلى حين تتشرب البذور المطر الكثيف ويرتفع النبات فى حقولهن، وتأتى فترة انشغالهن بعد ذلك عندما يقتلعن الأعشاب الضارة من بين حنطتهن.

كان "كيجا" يعود كل يوم إلى القرية بقرعات اللبن لعائلته، ولم يفت "تسلانى" طويلاً إدراك أنه يعتمد التأخير ويتلّكأ فى منطقة عملها إلى أن يلتقط بعض الومضات من عينيها. كانت دائماً فى جمع من الفتيات اللاتى يتحدثن بحبور، ذكرى لقائهما الأول غير المتوقع مازالت حاضرة فى نفسها، مثيرة وملیئة بالحوارات المدهشة غير المتوقعة، حتى إنها تاقت للاقتراب منه، ذات أصيل، خرجت لجمع الحطب مع رفيقاتها، لمحته بين الشجيرات البعيدة فاحتالت للتخلص من رفيقاتها، وبينما تمشى فى اتجاهه، كان قد اقترب منها وأمسك كلتا يديها فوراً، لم تبد أية بادرة لسحب يديها، ارتاحت يداها بين يديه كأنهما تنتميان لراحته، مشياً مسافة ثم توقف، وانعطف ليواجهها، ويخبرها بكل ما يجول برأسه بطريقته المباشرة البسيطة، فى هذه المرة لم يبتسم على الإطلاق.

قال: "أبى يرتب لزواجى بعد مرور حوالى ستة أعمار جديدة، لا أريد ذلك، أريد زوجة من اختياري، لكن كل الأشياء التى أريدها قد تسبب المتاعب فحسب".

سرحت يبصرها بعيداً، ولم تعرف ماذا يجب عليها أن تقول ؟ لم يعطها والداها أية إشارة عن خططهما لمستقبلها، حقاً ليس لديها سبب للتفكير فى هذا المستقبل ، لكنها لا تحب معظم شباب القرية ، هؤلاء الشباب ذوى الوجوه الذليلة والكبرياء المصطنع ، كما لو كان المجتمع قد كسر إرادتهم بوسائل ضغطه وتقاليده القاسية ، لقد أحببت كل شىء فى " كيجاً " ، وشعرت بالأمان معه منذ ذلك الأصيل العاصف فى الكهف الكبير عندما قال لها : " يمكننا أن نحتفى معاً هنا من العاصفة " .

استمر فى الحديث وهو لا يزال ممسكاً ببيديها : " أفكارى ليست معقدة ، على أن أعرف كيف رأيتك حياً ما سأقوله ؟ إننى أود أن أشارك زوجة لى ، إذا لم تختارينى بدورك ، فلن أتابع سعى من أجل ما أريد ، وعند ذلك قد أتزوج الزوجة التى اختارها والدى " .

استدارت وواجهته ، تكلمت بفكر واضح أجفلها هى ذاتها ،

قالت : " أنا لا أخشى شيئاً ، لا المشاكل ولا المتاعب ولا حتى الموت ، لكننى أحتاج بعض الوقت لأعرف ما أنويه " .

طوعاً ، ترك يدها تفارق يده ، وهكذا افترقا ، ومضيا فى طريقيهما منفصلين ، من تلك اللحظة ، وحتى اليوم التالى ، عاشت " تسلانى " فى حالة انفعال ، مشتتة الفكر ، لا تستقر على فكرة ، غلبتها نوازع الحب ، فى ساعة الأصيل المعتادة ، داهمها المرض الشديد لحظة أن همت برفع الجرة ، شعرت بالضعف إلى حد الموت ، وأحست بوهن وعجز ذراعيها وقدميها ولم تتحمل ثقل الجرة التى كانت ترفع بها المياه ،

استغاثت بـ " ما- منوسى " .

قالت: " أشعر بدوار ومرض اليوم لا أستطيع رفع الماء " .

كانت " ما - منوسى " سعيدة جداً لمجرد أن تضطلع بأعمالها، لكنها فى الوقت ذاته تشاورت بقلق مع " ما - تسلانى " عن مرض الفتاة المفاجئ، بعد تفكير مترو، قررت " ما - تسلانى " أن مرض ابنتها ما هو إلا مرض يصيب أطراف الفتيات عندما يتسارع نموهن، قضت الأم ثلاثة أيام سعيدة فى تطيب ابنتها بمشروبات الأعشاب الساخنة، فلا شيء أحب إليها أكثر من التطيب، مازال الاحتياج الجسدى يجتاح الفتاة بلا توقف ويعنف، فقد كانت ترتعد بشدة من رأسها حتى أخمص قدميها فى الليل، كان أمراً فظيماً استسلامها التام لمدة يومين للصدمة، لم تكن أية فكرة هى التى دفعتها لمصارعة اليأس والوقوف على قدميها فى اليوم الثالث، بل كانت الحاجة لتهذئة الكرب الذى تعانيه، أقنعت أمها و " ما - منوسى " بتحسينها الكافى وقدرتها على استئناف عملها فى جمع الحطب، قرب الأصيل أسرع إلى الغابات، وتجنبت بحرص رفيقاتها.

عند لقائها بـ " كيجا "، ردت إليها الروح، ورأت وجهه يحمل نظرة الكرب ذاته الذى تحسه، تكلم هو أولاً، قال: " شعرت بالمرض الشديد والاضطراب، لم أستطع فعل شيء سوى انتظار رؤيتك " .

جلسا على الأرض معاً، كانت منهكة بشدة من جراء يومى صراعها حتى أنها أسندت رأسها على ركبتيه، عاودها الفكر مرة أخرى، لكنها ابتسمت بطمأنينة، وقالت: " أريد أن أفكر " .

نهضت ببطء، ونظرت للشباب بعيون لامعة، قائلة: " شعرت بالمرض الشديد، واضطبت أُمى على إعطائى مشروبات الأعشاب، قالت من الطبيعى أن تشعر الواحدة منا بالإغماء والتشويش عندما تكبر، أعرف الآن ما الذى

جعلنى أشعر بالمرض؟!، إنه صراعى مع تربيتى التى علمتنى أن الناس ليسوا مهمين فى ذاتهم، لكنك فجأة أصبحت مهماً بالنسبة لى، لا أعرف كيف أخبر أُمى بهذا، لا أعرف كيف أخبرها بأى شىء، إنها طيبة وتولت تربيتى ورعايتى، لقد خلت أننى سأفقد عقلى، لذلك جئت لمقابلتك".

منذ هذه اللحظة، وما تلاها، بهدوء وبمحض إرادتهما، تزوجا، راحا يدبران كيف ومتى يمكنهما أن يتقابلا؟ كان الشاب صاحب تدبير وعزم، عرف أنه وفقاً لعرف مجتمعه، كادت أن تبدأ فوضى رهيبة، لأن مجتمعه كان يتكل على أن الإنسان قليل الحيلة مغلوب على أمره، هذا المجتمع لا يضع فى حسبانهِ القدرة الإنسانية على الابتداع والمبادرة، كل ما كان يحتاج إليه "كيچا" هو عهد الفتاة، ومنذ عرف به، أخذ على عاتقه المبادرة فى كل الأمور، كان يفاجئها ويسعدها منذ ذلك اليوم بتدبيره وبعد نظره، كأنه عرف أنها سوف تلقاه يوماً ما، وأنهما سيقيان معاً فى مكان ما فى فرح من ممارستهما الحب، لذلك، عندما عبرت "تسلانى" عن تأخر الوقت، أشار هو، بابتسامة عريضة إلى حزمة كبيرة من الخطب بالقرب منهما كان قد جمعها لتحملها إلى البيت.

تلا ذلك فترة هدوء، عاشت القبيلة حياة كل يوم، جاهلة بالتمزق والغليان اللذين سوف يهاجمانها قريباً، خرجت النساء مبكراً للحقول، ينتزعن الأعشاب الضارة، منصرفات لخدمة ورعاية محاصيلهن، بينهن "تسلانى"، جنباً إلى جنب مع "ما-منوسى" مثلما اعتادت أن تفعل دائماً، لم يكن هنالك أية إشارة عن الحياة السرية التى تعيشها الآن؛ إذا كان من شىء، فهو أنها تعمل بجد أكثر ورضاً كبير، كانت تضحك وتطلق النكات كالمعتاد مع "ما-منوسى"، إلا أن صوت الغريزة جعلها تكتُم شئونها الخاصة.

عندما ارتفعت الحنطة فى الحقول ، وشارفت على النضج ، أدركت "تسلانى" أنها حامل ، الأمر الذى كان سرّاً لا يمكن أن يبقى سرّاً للأبد ، لما أفضت بهذه الأخبار لـ "لكيچا" ، كان سعيداً جداً ، مستحسناً إياها كجزء من التدابير التى وضعها ، لأنه كما قال لها فى ذلك الوقت : " أنا لا أدبر للموت عندما نكون سعداء ، ما أريده هو أن نعيش " .

كان جزءاً واحداً فقط من خطته هو المضمون ، طريق هروب آمن إلى خارج القرية وإلى حياة جديدة ومجهولة ، سوف يصنعانها لنفسيهما ، لقد جعلتا نفسيهما خارج نظام التقبل الموجود فى حياة القرية ، فعرض عليها خيارين لتختار من بينهما ، الأول : يمكنهما ترك القرية فى أية لحظة دون إخبار أى أحد بنواياهما ، والعالم واسع رحب أمام الإنسان ، لقد سافر لمسافات طويلة ، فى كلتا الحالتين ، وحده ، ومع جماعة من الرجال ، أثناء واجبات الصيد أو الرعى ، وجد المنطقة آمنة للسفر لمسافات معينة ، وجلس حول النيران واستمع لحكايات عن الحروب والهاربين ، وعن القبائل الأخرى المضيفة التى تسكن على مسافات بعيدة عن هنا ، والتى لديها عادات مختلفة عما لديهم ، لم يهمل " كيچا " كل هذا للحظة ، فقد أعد ما سوف يحتاجانه لرحلتهم وخبأه فى مكان سرى .

كان الخيار الثانى ، أن يخبرا والديهما بحبهما ويسألونهما الموافقة على زواجهما ، كان هذا هو الخيار الأصعب بالنسبة للعاشقين ، ولم يكن متأكداً من نتيجته ، هذا الاختيار كأنه دعوة للموت أو أسوأ ، وما زالت صعوبته ترشد إلى طريق الهروب من القرية ، وهو لم يكن ينوى الموت .

كان الخيار الأول سيكسر قلبى والديها ، لذلك قررت بعد تفكير أنه من الأفضل أن تخبر والديها ، اتفقا على إخبار والديهما بحبهما فى هذا اليوم ، وبالموعد الذى يرغبان الزواج فيه .

قرب الغسق، وصلت " تسلانى " إلى البيت بحزمة حطبها، كانت أمها و" ما- منوسى " جالستين فى فناء البيت، منشغلتين فى حديث هادىء، وضعت " تسلانى " حزمتهما، مقربة من المرأتين، وجشت بهدوء إلى جوار أمها، حولت الأم نظرها إليها، متوقعة طلباً أو رسالة من صديقة، لم يكن هنالك من طريق أمام تسلانى سوى الإفصاح عن سرها مباشرة.

قالت: " أمى! إننى أنتظر طفلاً من ابن " ررا- كيجا "، ونحن نرغب فى الزواج عند القمر القادم، نحن متحابان . . . "

للحظة، قطبت الأم، كأن كلمات ابنتها غير مفهومة، ارتعد جسد " ما- منوسى " عدة مرات كأنها مقرورة ولاذت بصمت قاتل، فى آخر الأمر تكلمت " أم تسلانى " بصوت خفيض من بين أسنان مطبقة، وقالت: " اذهبى إلى كوخك وأبقى فيه، لا تبرحيه لأى سبب إلا تحت إشراف " ما- منوسى " .

جلست " ما- تسلانى " لبعض الوقت تحمق فى الفراغ، امرأة محطمة، تداعت هيبتها، مملكتها، احترامها لذاتها، غرورها.

بعد وقت قصير، دخل الزوج الفناء، كان قد قضى يوماً ممتعاً فى قصر الزعيم مع بقية الرجال، ويرغب الآن فى العشاء والانصراف إلى خلوة الليل، وكان آخر شيء يرغب فيه هو الحديث مع النساء، لذلك عندما ظهرت زوجته دون العشاء، نظر فى غضب، فسرت الأمر بكل ما استطاعت من وقار، كانت منهارة تقريباً من الصدمة، استمع غير مصدق، وفى اللحظة نفسها، أطلق صراخاً غاضباً.

فى تلك اللحظة، دخل والد "كيجا"، نادى: "ررا-تسلانى"، سمعت توّاً من ابنى عن الإساءة التى ارتكبها فى حق أهل دارك، لكنه لا يرغب فى شىء أكثر من رغبته فى أن يتزوج ابنتك، أنا موافق إذا كان هذا سوف يخفف بعض إثمه".

رد والد تسلانى: "يا ررا-كيجا، أنت تعرف أيضاً أن هذا الزواج لا يحقق منافع لعائلتك أو عائلتى"، ثم نهض واقفاً ومضى ضارباً فى الظلام بانفعال شديد.

محطم الفؤاد، نهض والد "كيجا" أيضاً، ومضى خارجاً من الفناء.

كانت كلمات زوجها هى التى نفضت عن "ما-تسلانى" غيوبتها ورثاءها لذاتها، أسرعت لمكان معيشتها، وأحضرت شالها الجلدى، وهمست ببعض الكلمات لـ "ما-منوسى" عن مهمتها، جرت "ما-منوسى" بسرعة فى الظلام خلف "ررا-كيجا"، عندما أدركته همست بعجلة: "ررا-كيجا"، ربما لا تعرفنى، لحقت بك لأننا نتقاسم هذه المصيبة التى ألت بنا، هذا الأمر لن يبقى سرّاً، غداً سوف يكون على كل لسان، لذلك أحثك على أن تفعل مثلما فعلت "ما-تسلانى"، وتقدم التماساً تدافع به عن ابنك، لقد ذهبت "ما-تسلانى" إلى جناح الحريم فى بيت الرئيس حيث إن لها عديداً من الأصدقاء هناك ساعية لتسوية الأمر.

خففت كلمات "ما-منوسى" عن قلب الرجل العجوز المثقل، وواعد بإرسال أخباره إليها، ثم تحول ومشى فى اتجاه فناء الرئيس.

عادت "ما-منوسى" مسرعة إلى فنائها.

قالت ما- منوسى بجدية: " تسلانى، ليس أمراً هيناً انتهاك وكسر الأعراف، سوف تدفعين حياتك بسبب ذلك، كان يجب أن أحكى لك القصة فى تلك الليلة التى ناقشنا فيها العادات، عندما كنت شابة، كان عندنا حالة مثل هذه، لكنها لم تصل إلى هذا المأزق الكبير، كان شاباً مغرمًا بفتاة، وهى أيضاً مغرمة به، رفض الشاب الفتاة التى اختارها له أبواه، لم يستطيعا إثناءه عن موقفه، لذلك قتلوه، لقد قتلوه، برغم أنه لم يمس الفتاة، غير أن هناك أمراً آخر أريدك أن تعرفيه، إننى صديقتك، وسأدافع عنك حتى الموت. لن يمسك إنسان بضرر طالما أنا على قيد الحياة".

عادت بينهما علاقة الألفة والتعاطف، تحدثتا عن علاقة الحب، كانت "ما- منوسى" تمتص كل كلمة فى حبور، بعد برهة دخلت "ما- تسلانى" الفناء، كانت لا تزال غاضبة بشدة، فلم تكلم ابنتها، لكنها نادى على "ما - منوسى"، وانتحى بها جانباً، وأعلمتها أنها نجحت فى الحصول على تأكيد وعهد من أصحاب المنزل الرفيعة بألا يصيب ابنتها سوء.

وهكذا، بدأ أسبوع احتدام ثورات الغضب؛ والمداومات البربرية، كانت مشكلة عائلية، وكانت مشكلة عامة، بوصفها مسألة عامة فإنها سوف تجلب الدمار والكوارث على القبيلة، فتزايد السخط العام، أبو تسلانى "وأم كيجا" ظهرا بمظهر أحمق حافل بالأخطاء، أعلن "ررا- تسلانى" بعناد أن الزواج لن يتم أبداً، كان يؤثر إطلاق الوعيد بالموت طوال الوقت، الأفعى التى كانت تأكل قلب "أم كيجا"، ظهرت أثناء ذلك والتهمت قلبها، كان يمكن سماعها وهى تتوعدهما بالموت أيضاً، ثم هبط حل غريب ومؤقت من أصحاب المنزل الرفيعة قيل فيه إنه إذا ما أفلح العاشقان فى

الخروج من القبيلة لعدد معين من الأيام، فإن هذا سوف يتيح خمود غضب العامة، حينئذ، سوف يبحث أمر زواج العاشقين.

كانت حالة الاضطراب العنيف التي شملت القبيلة مرعبة. يوم خرج "كيچا" من بيته، وسمح له بالاقتراب من بيت "تسلانى"، انسحب الناس إلى داخل بيوتهم كأنهم لا يريدون أن يكونوا شهوداً لذلك المنظر المخيف، "ما-منوسى" فقط، هي التي أشرفت على تفاصيل الرحيل الأخيرة، ووقفت علانية تراقب الاتجاه الذى سترك منه العاشقان القرية قرب حلول المساء، رأتهما يصعدان التل القريب من بيت "تسلانى"، عرفت "ما-تسلانى" التي كانت راقدة منهارة فى كوخها، تفاصيل ما جرى فى الخارج من "ما-منوسى".

قالت: "لم يكن الشاب أحق، لقد اتخذ طريق التل، يعرف جيداً أن قمة التل هي الأفضل، الناس غاضبون وقد يفكر أحدهم فى مهاجمتهما، سوف يجد أى مهاجم المهمة صعبة، لأن الشاب قد يدفع الحجارة عليه قبل أن يقترب خطوة واحدة، إن ابتنا آمنة تماماً معه".

ثم تحولت القصة إلى طور مرعب، ساد التوتر عندما اقترب اليوم المفترض لعودة العاشقين لحياة القبيلة، مرت أيام ولم يعودا، أخيراً، أرسلوا الفرق للبحث عنهما، لكنهما كانا قد اختفيا، حتى آثار أقدامهما لم تكن موجودة على سطح الصخور العارية والروابي "المعشوشية" على جانبى التل، فى أول الأمر عاد الباحثون ولم يقدموا أية أخبار عن ظواهر غير طبيعية، فقط دهشة محيرة، حينئذ، انقلب الاتزان العاطفى غير المستقر عند "ما-منوسى" إلى تشوش كامل، كانت ترى سائرة متجهة ناحية التل وقد سحقته الكارثة، عندما تصل إلى قاعدته تقف فى سكون ويمر أمام عينيها

مرة أخرى قصة اختفاء العاشقين، فى أول الأمر سمعت أنات عالية لمن يعانى من الكرب، فكانت تجعل دمائها تتجمد، رأت "تسلانى" و"كيچا" بمجرد أن وضعا قدميهما على التل، انفلقت الصخور وانشقت عن فجوة ابتلعت العاشقين، وأطبقت عليهما، وعندما كانت تنادى: "تسلانى... كيچا"، كانت روحاهما ترتفعان وتطفوان سابحتين لقمة التل بعيون لا ترى.

عادت "ما - منوسى" إلى القرية وحكت القصة المهيبة والمقنعة عن كل الظواهر التى رأتها، حسب الناس أن يقال لهم: إن هذه الظواهر موجودة، لبدأوا جميعاً فى رؤيتها أيضاً، عندئذ، جنت وذهلت "ما- تسلانى" لفقدائها ابنتها، صعدت التل ببطء وعيونها مملأها الحزن راقبت القصة تبحث من جديد أمامها، عادت للبيت وماتت، منذ ذلك الحين، اقترن هذا التل بقوى الشر والشؤم التى دمرت الحياة.

لم يعد المكان بعداً آمناً لإقامة القبيلة، جمعوا ممتلكاتهم على ظهور حيواناتهم، دمروا القرية، وهاجروا إلى منطقة أكثر أمناً.

هكذا ظلت المنطقة مهجورة إلى أن جاء عام ١٨٧٥، فعمرتها قبيلة "بماليت" - ورغم أنهم غرباء عن المنطقة، إلا أنهم رأوا الظواهر نفسها، سمعوا الأنات العالية لمن وقع فى كرب، ورأوا روحى العاشقين الصامتين محلقتين بالمكان، ظلت الأسطورة حية، تتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل، واليوم يقف التل فى قرية "أوتسا"، جنوب بتسوانا، شاهداً على أسطورة الحب الخالدة، وأصبح يطلق على تل ليتسوى - "لبراتانى" ... تل العشاق.

تأليف : "روز موس"

نعس "ستيفن كاتيل" فى المقعد الخلفى للسيارة ، من حين لآخر كان يفتح عينيه ، فيجد نفسه يواجه رأسى الزوجين الأبيضين بشعرهما الأسود اللذين يصطحبانه إلى منزلهما ، بالأمس كان فى كلية أخرى يلقي محاضرة عن الموسيقى الإفريقية ، وقد استضافه زوجان أبيضان طيبان آخران ، واضطر للحديث معهما عن جنوب إفريقيا أيضاً، أغمض عينيه ، ظلت فكرة تنبض فى لاوعيه حدودها غير واضحة مثل حدود قطعة فى كيس ، مثل جسده الضئيل عندما انسل أسفل سرير أمه وكان يظن أنه لا يمكن لأحد أن يراه بسبب العتمة تحت أغطيته المنسدلة، لعب أخوه معه فى الظلام عديم الشكل "لعبة المس واجر" ، ولعبة الاستخفاء بلا أية قواعد، إلى أن بدء لعبة المصارعة ، وراحا يتلويان بسرعة كبيرة متدحرجين بعيداً عن السرير وقد تخطيا حدود المزاح ، عندئذ راحت أمهما تعنفهما ، بينما كانت تطعم طفلاً آخر طبق "مهلبية" الذرة بيد واحدة، وباليد الأخرى تعمل الشاى وتقلب باقى "المهلبية" على الموقد، خرج ستيفن وأخوه للعب إلى أن ناديهما الأم للإفطار، تجاهلا أوامرها بأخذ الصابون والاغتسال تحت "طرمبة" المياه فى الفناء ، فقد كان الاغتسال أمراً شاقاً للغاية فى ذلك الشتاء البارد ، ستظهر الأم بعد إطعام الطفل ، ستضربهما وتعنفهما مرة أخرى ، ثم تقف تراقبهما يرغبان الصابون بالتبادل وتشاهد تلويهما عند "الطرمبة" وعندما يتم غسل آثار استكشافهما القصير- حيث كانا يحركان

رماد الفرن بحثا عن الفحم ، وقد تلطخا بالسناج ، كأنهما كانا ينقبان فى النفاية بالشارع - ستضمهما إلى الحُضن الدافئ للحجرة ، كان تذكُّره لرائحة نيران الصباح الباكر ، والسديم الرمادى الضارب للزرقة فى البلدة، هذه الذكرى كانت مثل وخزٍ لاسع، أو غازٍ سام فى ذاكرة "ستيفن" ، فتح عينيه مرة أخرى ليمالهما بالصورة "السلويت" للاثنين الجالسين أمامه ، الزوجين الأبيضين وهما يقودان السيارة إلى البيت خلال الضباب الكثيف ، حتى بدت مصابيح السيارة الأمامية باهتة ومصمتة وقرية من السيارة .

كان الطريق يتلوى ، ويعلو وينخفض ، لقد انتهوا من الطريق الرئيسى بسلاسة و انسيابية من "فرچينا" حتى "مين" ، وذلك جعل "ستيفن" يشعر كأن كل جولة محاضرته ما هى إلا هذيان، وأن المسافة ليست أكثر من حلم ، والمشاهد التى تكرر النماذج الاستحواذية ذاتها، تلك التى توالى وراء بعضها البعض بحدة وإن اختلفت خلفياتها فحسب، كانت مثل مسرح فقير، فقد كانت كل الطرق متشابهة ، الاختلاف الوحيد كان فى ترتيب اللافتات السطحية ، والمعابر الفوقية ، وركام الحشائش المُسيجة للأسوار ، والأشجار التى سلمت بالتدرج وعلى مضض مكانها لتكتل المباني الرمادية ، حيث كانت الضواحي منذ زمن بعيد قد حاصرت الرداء الأخضر الذى يشبه الريف ، أخيراً ، بعيداً عن الطريق ، ظهر مدق ترابى ولف الطريق مجموعة من الحقول والجداول الممتدة ، كأنها سحبت إلى أقصى حد وانفردت على الأرض المستوية، وحزمت بكثافة الوديان فى انحدارها وصعودها ، كان الضباب كثيفاً جداً حتى تعذر عليه رؤية النباتات، من أمواج الطريق الطويلة المتراقصة ، خُيل إليه أنه عاد إلى الامتداد الواقع بين نهر "موى" ومدينة "بيتر مارتيز" ، حيث كان الضباب

المتناثر يغذى الأرض، والماشية تكثف البياض الوهمى وتحوله إلى مادة صالحة للأكل لأولئك الأغنياء القادرين على شرائها .

لكن من حين لآخر ، كان يشد عينيه الطريق واقتحام أوراق الشجر ، والحواجز غير المستوية للأسيجة الخشبية ، أو الكريات الحجرية الصغيرة غير المنتظمة للحوائط ، وتلك الأشكال والألوان الأجنبية ، كل تلك الأشكال والألوان الأجنبية ذكرت "ستيفن" بأن هذا ليس طريق "ناتال" ، وأنه بمكان ما فى "نيوانجلند" ، ذاهباً لقضاء الليلة فى بيت غريب بين غرباء ، هذه المناظر كأنها عناصر غريبة تُكفّت نسيج كل ما كان قد رآه وعاشه ، ركبت إلى مقومات نفسه كانت تحفز مقاومته ، كل شىء يذكره بأنه ليس فى وطنه كان يزيد من تحفزه فيما يشبه حالة الرفض ، فجسمه ، وقدرته على الفهم ، والتركيب الكيميائى لكينونته ، كل ذلك وسّم هذه العناصر الأجنبية ، ومنع تسربها الخبيث إلى نفسه ، كى يسهل عليه التخلص منها كجلد أو عضو غريب ، كى يسهل عليه طرد كل ما هو أجنبى مسموم ، أغلق عينيه ، حاول تهدئة نفسه ، لن يترك نفسه للاعتقاد بأنه إذا لم يتعلم كيف يتمثل أمريكاً ، فلن يكون ثمة شىء آخر يفهمه ، ولا مكان يستطيع أن يستعيد فيه هذه الذات الحائرة ، التى يشعر أنها ذاته ، فليس هناك مكان يمكنه أن يتذكره ويحس بأنه ملكه إلا وكان يتضاءل ، فكر فى أخيه ولعبة كرة القدم فى الحقل المترب حيث اعتادا أن يلعبا عندما كانت أمهما تذهب إلى مدينة البيض ، حاملة الطفل وصرة الملاءات المطبقة المغسولة ، حيث كانت تعمل إلى أن يهبط الليل ، كيف برز هذا الموضوع أمامه الآن؟

كان مضيفه مؤلفاً موسيقياً أيضاً ، وقد استمع "ستيفن" إلى رباعية من تأليفه ، عُزفت فى إحدى الكليات حيث كان "ستيفن" يساهم فى ندوة عن

الموسيقى الحديثة، كانت هناك محاضرات وورش عمل أثناء النهار، وفي المساء الحفل الموسيقي، وكانت الرباعية الوترية لـ "كين رادلي" يستشهد بها كنموذج من بين بعض أفضل نماذج التأليف الموسيقي في الولايات المتحدة، وقد عزفت لتعطي المستمع درساً لما سيجده من صعوبة في تناول مثل هذه المؤلفات، أما من وجهة نظر ستيشن، فهي رباعية غير ذكية، ضعيفة ومملة، لكنه أرجع عدم استجابته إلى جهله، كانت رباعية "كين" مثل يافطة من اليفط الإرشادية الكبيرة، أو لوحة إعلانات على الطريق، تقول له: "نحن لا نتحدث إليك، نحن لم نكتب بلغتك، وليس لديك شيء تقوله لنا".

أبطأت العربية، وانعطفت نحو درب خاص، ها هم أولاء قد وصلوا، أعلنت "جانيت" مبتسمة: "ها نحن أولاء قد وصلنا"، كان منزلها، ابتسم "ستيشن"، كانا غاية في اللطف معه، فتح "كين" الباب، فتوهج نور الممر الأصفر الشاحب على الدرجات الرطبة، في الداخل كان الضوء أشد.

اقترح كين: "لِمَ لا نغتسل ونحتسى كأساً أثناء إعداد "جانيت" للعشاء؟ سوف أريك حجرتك". . . وحمل حقيبة "ستيشن" التي كان قد أحضرها بالفعل من السيارة، تساءل "ستيشن" في نفسه: هل من الصواب ترك "كين" يحمل حقيبة سفره، أم أنه يشعر بعدم الراحة لأن "كين" رجل أبيض؟ ثم قال: "سأحملها"، وأمسك بمقبض الحقيبة، تركه "كين" يحملها، ورفع حقيبة أخرى، ثم قاده إلى سلم مكسو بالسجاد، وأشار إلى الحمام، ثم أطل برأسه من مدخل حجرة عند نهاية الممر: "هذه حجرتك، أراك بالطابق الأسفل". . . وبابتسامة سريعة، أوحى بثقته في أن "ستيشن" يمكنه تدبير أمره، إنه بالفعل يستطيع تدبير أمره، فقد قام بذلك من قبل، أمسك بأصغر المنشفتين، اللتين كانتا موضوعتين على طرف السرير بعناية كبيرة،

ويقطع الصابون التي مازالت في غلافها، ومضى إلى الحمام، في الحمام حوض عتيق الطراز من النوع الذي يوجد في المنازل القديمة، ووضعت فروة خروف ممشطة على الأرضية، ومن فوق الحوض رف عليه منفضة السجائر، وقصتان بوليسيتان، و "فازة" صغيرة مدهونة بألوان زاهية بها ورود الزنبق، كل ذلك الترتيب أوحى بأن "كين" و "چانيت" لا يتوقعان أى سلوك فوضوى في هذا المكان.

عندما عاد إلى الغرفة التي أعطوه إياها، لاحظ "ستيثن" أشياء تخص حياة شخص آخر، طفولة لا يمكن تخيلها، حياة مختلفة عن الحياة التي كانت تحيط بطفولته، خلف السرير علقت صورة مرسومة لشاطئ، كان البحر في الصورة أزرق هادئاً بلا تموجات، وعلى صفحته خطوط خارجية سوداء ليخت مبحر، وعلى اليخت سمكة ضخمة بريئة، تبدو من صورتها الجانبية ساكنة وبلا حراك، وبين السمكة والرمل الأصفر والأرجواني علاقة رمزية، على حين أوحى الخربشات الخضراء بوجود الحشائش، في خزانة كتب قصيرة تحت النافذة، وضعت كتب أطفال عن القواقع والطيور، وقصص المغامرات، وقاموس وبستر المصور، وميكروسكوب تحت غطاء بلاستيكي، كل ذلك أشار إلى طور آخر من حياة طفل أمريكي، كان هذا الطور الحديث ظاهراً قرب التسريحة، حيث يوجد ملصق لـ "همفري بوجارت" متجاهلاً علم الجامعة المثلث وصورة الشخص الغريب التي ظهرت في المرأة.

جلس "ستيثن" على طرف السرير، تحسس ركبتيه براحتي يديه، إن كل حياته، التي لا يستطيع التنكر لها، طفولته خاصة، كانت تدور في إطار قطعة الأرض الترايبية، ومدرسة الإرسالية الترايبية، وحول شطارته وحذقه

كى يكون "مسلوعاً" مثل "توتسى" الذى كان يرتدى بنطلوناً ضيقاً ويحمل المطاوى، وقد سُخِّرَ منه كبعوضة عندما راح يعزف على الصفارة الرخيصة عند نواصى الشوارع، يسأل بنساً أو تيكيه أو نصف شلن، نزل للطابق السفلى من أجل الشراب.

كانت "چانيت" منشغلة فى المطبخ الذى يفصله عن حجرة الطعام والمعيشة نضد خشبى طويل، لاحظ أنها تلبس سلسلة بتلك الحبات الرمادية التى تعتبرها النساء البيضاوات فى جنوب إفريقيا غير جميلة، بينما كانت هذه السلاسل هنا، هى المفضلة لدى زوجات أساتذة الجامعة مثل "چانيت"، ولدى الطالبات من البيوت الراقية.

شئ طيب وجميل أن تجلس فى نفس الحجرة التى تعد المرأة فيها الطعام، عرض عليها المساعدة: "هل لديك بعض الخضراوات تحتاج للتقشير؟"، فى أمريكا لا مشكلة فى أن تساعد المرأة.

ضحكت: "إن كل شئ قد أصبح جاهزاً ومقطعاً لشرائح ومجمداً. أمريكياً صرفاً،" حلت مئزرها وعلقتة على المشجب... "هيا، تعال واحتسى كأساً".

كم كان عرضها تقديم كأسٍ له تصرفاً طبيعياً، كم كان عادياً أن توجد وحدها مع رجل أسود فى جنوب إفريقيا، عندما تعرض عليه النساء البيضاوات كأساً، فإن عليه أن يتوخى الحذر، حتى فى الحفلات المختلطة، كان يحس أن صمام أمنه يقظ مثل حد السيف، كان من عادته أن يشرب كأساً من "ليكور البراندى" بعد عشاء اللحم بالنيىذ مع "سنثيا" أثناء حديث هادئ وظلمة، استيقظ يوماً وقلبه يخفق بشدة على قرع البوليس الباب بعنف، ووقف أخوه باكياً شاحباً، فقد اعتقل البوليس

"ديفيد ميسنج" مع امرأة بيضاء، واكتشفوا أنه موسيقا ، فخرقوا طبلتي أذنيه . . على سبيل المزاح ، بعد ذلك الحادث لم يعد يزور "ستيا " وحده قط، وعلى التليفون كانت تقول: " بحق الله ، لا تشرح ، ليس هناك ما يقال، إذا أردت ألا تأت، فلا تأت، أنت لست مدينًا لى بشيء . إننى لست امرأتك البيضاء . " لم تدعه قط يخبرها بما وقع لـ "ديفيد ميسنج" .

فى نيويورك، زار المجموعات المختلطة التى أخبره عنها "أندرو موهان" وهم الجنوب أفارقة الذين رحلوا بعد "كينج كونج" ، وبعد "شاربيل" ، وبعد "مانديلا" ، وبعد "ساباكو" ، وبعد موجات الاعتقال تحت مظلة قوانين الشغب، وبعد "فورستر" ، حصلوا على منح دراسية، وعلى تصاريح مغادرة، وجوازات سفر، وأموال العائلة، وتقابلوا جميعا هنا، فى الأحزاب المختلطة، فقد يمكنهم استعادة المخاطرة والإثارة القديمة، كرروا مظاهر التمرد، التى هى هنا لا تعنى أى تمرد، وعرفوا مرة أخرى أنهم وحدهم شجعان وأحرار، كان فى هذه الأحزاب مجموعة من الأمريكان البيض : صحفيين شباب ، مدرسين من جامعة كولومبيا (تبع المدرسة الحرة)، رجال كنيسة فى صحبة معارف من إرسالياتهم - تجمع متنوع من البشر، ذاك الذى يشبه الجنوب أفارقة ذاتهم، فمنذ أجيال اتضح أن المشترك بينهم قليل، فيما عدا ما يشير إلى المنبت الجغرافى، فى الساعة الثانية ظهرًا، كانت الأحزاب تنقسم إلى حزبين ثوئين متشابهين تمامًا، واحد أسود، وآخر أبيض، لو كانت هذه التركيبة فى جنوب إفريقيا لاستمرت آلة الفرز طوال الليل، أما هنا فهذه الأحزاب المختلطة تفتقد لتدخل البوليس .

مرة أو مرتين وصل انفصاليون من السود بدلاً من البيض ، كانوا يلقون على ستيفن تعليقات مثل : " أرى أنك من إفريقيا ، وجهك غاية في الإباء " ، لم يسمعوا قط موسيقاه ، إن حياة الأحزاب المختلطة رحية ، في أول الأمر ، سأله العجوز الجنوب إفريقي عن الأخبار ، والقييل والقال : " هل تعرف ديانا زند برج ؟ ... ما الذى تفعله الآن ؟

ألم تتزوج من رجل إنجليزى؟ أظن أنها تزوجت من رجل خريج "أوكتفورد" ، رجل ما يسد حاجاتها ، لعلها على الساحل الغربى الآن ، أم بقيت فى جنوب إفريقيا ؟ " .

قلة من الناس كانوا يعرفون "ستيا بارتون" ، وسألوا إن كان يعرفها " أجل ، أعتقد أنها مازالت فى جوهانسبرج "

" هاى ، إننى مازلت أفقد البلاد ، حسنا ، كانت "ستيا" حكاية كبيرة ، على الرغم من أنها ماتت موتاً روحياً بطيئاً ، حقاً لقد كانت فتاة رائعة ! ياليتها كانت معنا هنا ... "

سأل ستيفن : " لِمَ ؟ لماذا يتمنى أى أحد ذلك ؟ "

كان يتخيل تلك المجموعات فى نيويورك ، المجموعات التى أسسها البيض من الروس ، والصرب ، والفوضويين الأسبان ، والفلسطينيين العرب ، والغينيين ، والتشيك ، كلهم منفيون ، الجميع يموتون كل يوم ، وحين ينفد أوكسجينه هو أيضاً ، فإنه سوف يستطيط الإشاعات المتفرقة الضئيلة عن جنوب إفريقيا ، وعن الناس من جيله ، ويصبح منفيًا مرتاحًا ، خلية ما فى نسيج المنفيين والمواطنين العالميين ، الذى قد أصبح من الآن مقبولا عضوياً فيها ، ومتممًا لعمليات " الأيض " داخل الجسم الأمريكى .

دخل " كين " من حجرة أخرى، قال موجهًا حديثه إلى جانيت :
" وصلت برقية من " كريستوفر "، يقول : إنه سيتوقف بالبيت فى طريقه
إلى نيويورك " .

" حسنًا ، متى سيكون ذلك ؟ "

" فى أية لحظة " .

راحت تفسر الموقف "لستيثن" : " ابنتا " كريستوفر " . لقد كان يصطاف
فى خليج "هدسون" ، يقول : إن هناك بعض الطحالب المثيرة للاهتمام ،
وابتسمت بحنان . . . وحب .

ألحت على "ستيثن" ضالة تلك الحيات التى كان يراقبها فى وسط
النهر ، لم يترك شيئًا لفضائه ألبته ، ضياء الشمس الفسيح غير المترف الذى
تعلم من خلاله أن يطالع العالم ، أما هنا فكان الوجود مركبًا من دراسات
منفصلة مقسمة إلى ميادين متخصصة ، كل إنسان كان يعرف موضوع
تخصصه ، ويلاحظ بدقة علاقاته المتداخلة وبنياته ، وحساب تعقيداته التى
سبق وعرفها الآخرون ، فى جنوب إفريقيا ألف موسيقى بدت الآن مثل
طفل ، ألف مع ذلك ما يجعل الصوت البسيط يتدفق من قلب إنسان آخر ،
قلب لم تُحجب بصيرته النفاذة المتحررة التى تستوعب المعرفة المتعذر
توصيلها ، هناك كانت رسائله واضحة محددة ، كان مؤلفًا موسيقيًا
متمرسًا ، وهو الحجة فى موسيقى الجنوب الإفريقى ، لقد أصبح هنا تحفة
مخصصة للفضوليين ، المؤلف الموسيقى - المتحدث بلغة سرية ، وبناءً على
هذا ، فهو هنا مؤلف موسيقى ليس لأى أذن سوى أذنه ، كلما طالت إقامته هنا ،
صارت موسيقاه أكثر سريةً ، فهى لا بد من أن تلقح ذاتها لتبتعد عن تلك
الثروة الدخيلة التى من المفترض أن تعطىها قيمة ، ولم يكن بمقدور موسيقاه

أن تتزوج مرة أخرى مع أصوات حياته اليومية، التي هي الآن أمريكية تلك الحياة التي تستولد لغة نابية على صوته، وأسلوباً جديداً دخلياً على فنه، وبعد ذلك سوف يفقد مستمعيه الغائبين في جنوب إفريقيا الذين، حين كانوا يستمعون إلى موسيقاه، كانوا يظنون أن الأرض تغنى، وأن حشرات الحصاد الشفافة تردد جميعاً موسيقاه، ولم يعرفوا أن أرضهم الفريدة، ما هي إلا هضبة غريبة، وأن ليلهم ناءٍ عن ليل الآخرين.

كل واحد من هؤلاء الأمريكيين بمعرفته الدقيقة، شكل خلية في مجتمعه المعقد، هذا المجتمع تتحرك حياته بشكل مختلف عن حياة "ستيفن"، هدفه شيء ما لا يعرفه، ولا يمكنه تبنيه دون تدمير نفسه، إذا لم يتبن أهداف هذا المجتمع، فإن أمريكا ستتخلص منه، مثل دخيل، مثل جسم غريب، مثل خلية أو عضو عاش على أسس ومبادئ بعض الأجسام الأخرى التي ولدت وعاشت تحت الصليب الجنوبي.

انبعث شيء من شعور الوحدة الذي انتاب "ستيفن" ووصل جانيت، حشها ذلك على التلطف والكماسة التي تتطلب الانصراف عن موضوع المحادثة إلى اهتمامات ضيفها، أرجأت موضوع "كريستوفر" وخطابه إلى وقت آخر، إلى ذلك الحوار الزوجي الذي يحمل سمت الخصوصية بين الرجل وعائلته، سوف تبحث مسألة "كريستوفر" في وقت آخر وبلغة أخرى، فشعر "ستيفن" أنه منع من التسرب لحياتهم كأن هواء الحياة منع عنه في أثناء احتسائهم "الجين" و "التونيك" بقطع الليمون وهو مشروب لم يعرفه في جنوب إفريقيا، ولا حتى في الأحزاب المختلطة في "هوتين" و "نورث كليف"، وبالتأكيد ليس في الخمارات الرخيصة على الإطلاق، وصلت أخيراً إلى السؤال الذي يسأله كل هؤلاء الأمريكان اللطفاء، المتعاطفين.

" ألن تعود ؟ "

" ليس بمقدورى ، فقد خرجت بطريقة غير قانونية ، دون جواز سفر ، إننى لاجئ "

" أتعنى أنهم لن يمنحوك جواز سفر ، بالله عليك ، ما الذى يمنع ذلك ؟ "

" لأن لهم بعض التجارب السيئة مع الناس الذين هربوا وقاموا بالدعاية ضد الحكومة ، فنحن الأفارقة نتحدث كثيراً هنا "

لم يشرب " كين " كأسه : " وهل تكلمت كثيراً ؟ "

" إننى فى جولة محاضرات " ، وضحكوا ،

تابع " كين " ، لكن موضوعك ليس تحريضيا ،

" حقًا ، لكننى أسبب بعض التخريب فى المحادثات العادية مثل هذه ، ومن ثم ، فأكثرية الأفريكان ، خاصة هؤلاء الذين يتعاملون مع حالاتنا ، جهلة ، إنهم يخشون أناسا مثلى ، لأننى كافر غير عادى "

أرادت " جانيت " أن تعرف . . . " كيف هربت ؟ "

" أوه ، ثمة طرق سرية ، ومراكز للاجئين فى دار السلام . "

" هل ستعود إلى هناك ؟ "

" لا أعرف ما سيحدث " ، بعد أن تكلم ، سمع العجز الواضح الذى كشف عنه حديثه ، وسمعه " كين " أيضا .

" لماذا تريد العودة لجنوب إفريقيا ؟ "

" لا أريد " ، لكن " كين " تجاهل هذه الإجابة ، فكان صمته شديد الوطأة على " ستيفن " ، مثل إحساس باليقظة يقتحم النوم ويكسر إهابه ، واصل " ستيفن " كلامه مثل النائم حين يتكلم قبل أن يتخلص من نعاسه ، فيتحدث بصدق مثلما يتحدث في الحلم .

" إننى غير قادر على العمل هنا ، أقول لنفسى سأعمل غدا ، أو فى الأسبوع القادم ، لكننى لا أستطيع ، أولف الموسيقى ، لكنها كلها مزيفة ، لا أحتمل سماعها ، أعتقد أننى غير قادر على كتابة الموسيقى خارج جنوب إفريقيا " .

" إذن يجب أن تعود " لقد ذكر " كين " الحقيقة التى يخشاها ستيفن ، وقد حملها بكل الحقيقة السمعية للهجة الأمريكية فى ثبات وعزم ودون أى التواء ، بطريقة لم تكن تخطر على بال " ستيفن " قط ، وظل هذا الصوت الذى يشبه الأرضية الغليظة المتكررة للحن البساكليا^(٥١) يتردد فى نفسه ومشاعره لأسابيع دون انقطاع ،

كرر " ستيفن " : " لا أستطيع " ،

لم يقل " كين وچانيت " شيئا ،

" إذا عدت سوف أسجن لمدة عام - وهو ليس سجنا لطيفا مريحا حيث يمكن للناس أن يكتبوا ذكرياتهم ، بل سوف أكون فى سجن جنوب إفريقيا ، حيث يضرب الناس ويعذبون حتى يفقدوا عقولهم ، لقد كنت بالسجن من قبل ، المذنب العابر ، يركل فى كل مكان من جسده ، وأحيانا

(٥١) الباساكليا ، أو البساجليا ، لحن إيطالى أو أسباني راقص ، واسم رقصة تؤدى على هذا اللحن أيضا .

يُرسل للعمل بمزارع البطاطس ، حيث يرتدى "شوال" البطاطس صيفًا وشتاءً ، وفي أحيان أخرى يُضرب لأنه لم يعمل جديًا بما يكفي ، لقد خرقوا طبليتي أذن صديقي لأنه موسيقى ، وبعض الناس ضُربوا حتى الموت ، في السجن يضعون كل عشرة رجال في زنزانة ، ويعطونهم دلوًا لقضاء الحاجة ، يمتلئ قبل الصباح بوقت طويل ، لا توجد أسرة ، ويحاول السجين الذي ينام على الأرض ، أن ينام بعيدًا عن الدلو قدر الإمكان ، وأنا لست سجينًا عابرًا ، ولا أتوقع مثل هذه المعاملة الحسنة ، لا أتوقع أن أكتب الكثير من الموسيقى في السجن .

"إذن عليك أن تتعلم كيف تكتب هنا"

نفث "ستيثن" من غيظه . . "كيف ؟ كيف يمكن أن أتعلم شيئًا كهذا ؟ " ، هؤلاء الأمريكيون يعتقدون أنهم قادرون على حل كل شيء ، ليس لديهم أدنى تقدير لثقل الصخور ، للأشياء شديدة العمق التي لا يستطيع الإنسان تحملها .

" لا أعرف أظن أن الكلام أسهل من الفعل ، على أية حال أعط نفسك فسحة من الوقت لتسمع ما تعزفه هذه البلاد . فربما تكون محتاجا للوقت فقط " .

أنت عليه "چانيت" : " أجل ، برغم كل شيء ، لم يمر عليك هنا وقت طويل " .

تعاطفهما غير محتمل زاد من غيظ "ستيثن" ، أريد أن أكتب بلغتي الخاصة ، وذلك غير مسموح به في جنوب إفريقيا ، فالإفريقي عليه إما أن يتحدث الإنجليزية أو الإفريكانية ، والمؤلف الموسيقى عليه أن يتعلم قالب

"السوناتا" وآلات "الأوركسترا" الأوربي، فهم من سنؤلف لهم، لدينا في "ليسوتو" - قوس ووتر، وقرعة تعمل كصندوق مصوت، يُعزف عليها نغمتان فقط. والعازف عليها يسمعها بصعوبة، إنها تشبه الهمس، تشبه العاشق، في ذلك العالم بالغ الهدوء، يوجد مكان لمثل هذه الآلة، فليس هناك سوى الجبال، وطريق واحد سيئ، هذا الطريق تتجنبه السيارات، ومن النادر وجود أجهزة الراديو لدى الناس، كل ما يتجونه هو صوت هذه القرعة، صوت مثل الأرض، مثل ضوء الشمس، مثل أن تكون فقيراً، وأن تكون أسود، لا يمكنك سماع هذه الآلة في "جوهانسبرج"، فسماعها سواء لدى الأفارقة الأغنياء أو الفقراء، يُعدّ ذنباً كبيراً، هذا القوس، وهذه القرعة يقولان ما أريد - لكن أين يمكنني العزف على شيء مثل هذا في أمريكا؟ لا أحد سيسمعها، كل شيء هنا صاخب - السيارات، أجهزة الراديو، عربات الإطفاء، والطائرات، لا يمكنني سماع أي شيء إنساني. . . أي شيء حي، وحتى إن سمع أحد قوسي وقرعتي، ماذا سيفهمون منها؟ نغمتان تترددان مرارا وتكرارا في رتابة شديدة، تشبه إلى حد ما . . . المخدر، "ابتسم عند ذكر هذه الكلمة المذمومة في الإطراء، كأنه يتنصر على الحساسية الأخلاقية لاستعمالها، "إنني أنفث عن غضبي، لكنني لست غاضباً على الأمريكيين لكونهم على ما هم عليه.، هذا ما تربوا عليه. كأن هذه التربية داء عضال، تماماً مثلما تكون إفريقيًا، لكن إفريقيا عند الطرف الآخر من العالم، ومن الصعب على أن أكتسب هوية جديدة مثل طفل، أنا لا أبدأ من فراغ، لأنني رجل تكونت هويته بالفعل".

"كين" و"چانيت" أُخرجتا من هذا الجيشان العاطفي، فقد اعتادا عدم التورط مع الغرباء، خاصة الغرباء الذين تزيد مشاكلهم الغير قابلة للحل الحزن، وليس للشفقة أية قدرة على المداواة - تدريب متجذر في

عادات الأسلاف الذين عرفوا أن الضعيف يجب أن يحمى أحياناً بالتجاهل المتعمد ، وحيث لا يجب الإشارة إلى الاغتصاب ، والظلام ، أو المال أمام النساء - الرواقية التقليدية التي لا تذرف الدمع ، والاحتفاظ بالمتاعب للنفس ، وصر المشاكل حول البطون ، لكى يبقى الرجال صامدين . . كل ذلك جعلهما ينصرفان عن متابعة سؤال ستيفن .

تحدث «كين» أولاً: "أتمنى أن تحصل على المميزات الخاصة بجولة الحفلات الموسيقية فى هذه الأنحاء، سوف يكون هناك بعض الحفلات الموسيقية المشوقة فى نيويورك هذا الخريف، وأشياء أخرى أيضاً، لقد حصلت على البرامج من كلية " هتر " ، سوف أبحث عنها بعد العشاء، ستكون فى نيويورك، أليس كذلك؟ "

" بلى " . لم يرغب "ستيفن" فى إخباره بأنه حصل على نسخته من برنامج الحفلات ، ودعواته،

" وقد حصلت على برامج مركز "لنكولن" ، وتذاكر مجانية لحفلات كثيرة . . . "

تخيل "ستيفن" كيف تم حل مشاكل "كريستوفر" وهو صبي باصطناع الحيلة المناسبة، إلى أن كبر وأصبح شاباً، ليس رجلاً بمعنى الكلمة، فهو لم يُقحم فى خبرات إنسانية عنيفة ، لذلك أصبح خبيراً فى الطحالب.

عاد "كريستوفر" إلى البيت فى تلك الليلة، سمع "ستيفن" بوصوله، من ضجة الترحيب والاستفسار عن الضيف الذى كان ينام فى غرفته، قال "كين" بلكنته الأمريكية دون أن يهتز صوته: " إذن لابد من أن ترجع " ، وغاصت المقاطع الترحيبية المتقطعة فى جمل طويلة غير واضحة، بينما كان

"ستيثن" يحاول أن يصهر في إذنه، إيقاع الحديث العائلي الذي أيقظه ،
بالموضوع الذي كان يصارع ليشق طريقه إليه أثناء القيادة في الضباب،
أنشودة اللعب مع أخيه في الصباح، لكنه لم يقدر على تحقيق هذا
الاندماج، واستغرق في النوم مرة أخرى .

تقابل مع "كريستوفر" على مائدة الإفطار ، قدمه "كين" إلى الشاب
شديد النحافة : " إن "ستيف" سيقدم بحثًا عن الموسيقى الإفريقية بـ "قاعة
فينمور" بعد الظهر، وسيذهب إلى نيويورك غدًا " .

قال "ستيثن" بتردد: " أظن أنني أحتل حجرتك " ،

رد "كريستوفر" مؤكداً : " إنني أتوقف هنا فحسب ، أنا أيضا سوف
أذهب إلى "نيويورك" .

اقترح «كين» : " يستطيع "كريس" توصيلك، إلا إذا كنت مسافرا
بالبطائرة . . . "

أثناء تناول الطعام بدت على "كريستوفر" ملامح الجدية، فقد كان يحكى
حكايات صيفه وهو يمد يده إلى الزبد أو التوست على المائدة المعروفة له
جيداً، تحدث عما أنجزته بعثته : " لقد جمعنا مئات من العينات التي قد
تكون جديدة، أمسى . . . !! ، إلى أى حد ترغبين فى أن يسمى الطحلب
المكتشف على اسمك ؟ "

ردت الأم مازحة: " يجب أن أراه أولاً "

لقد أحضرت بعض الشرائح عنه، هل أنت حرة الليلة ؟ هل يمكنكِ
إلقاء نظرة عليه؟ "

" لقد انتظرتك طوال الصيف كى تساعد أباك فى تفريغ القبو " . . .
أعادته جانباً إلى البرنامج الخاص باليوم .

وافق " كريستوفر " حتى قبل أن يتمكن " كين " من الاعتراض : " حسناً ،
سيكون ذلك أمراً عظيماً . "

تساءل " ستيفن " هل سيرحبان بمساعدته لهما ، أم سيعتبران ذلك
تطفلاً ، لا ، لا بد من أن يعمل فى موضوعه الأساسى ، حتى وإن لم
يصل لشيء فيه .

حين جلس " ستيفن " إلى المكتب الذى كان المكان المعتاد " لكريستوفر "
وهو صبى ، شاهدهما يسيран فى الأرض المحيطة بالمنزل ، أحياناً كانا يتوقفان
ليرىا إذا كان ثمة شيء تغير أم لا ، كانا رجلين بين الأشجار ، يظهر
رأسهما ويختفيان بين أوراق النبات اللامعة ، تلك النباتات التى عاشت فى
هذا العالم المسكون بالسناجب وطيور أبو زريق التى قرأ عنها فى بعض
كتب القصص الشمالية ، كانا حقاً بشراً ، ولم يكونا بدائل بلاستيكية ، كانا
نتاج ذلك المجتمع الذى يحرم العقاب ، ويغنى مستهلكين أذكىاء ، لديهم
مقدرة على الإدراك والفهم ، هذان الرجلان كانا أباً وابناً ، من طراز بدئى
وأسطورى بالنسبة " لستيفن " ، مثل الغابات التى أخفت مخلوقات كثيرة ، طراز
غريب مثل الثلوج ، والتوت الأزرق ، وأشجار القيقب ، هذا التدفق العائلى
لم يكن معروفاً له ، لقد كان والده واحداً من هؤلاء الرجال الذين عاشوا
مع أمه لبضع سنوات وبعد ذلك اختفى فى السجون ، ومتاهات الحوارى
والأزقة حول " چوهانسبرج " ، أو فى عشش السود ، سلسلة من الرجال
لعبوا معه ومع إخوته دور الصداقة عديم الجدوى . . . حيناً حياة لم يعرفها
بعضهم مطلقاً ، وعينوا أهميته كمرشح للشعائر ، فحكوا له قصص البطولة

الخارقة عن إمبراس^(٥٢) الزوله الذين قادهم "شاكا" و "دينجان"، إلا أن هؤلاء الرجال غالباً ما كانوا سرّيعى الغضب، وكان الأطفال دائماً مداسين مُحترقين، وكانت سارة فى حاجة دائمة لنقود أكثر لتشتري لهم الملابس، وكان "ستيثن" دائماً يسرف فى استخدام الشموع فى الليل، عندما كان الرجل يرغب فى الظلمة . . وسارة تتسارع أنفاسها.

تعرف "ستيثن" وأخوه على العالم مباشرة وليس عن طريق توسط الآباء، لم تكن هناك عوالم سرّية، عالم للأطفال ملئ بالحيوانات التى تتكلم والجنّيات الطيبة، وآخر للكبار ملئ بالأموال والضرائب والسياسة، لا، بل كان عالماً واحداً، الرجال الكبار خائفون مثلهم مثل الأطفال، من رجال البوليس الذين لا يمكن مقاومتهم، ذلك البوليس الذى يخشونه مثلما يخشون السحر الأسود، فقد يقرعون الباب فى منتصف الليل ليسألوا عن التصاريح، أو يقلبون الأرض رأساً على عقب بحثاً عن الـ "سوكوكيان"^(٥٣)، لقد كان كل شىء عالماً واحداً، ذات فجر وردى قاس بلون ملايين الجنّيات، تسلق الجيران درجاتهم وساقوها إلى المدينة؛ فى طابور طويل نحو محطة الأتوبيس حيث كانوا يسرون فى الصقيع الذى التصق بقوة بكتل الحشائش الصغيرة والنبات؛ بينما بعض الذين كانوا نائمين مع المجامر فى حجرات مغلقة يتنفسون الهواء الدافئ لوقت طويل لم يستيقظوا فى الوقت المناسب للحياة، لا شىء أغفل سوى هذا العالم الآخر الذى لم يكن يتخيله . . هذا المنزل الواقع بين الأشجار البرية والحشائش الوافرة، هذا العالم الذى كان الأب والابن يعيدان زيارته،

(٥٢) إمبراس : نوع من الغزلان الإفريقية سريعة العدو .

(٥٣) السوكوكيان : مشروب وطنى مسكر رخيص .

والذى لم يتركاه من قبل قط ، وذلك النوع من الإنسانية الذى نما وكبر بينهما ، بينما ستيقن لا يستطيع أبداً العودة ثانية لعالم طفولته ، والآن مطلوب منه أن يعيش فى عالم لا يحسب أى حساب لما كان من طفولته .

فى تلك الليلة عرض عليهم " كريستوفر " شرائح بعثته فى خليج " هدرسون " ، على مدى البصر والسمع فى حياة إنسانية أخرى ، تجمعت القرى الصغيرة فى صداقة حميمة ، وقد اكتست الصخور الجرانيتية بنبات " الأشنة " كأنها وحمات ، وفى صيفهم القصير ، امتلأت الجبال بالأزهار الناعمة ، تشبه تلك الزهور فى " كاروو " " فايغيس " ، أطلت من شريحة أطياف كان " ستيقن " قادراً على فهمها - الفراغ ، والضوء ، والبقارة - فى الوقت الذى كان يتوقع رؤية الكثير الغريب الذى لا يستطيع تمثله . فى أرض مثل هذه يمكن للإنسان أن يعزف آلة ذات نغمتين ، لكنه كان يخشى أن يفكر فيما شاهده ، فهل عليه أن يذهب إلى خليج " هدرسون " ليجرب نوعاً آخر من النفى ؟

فى الطريق إلى " نيويورك " سأل " ستيقن " كريستوفر عن البعثة ، " ألم تشعر بالوحدة هناك ؟ "

" لا نحن سبعة نعمل على ظهر سفينة ، وقد تعرفنا على بعض القرويين معرفة وثيقة ، والغرباء موضع ترحيب هناك ، ثم إن هذه المنطقة ليست بلا وسائل اتصال ، لقد كنت أطلب صديقتى المقيمة فى " نيويورك " مرتين فى الأسبوع ، إنها لن تكون بنصف سوء بعثة العام القادم عندما نذهب إلى بحيرة " بيكال " ، هذا فى حال نجاحنا فى إنهاء ترتيباتها ، قد نذهب إلى " أنتاركيتكا " ^(٥٤) بدلاً منها ، كيف تبدو " كيب تاون " ؟ "

(٥٤) قارة غير مأهولة تقع حول القطب الجنوبي .

" لم أكن بها قط ، تحاول الحكومة أن تبقىنا نحن الأفارقة خارج
كيب تاون " .

" أوه ، كنت أعتقد أن الزوج هم الأغلبية "

" يوجد الكثير من مختلطى الدماء فى " كيب تاون " ، يطلقون عليهم
الملونين ، وهم يُعاملون بطريقة مختلفة تمامًا عنا ، فكل ظل من البياض
يستحق درجة خاصة من الامتياز "

" لا بد من أنك سعيد حقًا لخروجك منها "

" فعلا ، ألم يحدث وشعرت بالحنين للرجوع إلى البيت عند ذهابك
لتلك الأماكن الغريبة ؟ "

" أحسب أننى لم أكن بعيداً لفترة كافية قط حتى أشعر بذلك ، حقاً
لم يمثل هذا مشكلة لى ، فيمكننى العودة فى أى وقت ، بدا كما لو كانا قد
وصلا لطريق مسدود ، " هل شعرت أحيانا بالحنين للوطن ؟ "

" أحيانا "

" أظن الناس يعبرون عن الحنين للوطن من خلال أشياء شديدة
الغربة ، فأحد أفراد فريقنا البحثى جاء من الأناضول منذ فترة طويلة ، لقد
كان يشتاق إلى عيون الغنم فى بلاده ، فكان يبحث عن تلك العيون فى
السوبر ماركت ! " وضحك " كريستوفر " .

صمت " ستيفن "

" هل تمنع لو أدت الراديو ؟ "

" هيا ، فلتفعل "

كانا أحياناً يتركان موسيقى الباروك تصخب بديلاً عن الحديث،
وأحياناً يتكلمان فى أثنائها.

" لماذا جئت إلى الولايات المتحدة؟ هل هربت من جنوب إفريقيا؟ "
" هذا صحيح إلى حد ما، كان الناس دائماً يقولون لى: إننى يجب
أن أذهب للخارج لأتم دراستى، وقالوا: إن مؤلفاتى بحاجة للصقل ".
وابتسم من سخرية الأقدار.

" إلا أن عائلتك مازالت هناك؟ "

" أمى "

" أليس لك إخوة أو أخوات؟ "

" مات أغلبهم وهم أطفال، أخ واحد كبير معى لكنه مات عندما
كنت فى المدرسة العليا ".
" لابد من أن أملك تفتقدك ".
" لا أعرف، كتبت لها، ولم يصلنى رد، وقد طلبت من شخص
أعرفه البحث عنها، لكننى لم أسمع عنه شيئاً هو أيضاً "

" لم لا تتصل بالتليفون؟ "

" لا يسمح لنا بالحصول على تليفون، فى المراكز، يحصل الموظفون
البيض فقط عليها "

انتهت مقطوعة " فيفالدى " ، تبعها فقرة إعلانية ، ثم مقطوعة
تشيماروزا^(٥٥) .

(٥٥) فيفالدى ، وتشيماروزا ، مؤلفان موسيقيان .

إلى متى يجب العيش فى عالم "كريستوفر" ، حيث لا فراغ ، لا مسافة ، لا سكون ، ولا ظلام ؟ تذكر "ستيثن" أنه قرأ عن ليلة من الإظلام هبطت على "نيويورك" مثل كارثة ، إلى متى يجب أن يعيش بهذه الطريقة ، محروماً من أى إحساس بالضوء والأرض اللذين خلقهما الله كائنين مستقلين ؟ كيف سيعيش فى أمريكا ويفقد كل السكون ، والأماكن غير المطروقة ، والإنسانية المختلفة ؟ . . . أن يعيش فى عالم يهمس فيه وتر على قرعة بطريقة تكاد لا تسمع ، هل يعقل ذلك ؟ إن "كريستوفر" يصغره بخمس سنوات تقريباً ، لكن ستيثن يشعر بأنه عجوز ، طراز عتيق ، عجوز مثل الحرباء^(٥٦) التى جلبت أخبار موت الإنسان للعالم ، عجوز مثل المسوت ، لا يفهمه كريستوفر . إن كريستوفر يعيش فى العالم الجديد ، هل هناك أى موسيقى يمكن لـ "ستيثن" أن يؤلفها هنا ؟ ما الذى فى حياة كريستوفر يستطيع ستيثن فهمه ؟

" ماذا تعمل صديقتك ؟ "

" رد "كريستوفر" فى جمل كانت كلماتها واضحة فى ذاتها ، لكن البناء ، والمعنى ، هما اللذان هربا . "

عندما وصلا نيويورك ، فقد الطريق كل صلة له بشكل وهيئة الأرض ، كان الطريق يغطس ، ويميل ، وينحني ، ثم يعود ملتويًا على نفسه ، أو فوق طرق أخرى أو تحتها ، تكدست المباني لصق بعضها ببعض فيما يشبه هلوسة الاختناق ، ورهاب الأماكن المغلقة ، واللا فراغ ، تراجعت الإعلانات التجارية التى بين إذاعة "السيمفونيات" أمام نشرة أخبار طويلة

(٥٦) انظر حكاية أصل الموت المنشورة هنا ، والحرباء هى التى جلبت الموت للبشرية وذلك فى أساطير قبائل "الهوتنتوت" .

عن "فيتنام" ، "ونيو يورك" ، "وتركيا" ، "وإسرائيل" ، "وليندا ساى" ،
"وركفلر" ، وبشر لم يكن ستيشن قادراً على تحديد أدوارهم وأسمائهم ،
كالعادة لم يكن هناك شيء عن جنوب إفريقيا ، بدت من هنا كأنها بلد ليس
له وجود القلة من الأمريكيين الذين سمعوا بها ، شو هوها ، دمرها ،
رأوا فيها صورة لصراعاتهم ، هذا إذا اهتموا أصلاً ، فهي لم تكن بالنسبة
لهم دولة لها وجود مستقل ، بل كانت رمزاً لصراعاتهم ، اسم جنوب
إفريقيا الذى بقى على قيد الحياة امتص وتدفق فى شرايين نظام آخر ، وإذا
قدر له العيش فى أمريكا ، فلا بد له من أن يتعلم من كل هؤلاء الناس ،
يجب أن يتعلم كيف يصبح مهتماً بهم ، يجب أن يعود نفسه على نظام
الرموز والاختصارات هذا ، هذا الـ **COR, LSD, FBI, CIA, UCLA** ^(٥٧) ،
نظام من الاختصارات والشخصيات ليس لهما أية أهمية لديه ، لابد من أن
يتخلى عن ذاته ، لابد من أن يصبح الذات التى يمكنها العيش فى هذا
النتاج المصطنع الكبير الذى يعرض نصال الحشائش بالكاد ، تلك الحشائش
هى الشيء الوحيد الذى عرفه فى حياته .

شقا طريقهما عبر حى "هارلم" ، أعلنت المحلات عن أطعمة لم يكن
قد أكلها فى حياته قط ، ولعب أطفال ذات قواعد محددة وكلمات مرور
لم يعرفها فى حياته ، ها هو ذا هنا غريب فى عالم السود مثلما هو فى عالم
البيض ، حيث لم يفهم الناس إنجليزيتهم ، وحدقوا فى غرابته ، هذا
"هارلم" حى السود إلا أن لغته مبهمه ، مثل إسبانية "هارلم" ، ومثل
البياض ، ومثل الثقة الذكية لشاب مثل "كريستوفر" .

(٥٧) هذه الاختصارات تعنى من اليسار إلى اليمين على التوالى ، السجل المدنى ،
عقار الهلوسة ، المباحث الفيدرالية ، المخابرات المركزية الأمريكية ، جامعو كاليفورنيا -
لوس أنجلوس .

خلفا وراءهما "الستراى بارك" والمحلات الكبيرة ، ووصلا إلى فندق "ستيفن" ، عندما جاء "أندرو موهان" و "إيستر" لاستقباله بالمطار ، وعرضا عليه المساعدة فى إيجاد مسكن له ، حرصا ألا يصطحباه إلى "هارلم" ، وكان أندرو "يرتدى قميصا فضفاضا ، مزينًا بالورود ، ذلك الذى لم يحدث أن لبس مثله قط فى جنوب إفريقيا ، وحمل تحت إبطه طبعة البريد الجوى من صحيفة "التايمز" اللندنية ، فيما بعد راح يفسر هذا التصرف ، بأن الكثيرين اضطروا للتحايل بهذا الشكل لينالوا الاحترام الذى لم يكونوا قد حققوه عن طريق آخر .

"ألا ترى أنه أمر مضحك أن تكون إفريقيا ، وتظاهر بكونك إفريقى ، كى يتعرف عليك الأمريكيون جيدا من خلال هذا القلب الذى يعرفونه ؟ أية لعبة هذه يا رجل ؟

"أنت مضطر لتقوم بها . صدقنى ، هناك الكثير من الحيل التى ستتعلمها"

"ارتدت "إيستر" ملابس غالية كأنها ممثلة فى عرض خارج المسرح ، تصرفاتها غير المتوقعة والتى لا تحتل قلة الاحترام ، والهالة التى صنعها حولهما ، مكنت "ستيفن" من تأجير حجرة خارج هارلم .

عندما تركه "كريستوفر" ، بتعليقات أمريكية حميمة غامضة عن كونه سعيدا بمقابلته ، تساءل "ستيفن" ما إذا كان عليه أن يعاود الاتصال بـ "إيستر" ، أم يجب عليه أن ينتظر حتى يخفف من هذا المزاج الكئيب ؟ أحس باللامبالاة ، وفقدان الوعي تقريبا ، فتح نافذة حجرته ، كانت تشرف على عمود التهوية الأسود ، فى أحد الأركان كومة من الصناديق وعلب الكرتون المهترئ تنتظر من يحملها للتخلص منها ، أنوار الحجرات

الأخرى بالفندق توهجت بلا أية شخصية مميزة ، السماء الشاحبة تدلت على معظم جسم المبنى القاتم ، وزئير المدينة المذهل الرخو ، غرق في الزوايا المتعفنة لعمود التهوية ، كان زئيراً مبحوحاً نفث الهواء في وجهه ، وكان الهواء الخارجى ، مثل الهواء الذى فى حجرته وفى ممرات الفندق ، هواء استعمل كثيراً جداً حتى أن سخاماً غير محسوس التصق به ، مثل "البلى" على وجهه بغى عجوز، أى كائن يتنفس هذا الهواء، سوف يموت، كأنه نائم فى حجرة مغلقة بينما تبعث المجرمة دخانها.

أخرج تدويناته الموسيقية الخاصة بخطة بحثه من تحت البطانية ، كل الموضوع بدا متفرقاً على نحو بائس، تافهاً، لكنه حاول أن يعمل عليها، كانت كل فكرة جديدة تبدو سخيقة ، وزائفة، أو بقايا لا إرادية غير مقصودة من إعلان تجارى، أو متنكرة مثل "أندرو" فى شكل إفريقية التى لم يعرفها قط ، ساطعة، ونشطة على نحو غير طبيعى ، أى ! كانت الصباحات الشتوية باردة ، والهواء فى الخارج عنيقاً ، وماء الصنبور يصيب بالعمى من شدة برودته ، وهو وأخوه فى صدريات ممزقة يخبثون من الريح التى عصفت بالشمس، فهل حكى "أندرو" حكايات عن الحياة فى الأدغال ؟ هل لبس بلداً آخر فى ذاكرته ونسى مكان فصول الشتاء والسترات الأوربية " المكرمشة " فى ماضيه الوطنى ؟ تلاعبت "بستيئن" الذكريات الرهيفة عن فصول الشتاء تلك، التى لم يجرؤ على نسيانها، دَوَّنَ توليفات وتنويعات على الألحان، ثم أبعد الأوراق أخيراً، واتصل بـ "إيستر".

" ستيئن ! يسعدنى سماع صوتك ، كيف حالك ؟ "

" بخير ، كيف حالك ؟ "

" إننى أقيم حفلا ، هيا تعال "

" متى ؟ الآن "

" نعم الآن . لدى شخصان من "كولومبيا" سمعا موسيقاك ويريدان مقابلتك ، هل عملت أى شىء جديد ؟ "

" لا "

" على أية حال ، لقد أحبا سماعها . "

" حسنا "

" ستيفن ، هل أنت على ما يرام ؟ "

" أجل ، لم لا "

" لا بد من أننى أتخيل هذا ، مر وقت طويل منذ أن رأيتك ، أود أن أراك ، ليس فقط لتقديمك لهذين الشخصين الكولومبيين "

" أترك الحفل وتعالى إلى "

" لا أستطيع ، رجال التليفزيون والصحفيون هنا أيضا ، "ستيفن" أريدك أن تقابلهم "

" لقد عدت تورا ، وأنا متعب ، ليكن فى وقت آخر "

" ستيفن " ، تبدو مكتئبا بشكل مخيف "

" وداعا "إيستر"

اندهش من اكتشافه أن "إيستر" تقيم حفلا ، كانت الحفلات حيلة من حيل "أندرو موهان" ، على عادة جماعة المنفيين ، ولم تكن "إيستر" واحدة من ذلك النوع ، إنها لم تكن لتصنع تصرفا تافها لتبين أنها جنوب إفريقية مختلفة ،

لقد انضمت "لنيويورك" بشروطها ، كانت تعمل ، ولم تتكلم عن مدى معاناتها فى الوطن ، أو كيف كان هروبها فذاً ؟! كانت تعمل ، وكان "كين" يعمل ، وكان "كريستوفر" يعمل ، وذلك ما أبقاهم على قيد الحياة ، أما هو فلم يعد قادراً على العمل ، لقد فقد أدواته ، أصبح رمة ، أصبح مثل بقية مجموعة الجنوب أفارقة المغلقة على نفسها ، ربما لا يحق له أن يحتقر حفلهم .

اغتسل وغير ملابسه ، نظر فى المرأة "بقرف" ، قال لنفسه :
"ما الحكاية يا رجل" ؟ كان لا يزال قادراً على الحياة .

مشى خلال دهاليز الشوارع الخالية من الهواء ، كانت المحلات تقدم الإغراءات لملايين البشر عن احتياجات غير مفهومة ، عرضت فى واجهات المحلات أوعية نحاسية ، سلاطين خشبية ، أراجيح شبك مصبوغة ، كرات زجاجية ملونة ، آنية حساء الفطر الخزفية ، صدريات جلدية ، كتباً عن الزن ، ملصقات ، وقوائم عن النباتات الهندية .

فى أفضل الأحوال ، فإن موسيقاه سوف تعرض فى خضم بحر الأرقف هذا ، مع بقية الأشكال الغريبة الوحشية الأخرى ، من تحف ، موضات ، مخدرات ، سوف يسمعها ذلك المخنث الذى ينضغط تحت الأشكال الغريبة والذى سيتغاضى عن ملابسه وسواده ، هذا الهذيان العابر ، كان الآن عالماً آخر . لغة أخرى ، لقد ضاع فى تنوع الأشياء اللامتناهى ، والإمكانات غير المفهومة ، كانت كلها تحطمه ، تضغط عليه لتخنقه ، وكان هو ضئيل الشأن ، وكانت جنوب إفريقيا ضئيلة الشأن ، ماذا عاد عليه من إحلال عالم محل آخر؟! . عوالم لانهائية .

ركب باستسلام أتوبيسًا ، وظل به إلى أن أخبره السائق أن عليه أن يدفع أجرة أخرى ، فقد أكمل الأتوبيس دورته ، نزل ومشى بين محلات رديئة غير محددة المعالم ، جرى بعض الصبية أمامه وهم يتصايحون ، وامرأة تصرخ فيهم معنفة ، لم يستطع تفسير كلماتها ، توقف محققًا إلى نافذة ظهر منها حجرة طعام على طراز فرنسي بسيط ، ثم واصل السير مرة أخرى ، مال عليه رجل ، ربما كان مخمورًا ، وسأله عن الساعة قائلاً : أخى ، لكنه لم يرد عليه ، فقال الرجل : " تبًا لك من زنجى " ، لم يرد على ذلك أيضًا ، كان بالقرب من طريق سريع آخر ، تتوالى فيه الحركة بلا انقطاع ، كان الطريق يصخب بلا تواتر ، وصل فوق كوبرى علوى ، توقف محققًا فى العربات المسرعة بجنون ، وفى القوائم الأسمتية القوية الثابتة لكوبرى علوى آخر . . فى الصخب الأمريكى ، هناك طريق واحد فقط ، سوف يتقبل أميركا ، سوف يلقي بنفسه إليها ، فى هوائها الراكد ، فى ضوء الآلة ، شد بيده على " الدرابزين " ورفع نفسه لأعلى ، تحته ، كانت السيارات تندفع فى سرعة جنونية على الطريق السريع ، وثب داخل الطريق .

ابن عمى يأتى إلى جوبرج

تأليف : " ميلالو ميزامانى "

صبية المدينة بارعون بدرجة لا تصدق فى استقصاء أصل أى إنسان،
يمكنهم - عادة - التعرف عليه من لهجته ومشيته، نادراً ما ينقضون على
المختال الذى يشغل باجتياز تقاطع الطريق دون توقف قبل أن تتحول
إشارات المرور للون الأخضر، لكنهم لا يترددون عن التوبيخ الساخر
للرجل الذى يسمعونه يهمهم بأغنية قبلية بدلاً من أن يصفر موسيقى
الجاز،

ابن عمى، "جولا"، قادم من "تسولو" بـ "ترانسكى"، له قامة
"غوريللا" بالغ، يمشى، وذراعه متقوستان و يتطوحيان بعيداً، مثل
ذراعى راعى بقر مستعد لسحب الحبل، يتقدمه صدره البارز كأنه يسحبه
حيثما يذهب، هيئته ككل تعطى انطباعاً بيرج متين البناء، يمكنه أن يحمل
صندوقى القمامة الخاصين بمنزلنا ممتلئين، بالسهولة والوقار اللذين يحمل
بهما رجل متعلم جريدة، لم يكن غندوراً فى مشيته مثل الموظفين الذين
يمشون للتريض، بل كانت مشية إنسان غير متعجل، المشى بالنسبة له معتاد
مثلما هو ضرورة.

له الآن بالمدينة عدة سنوات، لكن كان هناك وقت حين كان وما يزال
أخضر مثل كرنبه غير ناضجة.

ذات يوم ذهب "مزال يو جولا" لشراء بعض المشروبات الباردة، عادة
توجد "شلل" من صبية الشوارع "الصبيع" حول المحلات، رصدوه عن
بعد حاملاً زجاجة فارغة من الحجم العائلى.

سأل "يوجولا": "مكودينى، أين يمكننى أن أملأ هذه الزجاجة؟"
ضحك الصبية بسخرية، عندما دعاهم (بيكانتى)، هل دار فى ذهنه
أنه يستطيع سحلهم بيد واحدة؟
تساءل ولد باستظراف: "هل يظن أننا نملأ المشروبات الباردة من
الصنبور؟"

أضاف آخر: "لقد اعتاد أن يحصل على اللبن من البقرة مباشرة"
وضحكوا ..

كان "مزال يو جولا" مستغرباً أكثر منه متضايقاً من الانفجار المفاجئ
للصبية فى الضحك، هؤلاء المتسكعون من هم فى مثل سنهم فى "تسولو"
يعتنون بالماشية فى المزارع، تركهم ومضى إلى سيدة متقدمة فى العمر تحمل
طفلاً على ظهرها، فقادته حتى محل "ميزامبا للمأكولات الوطنية".

خرج من المحل بزجاجة مشروب التوت الأحمر، دفع هذا الأولاد
لموجة عاصفة من الضحك المجلجل، فالأحمر والأخضر، هما اللونان المفضلان
لأهل الريف، أما سكان المدينة فإنهم يشترون "الفانتا" أو "الكولا".

اتفق الأولاد على خطة لمضايقته، اعترضوا طريقه وتظاهروا بأنهم لم
يلاحظوا وجوده، عندما غير اتجاهه، غيروا هم أيضاً اتجاههم ووقفوا أمامه

صفاً واحداً، تعاظم غضبه، اتجه ناحية المركز التجارى مثل وحيد قرن حرون.

استمد الصبية الشجاعة من عددهم، وتشبثوا بوقفاتهم.

تقابلت عيناه مع عيني الولد الواقف فى الوسط، حدق فى وجه الولد، حدق الولد فيه بدوره بنفس الطريقة، اتجه "مزال يو جولاً" نحوه مباشرة.

قال للولد الواقف فى الوسط: "اغرب عن وجهى، يا . . ."

اقترب الآن على نحو خطير، فغر الأولاد أفواههم كما لو كانوا متأهين للعراك، أمسك "بوجولاً" برئيس العصابة الذى أحس بالخوف والحصار، والذى كان فى الحقيقة مكروهاً من الآخرين،

تلاشى تظاهر رئيس العصابة بالشجاعة وتنحى عن الطريق، تراجع بقية الأولاد، وأخيراً مر "مزال يو جولاً"،

ذات مرة اضطر والدى للسفر "أوتوستوب" من "نالتسبيروت"، ذلك لأن سيارته كانت قد سرقت أثناء زيارته لمنزل أحد الأصدقاء هناك،

سأل "مزال يوجولاً" والدى: "ألا يمكنهم أن يطلبوا منك باحترام استعارة السيارة إذا كانوا يحتاجونها على هذا النحو الملح؟"

حدقنا فيه جميعنا، فاغرين أفواهنا دهشة.

دق جرس التليفون، كانت الشرطة، وجدت السيارة مهجورة قرب "نيوماركت" في "ألبيز تول"، لم يكن بالسيارة أى تخريب، فيما عدا كسر زجاج نافذة السيارة الجانبى.

قال "مزال يوجولا": "إننى غير قادر على فهم كيف يفكر أى إنسان أن يأخذ سيارة غيره، أو حتى حصاناً يخص شخصاً آخر، لمجرد أن يلقى به فى مكان بعيد".

مرة عرض أخى الصغير "سوسو" أن يصطحب "مزال يوجولا" إلى السينما، كانوا يعرضون فيلم "شارع بدون اسم" لـ "ويد مارك"، وكان الفيلم يلقى نجاحاً كبيراً لدى مشاهدى المدينة، أغلبنا شاهد الفيلم مرتين أو ثلاث مرات من قبل، ولم يكن لدينا مانع من رؤيته مرة أخرى.

وكان لدينا "راديو ترانزستور"، كان "مزال يوجولا" مغرمًا به بشكل غير عادى، فكان يديره حتى فى أثناء استماعنا لجهاز "الراديوالكهربائى"، وكانت بطاريات الراديو "الترانزستور" تستبدل يوميًا، كم من مرات طلبت منه إغلاق الراديو "الترانزستور" قبل أن ينام، فقد كنت غالباً ما اضطر لسحبه من تحت وسادته مفتوحًا، وأحمد تلك الموسيقى بنفسى، قط لم يتعلم هذا الأمر، أتذكر أننى هددت بكسر هذا الترانزستور عندما فتحه فى أثناء استماعى لنشرة الأخبار، وخطر ببالى أن أعلمه استعمال سماعات الأذن، فقد كنت أعتقد أنه سوف يحمل ذلك الراديو "الترانزستور" معه حتى إلى المرحاض.

فى المساء ذهبنا إلى السينما، لم يره أى منا وهو يخفى "الترانزستور" تحت معطفه.

قدم الفيلم عرضاً مليئاً بالإثارة والحركة، لكن الحوار كان يشد الانتباه أيضاً، معظمنا كان يحفظ الفيلم عن ظهر قلب، ومع ذلك كنا نود سماع الحوار كله.

" لا يوجد سوى شخص واحد فقط يملك عقلاً من هذا النوع، وهذا الشخص هو أنا "

" كل هؤلاء البرابرة تحت إمرتي "

" لا أحد يطلق النار إلا بأمرى "

" أيها الأصدقاء، أيها الرومان، يا شعبي ، أعيروني آذانكم . . . "

وفجأة، إذا بضوضاء هادرة تصدر من معطف "مزال يوجولا ". كانت الأغنية الناجحة لـ "لويد لويس"، "الهوية" دفعته بمرفقى بين ضلوعه، لكنني اصطدمت بطبقات من الملابس.

ارتفعت هسهسات، وانطلقت صيحات استهجان وقدح بين صفوف المشاهدين: "اغلق فونوغراف البطن ذاك"

و"من ابن المرا . . . الش. . . ذاك؟"

سأله "سوسو" مستنكراً: "ما الذى تهيبه؟"

همست له من بين أسناني المطبقة من الغيظ: "اغلق هذا الشيء ". انتزعته منه ، وأغلقتة فوراً.

قال "مزال يو جولاً": "من فضلك، أعطني إياه، سوف أضع شئ الأذن هذا"

قال "سوسو" : " لا تعطه إياه "

احتفظت "بالترازيستور" ، عند نهاية الفيلم ، وقبل إضاءة النور بوقت قليل ، تسللت وانتظرتهم فى الخارج ، لم أكن أرغب فى أن يتعرف الناس علىّ باعتبارى من كنت مع الفتى الذى أدار الراديو أثناء عرض الفيلم .

كان أبى ينزل ببعض المحطات النائية أغلبها عند المناجم ، وكان هناك الكثير من العمال المهاجرين الذين نزحوا من "تسولو" ، عرف والدى العديد من هؤلاء الرجال ، الذين قدمهم إلى "مزال يو جولا" ، عادة كان أبى يصطحب "يوجولا" معه عند ذهابه إلى مناجم "كراون" ، كان "هلوبى" و "مبيلى" من بين الأصدقاء القدامى الذين قابلهم هناك "مزال يو جولا" ، فقد كانوا من أصدقاء الدراسة السابقين ، الذين تركوا الدراسة جميعهم بعد الصف الرابع الابتدائى .

فى أثناء عطلات نهاية الأسبوع ، كان "هلوبى" و "مبيلى" أحياناً يزوران "مزال يو جولا" ، ويصطحبانه إلى الحانات غير المرخصة المفضلة لـديهما ، حيث يحتسون الـ "مهاجمها" . لكن فى أغلب الحالات كان والدى هو الذى يصطحب "مزال يو جولا" إلى مناجم كراون" ، إلى أن عرف ، إلى حدٍ ما ، طريق العودة للبيت .

ذات يوم أحد ، ذهب أبى و "مزال يو جولا" إلى مناجم "كراون" كالمعتاد ، طلب "مزال يو جولا" من أبى أن يتركه هناك ، كانت المرة الأولى التى يطلب فيها مثل هذا الطلب ، لذلك كان أبى متردداً فى تركه ، "هلوبى" و "مبيلى" وعدا أبى بالاعتناء بأمره ، فتركه أبى على مضض ، راحوا يشربون الـ "مهاجمها" إلى أن حان موعد عودة "مزال يو جولا" للبيت ، فى الواقع لم يكن هناك مشكلة ، لأن الأوتوبيس سوف ينزله تقريباً

عند عتبة باب البيت، اصطحباه إلى محطة الأتوبيس، وأشارا للعربة التى سركبها.

هبط الظلام بسرعة، واكتست السماء بدخان أسود، فى الأوتوبيس، كان على "مزال يو جولاً" أن يحتفظ بوجهه ملتصقاً بالنافذة الضبابية حتى يتمكن من رؤية ما بالخارج، كان الأوتوبيس ممتلئاً عن آخره، وجاء مكان "مزال يو جولاً" فى المقعد الخلفى الأخير، وكانت مجموعة من الصهاينة عائدتين من وليمة تعميد، وراحوا يغنون بحماس طوال المسافة التى قطعها الأوتوبيس، عندما تعرف "مزال يو جولاً" على المحطة القريبة من البيت، كان الأوتوبيس قد تحرك بالفعل، راح يشق طريقه لمقدمة الأوتوبيس خلال طبقات من اللحم البشرى، غالبية نسائي، بين شتائم الجماعة المخمورة إلى أن وصل للباب، لكن فى ذلك الوقت، كان الأوتوبيس قد مر بمحطة أخرى، أى أنه نزل بعد محطتين من محطته المقصودة.

لكى يصل إلى البيت، كان لابد له من اختراق منطقة المركز التجارى، قرب المحلات سمع شخصاً ما يقول: "ها هو ذا رجل قبيلة الزهوسا" لكنه لم يعره انتباهاً، راح يغنى لنفسه بهدوء ترنيمة المدح الشعبية "يولوثيكسو أمكيلوا".

أزّ قالب "قرميد" فى الهواء، بينما وجد آخر طريقه لصدره، أمسك "مزال يو جولاً" بضلوعه متألماً، لكنه استمر فى المشى، واستطاع سماع الخطو السريع لوقع أقدام تتراجع فى الاتجاه المضاد.

"سوسو"، الذى كان آتياً من ناحية المحلات، سمع بالصدفة جماعة من الصبية شديدي الابتهاج، يتحدثون عن كيف انتقموا من رجل قبيلة "الزهوسا" ذاك؟!، لكنه لم يعر الأمر أدنى اهتمام، عندما عاد للبيت، وجد "مزال يو جولاً" فى الحمام يدلك ضلوعه فى سرية، فسأله عما حدث،

جر "يو جولا" "سوسو" إلى داخل الحمام، وأغلق الباب: "هش، لا تخبر أى إنسان، لقد ضُربت بقرميدة"

"هل ضريك الصبية قرب المحلات؟"

"كيف عرفت؟"

"قابلت فى طريق عودتى مجموعة من الصبية يتحدثون عن شخص ما أصابوه توأ"

دار "مزال يو جولا" حول نفسه من الغيظ: "إذا كنت تعرفهم، ما عليك إلا أن تأخذنى إلى مكانهم أريد أن أضع يدى عليهم فحسب"

"هاى! أنا لم أتعب بعد من أكل الذرة"^(٥٨)

فى هذه الفترة تقريباً، تعرف "يوجولا" على بعض الشخصيات ذات الشأن، ذات شأن لأنهم فيما بعد سيكونون حلفاء لهم قيمتهم فى حياته، الشخص الأول هو "جيكيدا"، الرجل الماكر الذى يمكنه أن يجد طريقه بين فكى تمساح جائع بسهولة، صاحب حيل لا تنتهى وخبرة واسعة، عمل فى فترة "ما كونستابل"، لمجرد أن يكون على اتصال جيد بقوة البوليس، وعمل أيضاً للدورتين فى طاقم مستشارى مجلس المدينة، تلك الفترة التى كون فيها ثروة صغيرة عن طريق ما كان يقدمه للناس من استشارات، على أنه محام، وعندما تعرف عليه "مزال يوجولا"، عرفه بوصفه مداوياً بالأعشاب وصاحب أرض.

حضر "جيكيدا" لمنزلنا لرؤية والدى بخصوص بعض الأعمال، وجد

(٥٨) تعبير محلى يقصد به أنه مازال صغيراً، ومتمسكاً بالحياة ولا يرغب فى المخاطرة.

أبى بالخارج، فقرر أن ينتظره لبعض الوقت، فى أثناء انتظاره لوالدى ،
راح يثرثر مع "مزال يو جولاً"

سأله : "وأنت أيضاً تقيم هنا؟"

رد "مزال يو جولاً" : "نعم، هذا بيت عمى"

"هل تقابلنا من قبل ؟"

"لا، لقد جئت هنا منذ أعياد الميلاد الماضية"

"من أين أتيت ؟"

"من ترانسكى"

"من أية منطقة ؟"

فى النهاية اتضح أن "جيكيدا" كان يعرف جيداً منطقة "يوجولاً"
بترانسكى، وهو نفسه تلقى تدريبه كنجار فى "سانت كاثيرى"، فقد جاء
- أصلاً - من "كوفيمنا" منذ أكثر من عشرين عاماً. وما زالت زوجته
تعيش هناك، وتأتى من وقت لآخر إلى "جوهانسبرج" لتحمل بطفل.
قال "جيكيدا" : "لابد من أن تزورنى يوماً لترى ما نفعل فى هذه
الأرض"

سأل "مزال يوجولاً" : "ماذا تعمل لتدبير المعيشة؟"

"أنا مداو بالأعشاب!"

"أنت إذن الرجل القادر على مساعدتى، عندى ألم هنا، لا أنام
بسببه منذ عدة ليالٍ وأشار إلى ضلوعه.

" أعرف الدهان المضبوط الذى تحتاجه، حصلت عليه فى زيارتى الأخيرة لحديقة الحيوان، لا يوجد شيء أكثر فعالية من فضلات بعض الحيوانات القوية المتوحشة "

حددا موعد لقاء ثابت للعلاج .

منذ ذلك اليوم صار بيت " جيكيذا " بيتًا ثانيًا لـ " مزال يوجولا "

فى شقة " جيكيذا "، التقى " يوجولا " بأول صديقة له، كانت من المستأجرين عند " جيكيذا "، كان " جيكيذا " يشغل شقة من شقق " مجلس البلدية " بأربع حجرات، وقد أجر ثلاثاً منها لعائلات مختلفة، وكان يتطفل على نساء مستأجريه أكثر من إعجابه بأزواجهن، وعدم قدرتهم على إيجاد مسكن بديل، أجبرهم على البقاء فى بيت " جيكيذا "

كانت المرأة التى تعرف عليها " مزال يوجولا " - يعمل زوجها حارسًا ليليًا بالمدينة - بدينة بطريقة أنثوية واضحة، متقوسة الساقين، ثدياها مثل بطيختين، وردفاها ريانان وبدينان أيضًا، ترتدى ملابس لينة على جسمها فتبدو الملابس مثل لحاف من زغب البط الناعم على فراش مزدوج .

فى أثناء تلك الفترة بات " مزال يوجولا " لأول مرة خارج بيتنا - الشيء الذى أصبح عادة له فيما بعد - وجر عليه ذلك وإبلاً من التهديدات والشتائم التى كالتها له أمى .

قالت أمى: " أول أمر تتعلمه هنا، هو أن تختار أصدقاءك بحذر شديد، سوف تجد نفسك و " جيكيذا " ذات يوم معتقلين فى السجن، أنا أعرف كل ما يجرى فى وكر النجاسة ذاك، لن تكون جثتك أول جثة فى ذلك الفناء "

وبأسلوب أقل حدة، عبر والدى أيضاً عن استنكاره مرافقة "مزال
يو جولا" لـ "جيكيدا".

أضاف أبى قائلاً: "شئ آخر فقط، لا تتجول فى المدينة كثيراً، نحن
ما زلنا نحاول الحصول لك على تصريح"

قالت أمى: "فى يوم من الأيام سيعرف بنفسه، سوف يصطدم بـ
"مولولا" وجماعته من رجال الشرطة، دعه يستمر فى اللف فى
الشوارع"

لم يحدث الأمر بالطريقة التى تنبأت بها أمى، لسبب واحد، أنه لم
يكن يتجول فى الشوارع، بل كان فى فناء بيتنا، منحنيًا على البوابة،
يراقب حركة المرور، عندما توقف بعض رجال الشرطة من راكبي
الدراجات أمام بيتنا بالضبط.

سأل أحدهم: "هل يمكن أن تعيرنا كبريتا؟"

قال "يوجولا": "أنا لا أدخن، لكن أعتقد أنه يمكننى أن أحصل لكم
على كبريت من البيت"، اختفى داخل البيت وعاد بعلبة كبريت.

ظل رجال الشرطة على دراجاتهم، لذلك كان عليه الخروج للشارع
والمشى ناحيتهم لإعطائهم الكبريت.

سأل الشرطى الذى أرسله لجلب الكبريت: "هل تقيم هنا؟"

"نعم"

"لكننى لا أعرفك!"

اقترح شرطى آخر: "دعه يبرز تصريحه ليثبت ذلك"

"ليس معى هنا "

قال الشرطى صاحب الأفكار النيرة: "إذن "نجره" إلى قسم الشرطة حتى يقدمه"

تراقص بنطلون "مزال يو جولا" رقصات بهلوانية ،

نزل شرطى آخر عن دراجته وتقدم نحو "مزال يو جولا" بزواج من الأصفاد، لكن قبل أن يشبهما، ظهرت عند الناصية مجموعة أخرى من رجال الشرطة.

قال أحدهم: "ماذا فعل؟ ما الأمر؟"

رد الشرطى الذى يحمل الأصفاد: "ليس لديه تصريح"

"انتظر، أظن أننى رأيت هذا الفتى من قبل، ألسن ابن أخ 'مفانديزى'؟"

أوما "مزال" بالموافقة.

"حسنأ، يا فتيان، اتركوه، إنه ابن أخ مفانديزى الذى نعرفه، هل وصلت حديثأ من ترانسكى؟"

أوما "مزال يوجولا" مرة أخرى.

قال الشرطى حامل الأصفاد: "حسنأ، امض، لحسن حظك أن تدخل الرقيب "مولولا"، لا نريد متشردين فى هذه الناحية"

رد إليه الشرطى الآخر علبة الكبريت، وقادوا دراجاتهم مبتعدين، لم ينس "مزال يو جولا" الرقيب "مولولا" قط طوال الوقت الذى قضاه فى مدينتنا، كان يزداد إعجابه بهذا الرجل، فقد كان الرقيب رجلاً محنكاً.

مرت أيام قبل أن يستجمع "مزال يو جولا" شجاعته ويغامر بالخروج إلى الفناء، لكنه حتى في ذلك الوقت كان يذهب مع والدى إلى مناجم "كراون".

كان لدى "هلوبى" و"مبيلى" أخبار طيبة له، فقد تحدثا بشأنه مع رئيسهما فى العمل، وكان أكثر الرجال البيض تفهماً، كانت هناك وظيفة له، لا تتطلب منه حمل تصريح، ناقشا الأمر مع والدى، الذى وافق على ضرورة أن يلتحق "مزال يو جولا" بعمل.

هكذا بدأ "يوجولا" العمل فى المناجم كعامل نظافة، كان يقيم هناك، ويعود فى إجازة نهاية الأسبوع فقط.

عندما حصل على تصريحه أخيراً، ترك عمله فى المناجم وذهب للعمل كعامل نظافة فى فندق. فيما بعد تم ترقيته إلى طبّاخ.

منحه التصريح شعوراً بالحرية، فرفض أن يكون مقيداً بوظيفة محددة، حتى أنه فى سنواته العديدة بالمدينة عمل كطبيب، ونجار، وكاهن، وعراف.

قُبض عليه ورُحل إلى "ترانسكى" عدة مرات. ذات مرة نجحت الشرطة فى اقتياده حتى "بلوم فونتين"، لكنه عاد إلى "جوهانسبرج" فى قطار البضائع.

هذه الخبرات والتجارب علمت "مزال يو جولا" الكثير حتى الخفاش الأعمى يمكن أن يعرف ذلك : لقد صار يقظاً، وعيونه مفتوحة مثل بومة، أقام بالمدينة حيث أصبحت حواسه حادة من كثرة معاشته لحياة الرذيلة. الأهم، أنه عاش فترة طويلة تحت ظل قانون التشرد، وقوانين تنظيم الهجرة الداخلية، وأصبح يعتبر هذه الأخطار جداراً ومظلة تحميه، عرفت أيضاً أن المزمور الثالث والعشرين هو مزموره المفضل، ويذكر سكان المدينة أنه مازال يقطن بها بجوار "ناكوسى سيكالالا".

أختان

تأليف : " أحمد إيسوب "

" عندما أريد الاستحمام ، فإنهما يريدان أن يستحما أيضاً ، عندما أريد دخول المرحاض ، فإنهما يريدان دخوله أيضاً ، إنهما أنانيان جداً فى كل ما يفعلانه ، أحياناً تغلق زوجة أبى ، وأبى الباب عليهما طوال النهار ، ولا أعرف ماذا يفعلان هناك ، لا يوجد طعام بالمنزل ، وإذا وجد شيء ، يتعين علينا أن نطبخه ، عندئذ يخرجان فوراً من حجرتهما ويأكلان الطعام كله . "

" لماذا لم تتحدثى فى هذا الشأن مع والدك؟ "

" لم يعد يستمع إلينا منذ تزوج هذه المرأة ، هو رجل لطيف ، لكنه منذ تزوجها اختفى كل لطفه معنا ، لقد أتلفته ، فلم يعد يهتم بنا ، قلت لأختى حبيبة ، لنرحل بعيداً عن هنا ، أليس كذلك يا حبيبة؟ "

" بلى "

" قال لنا أحد الأصدقاء : إنه توجد حجرة خالية فى هذا الربع . "

أثارت الأختان ضجة عندما ظهرتا للسكن فى الربع ، كانتا ترتديان العباءة وتحتها سراويل ، لا يوجد شيء غير عادى فى ذلك ، أما غير العادى فهو لون شعرهما ، فقد كان مصبوغاً باللون الأصفر ، فى الواقع بدتا غريبتى المنظر بشعرهما الأشقر الذى لا يتلاءم مع القسمات الشرقية ، كانتا غزيرتى الشعر وخاضتا معركة متواصلة لإزالة الشعر عن وجهيهما ، قال

صديقى عمر عن غزارة شعرهما: "بأنها تدل على أنهما من بنات المتعة"، كانت "روكية" فى الثلاثينات، و"حبيبة" تصغرها بضع سنوات.

بعد مضى فترة قصيرة، جرى تغير فى طريقة لبسهما، طرحت الأختان لباسهما الشرقى بسبب الموضة، أو بسبب بعض الخصوصيات النسائية (مما سبب الرعب "لعزيز خان") وارتدتا الملابس الغربية.

سرعان ما مارسنا، أنا و"عمر"، الجنس مع الأختين، أخذتُ "حبيبة" الأخت الصغرى، لم يكن هناك اختيار مقصود من جانبنا لواحدة منهما، فقط أنجذب كل منا إلى واحدة، وانغمسنا فى ممارسة الجنس ببالٍ خالٍ.

وجدت فى "حبيبة" امرأة مهتزة عصبيًا، فقد كان جسمها عند لمسه يتحرك حركة متشنجة مثل دمية آلية ممتلئة الزنبرك، حتى مشيتها مرتعشة كالدمية، تنظر يسارًا، ثم يمينًا، ثم خلفها كأنها خائفة من الملاحقة، ذراعاها مثنيان بزاوية تسعين درجة، وعندما تطأ قدماها الأرض تبدو كأنها تخطو على مساحة من الشوك، انتابنى إحساس غريب عندما قبلتها أول مرة، أحسست كأننى أقبل هيكلاً عظمياً متحركاً.

بعد قليل من الوقت، سئمنا أنا و"عمر" صحبة الأختين، وهكذا بعد انفصالهما عنا، ارتبطتا برجال آخرين.

فى الصباح كانتا تخرجان من مسكنهما، لابستين بتأنق، هابطتين السلالم، تتقدم "روكية" "حبيبة" كأنها تحميهما، ثم تخرجان للطريق العام، وتركبان الترام إلى مكان عملهما، كانتا تعملان كعاملتين مساعدتين

فى محل؁ فى آخر النهار تعودان؁ تجهزان الطعام؁ تأكلان؁ تغسلان الصحنون؁ وترتديان أحياناً السارى البراق . . وتتظران؁ كان يحضر إليهما الرجال بشكل منتظم وتساقان بعيداً فى السيارات .

تراوح موقف النساء الأخريات فى الربع تجاه الأختين ما بين الازدراء البارد والعداء الصريح؁ أما الرجال المتزوجون الذين يسكنون الربع؁ فكانوا تحت رقابة زوجاتهم؁ ولذلك لم يقدرُوا على الاقتراب منهما؁ لكن الرجال غير المتزوجين حاموا حولهما على الرغم من نبوءة "عزيز خان" بأن الأختين وعشاقهما سوف "يدخلون نار جهنم يداً بيد ."

فى أصيل أحد أيام السبت أو الأحد صباحاً؁ ارتدت الأختان "شورتين"؁ ورآهما الجميع وهما متكئتان على الدرايزين الحديدى للشرقة تتحدثان مع مجموعة من الشباب المتجمعين أسفلها؁ وتضحكان كلما ألقى أحدهم بتعليق مكشوف أو أطلق نكتة فاحشة .

بعد ذلك؁ وكما هو متوقع حبلتا؁ فى أول الأمر ذعرتا وأطلقتا اتهامات عشوائية؁ كان "عمر" واحداً من هؤلاء الذين اتهمتهم "روكية" بأنهم السبب فى حملهما .

أرسلت "روكية" فى طلبى .

" من فضلك أخبر "عمر" بأننى حامل وأنه والد الطفل؁ سوف أتزوجه فى أى وقت يشاء؁ ولو أننى خائفة من إخباره بنفسى لأنه شاب صغير إلى حد ما "

" وكيف تعرفين أنه هو؟ "

"نحن النساء نعرف الأب، أليس كذلك يا حبيبة؟"

"نعم، هو كذلك"

"حبيبة"، "من هو والد طفلك؟"

"حامد مجيد، من "نيو تاون". صاحب محل"

"وهل يعلم بالأمر؟"

"لقد أخبرته عن الطفل، لكنه قال: إنه متزوج ولديه ستة أطفال،

ولكنه قال: إنه سيعتنى بالطفل"

"إنك محظوظة يا حبيبة"

قالت روكية مبتسمة: "أنا أيضاً محظوظة" تركتهما ورحت لتبليغ عمر بادعاءات الأبوة، رفض "عمر" مواجهة "روكية"، كان يخشى أن يكون لديها بعض الشواهد الدامغة، ماذا سيقول والداه؟ ماذا سيقول كل الناس؟ والداً لطفل أمه عاهرة! سيسخر منه زملاؤه بالمدرسة، ومعلموه سوف يشيرون إليه كمثال للشباب المنحل.

بعد بضعة أيام قرر أن يواجه روكية و... "يصفى المسائل معها"

تشاجرا، وكانت دموع، ونوبات غضب، وهستيريا (حسبما قال عمر)، لكن لم يُصَفَ شيء.

أرسلت "روكية" في طلبى مرة أخرى، قالت: "أخبر عمر أن الطفل طفلى، كنت أنا سبب وجوده، ولم يكن أى رجل هو السبب، أخبر عمر أنني أحبه وليس عليه أن يقلق من ناحيتى"

" لكن بالتأكيد، لابد من أن يكون للطفل والد؟ "

" طفلى لا يحتاج أباً ، إنه سعيد بأن ليس له أب، لقد قال طفلى لى ذلك ، أنا أشعر به داخلى بقولى : "والدى لا يهتم بنا ، " ولهذا فطفلى ليس بحاجة إليه "

" وحببية ؟ "

" حبيبة أيضاً لا تهتم بأن يكون لطفلها أب أليس كذلك يا حبيبة؟ "

" بلى . "

بمرور الأيام، ارتفعت بطنا الأختين . وأحدث أمر الحمل غضباً، وأثار الحس الأخلاقى لدى سكان الربع ،

قالت زوجة "السيد موسى" ، مالكة العقار الذى أسكن به : "إنهما تضربان مثلاً سيئاً لبناتنا، ألا تريان أن لدى بنات شابات ؟! "

" لحسن الحظ ليس عندى بنات أقلق عليهن . "

" لابد من أن أخبر زوجى ليفعل شيئاً حيال ذلك، لا أطيق الاستمرار فى العيش جنباً إلى جنب مع امرأتين حبلتين دون زواج، والأدهى أن ابنتى الكبيرة ودودة معهما جداً "

قالت زوجة "السيد قاسم" ، وهى نصف صينية : "اعتادت أُمى أن تقول لى : بأن الفتيات غير المتزوجات فى الصين لا يحبلن مطلقاً "

أمنت زوجة "السيد حلیم" المالوية موافقة : " نعم، هذا حقيقى، حتى النساء فى "كيب تاون" يتصرفن أفضل، إنهن يخرجن مع الرجال لكن يحترمن أنفسهن "

قالت زوجة السيد قاسم: " إننى مندهشة، كيف أمكنهما الحمل معاً
فى وقت واحد " !

ردت عليها مالكة عقارى: "ربما رقد رجل مع كلتيهما فى نفس
الليلة " ، ولبرهة أنساهن الضحك جدية المسألة.

قالت "دوروثى" زوجة "سلمون" البناء، محاولة استدرار الضحك
مرة أخرى: "إنهما تمارسان تعدد الزوجات."

ردت زوجة "السيد موسى" بحجة معاكسة، منزعة من سوء فهم
ديانتها: "عفواً يا سيدة "سلمون"، هذا ليس تعدد الزوجات، إنهن لم
يتزوجن أصلاً من أى رجل"

الحاجة فاطمة، التى كانت فى مكة العام الماضى، قالت: "فى بلد
إسلامى كالسعودية مثلاً، فإن مثل هاتين المرأتين ترجمان حتى الموت"

قالت "دوروثى"، (وهى قارئة نهمة للروايات الرديئة): " يجب أن
"يزيلوا" (their pudenda)^(٥٩) على الرغم من أن واحدة منهن لم تسمع
الكلمة من قبل، إلا أنهن فهمن ما كانت تعنيه.

بعد تفكير، رأت النساء أن هذا الأمر دموى جداً، أما الرجم فهو أمر
أكثر تهدياً ونظافة.

بينما كانت النساء يتكلمن، قررت زوجة "عزيز خان" أن تتصرف
بنفسها، ذات يوم فى آخر النهار، خرجت متسللة من مسكنها، رفعت
بصرها إلى مسكن الأختين ورابطت عند قاعدة السلم، ارتفعت الإثارة فى

(٥٩) باللغة اللاتينية : فرجاها .

الرّبع وتجمع حولها السكان، عندما وصلت الأختان، تفحصت بطنيهما المرتفعتين وراحت تبصق، وولولت صائحة: "يا للنساء المسلمات! يا للنساء المسلمات اللاتي يدعون أنفسهن مسلمات ويأثمن، يا الله، يا الله أنزل عليهما عقابك! يا للمسلمين إلى أي حدٍ تردّيتهم!"

وخرت باكية :

نظرت الأختان إليها في خوف، صعدتا السلالم مسرعتين وأغلقتا على نفسيهما المسكن، ما قامت به زوجة "عزيز خان" كان أمراً فاجعاً حتى أن جو الكآبة خيم على الربع، نُبّه على الأطفال مراراً أن يلتزموا الهدوء، وخرج السكان من مساكنهم ونظروا ناحية سكن الأختين كأن شيئاً مأساوياً يحدث هناك.

"عزيز خان" رجل بدين بجسم مترهل الطيات، مدملج، يرتدى ملابس أكبر من مقاسه، له وجه طفل سمين، قال لنا: "إذا كان لدى وقت، كنت كتبت كتاباً عن سلوك الأختين الشائين، إنهما مثال للانحطاط الأخلاقي الذي يعيشه المسلمون الآن، يجب أن تُحبسا في سجن، وتتركا حتى تموتا من الجوع"

عندما أوحى شخص ما بأن مسؤولية حملهما لا تقع عليهما وحدهما، رد: "هل تود أن تقول: إنهما لم تكونا قادرتين على حماية أكثر أجزاء جسميهما حرمة؟ لم يكن للإسلام أن يصل للمكانة العظيمة التي وصل إليها في الماضي لو كان سمح لبناته بإطلاق العنان لشهواتهن الجنسية البربرية وأن يمارسن كل أنواع العُهر"

بعد بضعة شهور، وضعت الأختان مولودتين.

كثُر الحديث في الرَّبِّع عن المولودتين، شعر البعض بالأسف على الطفلتين وتمنوا أن يتبناهما أحد، والبعض الآخر اقترحوا أن يُلقى بهما إلى الحيوانات المتوحشة بحديقة الحيوان؛ وآخرون أرادوا إشعال النار في الشقة.

شعر "عزيز خان" بأن الوقت قد حان للعمل، وأنه يجب "إلقاء" الأختين وطفلتيهما خارج الرَّبِّع، لأن استمرار إقامتهما يعتبر تهديداً أخلاقياً يمس الناس القاطنين معهما، وتلوياً لاسم وسمعة ديننا ونبينا الكريم

ذهب أولاً إلى قاطع الطريق "جول"، لمفاتحته في منزله عقب صلاة الجمعة مباشرة، لكن "جول"، ربما كان مهتماً أكثر بمحاولات إشباع جوعه، أو أنه وجد الكلام الأخلاقي بغيضاً، فطرده شر طردة وهو راضٍ تماماً، وأغلق الباب بازدراء.

كانت زيارته الثانية إلى "مولفى هارون"، شيخ جامع "نيوتاون" ورئيس الأكاديمية الإسلامية، رافقه في تلك الزيارة، عبد الله، تلميذ "عزيز خان"، الذي أطلعنا على خلاصة المقابلة: "حكى عزيز لمولفى المشكلة الأخلاقية التي تواجهها، هل تعرفون ماذا قال الشيخ؟ قال إن عقاب هاتين المرأتين متروك بين يدي الله! لذلك استشاط "عزيز" غضباً من ذلك المحتمى بكرسيه، ودعاه بـ 'القزم الغبي'.

"رفع الشيخ "مولفى" عصاه، بينما دفعه "عزيز" بقبضته اليسرى، إلا أنني سحبت "عزيز" إلى خارج المنزل"

كانت زيارة "عزيز" التالية إلى السيد "جوسب" مالك الرَّبِّع، والسيد "جوسب" رجل غريب الأطوار، كان يرتدى دائماً "كورتاه" (٦٠)،

(٦٠) باللغة كورتاه : عباءة من القطن الأبيض .

حتى فى الأيام الباردة، رأسه دائماً حليق تماماً، وذقنه كثة وطويلة، كانت تستحوذ عليه الهواجس الدينية، عندئذ، يأخذ فى الصلاة فى أى مكان، حتى وإن كان عند مفارق الطرق، ذات مرة فى أثناء العيد، حضر إلى الربع مع قرد، كان معقوداً على رأس القرد طربوش أحمر بشرابه، راح السيد "جوسب" يصرخ فى هؤلاء الذين تجمعوا للمشاهدة والفرجة، موجهاً كلامه، خاصة، إلى الخدم:

"هذا القرد مسلم! هذا القرد مسلم! لكن أنتم لستم بمسلمين، أنتم لستم بمسلمين" ثم بعثر حفنة من العملات، التى تبين فيما بعد أنها مجرد سنتات.

عبر السيد "جوسب" عن استعداده لطرده "العاهرتين" من الربع، وأنه سيفعل ذلك بنفسه، كان الأمر الناهى على عدة مبان فى "فورد سبرج"، وهو، لن يقبل بوجود "عاهرتين" فى أملاكه.

حضر ذات يوم أحد آخر النهار، وسائقه يقود له سيارته "المرسيدس"، وقف عند أسفل السلالم المؤدية إلى مسكن الأختين وراح يتوعدهما بالضرب وهو يتحرك على طريقة الملاكمين، تجمع الناس حوله من خارج الربع، تقدم صاعداً السلالم بصعوبة، وهو يتنفس بعسر، قابضاً على الدرايزين، عندما وصل لمنبسط الدرج توقف ليسترىح لدقائق، وقفت الأختان قرب مدخل الحجرة، اقترب أولاً من "روكية" وضربها ضربة قوية على خدها صائحاً: خنزيرة! عاهرة! خنزيرة!". وتلقت "حبيبة" التى كانت تحاول الهرب من خلفه، ضربة على رأسها، سقطت وتدحرجت على السلالم، دخل السيد "جوسب" بعد ذلك الحجرة، كانت الأختان ترتجفان من الخوف، وقفنا إلى جانب الباب لتريا ماذا سيفعل بعد ذلك؟!!

ظهر فى المدخل تواء، ممسكاً موقد الجاز البريموس فى يديه، والنحاس الأصفر يتلألأ فى الشمس، ثم قذفه من فوق الدرايزين، سقط الموقد من أعلى الدرايزين محدثاً دويماً، وانشطرت إلى أجزاء من جراء الارتطام بالأرض، ثم تتابع بسرعة قذف الأدوات المنزلية فى حمأة هوس التدمير الذى استحوذ على السيد "جوسب" . . . كسارة بندق، بياضات، ملابس، نظرت الأختان مرعوبتين، ضعيفتين، عبر المدخل الذى دخل منه مالك الحجرة، أفسحتا له الطريق مثل دمي متحركة، عندما ظهر ومعه بعض الأغراض.

صرخت "روكية وحبيبة"، فجأة، عندما ظهر السيد "جوسب" فى المدخل ممسكاً بإحدى الطفلتين، ألقيتا بنفسيهما عليه، حاول السيد "جوسب" مصارعتهما بيدٍ، بينما يقبض بيده الأخرى على الطفلة التى كانت تصرخ.

عند هذا الحد اندفع السيد "سولون" شاقاً طريقه وسط الحشد، وصعد السلالم، نحى جانباً الأختين بهدوء، وأمسك بالسيد "جوسب" من رقبته وراح يهزه، ثم أمسك الطفلة وأعطاهما لأمه، ودفع السيد "جوسب" دفعة شديدة فى إطار الباب حتى أن وجهه ارتد مصطدماً فى الجهة المقابلة منه، أبقى يده قابضة بقوة على السيد "جوسب"، وسحبه نازلاً السلالم، عندما وصل للأرض، أفسح الحشد لهما الطريق، وانفجر الأطفال مصفيقين، قاد "سولون" السيد "جوسب" إلى سيارته المرسيديس، فتح الباب، وبدون أية تحية دفعه داخلها، كان السائق عالماً بما يتعين عليه أن يفعل، فاندفع بالسيارة خارجاً من الربع.

لم نر السيد "جوسب" مرة أخرى لفترة طويلة، لكن الأختين قررتا أن السكن فى بيت رجل مجنون يعد مخاطرة، وأخيراً وجدتا شقة أخرى فى "نيوتاون"، ورحلتا.

تأليف : "أكمات دنجور"

على الرغم من أننا فى نوفمبر ، إلا أن رياح أغسطس مازالت تهب بشدة ، تحرق العيون مثل بول ساخن ، وليس هناك ما تفعله طوال اليوم ، خاصة فى أيام الأحاد ، ليس أمامك سوى شرب البراندى المخفف - الذى يصيبك بالخدر ! ، لأن كل الخمارات تركته مخزونا - والاختباء من الريح اللعينة ، ثم عليك تجنب ذلك الراهب الجديد شديد الفضول ، دائما يدس أنفه فى شئون الآخرين ، لكونه شابا قليل الخبرة .

يتدخل فى الخلافات الزوجية بطريقة عادية كأن هذا حقه ، وكأن ليس هناك ما يكفى من الفضولين الذين ينبشون فى حياتنا بالفعل .

فرجال الداخلية يسألونك : " ماذا كان أبوك ؟ وأبو أبيك ، وأبو أبى أبيك . . . أوه ، أنتم تعرفون بالطبع أننا مازلنا جماعة مختلطة ، حسنا ! ، أنتم تعلمون ، بيض وسود ، لكن هذا لا يشكل أى فرق لدينا . "

" أيها الناس نحن نريدكم أن تعيشوا فى منازل لائقة ، سوف ننقلكم من تلك الأحياء الفقيرة . "

" سيدى ، نشكرك على هذا الكرم ، لكن الشمس تشرق فى شارع "بايت" أيضا . "

أوه ، أوه ! ها هوذا قادم يهرول ، وحذاؤه يطرقع سليب ، سلاب .

كان الراهب مزينا بالأبيض والأسود مثل جثة ، وعلى وجهه تعبير مفرط الجدية ، ينظرونه مصمم حسب نظام طائفة الرومان الكاثوليك ، ببعض الكُسر الواسعة جداً ، ويمشى يخب سليب - سلاب ، سليب - سلاب .

يتوقف هنا وهناك ليلقى باللوم على بعض الضحايا المتوردين خجلاً ، لأنهم تغيبوا عن قداس الصباح المبكر ، وبرغم أنه كان مساعداً لراهب كاتدرائية شارع "سارتوجا" ، وهي كنيسة ضخمة بحق مثل الكنائس الكبيرة التي تستوعب الآلاف من الرعايا ، مع ذلك كان الأب "ستانلى" يعرف تقريباً كل واحد من رعاياها المقيمين فى "لافونتين" .

إذا سألتنى رأياً ، فإننى أرى أن تكريسه كان متشدداً ، وأن الأب نفع فى إنجيل التشدد ، بينما لا أحد يزعجه حزام الفقر فى "هيلبرو" أبداً ، مع أنك تجد المهاجرين اللاتين يستقطرون التقوى من أنوفهم الأيقونية ، ونحن سعداء لكوننا مهجنين ، أنصاف آدميين فى الظاهر ، لكن أرواحنا تنحدر من البيض ، ولأنه لكل خاطئ منقذ .

على أية حال ، ها هوذا يصل ، يعبر ماشياً بسرعة ملقياً نظرة خاطفة على كلا الجانبين ، حتى ولو لم تكن هناك سيارة لعينة على مدى البصر . "جورج" ، الذى يعمل بوردية الليل فى استبدال لمبات الشارع التى حطمها هو وأولادنا أثناء النهار ، يراقب قدوم الراهب بحذر ، واصل "جورج" تنظيف أظافره "بمطواة تقطيع التفاح" ، وهى مطواة فى حجم أكبر من المعتاد ، وعيناه المحتجبتان تحت غطاء رأسه يقظتان ، ليرى هل لدى الأب "ستانلى" أية نية للتوقف عند بوابة بيتهم؟

همس "جورج" لزوجته: "أررا ، ها هوذا يصل ! " ، وانسحب بسرعة للداخل البيت ، ظهرت زوجة "جورج" من متكئها مندفعة مثل صاروخ على الرغم من حمولة أردافها المترجرجة الضخمة، أدخلت أردافها إلى البيت وهي ترتطم وتحتك ببعضها مسببة لها ألماً.

يقف الأب "ستانلي" مكتئباً وحزيناً في المكان الذي كانت تقف فيه المرأة منذ لحظة منغمسة في شرب البيرة، يهز رأسه ثم يواصل رحلته، تاركا بوابة البيت مفتوحة ورائه ، يبرز "جورج" من المنزل ، ويمعن النظر بحذر في هيئة الراهب المتراجعة قبل أن يغلق البوابة وهو يسب ويلعن بأقذع السباب.

يطوف الأب "ستانلي" في نواحي شارع "بايت" ، وجادة "سيفرايت" ، حيث تلعب مجموعة من شباب الـ "أونز" وهم منغمسون في رياضتهم المفضلة، رياضة ساذجة، لكنها الأخشن والأكثر إزعاجاً في الحى .

"هاى ، انظر إلى ذلك " الليكربود! " ، يصل الأب الآن إلى قسم من جادة "سيفرايت" ، حيث تقف آخر المنازل ذات الشرفات الكبيرة ، تذكارات مفتته ، بالية لعصر عنيده ، عصر "بارناتوس" ، و"سيسل رودس".

نعست في استرخاء على شرفة قصر قديم فخم خمس عاهرات، كان الجزء الأعلى من المبنى مكسوا بالألواح الخشبية، والشعار التحذيرى المخيف، شعار الجمجمة والعظمتين المتصالبتين معلقاً هناك : (غير صالح للاستعمال، الدخول على مسئوليتك) .

نهضت ماريا ، إحدى العاهرات ، ومسدت شعرها بيدها النحيلة :
" هاى ، أب ستانلى ، هيا تعال إلى هنا . "

فوراً نهضت فتاة تدعى " أديل " ، وغمغمت بصوت خفيض :
سأدخل البيت .

تسأل ماريا : " هاى ، ديلا ، لماذا تجرين للدخل ؟ "

يرتفع ضحك خافت ذو مغزى من بين نهدي سوزانا الضخمين
المنتفخين ، وتصيح : " هاى ، ديلا ، سمعت أنه طلب منك يوماً آخر فقط . "

ردت " ديلا " من الداخل بسرعة : " هاى ، فويتسك "

" هاى ، تعالى وانظري إلى سراويل الحفل التى يرتديها اليوم "

ترد " ماريا " بينما الراهب لا يزال خارج مدى السمع : " أبى ، أبى ،
متى ستدعو قدماك بنطلونك لحفل ، انتبه الأب " ستانلى " إلى أنه موضع
مزاح الفتيات ، فأحمر خجلاً وارتبكت خطواته ، ثم رفع رأسه لأعلى
قليلاً

لا يجب أن يصلك انطباع بأن " دورن فونتين " قد ابتليت بالبغايا أو
المشردين ، أو أن مثل هؤلاء الناس المبتدلين أمر سائد فى هويتنا القومية ،
وبرغم ذلك ، زلت قدم الأب " ستانلى " المبعجل فى الأرجل الممددة لأحد
السكارى الذى كان راقداً على مقربة ، حدث هذا عندما رفع عينيه ناحية
السماء فى ارتباك لأنه كان هدفاً لمزاح داعر .

تحت دعوة تجديد المدينة ، ذك آباء المدينة بيوتنا الواسعة ، وقسموا
الأرض إلى قطع كثيرة ، وذلك اجتذب كل هؤلاء غير المرغوب فيهم ،
فقد أغرت الأماكن المهجورة كل البشر المنبوذين .

على أية حال ، يرقد الأب "ستانلى" هناك ، منبطحا على وجهه ،
والدم يتدفق من أنفه .

يزحزح المتشرد ساقيه ثم يروح فى النوم مرة أخرى ، يحاول الأب
"ستانلى" النهوض على يديه وركبتيه ، واستجماع حواسه من الدوخة .

ظهر التعاطف الطبيعى لدى العاهرات مع من يسقطون ، فهرعن
لمساعدته ، والقول الأكثر دقة: إن "أدىل" ، التى كانت منذ لحظة ترفض
مجرد الإيحاء بأية علاقة مع الراهب ، هى التى تحوط الآن الأب
"ستانلى" بذراعيها وتساعده على الوقوف .

فى هذا الوضع ، شاهدناه جميعاً فى يوم الراحة المقدس العاصف ،
واقفاً فى جادة "سيفرايت" وذراعه يحيط بالعاهرة النحيقة "أدىل" ،
ورأسه يرتاح على كتفها .

ونحن قوم بسطاء لا نميل للنبلش تحت السطح ، نأخذ الأشياء حسب
مظهرها . ها هوذا وجه الأب "ستانلى" صورة لعينة للنعيم ، والأكثر من
هذا ، إنه مع تلك المرأة النفاية فى وضوح النهار . . . و يكفى هذا يا سيدى .

بقى سؤال محير .

لماذا "أدىل" بالذات هى التى هربت داخل البيت عندما اقترب
الراهب ، ثم اندفعت فيما بعد ، قبل زميلاتها لمساعدته ؟ أكان هناك شىء
أكثر مما تراه العين ؟ فى هذا الوقت لم نكن نعرف ، ما نعرفه حالياً بالضبط
أنها تمارس تجارتها المريبة خارج "جويبرت بارك" ، وأن سلعتها هى مجرد
الظهور بفستان "محزق" ومكشوف ، تمشى وذراعاها يلتفان حول نحولها ،
حول جسمها "البناتى" ، وبلا جدوى تستجمع قواها أمام ريح عديمة

الرحمة ، بلغت "أديل" عامها الواحد والعشرين فى العام الماضى فقط ،
إلا أنها بالفعل أم لصبى فى الخامسة ، ربما هذا هو سبب انجذابها للأب
"ستانلى" ، وربما يرجع عطفه عليها لتذكره لنشأته فى تلك الشوارع
ذاتها .

هناك أحكام جائرة لدى الناس غير المبالين مثلنا ، مثلاً ، إن ابن
العاهرة سيقبى ابن عاهرة ، إذن ما الأمر !

من هذه اللحظة ، سيقاسى الرجل المسكين محنة مُعذبة ، يصير الأب
"ستانلى" بتهور على إقامة قداس المساء ، على الرغم من تأذيه وانزعاجه
الواضح ، يقف الآن عند المذبح ، عصبياً بشكل ظاهر ، يلقي موعظته
بصوت أجش ، وطرف أنفه يتنفخ ليستعيد سيطرته على نفسه .

تعاطف المصلون من "هيلبرو" والأماكن الأخرى مع الراهب ، أما
رعايا "دورى" فلم يكونوا مثلهم ، أوه ، لا ! الرعايا المستقيمون ضمن
جماعتنا - رجال الأعمال والموظفون الذين يسكنون فى شارع "سميت"
بالطرف القصى من منطقتنا - حدقوا فى الأب "ستانلى" بنظرات عدائية .
هؤلاء "الديكيك" أعضاء ذوو ثقل فى مجلس الأبرشية ، والحال ، هى
أننا مجرد قتلة نبيح لأنفسنا إصدار أحكام غيائية من أجل مصالحنا ، بالفعل
أخذوا يخططون لطرد الأب "ستانلى" .

أما على جانبنا ، فإننا نستمتع أيضاً بورطته بالضحك والسخرية ،
وهى الطريقة ذاتها التى نعالج بها مشاكلنا ، فى الواقع ، علق أحد الشباب
الساخر على ذلك بسرعة ، بأنه أمر غير طبيعى لرجل أن يحرم نفسه من
المتع المبهجة التى تقدمها واحدة مثل "أديل" .

لا يريد هذا الشاب الذى يسكن فى الشارع المجاور لشارع "أديبل" أن يفهم أياً من تفسيراتنا السطحية عن مهنة ورسالة الأب "ستانلى" ، وقال بطريقة مهيبة : " ماذا إذن فى كونه راهباً كاثوليكيًا ؟! ، إن لديه عضواً ، أليس كذلك ؟ "

ومن ساعتها، جرت معركة بين هؤلاء الذين يعتقدون أن الراهب مادام قد وافق على أداء رسالته، فإنه يجب أن يكون فوق المآخذ الإنسانية، وبين هؤلاء الذين يوافقون على أن مثل هذه الحماقات هى جزء من الرسالة الإنسانية ، كل ذلك يجرى ، بلا أية أوهام عن العدالة، إنها مسألة بسيطة إما أن نسامحه أو لا ، ونحن الذين فى الجانب الآخر من شارع "سميت" سوف ننسى بسرعة، وبذلك الوسيلة نسامح، لكن الـ"ديكيك" خرجوا لسفك الدماء.

" هل لأنه يطوف بالشوارع محاولاً إنقاذ الجميع ؟ "

" نعم ، لأنه يريد أن يكون مُخلصاً بدلاً من أن يؤدى عمله كراهب".

والكهنة حفظة قانوننا الأخلاقى قساة فى مهمتهم ، يختفى الأب "ستانلى" من المشهد ، وحسب الطبيعة الإنسانية المحزنة، يختفى من ذاكرتنا أيضاً، تساؤلاتنا القليلة التافهة واللامبالية أشبعت بسهولة .

" إنه فى المعتزل " أو بضيق: " إنه يؤدى الكفارة".

الأسقف الهرم ، الذى شوهه فى مناسبات عدة ، والذى نادراً ما استطاع الاحتفاظ بعينه مفتوحتين، لم يرد تحمل تبعة أعمال راهب فضولى، فرغم كل شيء، فإن العجوز المبجل أصبح على وشك التقاعد،

ويريد أن يحفظ الأب "ستانلى" فى الثلج، حيث إن الأسقف الجديد يمكنه تجميده هو ذاته إذا استمر الراهب الشاب على قيد الحياة فى العمل المنطوى على المخاطرة فى أثناء بحثه عن خلاص روحه.

كان شهر ديسمبر، خمدت رياح أغسطس أخيراً، أو ربما عادت إلى "كرالها" - مشيعة بدعواتنا، ازدهرت الحدائق مرة أخرى والنباتات "المعترشة" التى كانت تتلوى مشوهة المنازل، لمعت بخضرة بهية عبر الطريق، كذلك ازدهمت "الخرابات" بمعمريها وهم خليط من البشر، منهم من بذراع واحد، أو ساق واحدة، كانوا يعودون كل مساء من المدينة بمزاج مرح بعد يوم شحاذة موفق.

ولأن الكريسماس على الأبواب، لذلك تزايدت أعدادهم ومكاسبهم، والعاشرات أيضاً كن فى رواج تجارى، فالمهاجر المتسرب للبلاد والمضيق عليه، قد أدخل تحسينات درامية على وضعه.

لكن أيام "أديل" وزميلاتها كانت معدودة، فقد نُصب أسقفًا جديدًا، والأسقف العجوز الآخر ذو النظرة المتعبة، تخلص من عبء عباءته الثقيل وعاد لموطنه أيرلندا، وهناك، أتاحت له لجنة المجلس الكنسى الأيرلندية الموت فى سلام.

الزعيم الروحى المحلى الجديد، رجل شاب مثلما يجب أن يكون الرهبان عادة، نفش شعره القصير المجعد، وأعلن فى خطبته: "نحن لسنا هنا لنمد يد العون للأصحاء والمستقيمين فقط، نحن هنا لنعيد إلى الطريق القويم أولئك الذين ضلوا الطريق، فالخطيئة والإثم ليسا من المتعذر تغييرهما".

ظننا أن ذلك لن يؤثر على جماعتنا من "الليكرهوس" ، فالبغاء ليس خطيئة ، بل هو عيب فحسب .

كنا نعرف القليل عن أسقفنا ، كان يدور ذات الدورات التي كان الأب "ستانلى" يقوم بها ، لكن بحنكة ورباطة جأش أكثر ، ثم ، كما كان متوقعا ، فإن حجم الأعمال الكنسية صارت كثيرة جداً عليه ، وبسبب رعب "الديك" الذين سادت بينهم الفوضى بالفعل ، أذاب الأسقف الثلج عن الأب "ستانلى" ، وأرسله إلى الشوارع مسلحاً برخصة الإصلاح ، ها هوذا الراهب الذى زحف ذات يوم عبر الشوارع الخالية وتعثر فى أحد المتشردين ، يدخل الآن عامه الجديد بخطوة واثقة ، قيل له : " لديك الفرصة لتصلح من صورتك فى عين الجماعة ، اعمل وسط هؤلاء الذين ضلوا طريق العيش اللائق ، خلص روحك . . . وخرج لينقذ ، وكان الأب "ستانلى" يتقد بالنار ، تلك النار التى تطهر العالم أو تحرقه .

تجول داخل وخارج أوكار الفساد ، يناشد هنا ، ويضرع ويصلى هناك ، كان يرى فى مركز الشرطة وهو يضع فى كيس الكفالة للبغايا اللاتى بعن سلعهن بطريقة غير قانونية ، أو فى المستشفيات هامساً بكلمات المواساة للفتيات الشاحبات المحمومات اللاتى يمتن بسبب أمراض البغايا المهنية .

نظرت العاهرات لجهود الأب "ستانلى" بعين الرضا ولم يعدن يزدرينه ، فقد زودهن بفوائد جد حقيقية ، فقد كون نوادى صغيرة للأطفال تستضيفهم لأن أمهاتهن "ذهبن لأعمالهن ليلا" ، وشكل منهم "كورالاً" أطلق عليه تسمية ملائمة تماماً "ملائكة الليل" ، فكان الصوت المخملى الناعم لذلك الكورال يسرى فى الليل مثل نور الشوارع السوداء .

كان الأب "ستانلى" مغرمًا بولد معين بشكل خاص، إنه "جون" ابن "أديل" ذو الخمس سنوات، فقد كانت الفتاة المسكينة داخلة خارجة من وإلى المستشفى، لأن بنيتها لم تكن قوية بما يكفى لتحمل قسوة مهنتها.

حل موسم المطر، البلل والطين والقذارة، غمرت الوحشة الشوارع، وانتهى موسم الأعياد، وعاد المعربدون إلى منازلهم، عادوا إلى طمأنينة الكسل، إلى الحالة العادية، فقد بدأ موسم الزوجات مرة أخرى، وعادت العاهرات ينشبن أظفارهن - غالبًا فى بعضهن البعض - بحثًا عن العمل ولقمة العيش.

كانت الساعات أطول، والبوليس أقل تساهلاً، والطقس أسوأ، حل الشتاء، باردًا وعاصفًا متوعدًا، جفت الحداثق ووقفت الأشجار عارية بلا زينة.

والعاهرات، مثل أغلب الناس الذين اضطروا للعيش بطريقة محفوفة بالمخاطر، كن يتطيرن ويخفن "سوزانا"، "وماريا"، والأخريات، اللائي أقمن فى جادة "سيفريت"، اعتقدن أن "أديل" ومرضها المستمر، سبب أساسي فى تعاظم سوء حظوظهن، فقد تزايدت مضايقة البوليس، والطقس كان باردًا بطريقة غير معتادة مما أبعد الزبائن.

"إنها هى الحظ السيئ عينه، مرضها المستمر جعلهم يظنون أننا جميعا مصابات بالأمراض التناسلية."

لهذا طردت "أديل" من المنزل بموافقة الأغلبية، وخوفًا من أن يستهدفهن النحس، ولكى يسكن تحجر قلوبهن، أرسلن رسالة بذلك للأب

• "ستانلى" ، وجدها وطفلها يرتعدان فى "الخرابة" التى كان سكانها يمورون ببريق الرغبة ، وعيونهم الشهوانية تلتهم الشابة الجذابة ، قادهما عائدتين إلى منزلهما ، لكن رغم حججه الكثيرة وتهديداته ، إلا أن العاهرات لم تلتن قلوبهن ، بل حرمن على الأب "ستانلى" الاقتراب من المنزل ، وبذلك حرمنه من القسم الأعظم من رعاياه .

مشى فى الشوارع مع المرأة المحمومة وابنها نائم على ذراعيه ، أخيراً ، بعد أن لجأ إلى وسائل عنيفة أكثر منها متملقة ، وجد مستقراً لـ "أديل" وابنها فى حجرة مفروشة قدرة بشارع "روكى" .

" تأتى غداً وتصطحبها بعيداً ، لا أريد هذا الوضع السيء فى بيتى ، فأنت تعرف أننى قد أفقد تصریحى ، فهذه منطقة البيض " .

عاد الأب "ستانلى" إلى صومعته ، وقضى ليلة مسهداً يشق عليه الأمر ، أيثق فى الأسقف ويخاطر بإفشاء حقيقة تشظى رعيته ، والولد ! بالتأكيد سيرسلونه بعيداً ، وهذا سيكون منتهى القسوة على "أديل" التى فى رأى الأب "ستانلى" ، ليس أمامها فى الحياة إلا شهور قليلة .

لا حاجة للقول : إن الأب "ستانلى" لم يأتمن رئيسه على أسرارهِ ، عاد إلى النزل ، حيث أستقبله المالك بعاصفة من الغضب ، " آه ، سيدى الراهب ، أى بلاء جلبته لمنزلى ؟ هذه الفتاة ظلت تصرخ طوال الليل مثل المجنونة ، وقد اضطرت لإسكاتها مرتين ، فقد أزعجت نزلائى الآخرين ، وقلت لهم : إن الراهب هو من أحضرها ، وأنا لا قبل لى بالعراك مع الرهبان ، وهم يقولون : إنها عاهرة ، وكيف أن مجرد ياقة تجعل من المرء راهباً ، سوف ترحل مع صديقتك ، إه ؟ "

مشى الرجلان فى الدهليز الكئيب ، صرفت أبواب ، وحدقت عيون
بمكر .

قلت لهم : " إننى واثق بأنك راهب ، كم منهم صدقنى ؟ كم منهم
سيرحل ، إه ؟ الآن من فضلك ، احملها بعيداً عن هنا ، إه ؟ "

من مكان ما شقت عاطفة طريقها بصعوبة ، وتدفقت بالحياة : " إن لم
يكن لأجل خاطر الولد ، كنت ألقيت بهما فى الشارع الليلة الماضية ،
ولأنك راهب . "

سحب الأب " ستانلى " الستائر ، رشحت الشمس الشاحبة على وجه
" أديل " ، نظرة واحدة إلى خديها الملتهبين الغائرين دفعا الراهب للتصرف .

" استدع طبيباً " ، وأسكت اعتراضات صاحب النزل بإشارة مقتضبة
من يده ، " ها هوذا الرقم ، أخبر الطبيب أن الأب " ستانلى " هو من طلب
منك استدعاءه . "

ظل الطبيب الخبير يقرر بأسف على حالة الفتاة ، ثم أعلن بعد أن
حقنها بحقنة مرعبة : " فى الوقت الحالى ستعيش . "

" أبتاه ، لا أريد معرفة مهنة هذه الفتاة مهما كانت . "

" ش . . . ش ا " ، ثم وضع إصبعه على فم الأب " ستانلى "
عندما حاول التفسير ، " إنها مصابة بمرض تناسلى فى مرحلته المتقدمة ،
أدخلها مستشفى ، ويعد ذلك . . . حسناً ، ربما تشفى ، الله أعلم ؟
إنك تدعوه . "

" كم . . . ؟ "

" لا تدين لى بشيء ، فأنا أودى بعض الخدمات مجاًناً ، ربما تصلى لأجل روحى " .

توقف الطبيب عند الباب ، " ستانلى ، سامحنى إذا كنت طرحت كلمة أبتاه لبرهة ، فإذا تجاوزنا عن كلمة أبتاه ، فأنت فى مثل عُمر ابنى ، لقد عرفتكَ منذ كنت طفلاً ، كيف حدث وأصبحت راهباً ؟ كيف أصبحت راهباً فى " دورن فونتين ؟ "

" القدر ، القدر وأمى "

" آه أمك ، حسناً ، وداعاً أبتاه "

وقف صاحب النزل ينقر على رأسه عند المدخل متفائلاً .

هدأ الأب " ستانلى " . ثم قال : " سيد باتل ، آسف لما سببته لك من إزعاج ، لكننا نحتاج لسيارة إسعاف . "

" لا . لا . لا ! الإسعاف تجلب الناس ، يأخذون فى التحديق ، والثرثرة ، هذا ليس حسناً لسمعتى ، ولا لك أبداً ، إه ؟ "

صدرت عن الأب " ستانلى " تنهيدة حزينة .

قال السيد " باتل " مقلداً الطبيب : " أبى ، انظر ، لدى سيارة ، ليست مثالية ، لكنها تصل بصديقتك للمستشفى ، إنها صديقتك ، أليس كذلك ؟ "

ومن عيونه أطل بريق خبث متقد .

كانت تمطر بالخارج مطراً رخواً متواصلاً ، يدعوونه بالأفريكانية
"موطيرن" ، نظر بالمصادفة فى المرأة التى تكشف الخلف ، أو على الأصح
نظر إلى الأب "ستانلى" الذى كان يوسد رأس المرأة المريضة حضنه .

توقف عند مدخل المستشفى ، ورفعت "أديل" على النقالة ، وضع
الأب "ستانلى" بسرعة حفنة من الأوراق المالية فى راحة السيد "باتل" .

" هاى ، سيدى الراهب "

" أهذا كاف ؟ "

هز السيد "باتل" رأسه بأسف .

"إنه كثير جداً، أبتاه ، إن لى ضميراً ، على الرغم من أننى أسود ،
بالإضافة لأنك راهب ، حظاً طيباً ."

قضى الأب "ستانلى" الشهور التالية فى رعاية ابن "أديل" ، وبغير
نجاح ، حاول أن يعيد بناء علاقته مع رعيته ، وانقطع الخيط الهش من
الولاء الذى كان يربطه وعاهرات جادة "سيفرات" ، فعلى الرغم من
وجوههن المبهرجة ، والحلى الأخرى المثيرة ، فإن العاهرات نساء
متشككات فى طيبة الدوافع الإنسانية ، ويسخرية كن يعتقدن أن للراهب
غرضاً خاصاً هو: امتلاك أديل .

قالت سورانا: " فليأخذها، إذا كان هذا الراهب يريد قطعة من
التوراة، فإن هذا شأنه، لكنه لا يجب أن يعظنى!"

" هاى يا رجل أرحل ، ألا يمكنك أن تترك إنساناً يشرب اللىكور،
هيه ؟ "

كل ليلة كان يعود إلى الكاتدرائية متعباً وخائب الرجاء ، لا تواتيه
الجرأة على البوح بفشله لأى من زملائه الرهبان خوفاً من التخلي عن كل
الحملة الإصلاحية المستحيلة، ماذا قد يحدث لابن "أديل" ، ولـ "أديل"
ذاتها التي كانت تتحسن بالمستشفى ببطء ، ولكن باطراد ؟ فقد كان يعتقد
أنه مصدر طمأنينة وقوة للمرأة ، وكان قد رتب إقامة الابن فى دار أيتام
كاثوليكية مع ترتيب يضمن عدم إبلاغ السلطات بهذا الأمر، وقد كلفه ذلك
الترتيب الكثير من التملق والتوسل ، والجزء الأكبر من راتبه الضئيل كل
شهر .

دفع الأب "ستانلى" لقاء خداعه الكثير من تعذيب الضمير، فكان
يصلى لساعات وهو راکع على قدميه، راجياً من الرب السماح والهداية،
وقد كوفئ بتيسر الأطراف ، وفى النهاية، بعد هذا الاستنزاف الشديد ينام .
كان ابن "أديل" هو وميض البهجة الوحيد فى حياته ، فقد كانت عيناه
مثل ومضة متألقة، تلك النظرة التي افترنت بها حتى الرئيسة الأم المتزمتة
لدار الأيتام .

أما "أديل" ، فهي الآن متجردة من قناعها المبهرج اللفظ كعاهرة ،
واكتشف فيها امرأة ذكية وفى غاية الرقة، كثيراً ما كان يجلس معها فى
جناح المستشفى، ذلك الجناح المبيض باللون الأبيض الغامق، يتحدثان معا،
ولبراءته راح يخطط لمستقبلها، أوجد لها ولطفلها مسكناً . وسوف يجد لها
عملاً، كان عقله يلهث وراء الأوهام والآمال، بينما هى راقدة شاحبة
وضعيفة، مستندة إلى الوسائد مبتسمة له ، ياله من وقت مفعم بالحياة
عاشه الأب "ستانلى" ، كان عُمراً طالت أحزانه، بطول زمن رياح
أغسطس ، بطول زمن الأمطار ، زمن طال بلا جدوى وبلا أمل .

خرجت "أديل" من المستشفى عند نهاية الشتاء ، ولم يكن الصيف قد حل بعد ، الأب "ستانلى" والصغير "جون" ، انتظراها عند البوابة والمطر يسيل على وجهيهما ، لكم تغيرت الآن ! بلا أية مساحيق ، دون رداء المستشفى البشع الذى ظل يراها به طوال ثلاثة أشهر ، تحول جمالها "البناتى" الذى كان قد تلاشى أثناء المرض ، إلى تمثال منحوت لفتنة الجمال فى ضعفه .

طاف بذهنه ظل من الخوف ، لكنه نحى هذه الأفكار العاصية ، أدخل الأم والابن المتعانقين التاكسى المنتظر ، ثم وجه السائق إلى عنوان فى "بيريا" .

مرة أخرى عصفت الرياح حتى أغلقت القرية ، وهزت زجاج النوافذ فى أطرها الخشبية ، الأب "ستانلى" و "أديل" كانا قد فرغا من عشاءهما توا ، و "جون" نائم فى سريره الخاص لأول مرة فى حياته ، جالت عينا "أديل" بالكوخ الصغير النظيف المرتب ، نهضت وعانقت الأب ستانلى .
" لا أعرف كيف أشكر " .

فى أول عهده بالكهنوت ، كان يقمع أية رغبات جسدية بضراوة ، ودفع غالبا مقابل أية فكرة متمرده ، حيث كان يردد "السلام المريمى" ألف مرة ، الكفارة والعقوبة الذاتية أحمدا فى أية عريضة عاطفية ، وفيما بعد رقدت غرائزه محبوسة فى صندوق حديدى بمكان ما فى روحه ، الآن ، وبعد عشر سنوات من التقيح والمنى الخفى ، ها هى ذى تتسرب من سجنها الحديدى وتسرى فى عروقه بالعرشة .

" أبتاه ، إنك تؤلمنى "

رفع رأسه عن كتفها ، وأطلقها .

غطى وجهه القرمزى العار والحنق . . " سامحيني ، سامحيني . "

نظرت " أديل " بذهول لوجه الراهب القانى المرتعد .

" ستانلى " ، " ستانلى " ، لماذا لم تقل لى "

احتضنت رأسه برقة وقبلته على فمه وهى تسحب جسده إليها ، عشر سنوات من الانفعال المؤلم انفجرت فى سرواله ، وراحت " أديل " تمسد شعره .

" طيب ، طيب ، أفهم ، مضى زمن طويل جداً ، سوف يكون هناك وقت طويل آخر " .

فقد شجاعته وانهار فى نشيج حار منكس الرأس : " لا ! لا ! . " لمست " أديل " ظهره المرتعش ، نهض ، ودفعها جانباً بفضافة هارباً ، ظل يعدو طوال الطريق عائداً إلى مأواه ، كأن الشيطان يلاحقه ، والمنى المبدد فى سرواله مازال طازجاً ولزجاً .

لأيام عدة بعد ذلك كان يُرى وهو يحك جسمه بشدة بفرشاة البلاط التى يحك بها أرضية حجرة الاجتماعات ، جُرح وتمزق ظهره ، مع ذلك ظل مثابراً على هذا العمل ، كأنه ابتلى بداء رهيب ، ورقد عارياً على أرضية حجراته وراح يصلى باستمرار .

أما الأسقف ، على الرغم من خوفه على صحة الراهب ، إلا أنه لم يعترض سبيله فيما يفعل ، فمهما كانت خطيئته ، فإنه وحده سيكتشف كفارته الخاصة ، وسيجد الغفران طريقه إليه .

ذات يوم هزه أحد الرهبان وهو يرتل صلواته المتصلة .

" أب ستانلى ، أب ستانلى ، هناك ولد صغير جاء ليراك "

ظل مبهور الأنفاس ومشى يتعثر فى اتجاه الحديقة ، وكان يساعد
ساقيه المتخنتين الواهنتين بالاستناد إلى جذران حوائط الرواق .

" چون . "

" مرحبا ، أبتاه "

" ما الذى تفعله هنا ؟ "

بدا الولد قدرا وشعثاً مثلما كان دائما .

" جئت لأراك يا أبتى "

" لما تبدو على هذه الحال ؟ أين أمك ؟ "

نكس الولد رأسه فى خجل ولم يرد .

" أوه ، يا إلهى ، ليس ثانية . "

كان الأب ستانلى قد نسى أن يدفع الإيجار ، ربما طردوا ، والباقي
سهل معرفته ، اضطرت " أديل " لاستئناف عملها القديم .

" لم أر أمى منذ أسبوع "

بسرعة اغتسل ولبس ، واستعاد وجهه الكابى وعيناه الغائرتان رباطة
الجأش ، بحثا فى المستشفيات ومراكز البوليس ، وكل أماكن اصطلياد
الزبائن المعروفة ، لكن لم يجد أثراً لـ " أديل " .

عادا متعين لصومعة الأب "ستانلى" وتناولوا العشاء ، الطريقة النهمة
التى كان يأكل بها ضيفه ، بينت له قدر معاناة الولد ، معاناة شاقة أكثر من
معاناته بكثير ، ها هوذا يعرف المعنى الحقيقى للخطيئة .

جلس الأب "ستانلى" خارج مكتب رئيسه والولد جالس على
ركبتيه ، قبالة جلست مجموعة من " الديكيك " العابسين فى أرويتهم
السوداء ، وكان أحدهم يمشى جيئة وذهابا فى الردهة بحذاء يصرف .

أدرك الأب ستانلى لِمَ استدعى .

فُتح الباب ودخل الوفد مكتب الأسقف .

لماذا يبدون متشددين جداً .

" إنهم فى نوع من السجن أيضا .

" أوه "

فى الخارج هبت الرياح باردة ، وغسل المطر النافذة ، الدموع على
الخدود المصطبغة مثل سطح جرح ، ورجل يمشى بالجوار ، ثم يتوقف ناظراً
لِلنافذة ، كان يروم هذا الدفء الندى ، ربما كان راهباً أخرج يتلمس طريقه
فى ممر ضيق بينما يكتنفه الغموض ، لقد امتزجت حياته بشوارع "روكى" ،
و"بايت" و "كورى" مثل مطر فى أرض بكر عطشى .

كان الأب "ستانلى" يفكر فى بدايته الخاصة ، هنا فى تلك الشوارع ،
إذ ربما ، هناك تحت شجرة كانت ترشح بضوء النجوم وقطرات المطر ، بذر
رجل غير معروف بذرتى ، ربما كان مدفوعاً بجوع عورته ، وكانت أمى
خادمة شابة من "كاروو" غير معروف .

فُتِحَ الباب وانسل منه الوفد وهم مبتسمون بفخر ، كأن شخصا ما
شق حلوقهم غير التقية ، " هبت العاصفة " ، اعتاد أسلافه فى القرية
مداواة النفوس التى يتلبسها الشيطان ، وكان العلاج عنيفاً وقاسياً جداً على
المريض المسكين ، إن قدرة الشيطان على البقاء حياً غير عادية . فى هذه
اللحظة يمشى الشيطان . . فى سواد كامل . . وحذاؤه يصرف فى الردهة .

" أبتاه ، إننى مبلل من المطر "

كان صدى المطر يترجع على الأسطح المنخفضة من حولهما :
" بنج - بانج "

" لماذا لا تثق بنا ؟ "

" إننى أثق بالله "

" أبتاه ، أنت على حافة التجديف ! "

" لا : إن حدوده بداخلى ! "

" يا بنى ، أنت مشوش "

" ليس أكثر ولا أقل من العالم ، ليس أكثر من البذور التى
بداخلى "

" إنهم يعرفون أنك ملون "

" لم أنكر ذلك ، والحياة تفسد اللون "

" أبتاه ، لا تتلاعب بالألفاظ ، إنهم يتذرعون بذلك للقضاء عليك . "

" وأنا لا أقضى على نفسى "

- " والمرأة ؟ "
- " إنها امرأة ، ملاك ساقط "
- " والطفل "
- " إنه تذكيرة لى "
- " أب ستانلى ، هل أثمت ؟ "
- " منذ صرختى الأولى ، والأخيرة "

الطريق إلى 'ميجاوى'

تأليف : 'كين ليبينجا'

رغم أن الأوتوبيس حمل أكثر من سעתه وأصبح مثل علبة السردين ، مع ذلك ركب بعض المسافرين من ' تشيكاتيل ' زيادة عن حمولته ثم استمر فى طريقه ، الطريق مخضل بالماء ومطر مارس المتواصل يطرق بنعومة وبلا انقطاع على سطح الأتوبيس ، خارج الأتوبيس تقف بكسل الذرة الناضجة فى الحقول ، ثملة من كثرة المطر ، الموسم المطير المظلم الطويل الثقيل اقترب من نهايته ، وعاجلاً سيقوم الناس بالحصاد .

لكن ، لا الطريق الموحد ، ولا الحصاد الوشيك يمثلان شيئاً جديداً أو مثيراً بالنسبة لى ، فلتسع سنوات كنت قاطع تذاكر الأتوبيس ، ولا تحصى تلك المرات التى كنت فيها على الطريق خلال هذه السنوات التسع ، سواء كان موسمًا ممطرًا مثل الآن ، أو أمسيات سبتمبرية متربة ، أو صباح بارد من يونيو ، فهى كلها سواء بالنسبة لى .

إننى دائماً -وباستمرار - أرغب فى شىء واحد . . أن أصل إلى نهاية الرحلة بأسرع ما يمكن ، ويبدو أن أمنيته لن تتحقق أبداً ، حيثئذ أحس بأنى مربوط إلى نفس الطريق كل يوم منذ أن بدأت العمل ، أقسم أننى أعرف تاريخ حياة كل جسر ، وكل حجر وكل شجرة فى الطريق من 'ليمبا' إلى 'ميجاوى' . كل ماضى على الطريق ، كذلك حاضرى ، ولا يمكننى تخيل

المستقبل بعيداً عن هذا الطريق، الطريق من "ميجاوى" والوصول إلى "ليمبا"، ثم العودة مرة أخرى إلى "ميجاوى" . . .

أجد قليلاً من المتعة في تذكر ماضى قبل أن أعمل قاطع تذاكر، أعرف أننى ذات يوم كان لى أب وأم، وأنا عشنا ذات يوم فى كوخ صغير، بمزرعة كبيرة للشاى فى "ميولانج"، لكن بالنسبة لهذا الجزء من الماضى، بقى منه فى ذاكرتى شىء غائم مثل حلم، مات والدى عندما كنت صبيّاً، لدغته أفعى فى أثناء عمله بالمزرعة، وعاشت أمى، تبيع الـ "كاتشوشو" حتى ترانى فى المدرسة الابتدائية، عندما تحقق لها هذا الهدف، راحت تغرق نفسها فى شرب الخمر حتى ماتت فى ذلك اليوم الذى كنت راجعاً فيه إلى البيت بأول مرتب لى، وقطعة القماش الـ "تشيندو" الجديدة التى اشتريتها لها استعملت فى تغطية نعشها.

لى أيضاً أخٌ أكبر كان قد ذهب للعمل بالمناجم فى جنوب إفريقيا، فى أول الأمر اعتدنا على مراسلة بعضنا البعض، ثم توقف أخى عن الرد على خطاباتى، فتوقفت عن الكتابة له.

يتوقف الأتوبيس عند محطة من المحطات العديدة، فأسأل بصوت عالٍ إذا ما كان أحد سينزل هنا، لا يرد أحد، وبناء عليه، يبدأ السائق فى إدارة محركه ويتحرك الأتوبيس، لكن بعد ثانية يدق شخص ما الجرس، فيتوقف الأتوبيس مرة أخرى.

يقول رجل وهو ينهض واقفاً من مقعد ليس بعيداً عني: "إننى نازل هنا"، وبينما الرجل يشق طريقه للنزول، يرفع العديد من الركاب عقيرتهم بكلمات غضبى، غير صالحة للنشر، لا أوجه للرجل الذى تسبب

فى إقفاف الأؤوبفس أى ؤأنفب؁ فىؤدى بب ذلك إلى أن أرشق أنا أفضًا ببعض الكلفماؤ البذفئة .

قبل أن أصفب قاطع ؤذاكر؁ كنؤ أعمل مساعؤًا فى مأبئر مأطة أبحاؤ الشأ؁ وكاؤؤ وظفؤى أن أجلس طوال الفوم وأسجل قراءاؤ آلات غربفة ومعلقة؁ والؤى قفل لى : إنها ؤقفس نسبة ؤكنة الشأ المصنع؁ لم أفهم قط معنى ؤلك القراءاؤ؁ وؤع جانبًا معرفة كفف ؤوصلؤ الآلة إليها؁ لكن رؤفسى قال لى مرارًا إن وظفؤى ذاؤ أهمة كبرى فى ؤحسن الشأ؁ حتى هذا لم أفهمه؁ رغم ذلك أفسؤ ببعض الفخر لمساهمؤى فى أمر له بعض الأهمية؁ ثم؁ صرؤ أؤعب بسرعة من الجلوس فى الموضع ذاؤه وؤسجل نفس الرموز فومًا بعد آؤر؁ رؤابة العمل هؤؤؤنى بالجنون؁ فؤركؤ الوظففة بعد عام واءؤ فقط؁ قلت لزملاؤى عنؤما ؤركؤ هذا العمل : " أرفؤ وظففة ممتعة؁ سأعمل قاطع ؤذاكر؛ فهذا العمل به ؤنوع؁ ناس مأؤلفون؁ وأماكن مأؤلفة كل فوم "

ؤق الجرس مرة أخرى؁ وؤوقف الأؤوبفس لإنزال بعض الركاب؁

قال واءؤ من بب هؤلاء النازلن : " لى ؤرابة على السطح "

وقال آؤر : " وأنا لى كفس ذرة "

أقسم أننى أعرؤ السبب الذى جعلنى أشفخ وأصفب نأفًا . . فأؤناى صارؤا مؤعبؤن من سماع مثل هذه الأشياء؁ لقد سمعؤها مئاء المراء؁ لا؁ بل آلاف المراء؁ وكؤؤ أؤعو ؤائمًا أن فبؤى الفوم الذى فرحمنى الركاب فىه من هذه الكلفماؤ .

وصل الأتوبيس إلى أسوأ جزء من الطريق وراح يتحرك ببطء، أخذ السائق يورجح الأتوبيس من جانب لآخر محاولاً السير في الأماكن الأقل وحلاً، كم من مرة انغرزت العجلات في الوحل، وكان الركاب يضطرون للمساعدة في دفع وتحريك الأتوبيس.

أقول بصوت عال دون قصد مني: " متى سنصل إلى " ميجاوى؟
يسمعنى السائق، ينظر في ساعته وهو شاعر بالذنب، ثم يقول: " لا بد من أن نكون هناك في تمام الخامسة "

السائق رجل عجوز جداً، يعمل سائقاً منذ أكثر من ثلاثين عاماً، تجاوز سن التقاعد بكثير، مع ذلك فإن كل محاولات " شركة النقل الوطنية " لإقناعه بالتقاعد قد فشلت، لم يفهم أحد لماذا هذا الرجل العجوز، غريب الأطوار - والذي يقال عنه : إنه غنى جداً - يفضل التعب على الراحة في البيت؟! ومع ذلك أشك أنه سوف يموت وهو على الطريق.

فهو خلف عجلة القيادة يبدو رشيقيًا ونشطًا، فترتخي إحدى عينيه على المجسمات، والأخرى "صاحية" على الطريق، يتلوى بالأتوبيس كأن قوة تدفعه إلى تابوته قبل موعد موته.

تمايل الأتوبيس بشدة عند موضع مقلقل، مرتقى صاعد خلال الطين الزلق، وعدة نهيرات تقرر مياها حافرة عدة خنادق في الطريق.

" كلكم ينزل ويدفع ... "

أحسست أنه ليس السائق فحسب، ولكن أيضاً الركاب الذين قابلتهم، جميعهم يحتاجون للبقاء على الطريق، أو كأن الطريق يمدهم بأسباب الحياة، كأنه يمثل لهم شيئاً لا يشفون منه أبداً، هذه الفكرة أثارت الشفقة في نفسي، لكنها أيضاً أزعجتني.

لقد صرت قاطع تذاكر كى أهرب من السأم، أهرب من موضوعية الآلات التى تقيس دكنة الشاى، لكن بعد تسع سنوات، لم أجد اختلافاً كبيراً بين دُكنة الشاى، ودُكنة الرجال، حقاً تبين لى أن الركاب الذين نزلوا فى "ليمبا" هذا الصباح الممطر، كانوا هم نفس الركاب طوال السنوات التسع الماضية.

هذا الرجل الوقح الثرثار خلفى، يجلس فى هذا المقعد منذ تسع سنوات، ولا يزال يحكى قصة نجاحه فى بعض الأعمال، كذلك أيضاً الرجل الآخر بجوار النافذة، الذى يدخل طوال الوقت بينما يصر على أن تكون جميع النوافذ مغلقة، وذاك الطفل الباكى الذى يبدو أنه لن يكبر أبداً. وهناك أيضاً تلك المرأة السمينة، التى تضغط بحذق على كل شخص يحاول أن يقاسمها المقعد... أجل، هؤلاء هم نفس الركاب، ونفس الطريق، ونفس الرحلة بلا نهاية.

"كلكم ينهض ويدفع"

تواصل سقوط المطر، ووصل السائق التلوى من جانب لآخر، ليتجنب البرك الصغيرة الموحلة، والأتوبيس يثن باستمرار، كأنه مرعوب من حال الطريق، أو من وزن حمولته، التى بقيت على حالها على الرغم من الركاب الذين نزلوا، هذا الأتوبيس دائماً كان ممتلئاً مثل علبة السردين، ويبدو أن الركاب يتزايدون طوال الوقت.

عند "كامبنجى" توقف الأتوبيس لالتقاط بعض الركاب المنقوعين فى ماء المطر، وبينهم رجل يلبس أسمالاً بالية، معطفًا ممطرًا أصفر ممزقًا، تابعته بعينى عن قصد حتى دخوله، أجل، حقاً! إنه أبى! بالضبط بنظرته الصلدة التى تطل من وجهه، هو بالضبط، وتلك الانحناءة الخفيفة لكتفيه

بسبب انحنائه لجمع أوراق الشاي، الشيء الذي لا يصدق، إنه لأول مرة خلال السنوات التسع، اندفعت أمام عيني صورة نابضة بالحياة لأبي، وأمي، وأخي، وبيتنا الصغير بمزرعة الشاي، وأشجار "الأفوكاتو"^(٦١) و"البابو" أمام البيت، يظهر السقف الأحمر للمصنع من على مسافة، والدخان الأسود يخرج من مداخنه، كل شيء ظهر أمامي بكل تفاصيله.

سمعت غناء العمال عند قطفهم أوراق الشاي في الحقول، رأيتهم في معاطفهم الصفراء الخشنة، وصال "البامبو" مطروحة على ظهورهم، أحس الآن مثلما كنت أشعر في ذلك الحين . . الإعجاب بهؤلاء العمال الذين جعلت أغنياتهم الكدح والشقاء فاتناً وجذاباً. وتحركت إلى حيث يقف الرجل، وربت عليه بحبور.

هتفت: "أبي!"، وشعرت بالدموع تملأ عيني، استدرت وابتسمت لكل الناس في الأتوبيس، ورأيت فرحتي وقد انعكست على كل الوجوه من حولي، أوه، ياله من عالم جميل! تقاطر المطر على السطح، وتحول أنين المحرك إلى أصوات فرح، والرجل العجوز خلف عجلة القيادة أصبح في قمة السعادة، أصوات الركاب والبكاء المتواصل للطفل، تجمع كل ذلك ليملأني بالانفعال والسرور غير العادي.

"أبي!"

إذن، أبي وأمي لم يموتا قط، وأخي لم يذهب قط إلى جنوب إفريقيا، وأنا لم أسجل قط قراءات الآلات التي تقيس دكنة الشاي.

(٦١) شجرة «الأفوكاتو»: نبات أمريكي استوائي مثمر من فصيلة الفاريات .
نوثر يشبه الأجاص (الكثري).

وفجأة ، وضع السائق قدمه على الفرامل ، واهتز الأتوبيس بعنف حتى توقف ، وسقط الركاب الواقفون فوق بعضهم البعض ، أحاول ألا أسقط بالتشبث بالرجل الذى تخيلت أنه أبى ، لكن الرجل هو ذاته كان قد سقط وسحبني معه لأسفل ، اختفى كل حلمي ، وأحسست كأنما أعود فجأة من خدر ، وأنا والرجل الذى دعوته أبى يعاون كل منا الآخر للوقوف على قدميه .

انغرز الأتوبيس مرة أخرى فى الطين ؛ وغاصت العجلتان الأماميتان فيه عميقًا حتى أن تحريكهما استغرق ساعات قبل أن نتمكن من مواصلة السير .

عندما نجحنا أخيراً فى سحب الأتوبيس ، قال السائق : " لا بد من أن نصل ميجاوى فى الساعة . "

تلك الكلمات ، فيما سبق ، كانت تعيد إلى الطمأنينة ، أما عندما سمعتها هذه المرة ، أصابتنى ببرودة تامة ، بدأ مشهد الوصول الآن يخيفنى ، لم أقل شيئاً ، ورحت أنظر إلى حقول الذرة الناضجة بالخارج .

الوقع البطيء، لتقديمه

تأليف : " دامبزو مريكورا "

يوماً ما ، إذا جلست ، فى هذه الزاوية
خالى البال .. منصتاً ،
ربما ،
قد يأتى من هذا الطريق ..
الوقع البطيء لتقديمه،
(ج . د . س . بيلو)

حلمت الليلة الماضية أن الجراح البروسى جون فريدريش ديفنباخ قد
قرر بأئنى أتلعثم فى الكلام ، لأن لسانى كان ضخماً جداً ؛ فخفضه إلى
حجمه الطبيعى ، بقص مقدار وافر من الطرف والجانبين ، أيقظتنى أمى
لتقول لى : إن أبى قد دهسته عربة مسرعة فى الساحة .. ذهبت إلى
المشرحة لرؤيته ، كانت عيناه مفتوحتين ، وقد خاطوا الرأس إلى الجذع ،
حاولت إغلاق عينيه ، لكنهما لم تغلقا ، دفناه وعيونه ما تزال مفتوحة ومحدقة
لأعلى .

كانت تمطر عندما دفناه .

كانت تمطر عندما استيقظت باحثاً عنه، يرقد غليونه فى مكانه حيث كان دائماً، على رف المدفأة، عندما نظرت للغليون انهمر المطر بشدة وراح يخشخش، على السطح الصفيحى لذكرياتى معه، وقفت كتبه المجلدة منتصبة فى خزانة الكتب، صامته، من بينها كتاب أوليفر بلدشتين "دليل التلثم"، هنالك أيضاً نسخة مطابقة للوح عظمى مكتوب باللغة المسمارية، تلك اللغة التى كان يكتب بها لقرون عدة قبل ميلاد المسيح، كان اللوح يحمل صلاة جادة للشفاء من كرب التلثم، أخبرنى والدى أن "موسى"، وديموسثينس"، و"أرسطو" كانوا أيضاً يعانون من إعاقة فى الكلام، كذلك كان الأمير "باتوس"، الذى نصحه مستشاره أن يشفى نفسه من التلثم بغزو الأفارقة الشماليين، وأن "ديموسثينس" ذاك علم نفسه أن يتكلم دون عوائق بموجات من الصياح تنطلق من فمه الممتلئ بالخصى.

كانت ماتزال تمطر عندما رقدت وأغلقت عينيّ، فاستطعت أن أراه ممدداً فى المقبرة المخضلة بالماء، يحاول تحريك فكيه، عندما استيقظت شعرت به يسكننى، وكان يحاول التكلم؛ أما أنا فلم أقدر، غمغم "أرسطو" بشيء عن كون لسانى غليظاً وثقيلاً على نحو غير عادى، "هيوقراطيس" فتح فمى بالقوة وألصق مواداً على لسانى لتسحب السائل الأسود منه "سيليسوس" هز رأسه وقال: "كل ما يحتاجه غرفة جيدة وتدليك"، لكن "جالين" - الذى لا يجوز التغاضى عنه - قال: إن لسانى بارد ورطب فحسب، بينما "اقتراح فرنسيس بيكون كوباً" من النبيذ الساخن.

وأنا ذاهب إلى حانة الجعة، شاهدت طابوراً طويلاً من ناقلات الجنود تتقدم ناحية بوابات المدينة، كانوا جنوداً من البيض، قفز أحدهم للأرض

مصوبًا سلاحه نحوى، وطلب رؤية أوراقى، كان معى فقط بطاقتى
الجامعية، تفحصها لوقت طويل حتى أننى تساءلت فى نفسى عن الخطأ
الموجود بها.

سألنى: "لماذا تتصبب عرقاً؟"

أخذت ورقة وقلمًا وكتبت شيئًا ما وأريته له.

"إه، أبكم؟"

أومات برأسى.

"إه، وتظن أننى أبكم أيضًا؟"

هزرت رأسى بالنفى، لكن قبل أن أتمكن من الانتهاء من هز رأسى،
ارتفعت يده عاليًا ونزلت على فكى بالضبط، رفعت يدى لأمسح الدم،
لكنه أمسك بها بقوة وضربنى مرة أخرى، انكسر طقم أسنانى وخشيت أن
أبتلع الشظايا الخشنة المفلولة، فلفظتها من فمى دون أن أمد يدى ناحيته.

"إه، أسنان زائفة أيضًا؟"

كانت عينائى غائمتين وتوخزائنى بشكل مؤلم، لم أتمكن من رؤيته
بوضوح، لكننى أومات بنعم.

"إه، هوية مزيفة أيضًا؟"

كانت تحدونى رغبة عارمة لتحريك فكى وإجبار لسانى على الكلام
كى أكرر له بياناتى الموجودة فى بطاقتى الجامعية، كل ما نجحت فيه هو
النق كضفدع، أشرت لورقتى وقلمى اللذين سقطا على الأرض.

أوما برأسه موافقًا .

لكن عندما انحنيت لالتقاطهما ، رفع ركبته فجأة ونزل بها على رقبتى
التي كادت تنكسر .

" إه ، تبحث عن حجر ، أليس كذلك ؟ "

رحت أهرز رأسى ، التي كانت تؤلمنى ، بالنفى ، هزتها إلى درجة أننى
لم أقدر على التوقف عن هزها بعد ذلك ، كانت هنالك أقدام تركض
خلفى ؛ صوتا أمى وأختى ، فقد صدر بيان صارم بإطلاق النار ، هوجمت
أمى ، وهى تمشى بخطوات مسرعة ، تصلب جسمها فى الهواء القارص ،
وأطلت من عينيها نظرة محدقة للأمام ، فى اللحظة التالية ، انكسر شيء
ما فى داخلها وسقطت متداعية ، يد أختى الممدودة ، التي ترتفع لتلمس
وجهى ، طارت إلى فمها المفتوح ، واستطعت أن أرى عضلات حنجرتها
وهى تصرخ من فمى .

ماتت أمى فى عربة الإسعاف .

صرخت الشمس دون صوت عندما دفناها ، سطعت الشمس فى دوائر
ساخنة وباردة ، أختى وأنا ، مشينا أربعة أميال عائدين للبيت ، مارين
بمستشفى " الأفارقة فقط " ، ومستشفى " الأوربيين فقط " ، ومعسكر
البوليس البريطانى لـ " جنوب إفريقيا " ، ومكتب البريد ، ومحطة السكك
الحديدية ، وعبرنا حزاماً أخضر باتساع ميل ٠٠ ثم دخلنا منطقة السود .

لف الصمت الغرفة ٠٠ شعرت بالصمت يحاول تحريك لسانه وفكيه
ليكلمنى ، كنت أحرق فى عوارض السقف الخشبية ، فسمعت أختى تذرع
غرفتها الملاصقة لـ حجرتى رائحة غادية ، أحسست بها تسكننى بشدة ٠٠

لم أعد أحتمل ، لم تكن غرفتي تحوى سوى السرير الحديدى ، ومكتبى ،
وكتبى ، ولوحات كنت قد حاولت منذ زمن بعيد أن أصور عليها شعور
الصمت ، والأصوات اليائسة التى بداخلى ، غشيتنى الدموع وشعرت بها
تسكننى ، لم أعد قادراً على الاحتمال ، رحمة بى انفتح الباب . . . وجاءوا
يسوقونها من يدها ، كانت مرتدية ملابس ناصعة البياض ، انبعث منها ضوء
أزرق شاحب ، فى قدميها الصغيرتين صندل جلد أبيض لامع ، لكن
مغناطيسية وجهها العظمى ومحجرى عينيها الفارغين ، والأطراف الحادة
لأسنانها - كان سطح سنة من أسنانها مكسوراً - وعظم وجنتيها المرتفع ،
والأنف المجدوع بوحشية ، مغناطيسية كل ذلك أمسكت بعينى المحدثين
وكانهما امتصتا فى صمتها الجامد .

كان مرتدياً الأسود ، يدها العارية من اللحم ترقد ساكنة بين أصابعه
العارية من اللحم ، رأسه لم تُخَطْ بدقة ، كانت مائلة إلى جانب ، وبدت
كأنها سوف تسقط فى أية لحظة ، كان بجمعته فلق من أعلى وسط الجبهة
إلى طرف الفك السفلى ، أعيد لحام الجمجمة بغير إتقان لتأخذ شكلها ،
ورغم ذلك ، بدت كأنها ستسقط فى أية لحظة .

كان الألم بعيونى غير محتمل ، رفت عيناى ، عندما فتحتهما ، كانوا
قد اختفوا ، كانت تتنفس بعسر مما جعل صدرى يتوجع ، مددت يدى
ولمستها : كانت دافئة وحية ، وخرج نَفْسُهَا مصحوباً بالألم فى صوتى ، كان
يجب علىّ أن أتكلم ، ولكن قبل أن أتمكن من نطق أى لفظ ، انحنت فوقى
وقبلتنى ، النفس الحار هزنا

الموسيقى النحاسية والوترية لفرقة عسكرية تبتعد .

سطوع الشمس في شارع تريزوندا

تأليف: "آلن باتون"

اليوم قال لي الضابط : سأقدم لك خدمة ، لم أرد عليه ، فأنا في غنى عن خدماته ، قال : لا يفترض أن افعل ذلك ، إذا أمسكوا بي سأواجه المتاعب ، ثم نظر إلى كأنه ينتظر ردًا ، كان يمكن أن أقول له . . إن ذلك قد يحطم قلبي ، لكنني لم أقلها ، أعتقد أنني لن أتكلم ما لم يعود ذلك على بفائدة ، هذه واحدة من قواعدى الراسخة .

سأل : ألا تريد أن أقدم لك خدمة ؟ قلت : أنا لا أهتم ، إذا ما قدمت لي خدمة أو لم تفعل ، لكن إن أردت أن تؤديها فهذا شأنك .

إنك شيطان عنيد ، أأست كذلك ؟ لم أرد على ذلك ، ورحلت أراقبه ، إنني أراقب "كاسبر" منذ فترة طويلة ، وتوصلت إلى أنه يميل لاحترامى ، وإذا كان "الميجور" يعرف واجبه ، فإنه سوف يقصى "كاسبر" بعيداً عني ، ويبتليني بواحد أشد ضراوة .

ألا تريد الخروج من هنا ؟ لم أرد ، فهناك نوعان من الأسئلة لا أرد عليها ، وهو يعرف ذلك ، النوع الأول تلك الأسئلة التي يريد أن يعرف إجابتها ، والنوع الثانى يعرف إجابته بالفعل ، بالطبع أريد الخروج والابتعاد عن تلك العيون المتفحصة الصارمة التي لا يمكنك أن تتحملها إلا إذا كانت عيناك متفحصتين و قاسيتين أيضاً ، أريد أن أكل طعاماً شهياً ،

وأشرب قليلاً من النبيذ ، فى مكان ما به موسيقى هادئة وأضواء خافتة .
أريد . . لكننى استبعدت ذلك من تفكيرى تماماً ، لقد وضعتها قاعدة .

كم يوماً لك هنا ؟ لم أرد على ذلك ، لأننى لا أعرف ، فقد توقفت
عن العد ، ولا أريد لـ "كاسبر" أن يعرف جهلى بذلك ، عندما منعوا
عنى الكتاب المقدس ، كان قد مر ٨١ يوماً ، و بجهد إرادى استنفذنى ،
استطعت الإحصاء حتى ١٠٥ يوماً ، كنت على حق ، فلى أكثر من مائة
يوم بأية حال ، لأنهم فى ذلك اليوم جاءوا لإخبارى - بشكل احتفالى -
أنه عمل بالقانون كذا وكذا ، والمادة كذا وكذا ، يتحفظون على لمدة ١٠٠
يوم أخرى ، وسوف يطلقون سراحى عندما أجيب على أسئلتهم بشكل
مُرضٍ ، صدمت من هذا القرار ، ومع ذلك حاولت إخفاء صدمتى عنهم ،
لكنى فقدت صوابى بعض الشيء ، فصحت بأعلى صوتى ، " تحيا سلطة
القانون " ، كانت حماقة ، لم يعد ذلك على بشيء ، بعد ١٠٥ أيام كنت
محطماً تقريباً ، ففى الصباح التالى لم أعد أذكر هل هى ١٠٦ ، أم ١٠٧
أيام ، بعد ما حدث لا يمكنك أن تتذكر شيئاً ، تفقد يقينك ، تصبح مثل
رجل أعمى سقط فى غائط بـماخور ، لا احتفال بعيد الميلاد ، لا فُسحة فى
وسط المدينة ، ولا خطابات من الخارج ، هذه الخطابات التى تجعلك
تتذكر ، أما إذا حاولت الرجوع لذكرياتك ، فإن الأمر يبدو مثل العودة
للبحث عن شيء سقط منك بالأمس فى الصحراء ، أو فى الغابة ، أو فى
ماء البحيرة ، شيء ما ضاع منك ولن تجده مطلقاً .

استغرق ذلك منى أياما كثيرة لأقنع نفسى أن كل ذلك غير هام ، شيء
واحد فقط هو المهم ، ألا أعطيهم فرصة لاقتحام ذاتى ، وكان مثالنا

البطولى النبيل هو " ب . ب . ب . " الذى لم يتكلم ، أو يصرخ ، أو يقف ، أو يفعل أى شىء طلبوا منه أن يفعله ، لم ينظر حتى إليهم ، إن كان مثل هذا الأمر ممكنا ، الحبس الانفرادى لم يؤثر فيه ، فقد كان يمكنه الانسحاب لعزله الخاصة ، كأنه نوع من التلاشى ، لقد مات فى إحدى نوبات انعزاله ، البعض يقول أنه انسحب بعيداً جداً ولم يستطع العودة ، وآخرون قالوا : أنه عذب حتى الموت ، أى أن الألم اقتحم العزلة فى النهاية ، من يدري ؟!

حتى الآن لم يمسونى ، وإذا حدث ، ماذا سأفعل ؟ قد يفتح الألم باب تلك الذات ، إن خوفى من ذلك هو الذى يجعلنى غير مغرور ، فالغرور دائماً يبنى بالعقاب أسرع من أى شىء آخر ، هذا أثر من إيمانى الذى خسرت .

قال كاسبر : إنك تفكر بعمق ، سوف آتى غداً ، أتوقع أن آتيك بأخبار طيبة .

أخبرنى كاسبر : إن " رفائيل شوارتز " قد قبض عليه ، كل همى كان الاختباء منه ، فلأول مرة أقف أمامه وعورتى وذاتى عاريتان ، لا أجرؤ على سحب ملابسى حولى ، لأنه سيعرف ما سببه لى ، لماذا لم يحضر الأجهزة ليقبس التعاضم المفاجئ المتعذر ضبطه فى سرعة ضربات القلب ، وتوتر عضلات الوجه ، وانقباض بؤبؤ العين ؟ أم يظن أنه سيعرف دون أجهزة ؟ لا يبدو عليه أنه يلاحظنى باهتمام ؟! ، ربما يضع الطعام بإهمال ، واثقاً من أن الفريسة سوف تقع من تلقاء ذاتها ، لكن ألا يعرف أن الفريسة فى الواقع واعية أكثر منه بآلاف المرات ؟! مازلت واقفا عاريا ، ومع ذلك أحاول أن أبدو كأنى مستور .

"رفائيل شوارتز" ، هل هو شجاع ؟ هل سيجعلهم ينتظرون ١٠٠٠ يوم ، إلى أن يتركوه فى ثورة غضبهم ؟ أم أنه أنهار فور أن رفع أحدهم - عرضاً - قضيب تقليب النار الذى ترك بإهمال فى الجمر ؟

قال "كاسبر" : إنه وضع ، لقد وشى بك فعلاً ، قلت بحماقة : كيف يشى بى وأنا هنا بالفعل ؟

قال "كاسبر" موافقاً : إنك هنا ، ثم قال بتذمر : لكنك لم تخبرنا بأى شىء ، أما "شوارتز" فسوف يخبرنا بما لم تقله لنا ، الأشياء التى لا تريدنا أن نعرفها ، دكتور ، قل لى ، من هو الرئيس ؟

لم أرد عليه ، وبدأت أشعر بملاسى تنسل عائدة إلى ، وأننى يمكن أن انظر الآن بثقة "لكاسبر" ، لكن هذا بالضبط ما لا يجب أن أفعله ، لابد من أن انتظر إلى أن يحدث ذلك عرضاً .

قال كأنها محادثة كانت جارية بالفعل : لا أعرف متى سأراك مرة أخرى ، سوف اقضى بعض الوقت مع شوارتز ، أتوقع أن أجده عنده حديثاً شيقاً ، سوف أعود فوراً إذا تراءى لى أن هناك ما يجب أن تعرفه ، إلى اللقاء يا دكتور .

توقف عند الباب ، هناك أمر قد تحب معرفته ، إن "شوارتز" يعتقد أنك وشيت به .

ثم نظر إلى قائله : أنه يعتقد ذلك ، لأن هذا ما أخبرناه به .

جون فورستر ، كان يقول لى دائماً عند المغادرة : كن شجاعاً ، فهل لدى تلك الشجاعة ؟ هل لدى شجاعة أكثر من "رفائيل شوارتز" ؟ من أنا لأعرف مدى شجاعته ؟ ربما يكذبون على ، ربما سنخر منهم عندما قالوا

له إني وشيت به ، ورد عليهم : إنها حيلة قديمة لا يمكنكم حتى خداع كلب عجوز بها .

"رفائيل" ، لا تصدقهم ، وأنا أيضاً لن أصدقهم ، "رفائيل" كن شجاعاً ، وسأكون أنا أيضاً شجاعاً .

أيام خمسة الآن ولم يحضر "كاسبر" ، أو على الأقل أظن أنها خمسة ، لقد أصبحت غير قادر حتى على التأكد من ذلك ، "رفائيل" ، كن شجاعاً !!

لا بد من أنها عشرة أيام الآن ، لم أعد أشعر بنفسى ، معدتى مضطربة ، أروح وأجىء طوال اليوم ، وهذا يتركنى ضعيفاً مستنزفاً ، ورغم أن جسمى كسول ، إلا أن ذهنى نشط ويعمل على نحو متواصل ، ترى ما الذى يجرى هناك فى حجرة أخرى مثل هذه ، وربما فى هذا المبنى أيضاً ؟ أعرف أن هذا التفكير غير مجدٍ ، لكننى واصلته ، كففت عن قول "رفائيل" كن شجاعاً ، على أساس أنه إذا فقد شجاعته ، فليس من المفيد قولها ، وإذا لم يفقدها ، فإن هذا لا يعد ضرورياً ، لكننى خائف ، إن ذلك الشئ يقترب جداً .

يسأل "كاسبر" : من رئيسك ؟ وبالطبع لم أحب ، تحدث حديثاً غير مترابط عن "رفائيل شوارتز" ، و "لوفتى كومبى" ، و "إيلين كولومبوس" ، وهو يسأل من حين لآخر أسئلة تبدو عابرة ، كان حديثاً بارداً وتافهاً ، هل الضابط غبى أم أنه يدعى ذلك ؟

ثم قال لى : أنت الفارس الأسود ، أليس كذلك يا دكتور ؟ تعيش حياة مزدوجة ، ونحن لا نعرف .

ملأنى الخوف ، ذلك الشيء يقترب أكثر ، أرى الآن "جون فورستر" ،
أبيض الشعر سمح الوجه ، ماذا يطلقون على رجل مميز ، الرجل الأكثر
روعة ، مزيجاً من الرقة والصلابة اللتين يعرفهما كل منا ، يتسم لى الآن
قائلاً : استمر فى شجاعتك ، نحن نفكر فىك فى كل لحظة من لحظات
اليوم .

ماذا يقصد "كاسبر" بحياتى المزدوجة؟ طبعاً ، لقد عشت حياة مزدوجة ،
لذلك أنا هنا ، أم أنه يقصد نوعاً آخر من الحياة المزدوجة؟ وكيف لهم أن
يعرفوا ؟ هل عرف رفائيل؟ هل يمكنك الهرب يا حبيبتي؟! فأنا خائف
عليك ، خائف علينا جميعاً ، ما الذى أخبرتك به ؟ لا أذكر ، أقسمت
بميناً ألا أخبر أحداً ، لكن معك ، لا أتذكر ماذا قلت .

وأقسمت بميناً ألا يكون فى حياتى امرأة قط ، وهذا القسم هو
"غلطتى" .

عندما جئت إلى هنا ، سمحت لنفسى أن أتذكرك مرة فى اليوم لمدة
دقيقة ، لكن الآن يتزايد تفكيرى فىك ، ليس فقط لأننى أحبك ، لكن
لأنى خائف عليك أيضاً ، هل قلت لك من نحن ؟

حبيبتي ، لِمَ لا تهربين ؟ قولى لهم : إنك لم تعرفى أنى ثورى ،
قولى لهم أى شيء حتى ترحلى .

أما أنا ، فرأبى فى نفسى لا يوصف ، كنت أعتقد أنى الأفضل ،
ذلك لأننى استطعت أن أحب امرأة ، وأن يظل هذا الحب سرّاً ، بعيداً عن
العيون ، غير معروف ، وشرعنا فى الحب مثل الأطفال ، تأمرنا وخططنا
لنكون معاً ، وامتلاًنا بالأسرار ، كل شيء هو سر إلا هذه السرية ذاتها .

ماذا سيحدث الآن ؟ يأتى اليوم "الميجور" مع الضابط ، إن مجرد رؤيته تجعل قلبى يضطرب بشدة، الميجور ليس مثل "كاسبر" ، إنه لا يعاملنى كشخص أرفع أو أقل شأنًا ، يقول : اجلس ، فأجلس ، يقول لى : إذن لن تتعاون ! وفى حالة تشبه الحماقة أقول له : لماذا يجب أن أتعاون ؟ لا يوجد قانون يقول : إنه لابد من أن أتعاون ، فى الحقيقة ، القانون يسمح لى بعدم التعاون ، ويمنحك سلطة احتجاجى إلى أن أفعل .

يتحدث "الميجور" على المستوى ذاته ، فيقول : أجل ، يمكننى احتجاجك ، لكن قد أفعل أكثر من ذلك ، فى إمكانى تحطيمك وأستطيع إرسالك من هنا رجلاً عجوزاً محطماً ، تمشى ورأسك متدل ، تحدث نفسك ، مثل "صامويلسن" .

يتحدث إلى كما لو كنت عجوزاً بالفعل ، أنت لا ترغب فى ذلك يادكتور ، فأنت تحب أن ينظر إليك الآخرون على أنك قيمة كبيرة ، تحب أن تشفق على الآخرين ، وهذه الشفقة تزيدك حماسة وعزماً ، لكن قد يكون الجحيم هو شفقتهم عليك ، فى "فودرزفيل" ظنوا أن الشمس تشرق من عينيك ، صارت أسماؤنا بغیضة هناك لأننا قبضنا عليك .

قال : يا دكتور، يمكننا تحطيمك ، لا نحتاج لتعذيبك بالصدمات الكهربائية ، أو تعليقك من قدميك ، أو غرز شوكة فى خصيتيك ، هناك الكثير من الوسائل ، لا نريد لك أن تهذى ويسيل لعابك فى "فودرزفيل" ، ثم أضاف بتهكم : فقد يفسد ذلك صورتنا .

نظر إلى نظرة محايدة ، إلا أن نغمة صوته كانت قاسية ، قد تكون وسائل مزعجة ، لكن ربما لن يكون هناك من سبيل آخر ، وإن لم يكن هناك من سبيل آخر ، فسوف نحطمك ، الآن أنصت إلى جيداً ، سوف أسألك سؤالاً .

ظل صامتا لحظة ، ربما أطول ، أراد أن يفكر فى جدية تهديده ، ثم
سأل : من هو رئيسك ؟

ما الذى سيقوم به "كاسبر" ؟ أتعذيب ؟ تعذيبى ؟ أم تعذيب "رفائيل"
"شوارتز" ؟ استبعد عقلى إمكانية تعذيبك أنت ، لكن ما الذى يقصده بالحياة
المزدوجة ؟ إن مهاراتهم التى كانت محط إعجابى أحيانا ، هى التى تملؤنى
الآن يأسا ، إنهم يسربون الخوف إلى عقلك ثم يتركونك ، ينشغلون بأمور
أخرى ، عاكفين على مهمتهم ، مهمة تخطيط البشر ، وأنت تجلس وحدك
لأيام تفكر فى آخر شيء قالوه ، آه ، إنى خائف عليك ، فى العالم
٣٠٠٠ مليون إنسان ، ولا أستطيع الظفر بالاتصال بواحد منهم يذهب
إليك ويقول لك : اهربى ، اليوم ، الآن فى هذه اللحظة بالضبط .

يقول كاسبر : "باربرا تريفيلان" ، ياله من اسم جميل ، لقد أحسنت
إخفاءه يا دكتور ، لذلك نحن غاضبون عليك ، لكن هناك من هو أكثر
غضباً منا ، ألم تعد فى القسم أنك لن تقيم صداقة خارج عصابة الشعب ،
وعلى الأخص مع امرأة ؟ ماذا سيقول رئيسك ؟

أجل ، لقد وعدت ، لكنى لم أستطع الاستمرار فى الحياة هكذا
محروماً من كل حب ، محروماً من علاقات مع الناس ، محروماً من أية
لمسة حنان ، أردت أن أمثل شيئاً عند إنسان ما ، إنسان حى ، وليس
قضية ، امتلأت بالخجل ، ليس لأنى أخلفت وعدى ، لكن لأننى لم
أستطع صنع جزيرة يكون فيها حبنا وحسب ، أنت وأنا فقط ، لكن العالم
قد تدخل ، والخطوة الكبرى لتغيير العالم ، والمعرفة المحرمة الخطرة ،
و . . . لا أحب أن أعترف بذلك ، ربما دخل التباهى والغرور أيضاً ،
التباهى الخطر ، رأسى يوجعنى من الألم ، أحاول أن أتذكر ما قلته لك .

يقول "كاسبر" : سوف تكون هذه فرصتك الأخيرة . إذا لم تتكلم اليوم ، لن تحتاج للكلام بعد ذلك ، اتخذ قرارك ، هل تريدها أن نخبرنا ، أم ستخبرنا أنت ؟

لا أعرف ، إذا تكلمت ، ما فائدة الـ ١٠٠ يوم تلك إذن ؟ البعض قد يدخل السجن ، والبعض الآخر قد يموت ، إذا لم أتكلم ، إذا تركتها هي تتكلم ، سيقاسون بالقدر نفسه .

يقول "كاسبر" : لا يهم إن أنت اعترفت ، أم هي ، على أية حال ، فإنهم سوف يقتلونك ، لأننا سندعك تخرج .

ها هوذا يشن على هجوما من نوع آخر ، أتعرف يا دكتور ، إنها لا تؤمن بالقضية ، إنها تؤمن بك فقط ، غدا لن تفعل ذلك ، لأننا سنخبرها أنك وشيت بها .

الآن يتفحصني عن قرب ، شيء ما يتحرك على وجهي ، أهى حشرة؟ أم حبة عرق؟ لا تخبريهم يا حبيبتى ، اسمعيني ، يا حبيبتى ، أننى أبعث إليك برسالة ، لا تخبريهم بشيء ، يا حبيبتى .

هل تذكر الأيام الخوالى وما اعتاد "رفائيل شوارتز" أن يتباهى به فى تلك الاجتماعات ، من أنه سيتبعك إلى الجحيم ؟ حسنا ، عليه أن يفعل توأ ، ألا يجب عليه ؟ لأنك الآن فى الجحيم .

خلع ساعتة ووضعها على المائدة ، قال : امنحك خمس دقائق ، وستكون آخر خمس دقائق تمنح لك على الإطلاق ، من هو رئيسك ؟ ثم وضع يديه على المائدة أيضا ، وأراح رأسه عليهما ، أهو متعب ؟

متعب من تحطيم الرجال ، يرفع رأسه ، ويلبس ساعتَه ثم يقف ، بوجهه نظرة لم أرها من قبل ، نظرة كراهية ووحشية .

جميعكم تتخذون الموقف ذاته ، أليس كذلك ؟ التخريب معظم الوقت ، والنساء يأتين بين ذلك ، أما الزواج ، والأسرة فهي أشياء للطيور ، لأن مجتمعنا ذاك منحط ، تريد أن تكون حراً ، ألا تريد ؟ لقد صورت الحرية بطول وعرض المدينة الملعونة ، حسناً ، سوف تكون حراً فوراً ، وقسماً بالله ستكون نهايتك .

" لوفتى " ، و " إيلين " و " لوجرانج " ، والآن " رفائيل " ، هل هناك إنسان لا يستطيعون تحطيمه؟ هل هناك أقوى أو أضعف أمام انقضاء الزمن؟ " رفائيل " ، سأتلو صلاة لأجلك الليلة ، أياً كان إلهك . . .

هل نطقت باسم رفائيل؟ " رفائيل " ، أنا أسف ، فلست نفسى اليوم ، رفائيل ، فلتكن شجاعاً ، لا تصدق ما يقولونه ، وأنا أيضاً لن أصدقهم .

٥ أيام ؟ ٧ أيام ؟ أكثر ؟ لا أستطيع التذكر ، أنام الآن بصعوبة ، أفكر فيك وأتساءل عما يفعلونه معك ، أحاول تذكر ما قلته لك ، هل أخبرتك إلى أى حد كنت منغمساً ؟ هل أخبرتك بأسمائهم ؟ ذلك سؤال غير مجد الآن ، لأننى لا أعرف له إجابة ، وإذا طرأت الإجابة على بالى فجأة ، فإننى لا أعرف على أى سؤال كان .

آه ، لا تصدقنى أبداً أننى وشيت بك ، إنها حيلة قديمة ، الحيلة الأشد قسوة ، من أقسى مهنة فى العالم ، حبيبتى ، فلتكونى شجاعة ،

انظري إليهم بعينيك الرماديتين البريئتين ، وأخبريهم أنك لا تعرفين أى شىء على الإطلاق ، وإنك فقط امرأة تحب .

يقول لى "كاسبر" : أنت مطلق السراح ، ما المفترض أن أقوم به ؟
أيجب أن يضىء وجهى بالفرح ؟ ربما يكون قد حدث هذا منذ بضعة أيام فقط ، هل تعرف لماذا نطلق سراحك ؟ هزرت رأسى : أتوجد مشكلة فى عدم الإجابة ؟

لأننا قد وجدنا رئيسك ، هذا هو السبب ، عندما رأى حذرى ، ولم يعرف هل أنا مصدق أم لا ؟ ، راح يقول : اسمه "جون فورستر" ، لم يعرف ماذا يصدق ؟ ، خاصة عندما قلنا له : إنك وشيت به ، دكتور ، لا ترجع إلى هنا مرة أخرى ، إنك لم تخلق لهذه اللعبة ، وقد أبقيناك هنا طويلا تبعا للأوامر التى تلقيناها فحسب ، هيا ، سأصطحبك للبيت .

فى الخارج بالشارع المزدهم تشرق الشمس ، تسقط أشعة الشمس على الأشجار التى علق بها السخام فى شارع "ترييزوند" ، وتتراقص الأوراق السوداء مع النسيم ، تمتلئ المدينة بالضوضاء والحياة ، والضحك أيضا ، مع ذلك لا يهتم أى أحد بما يجرى خلف تلك الأسوار المترسة ، يحلق فى الجو وهم بالحرية .

تأليف : " شيللا روبرتس "

كنت أتمشى جيئة وذهابا أحيانا على الجانب المشمس من الرصيف ، وأحيانا أخرى أنتقل إلى الجانب الظليل ، كنت أرغب لو أمكننى البقاء على الجانب المشمس كل الوقت ، فزينا الرسمى لم يكن سميكا بما يكفى ليقينا من رياح مايو الباردة ، إلا أننى كنت مضطرة معظم الوقت إلى العبور للجانب الآخر كى أتفحص العدادات التى تسجل وقت انتظار السيارات ، حسنا ، إنها ليست وظيفة سيئة ، أولا : تمنحك بعض الوقت للتطلع لواجهات المحلات حتى وإن لم يكن معك مال لإنفاقه ، ومع هذه العدادات أيضا يكون لديك فرصة لتدرس الناس فيما يقدمون عليه من تصرفات ، خاصة عندما يحسبون الفاتورة ، ويضعون بسرعة خمسة سنتات فى العداد ، بمجرد أن تمسك بقلمك لتحرر لهم تذكرة ، وأنا أكره العودة للمحطة دون حصيلة جيدة من التذاكر ، كما أظن أن الزى الأحمر الداكن هذا يناسبنى تماما ، فهو يخفى قوسى الضخم ، وقد قال لى هاين ذات يوم : " بيتى ، إما أن تنقصى بعض وزنك الذى تحملينه خلفك ، أو سأتوقف عن ممارستنا المعتادة فى أيام السبت " أعرف أنه كان يمزح ، لأننى مازلت أراه يحملق فى قوسى كأنه قد قضم قطعة خبز جاف لا تتفتت فى فمه ، للحقيقة ، هذه التمشية جيئة وذهابا لأبد من أنها ستتنقص بعض الوزن ، كما أظن أن هذه القبعة رائعة على شعرى ، الذى ليس به

أية شعرة بيضاء بعد ، بينما "هاين" له "لطخة" مضحكة من الشعر الأبيض فى مؤخرة رأسه ، كأن طائراً "عملها عليه" من ارتفاع شاهق .

كنت على هذا الحال وأنا أتمشى رائحة غادية عندما شاهدته ، كان يوقف سيارته أمام عداد مازال به ثلاثون دقيقة ، هرولت مسرعة إلى ناحيته يتملكنى ذلك الشعور المبهج ، بأن قوى ما تدفعك وأصدقاءك القدامى للتلاقى مرة أخرى بعد مرور سنوات كثيرة .

عندما شاهدته يتعبد ، كدت أصرخ وأنا أنادى عليه : " كريس ديفونتيرا ! غير معقول ؟ " التفت جهة الصوت .

قال : " أوه مرحباً . "

قلت مبتسمة وأنا أضافحه : " لم أرك منذ أجيال "

كان فى نيتى تقييله ، لكنه لم يَملْ تجاهى كأنه كان يتوقع ذلك ، إلا أن يده كانت دافئة ، أو بالأحرى ساخنة ، وكانت راحة يده عرقى ، عندما ترك يدي أحسست بلمس يده كأنه ملمس ليفة خشنة .

قال وهو يظلل عينيه من أشعة الشمس بيده التى سحبها من يدي :
" أجل انقضى زمن طويل ، " ثم أضاف : " إننى أعانى من الآثار البغيضة للإسراف فى الخمر " .

اقتрحت عليه وأنا مسرورة بمنظره فى تلك السترة التى خلعها ، وربطة العنق المتسقة مع بدلتة : " هيا ، دعنا نتناول قدحاً من الشاى "

ثم لاحظت أن المقعد الخلفى فى سيارته مختفيا تحت حقائق سفر ،
وأشياء ملقاة عليها ، قبعات ، كتب ، كاميرا ، منظار أو شىء ما يشبهه ،
مضرب تنس قديم ، وجهاز تسجيل ، وكانت كل الإسطوانات المحلية
والغريبة فى أغلفتها القديمة اللامعة موضوعة على المقعد الأمامى الأيسر .

مشينا إلى قاعة الشاى .

سألت ، وأنا أجذب ذراعه مثل حبل الجرس : " كيف حالك ؟ "
" بخير . . . سوى أننى فقط لم أنم جيدا الليلة الماضية ، لذلك
تجديتنى . . . "

اندفعت فى الكلام مبتسمة : " هاى ، هل مازلت ترسم " بريتوريا "
بكل درجات اللون الأحمر مثلما كنت تفعل فى الماضى ؟ " يا إلهى مضى
على ذلك الآن ما يقرب من عشرين عاما ، منذ أن كنا جميعا فى المدرسة
الفنية ، كان هو وزملاؤه متهورين ، كانوا يتسللون واحداً بعد الآخر من
الفصل ، ثم تتبعهم البنات ، حقاً ، لقد أحبتهن البنات ، وأنا أيضاً ،
أما اليوم فإنه يبدو مختلفاً ، لم تعد له تلك النظرة التى أتذكره بها .

اندفعت فى الكلام مرة أخرى : " هاى ، انظر إلى "

نظر إلى نظرة لم أكن متأكدة أهى نظرة قلق ، أم نظرة خوف ، ذلك
لأن من يعانى من الإسراف فى شرب الخمر قد يرى الشىء الواحد اثنى
عشر شيئا دفعة واحدة ، يا ليتنى أرى وجه " هاين " الآن وقد صار
مضحكاً من القلق والغيرة ، خاصة بعد أن حصلت على هذه الوظيفة .

اتخذنا مقاعدنا فى ركن هادى من قاعة الشاى ، وطلب من النادلة
إحضار قهوة سوداء له ، وشاى لى ، عندما عرض على أن أطلب كعكا ،
فكرت للحظة ثم هزرت رأسى بالرفض .

قال وهو يبذل جهدا فى محاولة أن يجرى محادثة عادية : " بيتى ،
تبدى فى حالة جيدة . كيف حال " هاين " ؟ "

قلت " حسنا ، إنه بخير ، وكيف حال إنيتة ؟ "

" حسنا ، . . . أتعرفين . . . فى الحقيقة . . . لقد طردتنى هذا
الصباح . . . "

" طردتك ؟ "

" أجل ، قالت لى اخرج أيها التافه . فجمعت أغراضى وخرجت . "

ثم حاول الابتسام ، ولمس فكه على طريقته القديمة ، لكنه لم يفلح
فى ذلك قط ، فقد تمدد فكه فحسب ، وكشف عن أسنان صفراء ، فهو
مدخن شره ، بطريقة جامدة خالية من الحياة .

سألته : " ماذا فعلت هذه المرة ؟ "

" إنها حكاية طويلة . . . "

قلت : " أظنك لا تريد أن تخبرنى بها ، أعذر لك . . ، ماذا عن
آثار الخمر الآن ؟ "

" شوفى " ، إنها لا تستطيع تصور أن " البنى " آدم قد لا يعود إلا
أحيانا إلى البيت مباشرة ، لا تفهم ذلك مطلقا وهذا يعود لتربيتها ، تأثير
الكنيسة ، ومثل تلك الأمور ، لكن فى الواقع قد لا يعود الرجل أحيانا للبيت
ليلاً . . . يمكن أن يحدث . . . "

أشعل سيجارة فى صمت ، فقد كان ينتظر ردًا ذكيًا يقال لرجل ،
لكننى كامرأة كنت أشعر فى قرارة نفسى بأنه وغد بشكل ما .

قلت أخيراً : " هاى ، هل لك بكأس آخر من " الشيرى " ؟ "

" أج ، بيتي ، ياإلهى ، لقد انقضت تلك الأيام التى كنت أحتفظ فيها بأكثر من امرأة سعيدة فى وقت واحد ، انتهت تلك الأيام تماماً ، لقد كبرت " وحاول أن يبتسم لى بظل من ابتسامته القديمة .

" فى الحقيقة كان هناك أمراً قد حدث بـ " المكتب "

" أوه ، إذن قد لا ترغب الحديث عنه ! "

" حسناً ، لن تخبرى أحداً ، أليس كذلك ؟ إنك المرأة الوحيدة التى أعرف أنه يمكنها الاحتفاظ بسر ، وإخفائه "

قلت وأنا أربت على كتفه : " كفى يا رجل " ، وظهرت فى عيوننا ابتسامة الرضا والتفاهم ،

" حسناً ، أتعرفين . . . لقد حدث أن . . . أطلقت النار على دكان الجزار "

" ماذا ؟ "

" أج ، لقد أطلقت الرصاص على دكان الجزار ذاك "

" لماذا ؟ بحق " يسوع " ، لماذا دكان الجزار ؟ "

" يا أختى ، الجزار كان موجوداً معنا ، ولم يبال بالأمر "

سألت : " لكن لماذا ؟ لِمَ أقدمت على هذا العمل الأحمق ؟ لم تنقب دكان جزار ؟ "

نظر إلىَّ وضحكنا قليلاً ، لكن بفتور .

" كل شيء بدأ فى المكتب ، وكما تعرفين يا بيتى ، أن المكتب لا يعنيه سوى شيء واحد فقط ، شيء واحد ، وهذا الشيء يعنى كل شيء ، علينا أن نؤديه بفعالية كلية ، ذلك هو ما يعنيههم ، لقد كانوا يصرفون الناس من الخدمة مؤخرًا. إذا اعتقدوا أنك لا تفكر بالطريقة الصحيحة ، أى بطريقتهم ، يطردونك فورًا ، حتى وإن كنت تؤدى عملك على أحسن وجه ، كنت ستصابين بالكوابيس من طريقتهم هذه ، ذات يوم ، منذ فترة قصيرة خفضوا رتبة كولونيل بوليس سابقا كيف ؟ وضعوا كولونيل البوليس ذاك ليعمل فى مكتب ثانوى ، وتركوه هناك يفرز البريد ، كولونيل البوليس التعس ذاك ! "

همست : " معك حق ! "

شرد بذهنه بعيدا ثم واصل حديثه : " ما علينا ، هل تذكرين كيزبرينك ؟ الزميل البدين ، ذا الوجه الأحمر ، المستغرق دائما فى الضحك ؟ "

" لا ، لا . . . لا أعتقد أنى أتذكره . . . "

" أنت تعرفينه ، كان فى كلية الشرطة معى بعد المدرسة الفنية ، ذلك الفتى صاحب الشعر الفاتح والوجه الأحمر ، والذي كان ينضح عرقا باستمرار حتى أننا أطلقنا عليه نافورة ، وأطلق عليه شخص ما (بوز أوو كيز) !!! حتى التصق به الاسم ، لكنه فى الحقيقة كان (لكيرو) !!! لقد بقينا أصدقاء لسنوات ، حتى عندما أصبح فى منصب أعلى من منصبتى ، لم يكن غيبًا على الرغم من أن منظره لا يسر ، وقد أنهى دراسته بالمدرسة الفنية ، ثم التحق بكلية البوليس ، وعين فى المكتب ، دفعوا له رسوم الالتحاق بالجامعة ، ونجح هذا التعس وحصل على البكالوريوس العسكرى "

سألته وأنا غير متأكدة من ماهية الشهادة : " بكالوريوس عسكرى ؟ "

" نعم ، البكالوريوس العسكرى " .

" أوه "

" المهم ، صباح الأمس دخل المكتب كالمعتاد ، وكان يرتدى حلة جديدة ، وشعره الخفيف الأصفر ممشط إلى جانب واحد وابتسامة عريضة تملأ وجهه ، دخل يلقي بالنكات وهو يضحك ، وبمجرد أن أخرج منديله الجديد الرقيق من جيبه ليجفف جبهته ، أخبره أحد الكتبة أن الرئيس يريد رؤيته ، يا سيدتى ، لم تمض عشر دقائق إلا وقد عاد لحجرتنا ومنديله ذاك يُعْتَصِر فى قبضته كأنه كرة مشبعة بالماء "

كور " كريس " قبضته تحت أنفى ليرينى كيف كان زميله يعتصر منديله الجديد والدموع تملأ عينيه ، وأخذ يكرر : " كان المنديل يعتصر فى يده مثل كرة مشبعة بالماء "

خمنت ما حدث ، إلا أننى مع ذلك سألته : " لماذا ؟ "

" لقد فصلوه من الخدمة ، هؤلاء الأوغاد طردوه ! "

سألته : " لآى سبب ؟ "

عند ذلك أحضرت النادلة الأقداح والصحون والأباريق الصغيرة ، وملاعق وفوطاً ورقية ، وراحت تتلأ وتضعهم ببطء كأنهم صنعوا من قشر البيض ، بينما جلسنا نحن نراقبها فى صمت ، بنت بلد حقيقية ، عندما تريد منهن أن يسرعن فى العمل ، فإنهن يأخذن راحتهن تماماً ، وإذا طلبت منهن الحرص ، فإنهن يتصرفن باندفاع وتهور لعين .

عندما ابتعدت قال "كريس" كأنه قد أنهى حكايته : "عارفة" ، لقد بدأت أبول على الأفريكان ، ولا أرغب حتى فى قراءة أى أدب أفريكاني مطلقا .

" لكنك تعيش هنا ، إنك أفريكاني ! "

" ومع ذلك ، فإننى مُصر على رأى ، أننى أبول عليهم "

استدار ثم اقترب بمقعده ناحيتى حتى اضطرت للتراجع للخلف حتى لمس رأسى الحائط ، ودفعت بطريق الخطأ قدحى ، ثم قال وهو يكاد يصحن أسنانه : "هل تدرين بما يجرى؟ توجد طبقة من الأفريكان متسلطة ، لا تهتم سوى بالمال ، وكل متمرّد عدوانى يمكن شراؤه ، وهم لا يهتمون بأى شىء آخر ، الإنجليزى فى هذا البلد أصبح لا يعنى عندهم شيئاً ، والبلد نفسه لا يعنى شيئاً ، إذن ماذا بقى؟ نحن بالنسبة لهم مجرد ناس فارغين ، هذا ما أطلقوه على رجل الشارع ، ورجل الشارع يعرف ذلك ، لا يدرى كيف تسير الأمور ، وعلاوة على ذلك هناك المكتب . هل تعلمين ؟ أن كل الأفكار . . . وكل المثل ، كل هذه الأمور التى تشغل بال الرجال ، هى مجرد بغبغة ، ذلك لأن . . . ، أقول لك ، ذلك لأن الرجال ينفخونها مثل الكرة ويشوشون بها عقولهم . أنا نفسى لم أعد أومن بشىء بعد الآن ! لا شىء مطلقا ، وأجزم لك أنهم لا يؤمنون بشىء ! "

" لكن كيف يمكنك العمل فى المكتب إذا كنت لا تؤمن بما تفعله ؟ فمن الضرورى أن تؤمن بما تقوم به ، وإلا سيكون الدور عليك فى الطرد إذا توصلوا إلى أنك تؤمن بخط مختلف "

" أفُ ، إنهم لن يطردوننى . فأنا لست ذا شأن ، أنا مجرد إدارى فى حجرة خلفية ، أنا مجرد مصدر معلومة من هنا أو هناك كما أبقى فمى الثرثار مغلقًا دائمًا ، ومع ذلك . . . فليفصلونى ! فليطردونى ! "

رشف رشفة من قهوته وقد أطلت من عينيه نظرة مشتعلة كأنه كان يستمتع بتحطيم شىء ما .

" لم أعد أو من بشىء غير موجود بعد ، " هكذا راح يردد كلماته بصوت خفيض ، " لم أعد أهتم حتى بالحديث فى السياسة ومثل هذا الهراء مع أى أحد ، لن أقدم عنقى من أجل هذا . . . شىء ليس له وجود ربما من أجل صديق !! لكن ليس من أجل أية فكرة ، إننى سأعيش دون أى فكر ، وسوف أؤدى عملى وحسب . . . "

" لكن كيف ستؤدى عملك دون الإيمان بأن هذا العمل مهم لنا وللوطن ؟ هذا غير معقول ! "

" لكن يا " بيتى " ، لا شىء معقول فى هذه الدنيا ، الحياة مجرد سباق تبّول طوال الزمن اللعين . "

عند هذا الحد توقفنا عن الكلام ، وراح كل منا يشرب من قدحه لبعض الوقت ، شعرت بالأسف على ضياع صديقى القديم . إننى مخطئة ، نصف أفريكانية ، خمسون بالمائة أفريكانية فقط ، لم أتمكن قط من الحصول على الزبد لا من البيض ولا من السود ، لكن !! كريس كان دائما شديد الولاء للغته وبلده ، كان على استعداد أن يموت من أجلها ، وكان يتكلم عن الوطن وعيونه تلمع من الحماس ، وأحيانا من البراندى الكثير الذى كان يشربه ، لكنها على أية حال كانت تلمع ، وقد اعتاد أن يقول :

إنه إذا حققنا وحدة جنوب إفريقيا ، فيمكننا أن نملك كل العالم الخارجى اللعين . كان يريد أن يشترك الإنجليز ، بل والملونون فى هذه الوحدة .

نظرت إلى صورة وجهه الجانبية ، آه ، تقدم الآن فى العمر ، وصارت البشرة تحت جفنيه مثل الجلد المدبوغ القديم ، وتهدل جلد عنقه تحت رقبتة ، كان الصلع يزحف على رأسه والشعر الأبيض خطوطا تغزو رأسه ، منظرها على الأقل أفضل من " اللطخة " السخيفة فى شعر " هاين " ، ويقولون : أنك لن تكتشفى حمارا أصلع ، حسنا ، سنرى إذن

قلت : " إذن ، طردوا " كيز "

" أجل ، وقف هناك يعتصر منديله فى يده ، وأدركت ما كان يفكر فيه كان يفكر : ماذا سأقول للزوجة ؟ ماذا سأفعل غدا عندما يستيقظ الجميع للذهاب لإعمالهم وأنا بلا عمل أذهب إليه ؟ وماذا سأفعل بالبكالوريوس العسكرى ؟ أحقا إن ذلك المكتب قد ألقى بى خارجه ؟ "

" لكن ، لآى سبب طردوه ؟ أم أنك لا تعرف ؟ "

اقترب منى مرة أخرى مما أجبرنى على التراجع ناحية الحائط ، وبسط راحتيه كأنه يتوسل إلى أن أكون معقولة فى سؤالى !!! .

" يا سيدتى ، هذا ما فعلوه وحسب ، أنصتى "

" إننى منصتة "

" لقد أرسلوه للجامعة ، " أوكى " ؟ وحصل على البكالوريوس العسكرى ، " أوكى " ؟ وقالوا له اشترِ بدلا أنيقة ، وأعطوه حافظة جلدية لحفظ الأوراق ، ثم أرسلوه خارج المكتب قائلين له : اقبض على

الشيوعيين ، ما الخبرة اللعينة التى حصلها من القبض على الشيوعيين ؟ لا شيء ، إنها ليست بخبرة على الإطلاق ، ماذا كان يفعل ؟ كان يقوم بحملات لعينة ، وقد ساق الحملات إلى كل عمارات الحدائق التى كان بها مجموعات الطلبة ، ومن بعدهم كانت جماعات السود - ثم ؟ ثم طردوه !

" هاى ، وأنت شعرت بالأسف لأجله ورحت وأطلقت الرصاص على دكان الجزار ؟ "

" أجل ، لكن ليس فى الحال "

" حين شاهدت منديله يُعْتَصَر فى يده بهذا الشكل قلت له : " هيا يا صديقى العجوز ، دعنا نذهب من هنا ونشرب كأسا " تركنا المكتب إلى بار " كولومبوس " منذ أن فتح أبوابه ، وقضينا اليوم كله هناك ، كنا فى أول الأمر نشرب بتعقل ، إلى أن وصل اليونانى "كوستا كوستاكيس" ، كان يملك دكان جزارة ، ويدير مدرسة لتعليم البوكر ، على أية حال ، طلبت منه الانضمام إلينا ، كان اليوم الأربعاء ، وللحظ العاثر أنه كان فى إجازة بقية اليوم ، هكذا جلسنا نحن الثلاثة نحتسى الخمر ونثرثر ، ونروح عن أنفسنا إلى أن ألقوا بنا خارج البار عند منتصف الليل "

سألته وقد شعرت بالغثيان لمجرد تصور حالتهم : " وأنت ألم تتناول طعاما طوال اليوم ؟! "

" بلى ، لكنهم قدموا لنا الشيبسى ، والسودانى ، ونحن طلبنا بعض السجق ، لكننا مع ذلك بقينا سكارى تماما ، وكنا نتحدث فى ذلك الوقت عن البراعة فى التصويب على الأهداف ، ونتبارى فى إظهار مهارتنا ، وكيت . . . وكيت وحين ألقوا بنا خارج البار كنا ما نزال نتكلم

حول هذا الموضوع ، وفى الطريق إلى البيت ، مررنا بـدكان جزارة كوستا ، الذى قال لنا : إنه سيعطينا بعضاً من اللحم المقدد ، عندئذ دخلنا ، فقال "كوستا" متحديا : إننا لا نقدر ألبتة على إصابة طبقة القرميد العليا المركبة بطول الحائط ، وهى طبقة من الحجارة التقليدية القديمة باللون الأزرق الجميل المزين بنقوش

" ثم ؟ "

" أطلقت عليها الرصاص واحدة تلو الأخرى . . على كل القرميد الأزرق ، إصابة مباشرة صائبة "

" ألم يكن ذلك خطرا ؟! أقصد ألم يحدث ارتداد للرصاص بسبب الأذى ؟! "

" تقصدين ارتداد القذيفة ؟ لا ، لا يحدث هذا عندما يكون خط الرصاص كثيفاً متلاحقاً والتصويب جيداً ، لقد كانت القرميدة تنكسر وتتبعثر ثم تسقط الرصاصة على الأرض فوراً ، "عرفتى"

" كان يجب أن ترى وجه كوستا حين أطلقت الرصاص بهذا الشكل ، لقد كان يعتقد أنني سكران كلية بحيث لن أستطيع تحديد الهدف والتسديد عليه ، لكن من ! ليس معى ! "

" و كيز ، هل أطلق الرصاص هو أيضاً ؟ "

" لا ، لقد كان جالساً على الأرض ممدداً ساقيه ورأسه متدل ، وفى كل مرة أسحب الزناد كان يصيح : هيا بنا ننصرف لبيوتنا "

أفتر ثغر كريس عن شبه ابتسامة .

"كريس" ، وما الذى حدث بعد ذلك ؟"

" قلت "لكوستا" : إنه من الأفضل أن يصطحب "كيز" للبيت ، فلم أكن واثقا من قدرتى على قيادة السيارة ، واستولى على شعور مفاجيء بأننى سأموت إذا قدتها ، وجدت سيارتى ، وحين دخلتها ، رحت فى النوم فوراً ، استيقظت حوالى السادسة هذا الصباح ، تعرفين ، كان العالم رماديا "مقرفاً" ، كل شىء رمادى ، هل تفهميننى؟ لا لون سوى الرمادى . . . مبان رمادية . . . وسماء رمادية ، كل شىء رمادى ، ثم قدت السيارة إلى البيت . . ."

" كريس ، هل ستقع فى مشاكل مع "كوستا" بسبب ذلك ؟"

" لا ، لقد أعطانى لفة كبيرة من اللحم المقدد عند رحيلنا ، وحين وصلت البيت أعطيتها لـ "إنيسه" كى أثبت لها أننى لم أكن مع امرأة أخرى ، لكنها ألقت بها على الأرض ، وكنت مضطراً لرفع كل هذه الكمية مرة أخرى"

" لابد من أنها كانت قلقة عليك . أية امرأة فى موقفها كانت ستتصرف هكذا ."

" بيتى ، اسمحى لى ، "إن هذا كلام فارغ" نحن زوجان منذ زمن طويل بما يكفى لـ . . . لتعرف ، لقد كنا جميعنا فى الشهور الأخيرة واقعين تحت ضغط العمل ، فمنذ أحداث الشغب الأخيرة ونحن لدينا الكثير من العمل . . . وهم يعتقدون أننا لسنا بشراً . . . كنت هذا الصباح وأنا أقود السيارة فى طريقى إلى البيت أرى كل شىء رمادياً ، وحين دخلت وبدأت الصياح فى وجهى ، بدت لى عباؤها الزرقاء رمادية

باهتة ، ولم يكن بى من طاقة لإقناعها ، وعندما قالت لى لابد من أن
أحزم أمتعتى ، سحبت حقيبة السفر اللعينة وألقت فيها بأشياءى "

" والآن "

" والآن ماذا ؟ "

" أين ستذهب للإقامة ؟ "

" لا أعرف ، مازلت أفكر "

" كنت أود دعوتك لمسكننا ، لكن هاين يعرف أنى كنت معجبة بك
فى الأيام الخوالى "

" لا ، لا ، لا "

" ألم تذهب إلى عملك بالمكتب هذا الصباح ؟ "

نعم لم أذهب . . .

" إذن هكذا تكون قد تغيبت يومين ، ماذا سيقولون عن ذلك ؟ "

قال وهو يزدرد آخر قطرة من قهوته : " اللوطيون التافهون قاله
بكراهية ، قلت له بإلحاح : " كريس ماذا ستفعل إن فصلوك ؟ "

انزلق فى كرسيه ومد ساقيه ، وغاصت يده فى جيوبه ، ونكس
رأسه وسرح .

" إنك غير مؤهل لأى شىء سوى العمل فى المكتب "

قال : " تذكرين أننى تخرجت فى كلية الشرطة ، سوف أقضى بقية
حياتى أحقق ، وشرع يقلد كتابة المحاضر على الآلة الكاتبة بتكتكات من
أصابعه . . . من سرقة غسيل ، سرقة "بستانى" لزجاجات الكولا الفارغة ،

سرقة دراجة طفل فى الطريق ، القبض على بعض أفراد البانتو الذين يتواجدون بلا تصاريح إقامة ، القبض على المتشردين فى الحدائق العامة ، القبض على مجموعات "البانتو" الذين يحدثون ضجة خارج المقاهى ، إلى مساعدة التانيزا!! فى عبور الشوارع ، هذا ما سوف أقوم به ! "

اضطرت أن أضحك ، وسألته : " مزيد من القهوة ؟ "

" لا ، شكرا ، من الأفضل أن أبدأ التفكير فى المكان الذى سأقيم فيه " " حسناً ، وأنا من الأفضل أن أذهب لتفقد العدادات وأرى أيها يحتاج تذكرة "

نهضنا ، دفع الحساب ، وتركنا قاعة الشاي ، مشيت معه حتى سيارته ، وكان مؤشر عداد الساعة على التوقيت المحدد مع زيادة طفيفة ، ولكن لم يزعجه ذلك ، قال وهو يفتح باب سيارته : " يجب أن نبقى على اتصال " ، لكننى كنت أدرك أنه لا يعنى ذلك حقيقة ، ثم قال وهو يضع لفة فى ورق بنى بين يدي : " هياً ، يستحسن أن تأخذى هذه " ، وأحسست باللحم المقدد داخل الورق .

قلت فى أول الأمر وأنا سعيدة بهذه الهدية : " شكراً " ، ثم طرأ على بالى ، ماذا سأقول لـ "هاين" عنها ؟ فثمن هذه الكمية يقدر برندات ورائدات^(٦٢) ، لكن كريس كان بالفعل فى الاتجاه المعاكس من ساحة موقف السيارات ، وكان يلوح لى مودعا .

وصاح : " تيجيراس ! " .

" صحت فى المقابل : " بلغ حبى لـ . . . دكان الجزار ! "

(٦٢) الراند : وحدة العملة المحلية فى جنوب إفريقيا .

تأليف : "نادين جورديمر"

الولد الأسود الصغير الذى اعتاد مواجهة الكلاب فى ضواحي البيض بشجاعة عندما كان يسلم البرقيات ، "سنكلر- جنرال جاينت - زويدو" ، مازال يحمل ندوب تلك العضات على ساقيه حتى اليوم .

هكذا ، نمت الفقرة الاستهلالية من مقال " بروفيل " ، وكان حق النشر لصحيفة " صاندى " الإنجليزية ، وأعيد نشرها بالاتفاق المتبادل بين الصحف فى نيويورك ، وواشنطن ، وبالاتفاق مع اتحادات النشر فى استراليا ، كما ترجمت فى كل من صحيفتى " اللوموند " ، " وزيورخ الجديدة " ، لكن هذا المقال مثل غيره من المقالات الأخرى التى قرأها عن نفسه ، لم تكن دقيقة ، لا ، فى ذلك الزمن ، كان صبيًا يحب الكلاب ، وكانت الكلاب التى تعدو خلف دراجته هى تلك الكلاب التى أحبها - فما كان عليه سوى أن يصفر لها وهو ماض فى طريقه ، حتى كانت تقف هناك وتهز ذيولها الطويلة فى سداجة ، أما الندوب التى على ساقيه ، فهى من الجروح التى أصيب بها عندما انفجر ملجأه الموجود بالأحراش ، وكادت تأسره قوات البيض ، قرر الصحفي تصوير الجروح على أنها عضات كلاب ، فهى بذلك تصلح مقدمة لقصة ، وفى الوقت نفسه ، تظهر أن الصحفي ليس فى جانب البيض ، إن الحقيقة الوحيدة فى ذلك ، هى أنه هو ذلك

الصبي الصغير الذى أصبح "سنكلر- جنرال جاينت - زويدو" ، الذى ولد فى عشش السود ، فى مزرعة قصب رجل أبيض ، بأشد مناطق البلاد حرارة وتخلقاً ، وذلك بعد بضع سنوات قضائها فى المدرسة ، فى ذلك الزمن الذى كان الأطفال يجرون عمليات الجمع على التراب ، وكان هو ساعى بريد فى مدينة صاحب المزرعة ، فى شارعى تلك المدينة، كان هناك فندق البيض الرئيسى ، وطريق الجراج الرئيسى ، والمخازن ، ونادى البلياردو ، ومحطة السكة الحديدية ، حيث سمع لأول مرة فى ذلك المكان صوت الأخ الذى سوف يصبح فيما بعد رئيس الوزراء ، ورئيس الدولة ، سمع هذا الصوت من ميكروفون كبير محمول على سيارة خردة تقريباً . وقد دعى (وكان هناك آخرون ، لكنهم لم يصبحوا شيئاً يذكر) لاجتماع فى صالة الإرسالية الكاثوليكية بناحية "جود ويل" ، التى كان البيض يطلقون عليها عشش السود ، وكانت تقع على أطراف مدينتهم . كان يعيش هنا ، بناحية "جود ويل" ، ساعى البريد الصغير ذاك ، الذى انفرد بفريق كشافة الصبية السود ، الذى نظمه البيض منفصلاً عن فريق الصبية البيض ، انفرد بهم وحولهم إلى جماعة شباب حزب الاستقلال الوطنى ، قال لهم: "حسناً ، سوف يتم إعدادكم ، سوف يعلمكم الحزب كيف تشعلون ناراً لا تستطيع الحكومة إطفاءها"

وكان هو الذى عندما قبض على القادة لأول مرة ، سجيناً مع رئيس الوزراء المقبل" ، وأصبح أحد ضباطه الأساسيين ، فى الحقيقة ، كان هو الذى ألف فى السجن أغنيات التحدى التى سرعان ما انتشرت وغُنيت فى اللقاءات الجماهيرية، وهو الذى يقلد حراس السجن ، وهو الذى جعل من إحدى السجينات التى كانت تمسح أرضية الزنزانة حاملاً - ومع ذلك لم

يصدقها أحد عندما أعلنت على الملأ متفاخرة أن الطفل هو طفله ، إلا أنه هو الوحيد الذى كان يعلم أن هذه هى الحقيقة - وأخيراً ، عندما أرسل إلى سجن آخر كى يتجنبوا تأثيره القوى على الأتباع السياسيين المعتقلين ، تغلب على ثلاثة من الحراس وهرب إلى الحدود .

هذه المأثرة هى التى أكسبته لقب "جنرال چاينت" (٦٣) ، وصار مثل الأنبياء ، والقديسين ، والمتمردين من الأفاقين ، والأبطال ، الذين يتلقون ألقابهم من عامة الناس ويصبحون أسطورة متداولة بكلام مجهول المصدر ، لم يعد إلى البلاد إلا بعد أن أمضى فصول الشتاء فى بلاد الصقيع التى تعرض اللجوء السياسى ، والتدريب العسكرى ، بل وذهب إلى مدن الصحراء الغنية لطلب المال من سلالة القوم الذين باعوا الأفارقة عبيداً ، وإلى جزيرة حيث كان عمال السكر بها بمثابة أمه وأبيه ، وقد أصبحوا الآن أقوىاء بما يكفى لإمداده بالأسلحة ، لقد كان ضمن أول زمرة من الرجال الذين تركوا الوطن وأيديهم خاوية ، وأقدامهم عارية ، وعاد ومعه مدافع الكلاشينكوف ، والقذائف الصاروخية الموجهة بالحرارة ، وألغام السفن ،

اعتقل رئيس الوزراء المقبل مرة ثانية وثالثة ، وفى النهاية هرب خارج البلاد ، وأسس قيادة الحزب فى المنفى ، عندما كان يقابله "سنكلر-جنرال چاينت - زويدو " فى لندن أو الجزائر ، كان رئيس الوزراء المقبل يرتدى بدلة داكنة ، نسيجها الدقيق يبدو فى الضوء بلون زرقه متتصف الليل ، أما هو فقد كان يرتدى زى القوات الخاصة ، ذلك الزى الذى ابتدعه الرجال الذين لم يعيشوا حياة البشر ، بل عاشوا مثل قطيع من الأسود ،

(٦٣) الجنرال چاينت : الجنرال المارد .

اجسامهم يملؤها القُراد ، عطشى ، رابضين بين أجسام الشوك . . كلما زادت أعدادهم وجرأتهم ، كلما ترقى هو فى قيادتهم ، ويتطور الزى العسكرى كذلك ، ليصبح زى قتال يليق بأسلوبه ولقبه وإنجازاته ، عند بداية الحرب ، كان يقود مجموعة من الجنود الشعث مهلهلى الثياب تحت شعار: اضرب واجر ، وبعد أربع سنوات ، وموت الكثيرين ، مما أكد أسطوريته غير القابلة للتخميم، أحكم أنصاره سيطرتهم على ثلث البلاد ، وكان هو الرجل الذى يود جيش البيض بشدة أن يأسره .

قبل أن يجرى رئيس الوزراء المقبل محادثات مع منظمة الوحدة الأفريقية أو الأمم المتحدة ، كان عليه أن يرسل أولاً للتشاور مع "قائد" جيش التحرير ، "سنكلر - جنرال چاينت - زويدو" ، الذى جاء من الأحراش فى غربته الجيب التشيكية ، وبعد أن نزل فى سلسلة مهابط سرية متتالية صغيرة جداً ، أدرج اسمه أخيراً فى جدول خط طيران رسمى ، وركب بين رجال أعمال البترول والتعدين الذين تصوروا أنهم يجلسون مع شخصية سوداء هامة ، صاحبة ملايين من الدولارات ، قادم من دولة لا يعرفونها ، ربما ينفعهم فيما بعد، عندما انتهت المشاورات فى العاصمة الأجنبية ، لم يضع "جنرال چاينت" الوقت فى حفلات الكوكتيل الرسمية المملة ، لكنه كان يخشى ليكتشف بنفسه ما يمكن أن تقدمه العاصمة من عرض يتفق وقدراته الفائقة - من قيادة الرجال فى الحرب بلا خوف ، إلى إثارة الناس ليشبوا مرحاً ، إلى الصياح والخبور ، والسكر ، والمناقشات الحامية ، كل ذلك من أجل التأثير على النساء ، بعد ليلة فى بار ، وفى سرير مع الفتيات - لم يضطر قط أن يدفع لمحتسفات ، فقد كانت النساء المحترمات من البيض أو السود على حد سواء اللائى يبحثن عن البهجة متوفرات له بسهولة - يركب طائرة عائداً إلى إفريقيا ، لم يكن يحب أن

يبقى خارج البلاد قط ، لم يحسد أخاه رئيس الوزراء المقبل على شقيقته فى لندن ، حيث كانت تنهال عليه الدعوات إلى الريف الإنجليزى لمناقشة مستقبل البلاد ، كان يعود إلى إفريقيًا غريزيًا ، يشبه فى ذلك الطيور الإفريقية المهاجرة التى تعود للتزاوج من أجل حفظ النوع ، مسافرة آلاف الأميال ، تمامًا مثله حين ركب الطائرة عائداً ، ثم ساق عربته ، وتوغل أعمق فأعمق إلى حيث ينتسب ، إلى أن وصل إلى مركز قيادته مرة أخرى - إلى ذلك المكان الذى كثيراً ما أعلنت قوات الكوماندوز البيضاء أنها دمرته ، لكنها لم تستطع ، لأن مركز قيادته كان الأحراش ذاتها .

لم يكن ليتم النصر فى الحرب دون "الجنرال جاينت" ، وفى مؤتمر السلام ، لم يكن له أى دور فى المفاوضات ، لكنه كان يجلس إلى جانب أخيه ، رئيس الوزراء المقبل . . . سلاحاً ، درعاً ، تهديداً لحكومة البيض المحبطة ، فى حال عدم إقرار اتفاق السلام ، من حين لآخر كان يتنحى ليزيل تقلص السأم عن حنجرتة ، فكان المفاوضات البيض يرتعدون كما لو أنه زأر .

استغرقت المفاوضات حول الدستور عدة أسابيع - بالطبع - كانت هناك هدنة ، وقد أراد أن يعود لمقر قيادته - موطنه - لكن أحد الشروط التى تم صياغتها رسمياً حول حرب المروج الحمراء كانت تنص على انسحابه من الميدان ، تجول فى لندن ، ذهب إلى النوادى الليلية ، دعى إلى حفلات العرب الذين اكتشف أنهم لا يعرفون مكان البلد التى حارب من أجله ، وانتصر من أجل شعبه لعله كان ؛ فى هذا الوقت يزأر فعلاً . . . بالضحك ، ومشى عبر حى "سوهو" ، لكنه لم يستوعب لماذا يفضل أى إنسان مشاهدة اثنين يقدمان حركات جنسية على شاشة السينما بدلاً من أن

يمارسا ذلك ؟! ودخل مصادفة متحف التاريخ الطبيعى فى جنوب "كينزنجتون" ، كان منبهراً بالحياة التى سبقت حياته ، فكان ينظر إلى الأشياء فى هذا المتحف وهو سارح ، يربط بين الطبيعة القديمة وبين أنفاق الألغام ، وصمامات أمان القنابل اليدوية دفاعية وهجومية ، ومدافع الكلاشينكوف ذات المعدن المزرق من الإحماء ، أرسل بطاقات بريدية تحمل صورة الماموث ، والرخويات لأطفاله ، الذين ظلوا بالمكان الذى عاشوا فيه مع زوجته طوال الحرب . . فى عشش السود بحاضرة بلده .

أما زوجته ، فقد كانت تحت رقابة البوليس منذ : تزوجته . وقد احتُجزت عدة مرات ، لكنها بقيت على قيد الحياة بقولها إنها وزوجها قد انفصلا عن بعضهما ، وهذا صحيح بطريقة ما ؛ فرجل يقود حرب عصابات ، ليس له عائلة ، عليه أن ينسى الوجبات التى تعدها امرأة من أجله ، وينسى السرير الذى عليه طبة وأثر جسمين عند كل طرف ، وينسى "خنة" الطفل القريب منهما ، مارس الجنس مع مغنية سمراء من جاميكا ، ليست بعد شابة ، وكانت تسريحة شعرها عبارة عن باروكة حمراء ، بدلاً من تسريحة ذلك الوقت موضوعة ، ذيول الخنازير المتصلبة ، ألقت أغنية عن شجاعته فى الحرب لبلد تخيلته ولم تكن رآته قط ، غنتها فى لقاء النصر . . حفل التضامن ، حيث صفق لها كل الأخوة الموجودين فى المنفى ، وكذلك كل البيض المتعاطفين مع قضيتهم ، فى شقتها ، كان لديها صندوق ويسكى "سكوتش" خاص - فهو معتق منذ اثنى عشر عاماً ، كان قد أرسله لها أحد المعجبين ، قالت له وهى تغنى : " دعنا لا نتركه يصبح أكثر قدماً " ، ولأنها تعمل فى الليل فقط ، لذا قضيا طوال النهار فى البيت يمارسان الجنس فى جو سيئ ، فتحول الرجل الكبير ، الجنرال جاينت ، إلى قط شوارع تحت مطر بارد: يمشى على أطراف أصابعه ، ويرفع ساقه ويهزها كلما ابتلت .

كان ينتظر الموافقة - حسبما قال لأخيه رئيس الوزراء المقبل ، كى يعود إلى وطنهما ويشغل منصبه كقائد عام " جيش الدفاع " فى الدولة الجديدة . سوف يصبح لقبه أعلى رتبة رسمية ، مثل أولئك القادة فى بريطانيا والولايات المتحدة - سوف يصبح الجنرال زويدو .

استدار أخوه بطريقة مهيبة ، وهو يدارى أفكاره فى ذهنه ، فلا يستطيع أحد متابعتها ، وقال : " مستقبل الجيش مشكلة كبيرة فى الوقت الراهن ، وما زالت قيد البحث ، فالجيشان الأسود والأبيض ، اللذان حاربا بعضهما البعض ، يجب أن يكونا جيشاً واحداً " ، أما ما كان يجهله من المباحثات السرية المستمرة فى الخفاء . . أن حكومة البيض المهزومة ، والقوى الأوربية التى وعدت دولة السود الجديدة بالقروض لإعادة البناء ، قد أصرتا على تجريد " سنكلر- جنرال جاينت - زويدو " من كل صلاحياته العسكرية .

إن وجوده وتأثيره الشخصى قوى جداً ، ومرتبطة بشدة بانتصار جيش التحرير ، وذلك لن يجعله سوى شخصية من الماضى تذكر بالخلاف والشقاق . . فى الجيش النظامى . . الجديد . وقد نصحوا : دعه يرشح نفسه للبرلمان فى أول دورة بعد السلام ، وسوف تضمن له أسطوريته الفوز بمقعد - ثم بعد ذلك يستطيع رئيس الوزراء إيجاد أى منصب آمن له .

ما هو هذا المنصب ؟ ما هو ؟ هذا ما كان يدور فى عقل رئيس الوزراء عندما لم يكن " جنرال جاينت " قادراً على متابعتها ، إن كل ما يعرفه هو كيفية الدفاع عن الوطن ، هذا ما حارب من أجله " ، هكذا قال رئيس الوزراء المقبل للمستشارين الموثوق بهم ، والمحامين الإنجليز ، والخبراء الأفارقة خريجي الجامعة الأمريكية ، وبينما كان يقول ذلك ،

عرفوا أنه لا يريد ، ولا يستطيع أن يترك أخاه " سنكلر- جنرال چاينت - زويدو " ، سيد البرية ذاك ، يقف حجر عثرة أمام إرساء زمن السلام .

تركه فى أوروبا بحجة بعض المهام السريعة المخترعة حتى احتفالات الاستقلال ، ثم أعاده للوطن ، إلى العاصمة الاستعمارية القديمة ، التى أصبحت ملكاً لهم ، وفى المطار بكى الجنرال فى أحضان رئيس الوزراء من فرحة النصر ، بينما كان أطفال المدارس يغنون . منحه منصباً وزارياً - منصب " وزير الرياضة والاستجمام " . . . المنصب غير المؤذى .

نظر " جنرال چاينت " إلى يديه الكبيرتين ، كما لو أن المنصب شىء ماذى عالى بها ، ما المفروض أن يفعل بهذا المنصب ؟ فشلت الرئتان الضخمتان فى ضخ الهواء لحنجرته ، فتكلم مع أخيه رئيس الوزراء بصوت منخفض ، وبامتنان ، بل وحتى بإشفاق .

الآن ، كلاهما يرتدى بدلة زرقاء داكنة ، فى أول الأمر ظهر مع رئيس الوزراء كترضية تبين للشعب - ضمناً - أنه مازال يحظى بقبول رئيس الوزراء ، بوصفه واحداً ممن ساهموا فى تأسيس الأمة ، وبطلها الشعبى . لعب كرة القدم فى الرقعة الفضاء فى مزرعة السكر بين فروع أشجار السنط و أعمدة البريد ، تلك الأرض التى شهدت طفولته ، وفى الأرض الفضاء بجوار مبنى الإرسالية الكاثوليكية التى شهدت أيام شبابه ، أما كرجل فكان مشغولاً بالحرب ولم يكن لديه وقت للرياضة ، استمتع إلى حد ما فى الشهور القليلة الأولى بمشاهدة المباريات الهامة وهو فى منصبه الرسمى ، فشاهد المباريات من مقصورة خاصة ، بعد ذلك كان يرى نفسه فى نشرة الأخبار بالتليفزيون ، أما الأحد فكان يوم إجازة ولهو ؛ وإن طالت فترة الإجازة ، فليس لديه بحكم منصبه الوزارى أية التزامات لإلقاء خطب ،

لكن لأنه ذو اسم معروف فى كل أنحاء العالم ، ولأن موقعه حفر فى الجبال مثوى لشهداء حرب العصابات ، لذلك ذهب إليه الصحفيون لإجراء شتى الأحاديث ، هذا بالإضافة إلى أنه كان نموذجاً رائعاً لحدث صحفى ، فهو ثرثار ، صريح ، مندفع ، عاطفى ، وقد ورط حكومته مرات ومرات برأيه الأهوج الذى يناقض سياسة الحكومة فى المسائل التى ليست من اختصاصه ، وقد وجه إليه مؤتمر الحزب تأنيباً رسمياً مرات ومرات . فكانت استجابته فى مثل هذه الاجتماعات هى التعالى والنظر بازدراء . قالوا: " إن زويدو - (وقدحان الوقت لإسقاط لقبه) - مغرور يفكر كثيراً فى نفسه ، وأنه أساء إلى الحزب ، أما هو ، فكان يعلم أن ما يزعمون ليس هو الحقيقة أبداً ، وكان متبرماً من مؤتمر الحزب ، قال : " إنه كان يشعر برغبة فى التناؤب طوال الوقت ، مثل فرس نهر يرقد ناعساً فى المياه الغامقة الغليظة تحت الشمس قرب آخر مقر من مقر قيادته وفكاه مفتوحان . " ضحك رئيس الوزراء لهذا الوصف ، وشرباً معا ويد كل منهما تحيط بالآخر. مثلما كانا يفعلان فى الأيام الخوالى عندما كانا فى " منظمة الشباب " ، قال له رئيس الوزراء: " لكن بجد ، إن الرياضة والاستجمام فى غاية الأهمية للنهوض بأممتنا ، سوف أنظر فى زيادة مخصصات إدارتك فى الميزانية الجديدة، كى تتمكن من التخطيط ، أنت تعرف كيف تُلهم الشباب . . . وقد قيل لى : إن أحد الفرق المحلية تبنت إحدى أغاني الحرية التى ألقتها وغنتها فى التليفزيون . "

فى تلك الأيام كان وزير الرياضة والاستجمام يرسل نائبه ليوذى عنه مهمة حضور الاجتماعات والمناسبات الرياضية ، ولم يسمع بأغنيته التى كانت عن الحرب وقد تحولت إلى أغنية تشجيع لكرة القدم ، وصلت المغنية " الجاميكية " حسب التعاقد الذى أبرمته مع الهيلتون لإقامة حفلات به ،

حيث أفتتح "الهيلتون" توأ عددًا من قاعات المؤتمرات ، والبارات ، وكازينو، وملهى ليلياً - وأقيم السجن الجديد مكان المعسكر السابق لرابطة السلام ، وكان الجنرال هناك ، كل ليلة "بالملى الللى" ، يحتسى الـ "سكوتش" مثل الذى كان لديها بشقتها فى لندن ، ويتمايل برأسه مع الغناء ، قامت إدارة الفندق بالإشارة إليه فى دعايتها لجلب الزوار من الخارج ، . . "سنكلر - جنرال چاينت - زويدو، الجنرال چياب ، التشى چيفارا ، قائد الحرب المرعبة فى تلك البلاد" ، فكان السياح يقضون اليوم ، حيث تحملهم طائرة خاصة، لمشاهدة ما وصف فى دليل الرحلة بأنه حديقة اللهو الخلابة فى البلاد - محارب الحرية الشهير كان يتعين عليه أن يقول لهم : حقًا أليست كذلك ؟! لأنها فى الحقيقة كانت منطقته . . مقر قيادته . أحيانًا كان يرقص مع إحدى النساء ، فكانت أسنانها البيضاء تلمع متناقضة مع بشرتها التى لوحتها الشمس ، فتبدو مثل السود ، ذات يوم كاد يقع شجار ؛ فقد رقص مرات كثيرة مع امرأة واحدة ، التى بدت مستمتعة بهذه الصحبة الحميمة ، إلا أن زوجها اعترض ، ضحك الوزير المخمور ، وأمسك بالرجل من قفا سترته الكتانية البيضاء وألقى به فى كرسيه، وقد نقل الصحفى المحلى هذه الواقعة ، لكن الصحافة المحلية المملوكة للدولة لم تنشر قصته أو الصورة التى التقطها ، إلا أن صحفياً من الخارج أجرى حديثاً مع "الجنرال چاينت" حول تلك الحادثة ، وحصل منه على تصريح بأن: " الوزير كان مخموراً بالفعل " ، ثم استضاف الصحفى على الويسكى الممتاز فى المنزل الذى أستأجره للمغنية الجاميكية ، وحصل على بعض الآراء حول موضوعات بعيدة كل البعد عن فضيحة الملى الللى .

عندما أثير استجواب فى البرلمان عن مقال فى صحيفة أمريكية أسبوعية فى دولة الحلفاء العالمين ، وقف الـ "جنرال چاينت"

ومرة أخرى وزع اتهامات لم تستطع الصحف المحلية نشرها ، قال : إن الدفاع عن الوطن لا بد من أن يوضع فى أيدي المستعمرين الجُدد الذين كانوا معادين للوطن أثناء الحرب - أما هو فيقف بلا حول ولا قوة لفعل أى شيء حيال ذلك ، لكنه سوف يتمسك بالقانون ليحمى مبادئ حزب "الاستقلال الوطنى لديمقراطية الشعب " ، لقد كان يستعمل الاسم القديم فى مثل هذه المناسبات ، على الرغم من أن اسم الحزب قد اختصر إلى " الحزب الوطنى " ؟ ألم يحارب ؟ ، ألم يُرق الأُخوة دماءهم كي يتخلصوا من عُقد القوانين القديمة التى كانت تعتبرهم لا شيء ؟ ألم يحاربوا من أجل قوانين جديدة ، فى ظلها سوف يكونون بشرًا ؟ إنه على استعداد لإراقة الدماء ، ولا يرى الحزب يُخان ويضلل باسم ما يدعى التحالفات المنطقية ، والوحدة الوطنية .

قيم مستشاروا الحكومة الدوليون كلمته بأنها تحريضية ، إلا أنها على قدر كبير من التشويش ، لذلك من الأفضل تجاهلها ، أما أعضاء مجلس الوزراء ، وأعضاء البرلمان ، فطلبوا من رئيس الوزراء التخلّص منه . "جنرال چاينت - زويدو" ؟ كيف هذا ؟ وإلى أين ؟ كان رئيس الوزراء يعبر عن شدة غضبه فى صورة أسف شديد ، لقد كان غاضبًا من كلام كل من أعضاء مجلسه ، ورفاقه ، الذين بدونهم لم يكن ليتربع فى مجلس الوزراء ، أرسل فى طلب زويدو ؛ لا بد له من تقبل هذا الاسم الآن ، لأنه ببساطة رفض أن يتكيف مع أى شيء بطريقة غير منطقية ، فلم يتخل عن اسم "سنكلر" ، مع أن هذا الاسم كان اسم صاحب مزرعة قصب السكر الأبيض الذى كان يعمل والداه عنده ، ولم يعد أحد يحمل أسماء العبودية تلك .

"زويدو" ، مطمئنا تمامًا لوسامته فى حلة مجلس الوزراء (فلم تعد تلك الحلة الزرقاء القديمة ، بل أصبحت بدلة صوفية بخطوط طولية ، أمرت بإحضارها المغنية الجاميكية من لندن على نفقته) فى هذا الزى الرسمى لا يمكن أن يتصور أحد أن تصدر عنه كلمات وحشية وخطيرة ، يبدو صالحا لمنصب دبلوماسى فى أى مكان . . . قال له رئيس الوزراء وهو فى غاية الأسف والتحفظ : " إن عليه أن يتوقف عن شرب الخمر ، والمقابلات الصحفية " ، ولم يأت على ذكر الوزارة ؛ ولم يخبر رئيس الوزراء أخاه ، أنه لن يستسلم للضغوط التى تطالب بإقصائه عن منصبه ، فالمنتصب الوزارى الذى لم يسع إليه قط ، هو الشئ الوحيد المتاح عرضه عليه ، لم ينو رئيس الوزراء إقصاءه ، على الأقل حتى يتم ذلك بطريقة لائقة تحت غطاء التغيير الوزارى ، وكل ما استطاع رئيس الوزراء قوله : " لا تخذلنى " أما ما كان يريد قوله فعلا ولم يقله : " ماذا أفعل بك ؟! "

كان هناك نقص فى الإنتاج ، ومشاكل مع اتحادات عمال مناجم الفحم ، وعندما جاء التعديل الوزارى أشارت الصحف بالكاد لتغيير وزير الرياضة والشباب القديم ، لم يحصل السيد " سنكلر زويدو " على أى منصب وزارى ، وأشار إليه كوزير سابق ، عندما أضيف اسمه إلى مجالس إدارات الشركات الصناعية المتعددة الجنسيات ، التى وجهتها إداراتها إلى أن تتأفرق ، كانوا يعتمدون على أنه لن يحضر اجتماعات هذه المجالس ، وكانت بدلات الإدارة تكفى لشراء صناديق الويسكى ، وأحيانا تذهب لزوجته التى لم يعد إليها قط ، أو يظهر فجأة مع أبنائه المراهقين فى أرقى محلات المدينة ، يشترون كل ما يخطر على بالهم ، وقد لام أصدقاءه القدامى المرأة الجاميكية ، وليس رئيس الوزراء ، على اختفائه من الحياة العامة ، وقد عادت الجاميكية إلى لندن ، وكانت أسبابها جنسية

وصريحة ، فقد أدركت أنها أصبحت عجوزاً بالنسبة له - ومع ذلك - لم ينصلح أسلوب حياته ، لم يشف من الحرب ، ولا من ثلث مساحة الوطن التي كان يسيطر عليها ، عندما فقدت الحكومة البيضاء سيطرتها ، ولم تكن وجدت حكومة سوداء بعد .

الآن انفتح الوطن ، على كل المؤسسات السياسية والتجارية في كل من الشرق والغرب ، بدلاً من الحلفاء التقليديين للحكومة البيضاء القديمة ، وامتد المطار واتسع ، وأصبحت صالة المغادرة الجديدة متحفاً لفن النحت ، حيث تتكئ الشخصيات البارزة بين أحواض النباتات ، في انتظار الوفود التي مهمتها تبادل المعلومات بين الشمال المستعمر والجنوب المستعمر ، رئيس أركان الجيش الأبيض السابق ، والذي يشغل في حكومة السود الحالية منصب المستشار العسكري في وزارة الدفاع ، كان في صالة انتظار المطار منتظراً طائرة تقله إلى أوروبا في مهمة حكومية ، انضم إليه صحفي حجز مقدماً إلى لندن على نفس طائرة الوطن ، حيث عاد من رحلة مخيبة للآمال . أبدى الصحفي ملاحظة للرجل العسكري أثناء تناولهما " الفودكا بالتونيك " : " حسناً ، من يريد أن يقرأ عن برامج وخطط زيادة محصول الأرز بدلاً من غارات التفتيش والتعطيم ، " كانت تلك إشارة لبقة صدرت عن رجل يجلس مرتاحاً في أرض محايدة هي صالة المغادرة بالمطار بعيداً عن سمع رجال الأمن الجدد السود ، المتبهين لأية إشارة من شأنها تشجيع انقلاب الحرس الأبيض القديم .

سبق الإعلان عن موعد مغادرة الرحلة المتأخرة لخطوط الطيران البريطانية جرس موسيقى ، أخرج أحد " الهندوس " من عباءته الزعفرانية حلوى ، وراح يقدمها هدية للمسافرين كعربون للسلام والمحبة ، بينما

انتهاز رجال الأعمال الفرصة لكتابة تقاريرهم فوق حقائبهم الجلدية المفتوحة على ركبهم ، وكان الأطفال السود مثل البذور ، متعلقين بذبول أمهاتهم ، بينما الأطفال البيض يركضون من وإلى البار ، يشترون "البطاطس الشيبسى" والفول السوداني ، أصر الصحفي على تناول دور آخر من المشروبات .

أعلن كل فترة عن مغادرة بعض رحلات الطيران ، فكانت تتغير أشكال المجموعات والأفراد ، حيث يغادر البعض ، بينما موجة جديدة يسمح لها بعبور الجوازات فتستقر مجموعات البشر في توليفات جديدة ، أما أولئك الذين تأخرت رحلتهم ، فقد أصبحوا جزءاً من مجموعة دائمة ، تضم كنديين من طائفة "بروتستنتية" منهمكين في مطالعة أناجيلهم بنفس الانهماك الذي يقرأ به الآخرون الروايات البوليسية ، وامرأة سوداء عجوز جداً مثل سمكة مجففة ، وزوجان أسودان ثريان يرتديان ملابس غاية في الأناقة ، جلس رئيس الأركان الأسبق وصاحبه خلف هذين الزوجين بمسافة قصيرة ، وكان الزوجان يتبادلان الغزل والملاطفة ، مثل البيض ، وليس من المؤلف رؤية أمثال هؤلاء الناس يتصرفون على هذا النحو على الملأ ، وقد لاحظ الرجلان الأبيضان هذا ، على الرغم من أنهما كانا يريان فقط رأس الرجل الأسود وجانباً من وجه المرأة الجميلة المترجمة ، التي راحت بلا أى حياء تلعق أذن الرجل الصغيرة ببطء ، وأصابعها ذات الأظفار الطويلة تلتف حول عنقه .

لم يبد رئيس الأركان السابق أى تعليق ، فلم يكن مهتماً - فما الذى لم يره المرء بعد فى هذا البلد ؟! أما الصحفي فكان هو من كتب مقال "روفيل" ، بعد انتهاء الحرب مباشرة ، الذى كتب عن: الولد الأسود

الصغير الذى اعتاد أن يواجه الكلاب بشجاعة فى ضواحي البيض . . . فجأة انحنى للأمام ، وراح يحدق فى رأس الرجل الأسود من الخلف ، ذاك هو "جنرال چاينت" ! إننى أعرف هاتين الأذنين ! ثم وقف ومضى إلى البار ، ومال على النضد الطويل لتفحص الزوجين من الأمام ، اشترى كأسى "فودكا بالتونيك" ، وعاد بخفة إلى رفيقه والثلج يتراقص فى الكأسين . "أنه هو ، كنت متأكدًا من ذلك ، أعرفه جيدًا ، حقًا لقد أصبح بدينًا ويتتعل حذاءً من جلد السويدا الفخم ، تلك المرأة . . . أين وجدها !"

الزى الرسمى لرئيس الأركان السابق ، بحشوته السميكة ، والأوسمة فوق الصدر ، أرخى غطاء الرأس حاجبيه ، كأنه سيحميه من الغضب فضلاً عن المعاناة ، بينما شعر الصحفي بالارتباك ، وتخشب وراحت الفودكا ترشح من جسمه مع العرق ، فلم يكن يعرف هل يتقدم إلى "الجنرال چاينت" أم لا - فلم يكن الآن يرافقه رجال السكرتارية أو رجال الأمن ؛ كى يطلب حديثًا صحفيًا ، وهل هناك أحد يريد أن يقرأ هذا الحديث ؟ وهل يستطيع بيعه فى أى مكان ؟ لكن ذهنه تشتت من إلحاح الميكرفون وإعلانه : إن على المسافرين المتسيبين فى تعطيل الطائرة ، لسبب أو لآخر ، التوجه إلى الطائرة فورًا ، لم يتحرك أحد ، و"الجنرال چاينت" - الذى لا يخطئه أحد - كان يلوح بيده الكبيرة فى الهواء ، طالبًا مشروبًا منعشًا له ولفتاته ، فهرع الساقى إلى اليد ، على الرغم من أن البار كان خدمة ذاتية ، قبل أن يتمكن الصحفي من التوصل لقرار فى موضوع الحديث الصحفي ، دخلت مضييفة شركة الطيران مسرعة وحفيف جواربها مسموع عند احتكاك ساقها ببعضهما ، توقفت فى غضب ، وهى تنظر بازدراء للثنائى الأسود ، لم يتمكن الصحفي من سماع ما قالته لهما ، لكنها وقفت بحزم ، بينما أخذ الثنائى راحتهما فى النهوض ، تركت الفتاة ذراعيها

ينزلقان عن الرجل فى وله ، وتراخ ، رتبا حقائب السفر المصحوبة باليد
على كتف كل منهما .

إلى أين كان ينطلق بها ؟

كانت المرأة ترتدى صندلاً بكعب عال ، أنزلت ساقها أمام الأخرى ،
ومشت بخطوة القط مثل عارضة الأزياء ، وكان " سنكلر - جنرال - جاينت
- زويدو " يتبع مؤخرتها بالطريقة التى يتبع بها رجل امرأة غانية ، دون أن
يفكر فى الاقتراب منها بوجهه المشرق ، ورئيس الأركان السابق والصحفى ،
لم يعرفا ما إذا كان قد تعرف عليهما ، أو حتى رأهما ، لأنه مر بلا تعجل ،
والطائرة تقف فى انتظاره .

تأليف : "إلزا چويرت" (٦٤)

تحدث الرجل الذى يطمس التراب أخاديد وجهه ببطء، ومن حين لآخر، كان يجرى يده فوق رأسه ليسوى شعره القليل المتناثر، لاحقته المترجمة متابعة كلماته، وشخص ما، صحفى على ما يبدو، راح "يخربش" الكلمات على الورق.

كانت الكلمات تخرج من فمه بصعوبة، فلم يستطيعوا الحصول على ما يكفى من المعلومات، فى فترات السكون الفاصلة؛ كان يزدرد لعبابه بصعوبة، ويكمل:

" لقد ضغط على صدغى بالمسدس، لا أعرف كيف وصل إلى جانبي فى السيارة، فى ذلك الحين، كانوا بالفعل قد "جروا" زوجتى إلى خارج السيارة. قال لى: "حاول التحرك، وسوف تجد نفسك ميتاً"

" لم أسمع صراخها، لم تطلق أى صوت، وخلفى، كانت المقاعد مفرودة والأطفال نائمون "

(٦٤) ترجمها إلى الإنجليزية عن لغة الأفريكانيز : "مارك سويشت".

" جلست ساكنًا، ما الذى كان يمكننى فعله؟ فوهة المسدس عضت على جلدى ، عندما تناول الثانى المسدس ، استلم مكان الأول، بأن حشر جسمه إلى جانبى ، وراح الأول يتقدم خارجًا شيئًا فشيئًا . "

" كانت فوهة المسدس ضاغطة على صدغى بطوال الوقت ، أظن أنهم كانوا خمسة أو ستة، أولئك الذين اغتصبوا زوجتى "

" عندما انتهوا منها، أرادوا تركها على جانب الطريق، لكننى رفضت قيادة السيارة بدونها، كنا جزءًا من قافلة طويلة من السيارات التى صارت متوقفة أمامى، وكنت أنا أعطلها.

" اقتلعوا باب السيارة مرة أخرى، وقذفوا بزوجتى داخلها، كان شعرها متدليًا محلولًا، وشفتاها الداميتان متفتحتان، وقد فاضت عيناها بتعبير غريب . "

" إنها راقية التربية ، حاولت إعادة ترتيب ملابسها الممزقة ، وكل ما نطقت به أن قالت : " انطلق "

" عندما أدت السيارة ، بدأت قافلة سياراتهم فى التحرك، بدأت السير، فدفعت للأمام بالتعشيق الأولى، وفيما بعد، عندما زادت سرعتنا، أمكننى التقدم للسرعة الثانية والثالثة، على مسافة - وخلفنا مباشرة - كنت أسمع صوت إطلاق الرصاص ، لكننا لم نتوقف مرة أخرى.

" عندما وصلنا قرب حدود جنوب إفريقيا ، كنا قد تأخرنا على مواعيد العبور، أشار لنا جندى شاب ، حليق الوجه ، وقال : " لا تتوقف ، تقدم "

قضوا تلك الليلة فى معسكر طوارئ ، انتفخت الخيام العسكرية فى الظلام ، وباتت السيارة على الدروب الترابية بينها ، أو توقفت فى السهل أمام السلك ، وعند السلك ، فرد الزوجان سريراً ، وحاولا النوم ، رقدا بين السلك والسيارة على حشية رفيعة ، ورعها عليهم الجنود .

جرت الدموع على خديه بينما يدها تمان على جسدها ، مسدت شعرها الرمادى ورفعته عن جبهتها المنداة ، وكلمت الرجل بهدوء : " حاول أن تتخلص مما وقع . . . إنه ماضٍ "

دخل جسدها المنتهك مثل رجل يدخل بيته بعد أن أتلفه الحريق .

هل كان يبغى مواساتها ؟ أم كان يريد أن يتحرر من خوفه ؟ أو من الشك ؟ أو من الإحساس بالذنب ؟

بعد ثلاثة أشهر ، عرف بحملها ، حملق فيها ، كأنه يقلب الرأى فى أمرٍ ما ، وقال : " هل تنتظرين مولوداً ؟ "

ثم سأل : " هل هو طفلى ؟ "

ردت : " كيف لى أن أعرف ؟ "

هنا ، فى البيت الجديد ، فى المدينة الجديدة ، فى البلد الجديد ، أخفت حملها قدر استطاعتها ، كل صباح بعد أن يغادر الأطفال للمدرسة الجديدة ، والرجل لوظيفته الجديدة ، تسلم نفسها للغثيان والقىء ، من المريح أن تكون وحدها ، أن تكون قادرة على أن تميل فوق الحوض وأن تفرغ ما فى معدتها ، استمرار القىء أتلف جسدها ، والتصق الجنين بعمودها الفقرى ، وراح ينمو مثل شئ غريب .

اصطحبها لمستشفى الولادة ، ملأ الاستمارات ، وكتب اسم زوجته :
"ماريا مارجريدا دى سيلفا" ، وكتب اسمه ، الاسم المكتوب فى بطاقته
الطبية الجديدة الصادرة عن مؤسسته الجديدة ، وكتب لقبه ، وديانته .
نقلوها على "التروल्ली" ، لأنها لم تعد شابة .

كانت الولادة سهلة ، الجسم ، الذى رعى نمو الطفل لتسعة أشهر ،
دفعه بسهولة ، براحة وعندما أحضروا إليها الطفل ، عاينته ورأت
لون بشرته وسحنته مشابهين لطفليها الآخرين ، فبكت .

النساء الموجودات معها فى جناح الولادة بالمستشفى أطلقن بعض
الكلمات المشجعة : "بكاؤها طبيعى" ، وقدروا أنها خائفة إثر رحلة
الطيران ، رفعت سيدة ، خاوية البطن - نفسها على مرفقيها ، وقالت وهى
هاجعة بثقل على السرير : "اسمحي لدموعك بالنزول" ، وأكدت أن
"تلك الدموع طريقة طبيعية للتخلص من الماء الزائد"

حملت "ماريا مارجريدا دى سيلفا" المولود الذى أحضروه إليها فى
طية ذراعها ، حلت أزرار ثوب النوم ، فأطبقت الشفاة المائلة للزرقة على
الحلمة ، وبدأت الامتصاص ، شعرت الأم بالشد القوى على حلمتها ،
وبالاعتصار المؤلم لسحب السائل من الحلمة المقاومة ، فلم تكن النداءة
السائلة من الحلمة لبنًا بعد ، بل كان "لبن السرسوب" الذى يعنى أن
الطفل مازال جزءاً من جسم الأم ، نظرت لا مبالية فرأت اليد الصغيرة
تأهتة تلمس طريقها حرة من لفائفها ، حتى التقت بغير توقع الانتفاخ
الناعم لصدرها وتعلقت به ، كانت الأصابع تضغط بشدة على اللحم الذى
انتفخ بينها ، بينما كان الامتصاص على حلمتها ملحاً جداً حتى تنبّهت له
كل النهايات العصبية بجسمها .

فقط ، فى اليوم الثانى ، فحصت المولود عن قرب ، كان يشبه طفليها الآخرين ، الشفتان فقط ، كانتا أغلظ ، مزمومتين بطريقة أخف ، أو ربما كانتا ترغبان بإلحاح فى الرضاعة فحسب؟ ولد صغير ، حتى عندما استوى فى لفائفه شبهان بقى رامًا شفثيه من أجل اللبن ، الأنف ، أيضًا ، كان مختلفاً بشكل غير ملحوظ ، وما هى أنف طفل لم يتشكل بعد؟ أليست كل أنوف الأطفال المولودين مثل بصمات الأصابع معجونة من صلصال لم يستو بعد؟

التفت اليد الصغيرة معانقة أصابعها ، لم يكن الطفل راغباً فى ترك يدها ، حتى عندما حاولت المريضة المبتسمة أن تخلص يده الصغيرة من يد الأم بأصابعها القوية ، كانت مسكته قوية حتى أنها تركت علامة على يدها .

فى اليوم الثالث ، ظهر الوجه الصغير من خلال أغطيته ، وبدا بمسحة خفيفة للون داكن ، كما لو أن ظلاً سقط عليه ، نظرت "ماريا دى سيلفا" للنافذة ، لم تكن هناك أى ظلال ، نظرت "ماريا" ليدها المسكة بالطفل فى طية ذراعها ، لكن لم يكن هنالك أى ظل على جلدها ، رضع الطفل ، كانت تشعر بأن كل رشفة تستنزف سائل الحياة من نخاعها ، من عظامها ، من أعماق أعماقها ، حاولت شد الطفل بعيداً عن صدرها ، لكن الشفاه التصقت بالثدى .

عندما جاءت المريضة لأخذ الطفل ، تعاملت معه بطريقة بدت غريبة ، كما لو كانت تحمله بعيداً عن جسمها - أوه - يا أمنا العذراء الحبيبة ، أم كان هذا من صنع خيالها ؟ هل كان ما ظهر فى عيون المريضة اشمئزازاً من الطفل؟

زارها زوجها فى مساء اليوم الثانى .

لم يتحدث كثيراً عن الطفل .

قال : " كل الأمور بخير ، البيت أفضل من ذلك الذى كان فى البرتغال ، وحتى الذى فى أنجولا ، لقد وظفوا قدراتى فى المصنع بأفضل ما يكون ، فى الإدارة التى أعمل بها الآن ، أعرف العمل مثلما يعرفه أفضل واحد منهم ، وهم يعرفون ذلك ، هم يحتاجون لأناس فى مثل كفاءتى "

سُرْتُ لثقتة فى نفسه ، وتذكرت الليلة التى حاول فيها سبر جراحها ، عندما أسقط عليها إحساسه بالذنب ، عندما جرت الدموع من عينيه .

الآن خداه بلا دموع ، ويداه راقدتان ساكنتان على أغطية السرير ، أو تمسك أحياناً بذراعها . وقد أحضر لها زهوراً .

سألته : " والأطفال ؟ "

" إنهم بخير ، المدرسة تساعدهم ، حتى فى تعلم اللغة "

قالت : " ذلك أمر طيب " أجرى يداً مضطربة على رأسها وراح يمسد شعرها الرمادى .

عندما أحضروا لها الطفل فى اليوم الرابع ، كان وجهه قد صار بلون الرماد ، وإبطاه وثنأيا جلده الناعم . . . سوداء .

ناولتها الممرضة الطفل دون أية كلمة ، وأرقدته إلى جوارها بالمسحة الداكنة السوداء التى انتشرت على كل بشرته وبرز تركيب الأنف أكثر وضوحاً ، كان أنفه واسعاً مفلطحاً ، مثل أنف الرجل الذى سحبها من السيارة ، وكان زوجها جالساً وفوهة المسدس فى صدغه .

بحث فم الطفل بتوق شديد عن ثديها، وعندما صادفه حليب الحلمة
بدأ الرضاعة مفتشاً . . قابضاً، سالت القطرات الأولى ، مانحة إياها
راحة فورية .

أطبقت على أنف الطفل بالإبهام والسبابة، فراح المولود يقاوم، من
كان يظن أن بهذا الجسم الصغير كل هذه القوة ؟ راحت قدما الطفل "ترفسان"
بطنها بضراوة ، واليدان تضربان ثدييها الممتلئين، الفم ، ترك حلمتها
وجاهد من أجل الحصول على الهواء فى اضطراب تام، اللبن الذى شربه ،
جرى على جانبي فمه فى قطرات بيضاء .

دفعت ملءة السرير فى فمه المفتوح ، وأقحمتها . . وراحت تقحمها
أعمق فأعمق .

بقيت ممسكة بها هناك إلى أن توقف الرفس الموجه لبطنها، إلى أن
استرخت اليدان ذات الأصابع السوداء ساقطتين بعيداً عنها .

ظلت ترن الجرس ، إلى أن وصلت الممرضة أخيراً؛ ثم قالت:

"اختنق الطفل"

كان الصحفي يريد نشر قصة ، اقترب من "ماريا دى سيلفا" فى
الحجرة، قال: "صديقتى الممرضة أخبرتنى بأن هناك قصة"

أشارت بيدها: "أنا لا أفهمك"

حاول عن طريق الإشارة: "الطفل الموجود على صدرك . . .
هل غلبك النوم ؟" وطوى يديه على بعضهما البعض ، محاكياً حركة
النوم، "هل غلبك النوم فاختنق المولود تحت صدرك؟"

أومات، بأنها متعبة .

ألح الصحفي: "يريد الناس أن يعرفوا ما حدث، إنهم مهتمون،
'مأساة فى الوطن الجديد' "

نهر من الدموع انساب على وجنتى المرأة الراقدة على السرير، والملاءة
البيضاء تغطيها حتى ذقنها، فوق ثدييها المتفخين، تجمعت الدموع فى زوايا
عينها، عيان هامدتان، متغضبتان، عجوزان، ومتعبتان، وشعرها غزاه
الشيب، تجمعت الدموع فى زوايا عينها لتنهمر أنهاراً على وجنتيها . .
لم تجففهما .

امتدت ذراعها مفرودتين عن آخرهما على ملاءة السرير، داكنتين
وممثلةتين، ولمة شعرها بخصلاته الرمادية ممدودة إلى جوارها على اليسار
مثل حيوان داكن ميت .

كان الصحفي متلهفًا أكثر مما ينبغى ، ويخشى أن ينتهى الموضوع
للاشئ فسأل: "كيف تشعرين حيال اختناق مولودك ؟ أريد عنوانًا
للصورة"

حتى هو التزم الصمت أمام الدموع المتدفقة من عيون المرأة جارية على
خديها .

أشارت لثدييها، كانت الندادة "تنز" على ثوب النوم، تساءلت فى
صمت: "ماذا سأفعل باللبن؟ من سأرضعه بهذا اللبن؟"

غزاة الفضاء

تأليف : " بيتر فيلهلم "

الهدف : أن تبقى على قيد الحياة أطول فترة ممكنة .

السيناريو : أنت تقف على الأرض وحدك ، مدافعاً عن حضارتك ضد المهاجمين من الفضاء الخارجي ، وهم يهبطون تجاهك باستمرار ، محدثين ضوضاء متنوعة ، جميعهم يصوبون أسلحتهم نحوك ، وضربة واحدة سوف تدمرك ، إذا تركت أياً من المهاجمين يصل إلى الأرض ، فإن العالم سوف يضيع ، هذا حديث عن المسئولية .

إن استكشاف المدينة المهجورة معاً كان آثار كثيرة ، وخدم وظائف متنوعة ، كلما توغلت أعمق في داخل مجمعات التسوق تحت الأرض ، كلما ابتعدت عن الأصوات الطاحنة لآلات حفر الغرباء ، التي تطوق المدينة تماماً الآن ، وتطبق عليها .

حقيقة التطويق في المدى الواسع لمجمعات التسوق تحت الأرض ، بدت أخف وطأة من رهبة المترو المغلق تحت الأرض ، ليست مفارقة ألبتة : إضاءة البلاد والمراكز التجارية بالضوء الصناعي - بكنوزها من المجوهرات ، والمعدات الإلكترونية ، والعقاقير المجدولة ، والروايات ذات الأغلفة المقواه - مما كان يجعل المكان معرضاً لحملاتهما اللصوصية ، كأنه غابة مباحة للشاعر الرومانسي .

كان عالم تحت الأرض هناك متاهياً ومعقداً ؛ يربط بين أجزائه ممرات ومساحات فوق مساحات مليئة بالمعروضات الاستهلاكية ؛ والمعالم المطموسة لمجتمع يزول ، هناك بأسفل كانت تتلاشى عداوتهما القديمة . . . وتختفت قسوة علاقتهما .

أحبت " ليندا " الفراء الغالى والملابس التى على أحدث " صيحات الموضة " ، كان هناك شىء ما يدنو من التهلل والفرح فى الطريقة التى كانت تنهب بها " البوتيك " ، حيث كانت تقضى الساعات تجرب الأثواب ، والعباءات ، ففى تجسدها السابق كانت تحتقر هذه الملابس البرجوازية ، الآن وضعت أمامها كل تلك الرفاهية ، فراحت تعرض فى بهجة وحشية أحدث صيحات الموضة لنفسها ؛ فقد كانت هى الشاهد الوحيد على نفسها فى الصالونات المتألقة ، تدور ، وتدور لتمسك بكل ملاك فى مآدبها ، وقد اعتقدت عليها حلّيات صغيرة من الماس والذهب مثل حشرات براقّة .

كانت تقضى الساعات بهذا الشكل ، بينما يكون " بول " بمكان آخر ، يلعب لعبة غزاة الفضاء ، والرجل القارض ، وبوابة النجم ، ونجوم البحر والمدافع ، كان يحرك الآلات من " قوس شارع مفوض الشرطة " ، ويربطهم بسلك فى ردهة فندق " كارلتون " ، ثم يربط حطام السفينة المتألق إلى " عمود الساعة " ، ويقضى الكثير من وقته فى تلقيم الخزانة بالعملات المعدنية فئة العشرين سنتاً ، تلك النقود التى كان يسرقها من صندوق خزانة آلات " الفيديوجيم " الخرساء ، وصندوق جمعيات صناعة البناء .

كان سعيداً بالآلات " الفيدويوجيم " ، ووجد " بول " أنها تحقق ما لا يعتقد الإنسان أبداً أنه يمكن حدوثه ؛ بالتأكيد ، إنجار يفوق المتع الغامضة لكونك " أستاذ تاريخ " .

هناك للحظات كان إحساس مُختلس من الاحترام يتسلل إلى نفسه ، بلا ريب كان إرثاً من نشأته الدينية المترتبة ، فى مثل هذه الأوقات - التى تكون عادة فى المساء ، بعد افتراقه هو وليندا افتراقاً حاداً طوال النهار ، أو عندما كان ينفجر سأمه من تحديه للآلات - كان يخطط بذهول فى كراسة بالقلم الحبر " الباركر " ، وبشكل ثابت ، ما كان يبدأ بملاحظات عن نهاية العالم، ويتحول إلى صور طفولية لنساء عرايا ، ولأنه لم يكن فناناً محترفاً ، وهو على أية حال كان يرسم من الذاكرة ، فإن التفاصيل كانت أبعد ما تكون عن الوضوح : نقط للحلمات ، وخريشات لشعر العانة، لم تكن الرسومات مرضية كفن إباحى ، ولا هى صحيحة تشريحياً ، فهو لم يعرف كيف تبدو المرأة دون ملابس منذ زمن بعيد .

ولكن فكرة أنه يجب أن يدون شيئاً ، ظلت تسكع فى عقله مثل درس غير مُعد ، ولم يستطع أن يصرفها عن ذهنه ، لكن ، تدوين الملاحظات ، لمن ؟ فى النهاية ، كان تقدم الغرباء يبتلعه ، وليندا ، والحجرة ، والأوراق ، ويزول كل شيء ، راح يستعمل "تليسكوباً" من مركز الرصد على سطح " كارلتون ستر " ، حيث كان شاهداً على الفعالية المستعصية على الفهم لعملية التحول ، كانت آلات الغرباء ، من خلال "التليسكوب" تشبه عدداً ضخماً من الخنافس بلون فحم "الإنتراسايت" ، تجوف كل شيء فى طريقها ، وخلفت وراءها فضاءً مسطحاً، هذا الفضاء كان داكناً ومحفوراً بخطوط ، من حين لآخر ، يظهر حجر ضخم يتصب

بارتفاع ميل عند تقاطع الخطوط المحفورة ، هذه المرتفعات من الأحجار الضخمة الرمادية كانت بلا أية زخارف وعكست منظرًا تجريديًا .

لم يكن هناك أى دليل على الغرض من هذه المرتفعات ، ولا أى شاهد على وجود الغرباء ، فى الحقيقة ، لم ير "بول" مطلقًا أى كائن غريب ، أكثر ما استطاع تسجيله هو الانقباض الطاحن الذى لا يتوقف أبدًا ، وتلك التشكيلات فى المدينة ابتلعت المكان بوحشية وحولته لفضاء مظلم ، وعمود حجرى يومض ، منذ بدأت العملية ، ومرت الفترة غير المحددة ، تحولت السماء إلى اللون البنفسجى القاتم الذى كانت ترى فيه النجوم : صلبة ونائية فى النهار ، وفى الليل تخفق عن قرب وتنتشر ، قطعت الشمس السماء بالعرض بأقصى درجات البطء وقطعتها فى وقت أكثر مما ينبغى ، لم يكن هناك تفسير منطقى لهذا البطء .

ذات مرة صدته "ليندا" ، عندئذ راح "بول" يستخدم سيارة البوليس المهجورة ليذيع الشعر تحت دهاليز الشوارع الفارغة ، تلك الشوارع التى يحيط بها واجهات أبنية المكاتب المملة .

وامتصت الكلمات فى الظلام .

كان يفكر فى النساء : كن يحترقن بعقله وهن يتألقن بفتنة وسحر ، كل ليلة كان هو و"ليندا" يقضيان ساعات قبل النوم كل منهما وحيداً ، يأكلان طعامًا معلبًا فى حجرتيهما بالفندق ، كل على حدة ، أضيئت الأنوار ، حقًا ، كل المعدات الإلكترونية كانت تعمل باستمرار ، بما يوحى أن الغرباء سمحوا بتدفق الطاقة داخل المدينة دون أن يعترض سبيلها شيء ، فى نفس اللحظة يمهّد ذلك للتطويق المتواصل .

وكان لـ " بول " غروره التافه ، فقد ترك لحيته تنمو وقد خالطها اللون الأبيض ، وذلك جعله يشعر بأنه مميز ، رجل ضخم فى أواخر عقده الثالث ، اتخذ مظهر " أستاذ التاريخ " ، بدخل مالى مريح ، ومثل " ليندا " - عندما كان كل شيء متوافراً - كان يختار أفضل الملابس من المحلات . لكن على العكس منها ، كان يفعل ذلك بسرعة ، مثل لص يشعر بأنه مراقب .

كانت " ليندا " تراقبه .

إذا كانت ليندا تتزين لنفسها ، فلمن يتزين هو ؟ كان يحلم بأنه قدم عرض أزياء للغرباء ، وأنهم صفقوا له استحساناً لذوقه ، لكنه كبت شعور الحميمية هذا وأبقاه لشيء جوهري .

فى البداية ، حتى حين لم يكن هناك أحد بالمكان قريباً . . . منه ، ولم تكن " ليندا " بالمكان لتكون شاهداً عليه ، فإن سرقة شيء ما من محل دون دفع ثمنه كان يؤرقه ، وكانت " ليندا " تسخر من ريائه : " إذا كنت تريد أن تدفع ، فاحصل على النقود من البنك ، مثلما كنت تفعل بلعب أولادك ، " الحقيقة والعبثية والسخف المكتومة فى قلبه جعلته يزيد من تجاربه مع " ليندا " فى أثناء النهار ؛ هكذا كانا مثل الأطفال ، معاً ، ومنفصلين ، فى قصر تركه الكبار غير مغلق .

ذات ليلة شرب كثيراً من الخمر ، نصف رجاجة " تشيفاس " أشعلت كل جسده ، فوجد نفسه يمشى متثاقلاً بضجر ذهاباً وإياباً ، كانت قطع الورق مبعثرة فى الحجرة : رسومات تمهيدية لنساء ، خربشات عشوائية لملاحظات على المواقف ، تحاكى بسخرية الدراسة الأكاديمية ، فى الحقيقة قرر ، أن ما يريده هو امرأة ، وذلك يعنى " ليندا " : على الأقل أقنع نفسه ، أن ذلك كان يعنى " ليندا " .

ترك حجرتة ونزل يترنح بوهن على الممر المكسو عن آخره بالسجاد ،
ويدمدم لنفسه بتبريرات ، ثم ذهب إلى حجرة " ليندا " : رقم ١٣١٣ ،
طرق الباب طرقًا مدويًا .

" من تكون ؟ " قالت ذلك والخوف يملأ صوتها

ضحك ، أو شرع فى الضحك قائلاً : " من القدر الذى تظنيه ؟ "

" بول ؟ ماذا تريد ؟ "

" افتحى ، أريد أن أتكلم معك "

" لا ، أنت سكران ، اذهب لتنام "

راح يقرع الباب بشدة ، شاعراً بالغضب ، وسيطر عليه طيف برودة
شديد ، أحس كأنه مبرمج لاتخاذ خطوات محددة .

دفعت " ليندا " الباب للخلف ، وتراجعت بعدائية ، ويدها اليمنى كان
سكين " بوما " ألمانى ، حافتها مشرشرة لإخراج أحشاء السمك ، دخل
متجاهلاً لها ، واتخذ لنفسه مقعداً ، أشعل سيجارة ماركة " الجمل " ،
وراح يراقب ردود أفعالها ، ثم راح يحدث نفسه : " كم تكون السعادة
فى إعادة التأكيد على - ما الكلمة ؟ - الاستراتيجيات ، هكذا ؟ " كانت
ترتدى شيئاً حريريًا أزرق ، يخالطه خطوط رأسية من الذهب ؛ يمكنها أن
تكون عارضة أزياء لدى " ديور " ، فشرها الأسود كان ينسدل للخلف ،
ضئيلة الحجم ، وعدوانية ، وشكاكة .

قال بتمهل : " لماذا لا ننهى هذا . . . العداء ؟ ؛ فنحن نحتاج
لبعضنا البعض . " ثم فكر ملياً : " أريد أن أذهب معك للفراش . "

" لا "

" لم لا ؟ "

" لقد ناقشنا ذلك من قبل ، إنك تنتهك فضائي ، أنا لا أجذك جذاباً ، أنت تذكرنى بزوجى . "

بتلك النظرة المحدقة المخمورة ، صارت " ليندا " أمامه شخصين منفصلين مثل الصور على الشاشة ، قد يوافقها جزء ، أما الآخر فلا ، شعر بالحاجة لأن يُدلّ كُلاً منهما : " إذن ، أنت تصونين نفسك طاهرة من أجل شئٍ لعين له ثمانية عيون وأذرع ؟ "

" لا تكن مثيراً للاشمئزاز ، فنحن لا نعرف حتى كيف يبدو سكان المريخ ، لا أقصد المريخ ، بل أقصد لجم ' سيجنوس آر. إكس ١٧٥ ' ، هذا النجم النائي الغامض "

ضحكت ، ثم صبت لنفسها كأساً من " البوردو " الأحمر على الجودة ، المعتق فى قبو الفندق ، " أحياناً تكون مضحكاً ومتحذلقاً ، " أطال التفكير : " إنه تعليمى ، هل حدث وخطر ببالك فى أى وقت أننا ربما نكون آخر ناس تركوا أحياء ؟ فى مثل هذه الظروف يكون رفضك لى سَخَفًا "

قالت ليندا : " نحن لسنا آخر ناس تركوا أحياء ، فالغريباء نقلوا السكان سالمين من " هونج كونج " إلى " سيجنوس " ، فى الحقيقة ، حملوا معهم المباني ، ومضمار السباق ، والبورصة أيضاً "

قال بتململ : " أن لو كنا حديقة حيوانات ، فإن السؤال الذى يطرح هنا هو ، هل يستطيع الناس أن يعيشوا فى الأسر ؟ " ثم نهض واقفاً ، "

المهم أن موضوع "هونج كونج" ليس له علاقة بنا : نحن موجودان ، نحن هنا معاً ، هيا لنجلس ، " تقدم ناحيتها ، وهيئة الضخمة اتخذت مظهر شخص متلصص متسكع ، قال وهو ما بين الكآبة والغضب : " هيا ، دعينا نذهب للفراش "

قالت وهي تربت على جسمها : " هذا الجسم ، ملكية خاصة ، أنا أملكه ، وإذا حاولت شيئاً ، سوف أقتلك ، " ثم رفعت سكين الـ " بوما " ، أذهلته حافة السكين المشرشرة ، كان الأمر ملتبساً عليه ، خطت بالقرب منه ، تحركت بسرعة ، أحدث السكين صوتاً قبيحاً عندما شق قميصه موديل " بيير كاردان " مخترقاً لحمه ، تراجع للوراء مترنحاً ، رافعاً يديه ، مرعوباً ، انبثقت منه كمية كبيرة من الدم ، فكر ، " هذا أنا ، هذا أنا " ، وسقط نازقاً . اجتمعت في هذه اللحظة صورتا " ليندا " معاً .

في حجرته وجد الجرح سطحيًا ، لكن ما اعتبره مخيفًا ، هو قوة " ليندا " ، فهي - كلتاهما - قد أحدثت به الجرح ، ومن بعد ذلك ، صار صوت طحن آلات الغرباء يتقدم باستمرار ٠٠ نهاراً وليلاً ، وبعد تفكير ، خطر على باله أن هذه هي نهاية العالم .

نظف بول نفسه ، ثم تناول كأساً آخر ، ركب المصعد ونزل إلى بهو الفندق ، وراح يلعب بعض ألعاب غزاة الفضاء في آلة " الفيديو جيم " لتهدئة نفسه ، كان سعيداً بالآلة ، صوب إلى مركبة الغريب ، مفجراً بعنف التهديد الواقع على كوكب الأرض ، كانت مسؤوليته أن يدافع عن حضارته .

لقد لعب ألعاب " الفيديو جيم " كثيراً جداً حتى استطاع أن يسبق الآلة : عرف ، مثلاً ، الحركة التي يجب أن يقوم بها عند ظهور تهديد

مفاجيء، ولما ارتفع رصيده ، اكتشف أن ثمة خطأ، بدا له كما لو أن قواعد علم الإلكترونيات تتغير ، ثم ظهرت على الشاشة مركبات فضائية جديدة : سفن فضائية لم يشاهدها من قبل ، سداسية الشكل ، وتتحرك بعشوائية ، بمجرد أن أسقط واحدة ، ظهر مكانها اثنان في متوالية هندسية من التهديد ، شعر كأنه يواجه سكين ليندا ، فكر : " يا للمسيح ، لقد تبذلت الشفرة ، ليس لى أية سيطرة هنا . "

خسر الدور ، واندفعت على الشاشة كلمات : " خراء ناشف يا صديقى .. أتلهى .. " بهتت أضواء الردهة ، وخيل إليه أن الأشكال الفضية تعدو فى الأركان البعيدة ، أو إلى ما بعد حدود الرؤية خلف رأسه ، أصبح الرجوع إلى حجرته واجباً .

صار مهزوماً تماماً ، ضغط زر المصعد ، وهو بعيد كل البعد عن السكينة ، استغرق المصعد وقتاً طويلاً فى الحضور ، وبينما كان ينتظره ، شعر بالاهتزازات الأرضية ، كان شىء ما تحت الفندق يحفر .

ومض قضيب معدنى بارغ من سجادة بهو الانتظار ، وكان يدفع خطوطاً ممزقة من نسيجها المترابط ، بالنسبة لـ " بول " بدا الشىء يدوم بشكل سريع غير معقول ، كان القضيب يصدر صوتاً يشبه صوت مثقاب طيب الأسنان السريع ، ولعدة ثوانٍ اخترق الحجرة ثم انسحب ، تلاشى تدريجياً اهتزاز ما تحت الأرض ، لكن بصوت ينخفض إلى ما تحت مستوى السمع ؛ أدرك عمليات معقدة لا معنى لها تجرى تحت السطح .

حضر المصعد وانفتح مثل فم ، عندما دخل وضغط زر الطابق الثالث عشر، رشحت راحتا يديه عرقاً ، انغلق الباب ، لم يتحرك المصعد ، ضغط على الزر مرة أخرى ، لم يستجب المصعد ، ضغط على زر فتح

الباب ، فانفتح نصف فتحة ، وتعطل عن الحركة ، لم يكن المصعد فى مستوى البهو ، وبدلاً من الخروج ، وجد نفسه يحملق فى حائط أسود ، يتلوى وينبض ، وشكله منبعج ، هذا الشكل المنبعج ربما صنع من قار وشحم ، تخرج من يمينه ويساره ، فى مجال رؤيته ، رموز معقدة ، متغيرة ، كما لو كان يواجه شاشة كمبيوتر ، لم يكن نظام أحرف أو رموز يعرفها ، تصلب من تناوب الحرارة والبرودة عليه بسبب الخوف ، راح يضغط بيده على كل شئ يراه ، انطبقت الأبواب بصعوبة ، ثم بدأ المصعد يرتفع .

عند الحجرة ١٣١٣ ، ضغط راحتي يديه أمام اللوح الخشبى ، وأراح رأسه عليه لبضع ثوانٍ ، من خلال جفونه المغلقة ، رأى الحروف المتحركة المبهمة تعكس ألواناً ، نادى : " ليندا . دعينى أدخل ، الغرباء هنا "

اخترق حد سكين "البوما" المشرشر لوح الباب قرب عينه اليسرى ، كان واعياً للقوة غير العادية التى كان عليها أن تستعملها لإدخال السكين فى الخشب ، سمع صوتها البارد يقول : " أعرف ، اذهب إلى مكانك النائى ، وإلى نجمك الغامض ، اتركنى وحدى . "

سمعت "ليندا" وقع أقدام بول المتراجعة ، فعادت تجلس على الكرسي مرتعشة ، فى يدها اليمنى كانت تمسك بسكين البوما الألمانى ، ولبرهة جربت إدخالها فى الباب على سبيل التحذير ، فربما قد يأتى من جانبها شئ من شفقة ويأس ، لكنها لم تقدر ، وذلك قد يزيد من حالته الضلالية الوهمية ، واعتقاده بأنها تكرهه ، وتنبذه ، وترغب فى أن تصيبه بجرح .

العنف ، اعتبرته واقعاً عليهما معاً ، عنف أكثر مما ينبغي ، إذا كان قد أنصت إليها فى أى وقت ، ربما كان استطاع تحويل مرارة الماضى ، على الأقل ، إلى جبهة مشتركة ضد العدو ، لكنه لم ينصت قط ، ولم يكن بيدها حيلة لمعرفة ما يدور فى عقله .

وضعت بعضاً من أحمر الشفاه ، وزعت اللون الأحمر على فمها ، ونظرت لنفسها فى المرآة ، ثم راقبت لطفة اللون الأحمر غير الواضحة من خلف دموعها ، ارتعشت يداها ، فى الخارج ، كانت الأصوات الطاحنة لماكينات الغرباء مستمرة بوحشية ليلاً ونهاراً ، همست : " بول ، عد إلى "

فى حجرته ، أحكم إغلاق الباب ، وفتش الدواليب ، ونظر تحت السرير الفخم ، انزلقت الأغطية للخلف كما لو أن خادمة غير مرئية قد سحبتها ، نظر فى المرآة ، ورأى وجهه قد تشوه بصورة شديدة البشاعة . مع ذلك ، ما يزال وجهه .

كانت رجاجة " التشيفاس ريجال " إلى جوار التليفزيون ، شرب منها ، وبلا وعى ، أدار الجهاز مثلما يفعل عادة .

ظهر تشكل وجهه على الشاشة ، ذلك ، ما كان يعتقد أنه لن يحدث ، كان الوجه لرجل فى أواسط العمر ، بشعر فضى ، هذا النوع من الوجوه التى يمكنك الثقة بها ، قال : " مساء الخير ، هذه نشرة الأخبار الأخيرة . تراجعى السحابة الماجلانية الكبرى عن مجرتنا بسرعة بلغت ٠.٣٣٣ ، من سرعة الضوء ، ولم يعرف حتى الآن إذا ما كانت الحركة حدثت بسبب تضخم الكون ، أم ناتج عن اضطراب فى نسيج الزمن الكونى "

أغلق بول الجهاز ، شرب المزيد من " التشفاس ريجال " ، إلى جوار سريره كان التليفون ، أدار القرص واتصل بـ ١٣١٣ ، ردت ليندا :
" من ؟ "

" أنا ! "

" نعم ! "

قال بول : " أحبك ، أحتاج إليك . "

ساد صمت طويل ، بعده قالت ليندا : " حسناً ، لماذا لم تقل ذلك من قبل ؟ "

" كنت أعتقد أن هذا الكلام قد أصبح أسلوباً عتيقاً "

سألت " ليندا " : " إنك لا تريد أن تؤذى شعورى ؟ "

" بل أريد التثبت بك "

" يا إلهى ، كم هو رائع ، لقد انتظرت طويلاً جداً ، سوف أجيء إلى غرفتك حالاً . "

لم تأت إليه ، انتظر بول وهو نكد المزاج ، شاعراً باختلاف نوعى فى أحاسيسه من فترة الانتظار غير المحددة ، فحص التليفون وهو نصف واع ، واكتشف أن التليفون لم يكن يعمل ، رجعت السماعة عواءً إلكترونياً ، مثل رياح بعيدة نشرت الانفجارات والأوامر والنواح بلغة غريبة .

تناول قلمه الحبر " الباركر " ، ورسم على الوسادة البيضاء علامات :
نقط للحلمات ، خريشات لشعر العانة ، أغرق الحبر الأزرق القماش ولطخه ، بعد ذلك ، أطفأ كل الأنوار ما عدا الضوء الخافت الذى يضئ

فى زاوية ، وسط الورود الصناعية المنتشرة بالمكان ، رقد فى سريره غير المرتب فى ظلام أحمر مريح ، إلى أن ظهرت "ليندا" إلى جواره .

كان ظهورها بالشكل المنقسم الذى رآه من قبل . . كائنًا متغيرًا ، غير مفهوم ، ولكن موجود .

تحسست صدره ، فى المكان الذى جرحته فيه ، " آسفة على ذلك ، فأنت لم تترك لى خياراً . "

" لا يهم . "

قالت "ليندا" ببرود : " لا شىء يهم عندما تفكر فيه من جهة أخرى . "

كانت ترتدى الماس ، والياقوت ، والذهب والفضة ، تلك التى تألأت فى ضوء الفراش ، كرر كلماتها: "عندما تفكر فيه،" تناول منها عقداً ذهبياً وضممه إلى صدره.

خارج حمى الحجرة ، كانت أصوات آلات الغرباء مستمرة ، والسحابة الماجلانية الكبرى تتراجع عن مجرتنا ، عن "بول وليندا" ، وعن كل الكوكب ، الذى تحول إلى فضاء واسع قاحل ، بحفر هندسية وأحجار سوداء بارتفاع ميل ، ذلك الذى كان العمل الأعظم للغرباء .

نبذة عنه المؤلفيه

وليم بليك W.H.I. Bleek (١٨٢٧ - ١٨٧٥)

ولد فى برلين ، درس وتدرّب ليكون لغويًا على يد الأب " كولنسو " ، حيث قام معه برحلات إلى أراضى قبائل الزولو فى ١٨٥٣ ليجمع ويصنف قواعد لغتهم ، عمل مترجماً رسمياً ، وجامع فولكلور لدى " سير جورج چراى " حاكم الكيب ، وقد أفضى ذلك ، ولأول مرة ، إلى صدور الكثير من الطبعات من حكايات الشعب فى جنوب إفريقيا تحت عنوان " الحكايات الخرافية والحواديت لدى شعب الهوتنتوت " وذلك فى عام ١٨٦٣ ، وهى المجموعة التى اختيرت منها قصة " أصل الموت " ، والتى تعتبر إحدى الروايات المتنوعة من الأساطير الأخلاقية الوعظية المعروفة عند " الخويخوى " ، وكذلك حذوة " البنت المزعجة . . . " ، والأخيرة صنفها " بليك " على أنها حكاية منزلية ، وربما كان أول تسجيل و تدوين للقصة القصيرة لدى السكان الأصليين ، فهى فى لغة " دمارا " أو لغة " الهيررو " فى ناميبيا ، حظى " بليك " بالعمل تحت رعاية مكتبة جنوب إفريقيا وبرلمان الكيب ، وكرس جهده تماماً لتدوين وحفظ لغة " لسان " الخاصة بقبائل "البوشمان" وفولكلورهم وكان أسرى حاجز الأمواج هم إخبارية ، إن بليك كان أول من درس أوى " إحدى قصص مجموعة " الأسد وابن أوى " التى صدرت فى ١٩٣٨ ، واشتملت على الحكايات التى دونت " بالكلمات التى حكيت بها ذاتها تقريباً " . وقد يسر نشر هذه المجموعة "منحة أبحاث كارنجى" ، تلك المؤسسة التى كانت تتولى الأنفاق على براونلى لبضع سنوات ، وقد سجل "فرانك" أن رواية الهوسا لحكاية الحيوان الخرافية "اليمامة وابن أوى" ذات أصل خويسانى .

فرانك براونلى Frank Brownlee (١٨٧٦ - ١٩٥٢)

عاش فى شرق الكيب ، وعمل قاضياً فى تانسكى ، صدرت روايته "سارق الماشية - حكاية نتسومى" ١٩٢٩ ، تلك الرواية التى تناولت أثر الكساد على مدخرات ومخزون القبائل ، كانت أغلب أعماله الإبداعية مكرسة لتقديم تجربة وخبرة قبائل الزاهوسا Xhosa باللغة الإنجليزية ، وقد نقل الكثير منها نقلاً حرفياً عن الكلام الشافى المباشر للإخباريين ، قصة "اليمامة وابن أوى" مأخوذة من مجموعة "الأسد وابن أوى" التى دوت حسب كلام براونلى : "بنفس الكلمات التى حكيت بها تقريباً" ، وقد يسر نشر هذه المجموعة مؤسسة "أبحاث كارنجى" التى تولت الإنفاق على بروانلى لبضع سنوات ، سجل براونلى "أن رواية الزاهوسا لحكاية "اليمامة وابن أوى" ذات أصل خويسانى" .

١ . س . جوردان Archibald Campbell Jordan (١٩٠٦ - ١٩٦٨)

ولد بمقاطعة "مبندوس" فى منطقة "ترانسكى" ، من مثقفى جماعة اللوفيدال Lovedal ، حاصل على عدة شهادات ماجستير فى اللغات الإفريقية من جامعة جنوب إفريقيا ١٩٤٢ ، عمل أستاذاً للغات والأدب الإفريقى حتى وفاته فى كل من جامعتى "ماديسون" ، و "ويسكونن" ، صدرت روايته الكلاسيكية "إتكويجيس يامينيا" ، فى لغة الزاهوسا Xhosa عام ١٩٤٠ ، ثم ظهرت بالإنجليزية بعد وفاته تحت عنوان "عقاب الأسلاف" عام ١٩٨٠ ، كتابه "نحو أدب إفريقى : نشأة الشكل الأدبى عند الزاهوسا" ، وهو مأخوذ بشكل رئيسى عن المقالات التى ظهرت فى دورية "جنوب إفريقيا" فى الخمسينيات ، هذا الكتاب يعتبر نصاً رائداً فى النقد الأدبى فى جنوب إفريقيا ، قصة "ملك المياه" هى حكاية من حكايات جنوب إفريقيا المأخوذة من مجموعة "فاكا" ، وهى تستفيد من استعمال التقليد الملحمى لدى قبائل "الانتسومى" .

يوجين ن. مارايس Eugene N. Marais (١٨٧١ - ١٩٣٦)

عالم تاريخ طبيعى ، وأحد الشعراء العظماء الأفريكان - (المستوطنين) ، ولد فى منطقة الترانسفال ، ودرس فى لندن ، كتب الكثير من أبحاثه عن الطبيعة والتقنيات باللغة الإنجليزية ، ودعم بنشاط تطور اللغة الأفريكانية بالقصص القصيرة والمقالات ، له سلسلة من الاسكتشات المكتوبة بهذه اللغة (١٩٣٧) ، ترجمت تحت عنوان "روح الصرصار الأبيض" وصدرت عام ١٩٧١ ، وله مجموعة أخرى بعنوان "أصدقائى قرود البابون" صدرت ١٩٣٨ ، أثناء قيامه بالعمل

الميداني ، خاصة في الأماكن التي أخلت من سكانها في منطقة " ووتر برج " بعد حرب جنوب إفريقيا ، واتباعا لنموذج د. بليك ، جمع مارييس حكايات الـ " خوسيان " ، خاصة من الإخباري المتحدث باللغة الأفريكانية الذي كان يدعى " أو هندريك " ، والذي توفي في ١٩١٠ ، وكان قد عاش أكثر من مائة عام ، من بين إخباريه أيضا الحكاء الشهير " أوتا فيليب " ، الذي كان يخدم في مزرعة عائلة جروبيلا ، نشر في عام ١٩٢٧ حكايات " التائه " ، التي صارت من القصص المفضلة لدى الأطفال ؛ وحكاية " قصبة الصغير وحده في الدوامة " تعتبر أول ترجمة أدبية إلى اللغة الإنجليزية لواحدة من تلك الحكايات ،

أنتوني ديليوس Anthony Delius (١٩١٦)

ولد في " سيمونس تاون " ؛ وهو شاعر وصحفي ، كانت ملحمته الساخرة الطويلة عن " سياسة الحزب الوطني " في عام ١٩٥٩ هي الكتاب الأكثر مبيعا ، لكنها كانت السبب في طرده من البرلمان حيث كان يعمل مراسلا صحفيا به ، أقام في لندن خلال العقدين الأخيرين حيث عمل في مكتب الـ (ب. ب. س) ، كما عمل محررا لعمود صحفي ، قصة " دفتر يوميات هيني " جزء منفصل من روايته التاريخية " الحدود border " التي صدرت عام ١٩٧٦ ، وهي الرواية التي استخدم فيها الكثير من أشكال السرد لدى سكان المستعمرات البريطانية في القرن التاسع عشر ، سجل اليوميات ابن بطل الرواية ، من يونيو إلى أغسطس ١٨٢٨ ، في أثناء حملة عسكرية.

س. ت. بلاتج Soomon T. Plaatje (١٨٧٦ - ١٩٣٢)

ولد في " أورانج فرى ستيت " لأبوين مبشرين مثقفين من قبيلة " بارولونج " ، عمل رئيس تحرير ، ومؤلفا ، وناشر كراريس ، ومترجما ، روايته الأولى " ميهودي Mhudi " تعتبر : السيرة الملحمية لحياة السكان الوطنيين الأصليين في جنوب إفريقيا في المائة عام الماضية ، نشرتها " لوفالاد برس " عام ١٩٣٠ ، وهي أول رواية جنوب إفريقية سوداء تنشر بالإنجليزية ، رواية " ميهودي " ذاتها ، ومغامرات بلاتيه الأدبية الأخرى ، محاولات لتسجيل ونقل الأدب الشفاهي ، وتوثيق وطبع الحكايات الشعبية الفذة والأساطير في " تسوانا " ، جوكاتونج والجاموس البري " هي نموذج من تلك الترجمة التي قام بها النحوي دانييل جونز ، ونشرها هو وبلاتج في (ستشوانا رايدار) عام ١٩١٦ ، مذكراته المكتشفة والمنشورة حاليا - تدور حول حرب البوير ، خاصة حصار مافكينج - تبين استعماله ومزجه للغات متعددة .

ج . بيرسى فيتزباتريك J. Percy Fitzpatric (١٨٦٢ – ١٩٣١)

ولد فى مدينة " كينج وليامز " وتوفى فى مزرعته قرب "بويتنجهام"، مؤلف أكثر الأعمال مبيعا فى الفترة الكولونىالية بعد عمل " رايدر هاجرد " مناجم الملك سليمان " ، عمله الأدبى " فارس الباسفيك " فى ١٩٠٧ ، يعتبر سيرة ذاتية سجل فيه حياته المبكرة وعمله كسائق نقل فى منطقة الترانسفال الشرقى ، وهذه المنطقة أيضا هى الخلفية لقصة " خارج الزمن " الصادرة عام ١٨٩٧ ، تعتبر هذه القصة نموذجا وافيا لحكايات الموقد أو حكايات المدفأة ، وكمثال يتقاطع فيه الحكى الشفاهى مع خصائص القصة "الكولونىالية" الراقية ، ويقوم "فيتزباتريك" فيها بدور الكاتب بين أفراد المجموعة ، تكشف القصة ، ربما بلا قصد ، عن الصداقة الحميمة ، والعمل الوحشى اللامبال ، والنظم المراتبية المغلقة ، والعنصرية ، والتخيل الكولونىالى الاسمى لإفريقيا ، والكثير من القصص المختارة تستحق الدراسة والبحث من حيث إظهارها لنفسية الغزى ، فبقصد أو بدون قصد ، عرت هذه القصة عجرفة وادعاءات فيتزباتريك ، وأطلقت القصة القصيرة نحو الطبيعة والمجتمع من حيث أن شخصياته قد انفصلت عن ذواتها .

أوليف شراينر Olive Schreiner (١٨٥٥ – ١٩٢٠)

ولدت لأب مبشر ألمانى وأم إنجليزية وتعلمت تعليما ذاتيا لفترة قصيرة فى مزارع " الكارو " الإفريقية التى أمدتها بقصتها " مزرعة إفريقية " عام ١٨٨٣ ، وهى أول رواية "كولونىالية" من روايات المستعمرات باللغة الإنجليزية تكتسب انتشارا واسعا بين قراء العواصم ، ويصبح لها منزلة كلاسيكية ، قصتها من " رجل لرجل " - التى عالجت طموحات الزواج ومشاكل الملونين- نشرت بعد وفاتها . منذ ١٨٩٠ . . كتبت الكثير من القصص القصيرة فى شكل حلم رمزى ، أو على شكل سيرة ذاتية أو يوميات ، تمتعت تلك القصص بالرواج الكبير ، وقصة " وردة المرأة " ، إحدى القصص المأخوذة من مجموعتها " حياة الحلم وحياة الواقع " التى نشرت ١٨٩٣ . البيان الذى أصدرته أوليف شراينر الخاص بالحركة النسائية فى عام ١٩١١ ، بعنوان " المرأة والعمل " ، ربما كان النص الأكثر تأثيرا فى الوقت الحاضر ، وكذلك الكثير من تفسيراتها السياسية عن مشاكل جنوب إفريقيا وعن حرب "الإنجلو- بوير الثانية " ، التى ذكرت فى كتاب " أفكار عن جنوب إفريقيا " ١٩٢٣ ،

والتي ظلت أفكارا مثيرة للجدل ، حركت "شراينر" بدفعة واحدة أدب جنوب إفريقيا نحو عالم الرسائل الأوربية ، من خلال شهادتها ، ودمغها لمأزق الشخصية الكولونيالية الاستعمارية الاستيطانية .

بولين سميث Paulin Smith (١٨٨٢ – ١٩٥٩)

ولدت لأبوين بريطانيين في " أوتد شورن " في كاروو صغير - تلك القرية الإفريقية التي كتبت عنها معظم أعمالها تقريبا ، ودرست في أسكتلندا ، حيث نشرت الاسكتشات الأدبية في "أبردين جازيت" عام ١٩٠٢ ، و"إرشاد" أرنولد بينت " قدمت سلسلة من القصص عن الكاروو/ القرية الصغير ، وقصة " المعلم" كانت أول قصة منشورة من هذه السلسلة في " أدلفن " عام ١٩٢٣ ، نشر " جوناثان كيد سميث " عام ١٩٢٦ ، روايتها الوحيدة بعنوان " الشمس " ، وهي أيضا عن قرية "أوتد شورن" حيث صدرت في ١٨٩٠ ، كانت بولين سميث تعود من حين لآخر من إنجلترا إلى جنوب إفريقيا ، كي تطابق مذكراتها وتكتب مقالات ذكية عن مسقط رأسها ، قبل وفاتها بعام ، كرمها كتاب جنوب إفريقيا بجائزة مالية لطريقتها المبدعة التي كتبت بها ، متخطية المجموعات العنصرية ، خاصة سلسلة أعمالها عن "الكاروو الصغير عام ١٩٢٥" ، ولإبداعها أسلوب متميز في الأدب ، حيث أذابت اللغة الألمانية واللغات الأخرى في إنجليزية شاعرية فعالة .

تون فان دان هيفر Toon Van Dan Heever (١٨٩٤ – ١٩٥٦)

ولد في "هيدل برج" ، "الترانسفال" ، وتوفي في " بلوم فونتين " ، پاورانج ستيت ، عمل محاميا وقاضيا ، لكن شهرته ترجع في الأساس إلى كونه الشاعر الذي كتب بالألمانية والأفريكانية ، أول عام نشر له من شعر كان عام ١٩١٩ ، ليصبح رائد حركة الشعر الغنائي الأفريكاني في العشرينيات ، جمع أعماله النثرية في عام ١٩٤٨ تحت عنوان " حزم من إرث الرجل العجوز " ، والتي أخذت منها قصة "أوتا سام وبابا نويل " ، كان أول نشر لهذا العمل في عام ١٩٦٤ ضمن مشروع الترجمة الذي كانت تشرف عليه أكاديمية جنوب أفريقيا للعلوم والآداب .

هيرمان تشارلز بوزمان Herman Charles Bosman (١٩٠٥-١٩٥٠)

محرر، وشاعر، وروائي، ولد في عائلة من المتحدثين باللغة الأفريكانية في الكيب، ودرس ليصبح معلماً في منطقة الـ "راند"، بعد فترة من الاحتجاز في السجن بسبب مقتل أخيه غير الشقيق، أصبح محرراً في جريدة "البلاك سيمبوك"، وفيما بعد عمل في صحف المعارضة والإثارة في جوهانسبرج، نفى إلى لندن معظم الثلاثينيات، وأعيد للوطن في أثناء الحرب العالمية الثانية ليحرز تقدماً في عمله ككاتب قصة قصيرة، نشر أثناء حياته في جنوب إفريقيا ثلاثة أعمال فقط، الأكثر شهرة من بينها مجموعته "طريق مافكينج" عام ١٩٤٧، والتي تضمنت قصة "الدخيل"، التي صدرت في الأصل في سلسلة "التوليري" عام ١٩٣٠، تعتبر هذه القصة من أكثر أعماله تطوراً حيث استخدم شخصية "العم شاكال" كراوي ينطق بلسان المؤلف، وخلفية هذه القصة حرب البوير، يعاد نشر هذه القصة هنا كنسخة كاملة أصلية، نشر له بعد وفاته ثلاث مجموعات قصصية، ورواية "قرية وليمز" ١٩٧٧، ومجموعة مقالات، واستكشاث أدبية، من بين جميع كتاب الجنوب الإفريقي تعد كتاباته في الوقت الحالي الأكثر انتشاراً بين القراء، بسبب حس الدعابة والشفقة، والامتزاج الفريد بين الرمز والتاريخ.

ستيفن بلاك Stephen Black (١٨٨٠ - ١٩٣١)

ولد في "كيب تاون"، عمل صحفياً وكاتباً مسرحياً، مسرحيته الساخرة "حب ووصلة" ١٩٠٨ التي تدور حول إمكانية اتحاد الجماعات العرقية في جنوب إفريقيا - ظلت في "ريبرتوار" فرقة المسرحية، وعرضت موسماً بعد آخر حتى ١٩٢٩، بين مواسم العرض كان بلاك قد أصدر الكثير من أعداد "البلاك سيمبوك" الأسبوعية المثيرة للجدل - التي كانت تتضمن فضائح جوهانسبرج، وظلت تصدر من ١٩٢٩ إلى ١٩٣١ - كانت تكشف وتعرى فضائح الرأسمالية، وهي أيضاً أول جريدة تنشر للكتاب السود مثل "ر. ر. دلو" في عموده الخاص، وقد بدأ ستيفن بلاك عمله ككاتب بكتابة الاستكشاث في مجلة "إرجوس" الأسبوعية، التي ظهرت بها لأول مرة قصة "طفل السحاب" في عام ١٩٠٨، حيث شجعه بشدة "رود يارد كبلنج" أثناء زيارته لكيب تاون، والذي كان يواصل دعمه لخط الملونين المحليين، عمل "بلاك" أثناء الحرب العالمية الثانية مراسلاً صحفياً من بلجيكا وهولندا لجريدة "الديلي ميل" اللندنية، كان ضمن مجموعة الكتاب الأفارقة الذين أعلنوا أول اتحاد لكتاب جنوب إفريقيا.

أرثر شيرلى كريس Arther Shearly Cripps (١٨٦٩ - ١٩٥٢)

ولد فى " كنت " وتخرج قى جامعة أوكسفورد فى عام ١٩٨١ . رُسّم كمبشر انجليكانى عام ١٩٠١ ، مؤلف كتاب " أفريقيا للأفريقيين " الذى صدر فى ١٩٢٧ - الذى يدافع فيه عن حقوق السود ضد النظام الاستعمارى فى روديسيا ، شاعر وروائى كتب على الطراز الجورجى ، وصور بطريقة بديعة جمال النصرانية السوداء ، تدور قصصه صراحة حول حقوق الأرض ، و القوانين التى تحكم جواز المرور والإقامة والعمل ، كذلك الوسائل الأخرى للسيطرة والضيظ الاجتماعى ، قصة " وقود النار " من مجموعة له بعنوان " سندريلا الجنوب " ، وتلك المجموعة نشرت لأول مرة فى بريطانيا عام ١٩١٨ ، توفى بعد صراع مع كف البصر والفقر فى مستشفى ب " إنكليدون " .

وليم بلومر William Plomar (١٩٠٣ - ١٩٧٣)

ولد فى الترانسفال لأبوين إنجليزين ؛ روائى ، شاعر ، ومؤلف أوبرا ، كون مع " روى كامبل " و " لورانس فان دير بوست " فى ناتال "جماعة فورسلاج" ، التى كرست عملها لعرض الثقافة الإنجليزية الكولونىالية فى المستعمرات على الاتجاهات العالمية فى الفنون ، وقصة "عندما جاء السردين" مستمدة من هذه الفترة ، على الرغم من أنها لم تنشر حتى عام ١٩٣٣ ، روايته الأولى "turbottwolfe" - أثارت جدلا كبيراً ، والتى نشرها ليوناردو ، وفيرجينيا وولف عام ١٩٢٦ - كان موضوعها الرئيسى ينزع إلى الفكر الليبرالى فى الحب بين الجماعات العرقية ، بالإضافة إلى مسرحية حالة الركود الكولونىالى المحافظة ، والطموحات السياسية الإفريقية السوداء ، قصته " أولاماسوندو " - التى صدرت فى التاريخ ذاته - تعتبر النموذج الأصيل المبكر لقصة " ابن عمى يأتى إلى جو-برج " ، فهى تدور حول صدام رجال القبائل مع المدينة ، والعمل فى التعدين ، وعالم الجريمة فى المدن ، نشر " بلومر " أربع روايات ومجموعة من القصص القصيرة ، إلا أن مختاراته من القصة القصيرة لم تنشر إلا حديثاً .

والف ريجينالد ريموند دلوو R. R. R. Dhlomo (١٩٠١ - ١٩١٧)

ولد قرب " بيتر مارتز بوردج " لأبوين من الزولو كتب أول قصة فى أثناء عمله موظفا فى منطقة راند ، وهى تعتبر أول قصة لرجل أسود تكتب بالإنجليزية وعنوانها " مأساة إفريقية " ، وصدرت عام ١٩٢٨ ، أما قصصه القصيرة بلغة السود فهى الأكثر قدماً ، ومنها "موت ميسابا" ، وقد نشرت لأول مرة فى الـ " بلاك سيمبوك " عام ١٩٢٩ عمل رئيساً لتحرير صحيفة الزولو " إيلنجالاس ناتال " منذ عام ١٩٤٣ ، ويعودته إلى ناتال كتب الكثير من الروايات ، منها السيرة الذاتية التى تناولت قواعد وأعراف السلالة الحاكمة لقبائل الزولو ، وقصة "موت ميسابا" واحدة من أوائل القصص التى صورت حياة السود من الداخل ، وتحفظ بسمات حكايات موقد النار، أو المدفأة ، بينما تطلق تحذيراً عن شروط العمل السيئة ، فإنها أيضاً لا تشجع على الهجرة للعمل فى مناجم الذهب .

بيتر أبراهامز Peter Abrahams (١٩١٩)

ولد فى " فرادادورب " بجوهانسبرج ، يعتبر أحد كتاب الرعيل الأول فى نهضة الكتابة الإفريقية فيما قبل الحرب العالمية الثانية ، ظلت روايته " صبى المنجم " التى صدرت ١٩٤٦ ، أحد أهم الكتب الأساسية فى القراءة عن العلاقة بين السود والبيض فى مجتمع المدينة الصناعية .

وروايته " إكليل من الزهور من أجل يودومو " ، التى صدرت عام ١٩٥٦ ، تجرى حول كل إفريقيا قبل الاستقلال ، سيرته الذاتية " قل حرية " عام ١٩٥٤ ، تروى بحوية قصة أصوله العرقية ، وتعليمه نفسه ، وعلاقته المتأرجحة والمتناقضة مع جنوب إفريقيا ، التى هاجر منها إلى المملكة المتحدة فى ١٩٣٩ ، قصة " المستوحش " من مجموعته فى القصة القصيرة والاسكتشات التى صدرت تحت عنوان " كتاب العهد القديم الأسود " عام ١٩٤٢ ، وهى تبين معضلة عزلة واغتراب المثقف ، وتوضح الكثير من الأفكار السياسية الفعالة فى الثلاثينيات فى الجنوب الإفريقى ، يقيم بيتر أبراهامز فى جاميكا منذ ١٩٥٩ .

س. إي. موكانجو C. E. Moikango (١٨٧٩ - ١٩٥٧)

ولد في "ليسوتو" التي كانت تسمى حينذاك مملكة بتسوانالاند ، تعلم في إرسالية "موريا - موريجا" ، قرب توماس مافولو حاليا ، حققت روايته "شاكابا" التي صدرت ١٩٢٥ ، شهرة مبكرة في اللغة المحلية ، صار موكانجو أول إفريقي مؤسس لمدرسة "لوفاديل براكتيزينج" ، وهو أحد اثنين من مفتشي التعليم الأفارقة الأوائل في عام ١٩٣٢ .

نشر له معهد "مازيندو" في عام ١٩٤٣ في سيوتو الجنوبية مجموعة من ثلاث قصص طويلة بعنوان "غفير من نستوناتستسي" ، قصة "مجيء سيبلو للبيت" هي إحدى قصص هذه المجموعة ، وقد قام بتلخيصها وترجمتها بنفسه ، وتلك القصة حازت على جائزة في مسابقة "استشراف جنوب إفريقيا" في أوائل الأربعينيات ، لتشجيع الأدب باللغات الوطنية المحلية السوداء ذات الموضوع المسيحي ، نشرت أول مرة في سلسلة "الكتابة الأفريقية الجديدة" في لندن ١٩٤٧ ، تلك السلسلة لعبت دورا كبيرا في إبراز القصص المبكرة لكثير من الكتاب الأفارقة باللغة الإنجليزية ، مثل "سيبيان إيكونسي" ، وقد حقق هؤلاء الكتاب شهرة كبيرة فيما قبل الحرب العالمية .

د . ب . ز . نتولي D. B. Z. Ntuli

باحث من قبائل الزولو ، وهو صاحب البحث الهام والمؤثر بعنوان "أدب الزولو الحديث" ، الذي نشر في "ليمي" في يونيو ١٩٦٨ . روائي يكتب بلغة الزولو ، ومن أعماله رواية "The observant one" اليقظ ، التي صدرت عام ١٩٦٢ . نشر عام ١٩٨٤ عملاً رائداً عن شعر الزولو الحديث ، تحت عنوان "شعر ب. و. فيلاكادي" ، حصل بهذا العمل على درجة الدكتوراه من جامعة جنوب إفريقيا .

دوريس ليسنج Doris Lessing (١٩١٩)

ولدت في إيران لأبوين بريطانيين ، وكبرت فيما كان يعرف بروديسيا الجنوبية آنذاك ، التي تعرف الآن بزمبابوي ، مؤلفة لأكثر من خمسة وعشرين كتاباً ، من بينها روايتي "العشب يغني" صدرت ١٩٥١ ، و"أطفال دائرة العنف" ، جمعت قصصها القصيرة في أربعة أجزاء بدءاً من ١٩٤٠ حتى الوقت الحاضر ،

على الرغم من تنوع أعمال دوريس ليسنج عبر الزمن ، إلا أنه يمكن تقسيم هذه الأعمال إلى مناطق وموضوعات مركزية هي: الكولونيالية وحاجز اللون، والشيوعية ، والحركة النسائية ، والتصوف ، والخيال العلمى ، إلا أن مشروعها بقى واحدا ، ويندمج بشكل عام ضمن الأدب الغربى ، من المنظور الإفريقى ، لابد من أن نقول إنها قدمت الاستخدام الأكثر تفصيلا للمادة المحلية فى إبداعية لامتناهية ، قصة " خارج النافورة " تقوم بنيتها على شكل الراوى الديكاميرونى ، كما تستخدم ليسنج إلى حد نموذجى المادة فى مركب توافقى جديد متدفق ، وتظهر براعة فى صياغة الشكل الذى يعتبر سمة أساسية فى أعمالها القصصية .

جاك كوپ Jack Cope (١٩١٣)

ولد فى ناتال ، وهو مؤلف لست روايات منها أول رواية: " بيت جميل " صدرت عام ١٩٥٥ ، إلى روايته الأخيرة : " طالب من الزند " التى صدرت عام ١٩٧٢ . مؤلف للعديد من القصص القصيرة منها مجموعة " الرجل الذى شك - وقصص أخرى " ، صدرت عام ١٩٦٧ وأخذت منها قصة " إيكاترينا " ، أشرف على تحرير مجلة " التناقض " منذ أوائل الستينيات التى صدرت فى كيب تاون ، وهى المجلة الأكثر ثباتا فى جنوب إفريقيا ، قام بتحرير الكتاب الهام فى سلسلة " بنجوين " عن " شعر الجنوب إفريقيا " فى عام ١٩٦٨ ، بالتعاون مع " آيس كريج " ، وهى أول سلسلة أدبية شاملة تجمع الشعر الجنوب إفريقيا فى الكثير من اللغات ، نشر جاك كوپ حديثا " الخصم " ضمن : مجموعة الكتاب المنشقين الذين يكتبون باللغة " الأفريكانية " ، تلك الجماعة التى ترسم خريطة بديلة ضد المؤسسة التى تقاوم هذا الأدب . يقيم حاليا قرب أوكسفورد .

إنجريد يونكر Ingrid Jonker (١٩٢٣ - ١٩٦٥)

ولدت فى الكيب لأسرة من الأوربيين المؤسسين فى جنوب إفريقيا ، وكانت أول مجموعاتها " هروب " قصائد باللغة الأفريكانية صدرت عام ١٩٥٣ ، ومجموعاتها الثانية " دخان ولون ذهبى " فى عام ١٩٦٣ ، مما زاد من أهميتها فى الواقع الثقافى وثبتها كصوت هام ومختلف فى الشعر الغنائى ، كانت أعمالها قوة دافعة كبيرة لحركة " الفهود الست " الأدبية ، التى تفرقت بشكل ما ، بعد وفاتها غرقا . ظهرت قصة " Die bok " أولا فى مجلة " التناقض " فى ديسمبر ١٩٦١ ،

وقد قامت المؤلفة بترجمتها إلى الإنجليزية بعنوان "The goat" ، وأكمل هذه الترجمة وراجعها وأعدّها للنشر في "لندن مجازين" "چاك كوپ" ، في ديسمبر ١٩٦٦ .

هينى اوكامپ Hennie Aucamp

ناقد وكاتب استعراضات غنائية cabaret writer ، ولد في الكيب ، ويحاضر عن التعليم في جامعة "ستيل إن بوش" ، نشر ثمانى مجموعات من القصص القصيرة باللغة الأفريكانية ، وقصة "حساء للمريضة" ، من ضمن مجموعة "ساعة الذروة" ، من المجلد الثانى من أعماله الذى صدر عام ١٩٦٧ ، وهو من أنصار كتابة القصة القصيرة باللغة الأفريكانية ، يظهر إنجازاه في توظيف التكنيك التقليدى والكلام المباشر مع الوضع في الاعتبار خصوصية التجربة الجنوب إفريقية التى لا مثيل لها في اللغة ، هذه الترجمة عن مختارات من أعماله تحمل اسم "زيارات البيت" ١٩٨٣ .

يان رابى Jan Rabie (١٩٢٠)

ولد في الكيب واستقر بها بعد سنوات عديدة من الإقامة في "باريس وكريت" . كاتب قصة قصيرة ، وروائى ، وعضوا بارزاً في جماعة "الفهود الست" الخاصة بكتاب النثر باللغة الأفريكانية ، الذين أحدثوا تجديدًا في الستينيات ، وكان من بينهم "إيثان ليروكس" ، "أندريه ب. برنيك" ، نشر "يان رابى" رواية "رجل معزول a man apart" التى ظهرت عام ١٩٦٩ ، حيث كان قد ترجمها في ١٩٦٦ ، وهى عمل تاريخى يعالج موضوعات التحيز العنصرى والتواجد مع الآخر ، يعتبر يان رابى من أكثر الكتاب البيض في الثقافة الأفريكانية موهبة في تجريد المعانى والتعبيرات حول قيمة وفائدة الآخر ، وهو قد سعى لتدويل اهتمامات الأدب الأفريكانى ، اختيرت قصة "جفاف" ، التى يرجع تاريخها إلى الستينيات ، ضمن المناهج الدراسية .

كيزى موتسيسى Casey "Kid" Motsisi (١٩٣١ – ١٩٧٧)

تعلم بمدرسة "ماديبان" الثانوية في المنطقة الغربية من جوهانسبرج ، ثم درس بكلية بريتوريا المتوسطة ؛ وعمل ضمن هيئة تحرير مجلة "الطبول"

منذ أواخر الخمسينات حتى وفاته ، حيث أمتع أعداداً هائلة من القراء بعموده " **on the beat** " ، ذلك العمود الذي خلق عملية روائية تخيلية لما يسمى بـ " ثقافة الحانة " ، ويعتبر موتسييسى من جيل " نات ناكاسا " ، و " كان ثيمبا " ، اللذين ماتا فى المنفى ، وقد ظهر "موتسييسى" متفرداً ضمن كتاب "حركة النهضة الأدبية" "بصوفيا تاون" ، "جوهانسبرج" فى الخمسينات ، تلك الحركة التى شملت كتاباً مثل "إيزاكيا مافليل" ، "وتود ماتشيكزا" ، "ريتشارد ريف" ، "وچيمس ماثيوز" ، قصة " الولد " إحدى قصصه القصيرة القليلة .

ريتشارد ريف Richard Rive (١٩٣١)

ولد فى "كيب تاون" ، ودرس فى جامعتها ، ثم جامعة أوكسفورد ، كانت أطروحته للدكتوراه عن حياة وأعمال " شرينر" ، "ريف" أيضاً رجل تعليم ، وناقد ، ذاعت شهرة قصصه المبكرة " أغنيات إفريقية " صدرت عام ١٩٦٣ ، وربما كانت قصة " المقعد " من أهم أعماله التى حازت على شهرة واسعة بين القراء . ، وكانت قد كتبت هذه القصة بشكل خاص استجابة لحملة جنوب إفريقيا لمعارضة وتحدى القوانين غير العادلة ، تلك الحملة التى استمرت من عام ١٩٥٠ - ١٩٥٢ ، "ريف" ، كاتب وناشر المجموعة الأدبية " الشجر الإفريقى الحديث " التى صدرت فى ١٩٤٦ ، قد أرسى دعائم الكتابة الإفريقية بالتزام من مع كتابات مدرسة " الطبول " التى تضم "مافليل" ، و "موتسييسى" ، وكذلك مع كتابات " كُتاب المنفى " فى الستينيات مثل: "أليكس لاجوما" ، "لويس ناكوسى" ، "ونات ناكاسا" ، "ويلوك موريسان" ، هذا وقد خضعت روايته "الطوارئ" ، التى صدرت عام ١٩٤٩ ، للحظر والمنع من التداول فى جنوب إفريقيا لفترة طويلة . نشر له حديثاً سيرة ذاتية تحت عنوان " الكتابة السوداء " فى ١٩٨١ .

إيزاكيا مافليل Es'kia (Ezekiel) Mphahlele (١٩١٩)

نشر مجموعته الأولى من القصص القصيرة عام ١٩٤٧ ، ثم نفى إلى "نيجيريا" فى ١٩٥٧ ، وهناك نشر سيرته الذاتية عن حياته المبكرة تحت عنوان " فى الشارع الثانى " عام ١٩٥٩ ، محرر كتاب "بنجوين" الكتابة الإفريقية اليوم" الذى صدر عام ١٩٦٧ ، وهو الكتاب الذى سلط الضوء على الكثير من الكتابات الإفريقية الجديدة ، وهو صاحب دراسة " التخيل الإفريقى " الذى صدر عام ١٩٦٢ ، تلك الدراسة

التي تم تنقيحها وإعادة طبعها ١٩٧٤ ، وهي دراسة مستفيضة واسعة للأدب الإفريقي ، وعمل نقدي معياري . سلسلة أسفاره وتجوالة لعشرين عاما في المنفى - بما فيها التدريس في "باريس" ، "نيروبي" ، "دنفير" ، "لوزاكا" ، "فيلادلفيا" - وهذه الأسفار مؤرخة ومسجلة بوضوح في أعماله . تعتبر روايات " مافليل " " التائهون " أو " المتجولون " Wanderers ١٩٧١ ، و " تشيرونندو " Chirundu ١٩٧٩ ، و " المنفيون والقادمون من الوطن " Exiles And Homecoming ١٩٨٣ ، سجلا وثائقيا في شكل سيرة ذاتية . يعمل " مافليو " حاليا أستاذا للأدب الإفريقي في جنوب إفريقيا ، بجامعة " ويتوتر سرائند " وقد أخذ قصته الطويلة " السيدة بلوم " عن عمل له بعنوان " عند الناصية ب " ، In corner B ، التي نشرتها دار " إيست أفريكان " في ١٩٦٧ ، وهي القصة التي تحتوى كل الموضوعات والاهتمامات التي ميزت أدب الستينيات في جنوب إفريقيا .

بيسى هيد Bessie Head (١٩٤٧ - ١٩٨٦)

ولدت في " بيترمارتيز برج " بناتال ، ونفيت من جنوب إفريقيا فعاشت في "بتسوانا" منذ الستينيات ، وشيدت لها بيتاً في " سيرو " حيث أرخت لهذه القرية في عملها " قرية الرياح والمطر " عام ١٩٨١ . تهتم رواياتها الثلاث " عندما تتجمع السحب الممطرة " (١٩٦٩) ، ورواية " مارو " سنة ١٩٧١ ورواية " A question of power " الصادرة عام ١٩٧٤ بتجربة النفي والاغتراب ؛ وتعتبر " هيد " من أولى الكاتبات اللاتي فسرن الطبيعة الداخلية للمرأة السوداء ، أما المجموعة القصصية " جامع الكنوز - حكايات أخرى من بتسوانا " والتي صدرت ١٩٧٧ فهي سلسلة مترابطة من القصص القصيرة ، يشبه موضوعها موضوع قصة " العشاق " ، وهي واحدة من القصص الذي لم يتم نشرها من قبل .

روز موس Rose Moss

ولدت وتلقت تعليمها في جنوب إفريقيا ، ثم هاجرت إلى الولايات المتحدة في ١٩٦١ . فازت بجائزة " الكاتب Quill " المخصصة للقصة عن قصتها " المنفى " عام ١٩٧١ ، والتي نشرت لأول مرة في " ماستشوستس ريفيو " ، وفيما بعد نشرت في " The Purple Renoster " في " جوهانسبرج " . للكاتبة روايتان منشورتان هما : " اجتماع شمل العائلة " ١٩٧٤ ، و " الإرهابي " ١٩٧٩ ، والأخيرة عرفت في جنوب إفريقيا بعنوان " المعلم " . تدرس " الكاتبة الإبداعية " في كلية " ويلزلي " في ماستشوستس .

مبيولو مزامين Mbulelo Mzamane (١٩٤٨)

ولد فى "إيست راند" لأب قسيس انجليكانى وأم ممرضة ، حاضراً بالإنجليزية فى ليسوتو ، ويتسوانا ونيجيريا . حصل على الدكتوراه فى " شعر جنوب إفريقيا فى "شيفلد" ، روايته الأولى هى " أطفال سويتو " صدرت ١٩٨٢ ، ومنعت من التداول فى جنوب إفريقيا ، تنبه " مزامين " لأنواع الكتابة الأدبية السوداء فى الجنوب الإفريقى ، خاصة أنواعها القصيرة ، ويتضح هذا من العنوان الساخر لقصة " ابن عمى يأتى الى جوبرج " ، تلك القصة التى يحاكى فيها أساليب كوميدى السود . وهذه القصة هى القصة الأولى فى مجموعة باسم " مزالا " التى صدرت فى ١٩٨١ .

أحمد إيسوب Ahmed Essop (١٩٣١)

ولد فى جوهانسبرج ، يعمل مدرسا ، وهوكاتب ساخر / هجاء ، أولى مجموعاته فى القصة القصيرة هى " الحاج وقصص أخرى " التى صدرت ١٩٧٨ ، والتى أخذت منها قصة " أختان " ، والمجموعة تؤرخ للدمار والالتهام الوشيك الذى أصاب الحياة فى "فوردسبرج - فريدراب" ، والتعقيدات الناشئة عن تعدد الأعراق فى "جوهانسبرج" . نشر له منذ وقت قريب روايتان هما ، " زيارة " عام ١٩٨٠ ، و "الإمبراطور " ١٩٨٠ .

أكمات دنجور Achmat Dangor (١٩٤٨)

ولد وتلقى تعليمه فى "جوهانسبرج" ، وعمل فى شركة لمستحضرات التجميل . ظهرت مجموعته الشعرية الأولى " بولدوزر " فى ١٩٨٣ ، قصة " علاقة غريبة " - تدور فى منطقة "دورن فونتين" فى "جوهانسبرج" وهى منطقة مهجورة الآن تقريبا - ضمن مجموعته القصصية " فى انتظار ليللى " .

كين لينجا Kan Lipenga

ولد فى مولانج ، (بملاوى) الجنوبية ، حيث التحق بجامعة وأنهاى دراسته عام ١٩٧٦ ؛ يقوم حالياً بتدريس الأدب واللغة فى كلية "تشانسلور" فى " زومبا " ، ظهرت مجموعته القصصية المتميزة " waiting for turn " فى " سلسلة الكتاب المالىين " عام ١٩٨١ ، وهى تدور حول الأساطير والحكايات الخرافية ، والتاريخ

المالى فى صوره فيما قبل الاحتكاك الكولونىالى وطور الاستقلال (حيث كانت تدعى نيازالاند) مياجاوى، قصة" الطريق إلى " هى إحدى قصص هذه المجموعة ، وحتى تعتبر سيرة ذاتية فذة ، استعمل فيها ضمير المتكلم ، وتتعامل مع الموقف القروى من العمل .

دامبودزو ماريكورا Dambudzo Marechera (١٩٥٢ – ١٩٨٧)

نشأ فى "زيمبابوى" ، وطرده من جامعة "روديسيا" ، ثم تابع دراسته مستمعا فى كلية أكسفورد الجديدة ، صدرت مجموعته القصصية الأولى تحت عنوان " بيت الجوع " ، وقد اتخذت المجموعة عنوان القصة الطويلة المنشورة بها ، وقصة " الوقع البطيء لقدميه" هى إحدى قصص هذه المجموعة التى نشرت عام ١٩٧٨ ، فازت تلك المجموعة بجائزة " الجارديان " للقصة القصيرة، نشر له أيضا رواية " شمس سوداء" فى عام ١٩٨٠ .

ألن باتون Alan Paton (١٩٠٣ – ١٩٨٨)

ولد فى " بياتريس بوردج " ، والذى تعتبر روايته **Cry the beloved country**، ربما هى العمل الوحيد الأكثر شهرة فى الإنتاج الروائى فى منطقة إفريقيا الجنوبية ، حيث قارنت بين علاقات العائلة البيضاء والعائلة السوداء فى إطار تراجيدى ، تلتها روايته " **Too late the phalarope** – طائر البحر تأخر كثيرا " فى ١٩٥٣ ، تدور حول موضوع المحرمات الجنسية بين الأعراق، وروايته " أه ، لكن وطنك جميل **Ah, but your land is beautiful** " التى صدرت ١٩٨١ ، هى تلك الرواية التى أقامت جسراً فوق التاريخ الاجتماعى للتفرقة العنصرية ، وقد وضعت هذه الرواية وروايته الأولى ، فى مصاف الكتاب الليبراليين ، قصة " سطوع الشمس فى شارع تربيزوند " ، كتبت فى الستينيات عندما كان باتون رئيسا للحزب الليبرالى الجنوب إفريقى ، وهو الحزب المحظور حاليا ، حيث نشرت هذه القصة ١٩٧٠ ، وهى تعكس اهتماماً متزايداً فى الكتابة الإفريقية ، وموضوعها يدور حول قضية الاعتقال بدون محاكمة ، للكاتب قصص قصيرة أخرى فى مجموعة " ديبى ، عودى للبيت " صدرت ١٩٦١ ، ومجموعة " الطرق على الباب " فى ١٩٧٥ ، وسيرته الذاتية تحت عنوان " نحو الجبال " الصادرة ١٩٨٠ .

شيللا روبرتس Sheila Robertts

ولدت فى "جوهانسبرج" أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهى شاعرة ومحاضرة فى الآداب الإفريقية ، وأدب الكومنولث بجامعة "ميتشجان" ، صدر لها مجموعتان قصصيتان هما " بعيداً عن متعة الحياة " فى ١٩٧٥ ، والثانية " هذا الوقت من العام " فى ١٩٨٣ ، كما أن لها ثلاث روايات أخرى ، ظهرت القصة القصيرة " دكان الجزار " فى سلسلة " الكلاسيكية الجديدة " عام ١٩٧٨ .

نادين جورديمر Nadine Gordimer (١٩٢٢)

ولدت لأبوين يهوديين مهاجرين فى منطقة "إيست راند" ، ثم أقامت فى "جوهانسبرج" ، نشرت مجموعتها القصصية الأولى فى جنوب إفريقيا عام ١٩٤٩ ، كما نشرت روايتها الأولى " أيام الكذب " فى بريطانيا عام ١٩٥٣ ، ومنذ ذلك الحين توالى كتاباتها فى القصة القصيرة والرواية ، من رواياتها " ضيف شرف " (عن فترة ما قبل الاستقلال فى بلد إفريقسى) ، ورواية " ابنة برجر " فى ١٩٧٩ (عن إضفاء الصبغة السياسية على العلاقات الإنسانية المعاصرة من خلال المعارضة الراديكالية فى الأسرة الإفريقية) ، ومجموعتها من القصص المختارة " مكان لا مثيل له " عام ١٩٧٥ ، مستخرجة من الأجزاء الخمس السابق نشرها . قصصها الطويلة تتضمن " ناس يوليو " ١٩٨١ ، و " شىء ما بالخارج " ١٩٨٤ ، وهى التى صارت عنواناً لكل المجموعة ، أخذت منها قصة " موعد مع النصر " ، لقد أصبح تحليل "جورديمر" للمجتمع فى جنوب إفريقيا محكاً لاهتمامات القصة القصيرة فى شبه القارة ، مما جعل منها واحدة من أكثر الشخصيات المؤثرة فى مجال الفن ، حررت "نادين" مع "يونيل ابراهامز" كتاب "بنجوين" " الكتابة فى جنوب إفريقيا اليوم " وذلك عام ١٩٧٠ ، حصلت على جائزة نوبل عام ١٩٩١ فى الآداب .

إلزا جوبيرت Elza Goubert (١٩٢٢)

ولدت فى "الكيب" ، ولها عدة روايات باللغة الأفريكانية . قدمت كثيراً من المحاضرات المصورة عن رحلاتها إلى انجولا ، وجزر المحيط الهندى ، نشرت عام ١٩٧٨ الرواية الوثائقية "Die Swerfjare van poppie Nogen" التى تحكى عن قصة خادمة منزل سوداء وعشيرتها تلك الرواية لم يكن يتوقع لها

النجاح ، إلا أنها سرعان ما أصبحت الرواية الأكثر رواجاً في الأصل الأفريقي ، وحصلت على عدة جوائز كبرى في العام ذاته ، ترجمت المؤلفة تلك الرواية إلى الإنجليزية بعنوان "Poppie" ، وقد حازت على جائزة الجمعية الملكية للأدب في لندن ، وفيما بعد ترجمت على نطاق واسع ، أعدت تلك الرواية درامياً وموسيقياً في اللغتين الإنجليزية والأفريقية ، أما قصة "لبن" فهي إحدى قصص المجموعة التي تحمل الاسم ذاته وقد نشرت في عام ١٩٨٠ .

بيتر فيلهلم Peter Wilhelm (١٩٤٣)

صحفي ، وشاعر مقيم في "جوهانسبرج" ، نشرت مجموعته القصصية "ل . م . وقصص أخرى" في عام ١٩٧٥ ، تلتها رواية "الغابة السوداء" ١٩٧٧ ، ورواية "عند نهاية الحرب" في عام ١٩٨١ ، وهذا العنوان مأخوذ عن قصة طويلة له ، وهو شكل يعد "فيلهلم" من المخضرمين القلائل الذين يمارسونه ، وقد كتب أيضاً رواية الخيال العلمي للقراء من الشباب تحت عنوان "نهاية صيف" ، نشرت في ١٩٨٤ .